

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00853 1331



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

SITY

الجار

Muhammad, Muhammad Awd.
 El-Ridwan el-Sunati.

10644/10127-2
 10644

10644
 10644

02-B6063

10-12-02

SITY

الجا

بجزة النايف والترجمة والنشر

السُّودَانُ الشِّمَالِيُّ

سُكَّانُهُ وَقَبَائِلُهُ

تأليف

مُحَمَّدُ عَوْضُ مُحَمَّدٍ

الأستاذ بجامعة فؤاد الأول

مدير معهد الدراسات السودانية

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥١

DT

132

M8

1951

C-1

Handwritten circular stamp in the top right corner, likely a library or archival mark.

SITY

916-29

M 725

Mch.

916, 14

س.ع ٤٢

الجا

29690

مقدمة

كثيراً ما تكون الدراسات الطبيعية أقرب مثلاً ، وأبعد عن مواطن الزلل من الدراسات البشرية ؛ فإن حقائق الطبيعة مبسطة أمام العين ، نطالها وتراقبها ، ونقوم بقياس دقيق لمظاهرها المختلفة . وهي فوق ذلك بطيئة التحول من جيل إلى جيل بل ومن قرن إلى قرن ، إذا تركت لشأنها . وفوق ذلك فإن عناصر الطبيعة لا تهاجر ولا تنتقل ، ولا تتزوج ولا تختلط اختلاطاً يخفى معالمها الأصلية . أما الإنسان فهو قلب كثير الاضطراب ، لا يكاد يقر له قرار . والحقائق البشرية كثيراً ما يموزها التأويل السليم ، مهما أطلنا ملاحظاتها ومراقبتها ، وأكثرها مما لا يهتدى إليه إلا بواسطة الإنسان نفسه ، وهو كائن متمدد الألسنة والاهجات . مختلف الميول والنزعات ، ليس من السهل أن نستخرج دقائق نفسه وأن نستجلى مختلف شئونه ، شديد الإحساس والاعتزاز بنفسه ، قلما تعنيه الحقيقة إلا بقدر ما ترفع من شأنه ، وتطفيء جذوة زهوه وغروره .

وفوق ذلك فإن للإنسان تاريخاً ، بعضه مدون ، وأكثره غير مدون . ولا بد من استجلاء حقائقه كلها ، ما ظهر منها وما بطن ، قبل أن ندل في الشئون البشرية بحكم بعيد عن احتمال الخطأ . أما ظاهرات الطبيعة فقلما يعيننا تاريخها ، وأكثر ما يهمننا تسجيل حقائقها كما تبدو للباحثين اليوم . حتى المسائل الجيولوجية ، وإن عنت بتسجيل ظاهرات ذات نشأة قديمة ، فإن الشواهد عليها قائمة ملموسة في الوقت الحاضر .

سقت هذه العبارات تنبيهاً للقارىء إلى ما يكتنف الدراسات البشرية من الصعوبات واعتذاراً من أننا في الصفحات التالية كثيراً ما نضطر إلى الامتناع عن الإدلاء بحكم قاطع في بعض المسائل ، حينما تموزنا الأدلة التي تقضى بمثل هذا الحكم .

ولعل في هذه الاعتبارات ما يفسر للقارى أيضاً أنه قد مضى ما يزيد على العشرين عاماً ، منذ أخرجت كتاب نهر النيل للمرة الأولى ، وضمته شرح الظواهر الطبيعية للنهر . وكانت تبنى في ذلك الوقت أن أشقعه بكتاب عن سكان حوض النيل وسلالاتهم وقبائلهم ، وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولذلك وصفت الكتاب في الطبعة الأولى بأنه القسم الأول : الظواهر الطبيعية ، أملاً في أن يتلوه الجزء الثانى عن الظواهر البشرية .

غير أنى لم ألبث أن رأيت أن الموضوع أوسع وأعمق من أن يوصف بأنه الجزء الثانى من كتاب نهر النيل ، وقد راعيت ذلك في الطبعة الثانية من ذلك الكتاب فلم أصفه بأنه الجزء الأول ، بل جعلته كتاباً مستقلاً عن الجغرافيا الطبيعية لنهر النيل . على أن أسمى للقيام بالدراسات البشرية بقدر ما يتسع له الجهد والوقت ، وأن أنشر ما أستطيع نشره عنها في مؤلف مستقل .

وقد أتاح لى عملي بمعهد الدراسات السودانية الفرصة اللازمة للاطلاع والتفكير كما أتاح لى السفر والاتصال بأصدقائى من السودانيين ومن رجال الإدارة فى السودان فرصاً أخرى لتحقيق كثير من المسائل . ولولا هذه الظروف المختلفة والمساعدات القيمة لما أمكننى تحقيق أمنيتى القديمة بأن أعالج الدراسات البشرية ، كما سبقت لى معالجة الظواهر الطبيعية .

ويرى القارى أنى لم أعالج فى هذا الكتاب الدراسات البشرية فى حوض النيل كله ، كما فعلت فى كتاب نهر النيل من ناحية الدراسات الطبيعية ؛ بل اقتصرت هنا على السودان وحده ، بل وعلى السودان الشمالى دون الجنوبى ، وذلك لأن الدراسات البشرية فى حوض النيل أوسع وأعمق من أن يستوعبها مؤلف علمى واحد ، اللهم إلا إذا عالج الموضوع معالجة موجزة لا تشفى غلة طالب العلم . والتميز بين السودان الشمالى والجنوبى شئ معروف لأهل السودان ولن يدرسون جغرافية حوض النيل . وقد أوضحت فى الفصل الأول المقصود من هذا التمييز . وحسبى هنا أن أشير إلى أمرين أولهما : أن السودان الشمالى هو فى الواقع السودان الأصلى الذى عرفه التاريخ منذ قرون عديدة ؛ أما الإقليم الذى يوصف

SITY

الج

بالسودان الجنوبي ، وهو لا يتجاوز تلك مساحة السودان كما نعرفه الآن ؛ فلم يعرف العالم عنه شيئاً إلا بعد أن كشف رجب محمد علي عن أعالي النيل ، وبعد أن أتم إسماعيل عمل محمد علي بأن ضم الأقطار الجنوبية إلى السودان ، فظهر السودان للمرة الأولى في التاريخ قطعاً موحداً بشقيه الجنوبي ، الشمالي . ولا تكاد حدوده اليوم أن تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه من قبل .

ومع أن السودان الشمالي هو القطر الأصلي ، الذي اتسمت رقعته حتى شمل الجهات الجنوبية ، فقد لقي السودان الجنوبي من علماء الدراسات الشرية عناية كبيرة لم يطرع عليها السودان الشمالي . وسبب هذه الدراسات أمكن للاستاذ سلحمان أن يشر كتابه المشهور عن قبائل السودان الجنوبي .^(١) وليس في أيدي طلاب الدراسات الشرية كتاب عن السودان الشمالي بصارع كتاب سلحمان عن سكان الجنوب ، بل ليس هنالك شيء يبدو منه ، بل كل ما لدينا دراسات متفرقة مبعثرة في بعض المجلات وعلى الأخص في مجلة « السودان في مذكرات ومدونات »^(٢) ، وفي كتب الرحالة وبعض الإشارات الواردة في كتب المؤرخين أمثال القرزى والسمودي . وأكثر المؤلفين لتلك المقالات من المهواة أو من رجال الإدارة وكثيراً ما تموزم الدراسة الأساسية العلمية : ولذلك كانت مقالاتهم بمثابة وثائق ، يستفيد بها المؤلف بعد أن يستبعد الزيد ويستبقى ما يرفع الناس . وهنالك كتاب واحد يمحور لنا استشاؤه من هذا الوصف ، وهو كتاب الأستاذ السير هارولد ما كايكل عن تاريخ العرب في السودان في مجلدين^(٣) ، كما أن له كتاباً آخر مفيداً لولا قدم عهده عن القمائل العربية في أواسط وشمالي كردوفان . غير أن كلا الكتابين - وبوجه خاص الكتاب الأول - يطلب عليهما الأسلوب التاريخي والاعتماد على الوثائق ، التي ليس دائماً فوق مستوى الشك . ومع أني استعنت كثيراً من بحوث ما كايكل ، فإني كثيراً ما اختلفت معه في تأويل بعض الظواهر وتفسيرها . كما أن معالجته التاريخية لا تظني ، علة طالب الدراسات الشرية .

(١) Pagan Tribes of the Nilotic Sudan (1928)

(٢) Sudan Notes and Records وهي التي شيرلبيها دائماً بالأحرف S.N.R. ثلاثة

(٣) Macmichael, Harold (sir) A: History of the Arabs in the Sudan (1922)

أما المقالات التي اشتملت عليها مجلة S.N.R. فملئها أحسن المراجع ، بل هي أحياناً المرحم الوحيد لبعض القبائل . وإذا كنا أحياناً لا نستطيع أن نقبل التأويل الفلسفي الذي قد يتورط فيه بعض الكتاب ، فإننا بلا شك نعتيد فائدة كبيرة من الحقائق والملاحظات التي دونها كل منهم تدوياً دقيقاً . وليس في وسع كاتب واحد أن يلم إلماً شخصياً بجميع قبائل السودان الشمال ، لأن دراسة مجموعة واحدة من تلك القبائل قد تستغرق الشهور بل الأعوام . ولذلك لم يكن بد لمن يتعرض لكتاب شامل لجميع سكان السودان الشمال أن يمتد كثيراً على ما قام به أولئك الكتاب من دراسات . ولئن تعاونت أحياناً في الدقة والحوطة وأعوزها في كثير من الأحيان الأسلوب العلمي ، فإنها عن كل حال مما لا يستغنى عنه الباحث في هذا الموضوع .

وقد حاولت أن يكون هذا الكتاب شاملاً لجميع جهات السودان الشمال ، ولقبائله على كثرتها وتعددتها . ومع ذلك فإن من المحتمل ، بل وبشك أن يكون من المؤكد ، أن سيكشف القراء - وعلى الأخص من إخواني السودانيين - عن بعض النقص أو القصور . ولي وطيد الأمل - بعد ما لقيته منهم من المساعدات القيمة وقت إعداد الكتب - أن يتابعوا زويدي بمقترحاتهم وآرائهم السديدة ، عسى أن تنجح للكتاب طبعة ثانية تكون أمدد عن النقص من الأولى .

وكذلك حاولت ألا أكتفي بوصف القبائل ومواطنها ، بل رأيت من الواجب أن أرسم صورة بوضوح كيف رلت كل قبيلة واستقرت في مواطنها الحالية ، وكيف انتشرت المجموعات الكبيرة مثل المجموعة العمامية في الأوطان التي تحتلها اليوم . وهذه كانت محاولات تعرض للمرة الأولى فيما أعلم . ولذلك أرجو أن أتمتع برأي إخواني الجغرافيين والمؤرخين فيها .

وفي السودان ، كما يعلم القراء ، قبائل ليسب العربية لغتها الأصلية ، مثل قبائل النجة ، وقبائل دارفور ؛ وذلك وردت أسماء كثيرة للبلدان ولقبائل والأفراد ، ليس من السهل أن يتفق الناس على كتابتها بالعربية . فقبيلة المساليط مثلاً في إقليم دارفور كتبها الشيخ عمر التومسي بهذه الصورة وأوردها ما كما بكل بالصاد والطاء

ومع ذلك فإن كثيراً من السودانيين يكتبونها الساليت ، بالسین والتاء . ومثال آخر لأحد أجداد المهندوه اسمه ويلالى ، يكتب أحياناً على هذه الصورة ، وأحياناً يكتب وايلالى ، وأكدي البمص أنه يجب أن يكتب « وائل على » أى فى صيغة عربية . ولذلك لم يكن بد من أن يختار الكاتب ما يراه أنسب فى نظره . وأنا واثق أن بعض القراء سيجد فى اختيارى ما لا يتفق مع وجهة نظره ، ورحأى إلا أحرم من قد إخوانى السودانيين فى هذه الناحية أيضاً .

ويرى القارىء مما تقدم أتى مدين للكثير من أصدقائى السودانيين بما زودونى به من المقترحات والآراء . وليس من السهل أن أذكرهم هنا بالاسم ، خوفاً من أن تخوننى الذاكرة . ولهذا أكتفى بشكرهم من أعماق نفسى ، كما أتى أشكر لوزارة الزراعة المصرية تفصلها بتزويدى بمص الصور الخاصة بإقليم حل عليه ، ولإدارة النشر فى السودان للسماح لى بنشر عدد آخر من الصور .

كما لا يسعنى إلا أن أنوه بقيام الأستاذ محمد رباح من حريجي معهد الدراسات السودانية برسم الخرائط ، وعمل المهرس الأبجدى للكتاب ، ومساعدته لمؤلف فى تصحيح التجارب .

محمد عوض محمد

أول ذى الحجة سنة ١٣٧٠

٣ سبتمبر سنة ١٩٥١

SITY

الج

فصول الكتاب

صفحة	
٢	تصدير
١	الفصل الأول : تمهيد عام
٢٢	» الثاني : البعجه (البجاء)
٣٨	» الثالث : البعجه — الحياة الاجتماعية
٦٢	» الرابع : البشاريون
٨٩	» الخامس : الأمرار
١٠٦	» السادس : الهدندوه
١٢٥	» السابع : بنى عامر
١٤٣	» الثامن : بعض القبائل العربية التي جاورت البعجه
١٥٩	» التاسع : الجمليون
٢٠٨	» العاشر : قبائل جهينة — ١ —
٢٢٤	» الحادى عشر : قبائل جهينة — ٢ —
٢٥١	» الثانى عشر : تممكه الصبح وسلطنة دارفور
٢٨٤	» الثالث عشر : المويبون
٣٠٧	الفهرس لأحدى

فهرس الخرائط

الصفحة	الشكل
٢٥	١ السودان الشمالى الشرقى ...
٧٢	٢ رسم يوضح انتشار البشاريين من موطنهم الأصلي في جبل علبة إلى الشمال والجنوب ...
٨١	٣ القسم الشرقى من بشاريين أم على ...
٨٢	٤ القسم الغربى من بشاريين أم على ...
٨٣	٥ الجماعات البشارية الوسطى ..
٨٦	٦ البشاريون في إقليم الطبره ...
٩٥	٧ أقسام الأسرار ...
١١٢	٨ أقسام المنددوه
١٢٩	٩ توزيع اللغات في أوتريا ..
١٤١	١٠ عشائر وبدنات بنى عامر ...
١٤٥	١١ هرات الكواهلة ...
١٤٩	١٢ بعض قبائل النيل الأبيض ...
١٦٧	١٣ محاولة لإيضاح المصدر الأول وطرق انتشار القبائل الجعلية في السودان ...
٢٠١	١٤ المجموعات الرئيسية لسكان السودان الشمالى ...
٢٣٠	١٥ توزيع القدرة ..
٢٥٥	١٦ توزيع القبائل في أواسط الجزيرة وجنوبها ...
٢٥٩	١٧ نمكة تقلى والتوغل العربى في جبال النوبا ...
٢٦٨	١٨ توزيع القبائل في دارفور ..
٣٠١	١٩ توزيع المجموعات النوبية ..

فهرس الصور

اللوحة الأولى :

فوق : مطر لجبل عله وللمظاهر النسائية في بسن الأودية ، وقد كشفت الثعيرة عن جذور
شجر المخطيب
تحت : شلال ينصب من أحد حواس حل عله

اللوحة الثانية :

فوق : مرسى حلايب من البحر
تحت : حائل البحر الأحمر في أوطان الأمرار

اللوحة الثالثة :

فوق : أحد الأمرار في ربه أخرى
تحت : صورة أخرى لأحد الأمرار

اللوحة الرابعة :

فوق : بسن الهندوه في رقصة حرية
تحت : أحد شباب الهندوه

اللوحة الخامسة :

فوق : جماعة من الشقيقة البدو
تحت : صورتان لرجل من الحساية

اللوحة السادسة :

فوق : ناطر قسلة اعصابي الشح إبراهيم بك فرح
تحت : ناطر قسلة لروح الشح إبراهيم موسى مادي

اللوحة السابعة :

فوق : شارع في بلدة باراشمال الأ من
تحت : صورة نثن الحيرن ثمن الأيس

اللوحة الثامنة :

فوق : شجر التبلدى المنتشر بكثرة في لمرج كردوفان
تحت : صورة لسيدة من كرائم القارة حاسة ميايشه المودج

اللوحة التاسعة :

فوق : صورة لسلطان مايرنو وبعس حاشيته
تحت : صورة لرجل من زعماء البدايات

اللوحة العاشرة :

فوق : مطر النيل عند بلدة الخندق وصورة لجماعة من المحس
تحت : منظر لبعض جنادل الشلال الثاني

SITY

الج

السودان الشمالى

SITY

الج

الفصل الأول

تمهيد عام

١ — سكان السودان

موقع السودان في الجزء الأوسط من حوض النيل ، يحمله من ناحية الدراسات
الجلسية أكثر إثارة للاهتمام العلمي من أى إقليم آخر ، في جنوبه أو شماله .
أو شرقه أو غربه . فالأقطار الجنوبية واقعة كلها تقريباً ، في دحل طاق السلاسل
الزنجية . اللهم إلا في مواقع قليلة نمرت إليها بعض جماعات فوقارية ، ولن تلت
حتى تندمج في سائر السكان ، وتضيع وسط المحيط البحرى الكسر
وإلى الشمال من السودان . علمت العاصر القوقازية ممد آلاف السنين . ولم
تستطع الجماعات الزنجية في أى عصر من العصور أن تصل بعضها إلى النصف الشمالى
من حوض النيل .

وإلى الشرق قائم تأثيرت بالمحركات الحامية ، وعلم عليها ثقافتها وعاداتها .
وإلى الشرق أيضاً الحسبة الحديثة ذات الصفات الفريدة المقطعة المطير في انقارة
الأفريقية .

وإلى غرب السودان الصحراء الليبية ، تعيش فيها جماعات ذات صفات خاصة
مثل التبو ، والبربر الذين لهم لغاتهم الخاصة ، والعرب الأقباء الحاصون ، والبربر
المستعربون .

وفي الجنوب الغربي متصل حدود السودان بالكنجوى لبحيكية ، وأعلى النيل
بأعلى نهر أويلة : وهما ميدان خاص ستأثر به جماعات متشابهة تحتل أعلى العرال
وأعلى الكنجوى .

وفي الجنوب الشرقى من السودان : جماعات اصلقوا عليها اسم أنصاف الحاميين ،

استأثروا بمساحة من الأرض تمتد في شرق أفريقية حول الأخدود الأعظم وتمتد إلى داخل السودان .

وصفة القول أن حول السودان من جميع النواحي أقالمة لكل منها ميراث مفرد بها ، وسادة سلالات تميزه عن غيره ، ولكن لكل من هذه الأقاليم شعب وفروع تتوغل داخل السودان ، وتحمل منه ميدان وسفناً تمثل تلك السلالات . وفي ذلك سلالات ومجموعات حسية بهديها ، وكان هو ميدان الأكبر لها ؛ مثل الجماعات النيلية ، والبجة وغيرهم .

• استطاع أن تتوالى على سبيل التعميم ، إن السودان تنازعه السلالات الزنجية من الجنوب و قوقارية من الشمال . وفي خط العرض الثاني عشر الشمالي يمثل على وجه التقريب ، خط التقسيم بين أحياء إلى على عيب خمس الزحى من جهة ، والمحطات التي يسودها خمس لقوهرى من جهة أخرى . غير أن هذه العنارة — وإن كانت لا تأس بها على سبيل الإبحار والتعميم — فإنها لا تميز تعبيراً صادقاً عن تنوع الكثرة في السلالات الزنجية وقوقارية وثقافات مختلفة التي يعتار بها كل منها ، ومبلغ التوغل لكل من هذه السلالات ، وأهمية كل منها .

٢ — خط العرض الثاني عشر

وليس خط العرض الثاني عشر خطاً فاصلاً بمعنى الصحيح . فإن قننل المقارة أى لائنك في عمره تب يعبر أكثرها جنوب هذا الخط ؛ وإذا كان لهذا التحديد معنى في تعمق بآهري دانه ، فإن الشفوذ واضح إذا ابتعدنا عن النهر ، وعلى الأخص في أحياء العربية . ومع ذلك فقد أصبح من الأمور المصطلح عليها في السودان أن يمتد خط العرض الثاني عشر هو الحد بين السودان الجنوبي والشمالي . ولذلك جعل هذا خط هو الحد الشمالي لـ « أعلى اسير » التي عاصمتها ملاكال (على خط عرض ٩.٣٠) وأصبح لهذا التحديد صفة حكومية رسمية . واعتبارات تتصل بالسياسة التي تتبعها الحكومة نحو الجنوب والشمال ؛ وأهم عنصر في هذه السياسة الحرص على عدم تسرب الثقافة العربية والإسلامية نحو الجنوب ، وفتح

الحال للهيئات التشريعية للانتشار في الجنوب ، مع تمركزها في الشمال .
وأقصى ما يقال في هذا الحد من الشمال والجنوب ، هو كد كراما من قبل ،
أن العناصر القوقازية تملك في شمالها والريحية في جنوبها . وهذا الوضع الشرقي
يستند إلى ظروف طبيعية ، وهي ترجع إلى أن السلالات الريحية قد انتشرت من
أقاليم السفلى ذات المطر الغزير والحشائش الطويلة . واحط الثاني عشر ذو الهدي
الشمال الذي تصل إليه تلك الحشائش ، وتليه إلى الشمال الحشائش الفقيرة نسبياً ،
والسفانا الشوكية حتى ينتهي إلى لاهيم الشبهية بالصحرارية ثم الصحراوية .

وطريق العناصر القوقازية على عكس ذلك . أكثره من الشمال ، وأسلوب
المعيشة ، ووسائل النقل عن هذا الطريق قد وضعت صيغة الأقطار التي سلكتها
تلك العناصر ، ولذلك لم يكن بد من أن تتغير بها ، تطاف إلى حدود السفلى العميقة .
اللهم إلا في الجهات الغربية ، السهلة المسطحة التي أمكن التوغل فيها إلى الجنوب .
وهناك جهات جديدة اعتصمت فيها بعض العناصر الريحية ، أو الشبهية
بالريحية كمال النوبا وحبال دارفور ، وقد ساعد ذلك على الحد من التوغل القوقازي
في تلك الجهات ، وإن لم يحل عاماً دون هذا التوغل في بعض مطهره الثقافية .

٣ — الاختلاط والامتزاج

طراً لتعدد الأقاليم الحسية في السودان ، وفي الأقطار المجاورة له . لم يكن
بد من أن يكون على حدود تلك الأقاليم ضروب متفاوتة من الاختلاط والامتزاج
بين السلالات من جهة ، وبين الثقافات المختلفة من جهة أخرى . ولم يساعد على
هذا الاختلاط مجرد التجاور الإقليمي ، بل ساعد عليه توجه خاص مهووه الأرض
وسهولة الاشتغال فيها ، وانتشار حرفة الرعي ، التي لا تقيد الناس تقييداً شديداً
بالأرض التي يعيشون عليها .

والاختلاط والامتزاج على صروب مختلفة ؛ ونقصد بالاختلاط اجتماع عناصر
مختلفة في جهة مشتركة مع احتفاظ كل منهم ببعض خصائصه . أما الامتزاج
فهو اندماج عنصرين مختلفين حتى يتألف منهما مركب جديد قائم بذاته .

ومن الاختلاط والامتزاج ما يتناول الصفات الحسدية أو ما يتناول الثقافات وحدها ، فيتأثر الناس بثقافة غير ثقافتهم ، مع بقاء دمايتهم على ما كانت عليه تقريباً . فالدسكاو والشيت الذين اعتنقوا الإسلام لم يغيرحوا بلدهم القوفرى إلى أى درجة بعيدة ، بل بقى دمايتهم البيلية على ما كانت عليه . ويعتبر الكماشى يمتون إلى أصل حامى بجاوى ، ومع ذلك قد امتزحوا امتزاحاً تاماً بالعناصر العربية . وسواء من النحة ، ولكيهم اقتسوا مة سامية بحكم مجاورتهم لمعسة الحبشة ، التى تسودها الثقافة السامية .

والمثل مصاهر الامتزاج والاختلاط وأكثرها وضوحاً هو ما نشأ عن تدخل العنصر الرحية فى القوقازية . وسببى أن تكون هذه الحالة أكثر وضوحاً فى الإقليم لأورط ، الذى تتجاور فيه سلاسل الرحية والقوقازية . ولذلك بات من شغدر أن يرسم خط يفصل بين مجموعتين فصلاً تاماً .

٤ — العناصر الرحية أقدم من القوقازية

وسكى نذكر حقيقة لأوصاح الأثروبولوجية فى السودان لابد ما أن يذكر دائماً أن حبس الرحى أقدم و أفريقية وبألتى فى السودان من العنصر القوقازية . وقد حل حوص البيل رماً مفتوحاً أمام احبس الرحى دور غيره من السلاسل ولأحاس .

ولابد ما أن يفرص أن الحبس الرحى لم يتوغل بعيداً فى السودان ، حتى قبل ظهور حبس قوفرى فى حوص البيل ، وذلك لأن الظروف التى أحاطت بالمجرات الرحية ، وقد كانت كها عن طريق باب المنذب ، فى زمن معرق فى القسم ، فدأرمت احبس الرحى ، عند انتقاله إلى القارة الأفريقية ، أن تتجه صوب الجنوب فقد كان الطريق نحو العرب تعرضه الهضمة الحبشة عمالكمها الوعرة ، والطريق نحو الشمال فى داة شاملى البحر الأحمر ، يختار محفصات ارتريا . وكانت تكشفها لمستفتمت ، بين الطريق إلى احبوس والحبوب الغربى بمهد سهل ، يفرى المهاجرين بسلوكه والانتشار فى أرجائه .

٥ - مصادر الحنس الزنجي

لهذا كان من الراجح أن الحنس الزنجي لم يبدأ انتشاره في حوض النيل إلا في مرحلة متأخرة من تاريخ هجرته داخل قاره لأفريقية . وليس من الغلو أن يقال إن جميع الهجرات الأولى للجنس الزنجي على مدى عشرات آلاف من السنين ، قد اتجهت كلها أو حلها صوب الجنوب ، وعمدت التجارة لأفريقية في هذا الاتجاه . وحسبنا دليلاً على ذلك أن انتشار البانتو ، الذين تتحدث فيهم آخر الهجرات الزنجية - أو شبهة زنجية - م مؤثر في السودان مطلقاً ، مع أنه قد أثر تأثيراً شديداً في سائر القارة لأفريقية جنوب خط الاستواء .

وقد سلك هجرات بانتو نفس طريق أن سلكتها العناصر الزنجية التي سبقها ، وكان انتشارها في صوبه غرباً متساوية ، لا شك أنها أحدثت اضطراباً في العناصر السابقة ، وقد كان من آثارها أن اندمج بعضها في أخوات لها ، وأصبح جزءاً منها - أو أثر لبعض الآخر - يتمثل في فائض حابده ، وربما دفع ذلك بعضها إلى مهاجرة إلى أعلى النيل ، وانتقال طوائف منها إلى السودان جنوب .

وهناك شواهد تدعو إلى الرجوع إلى هذه الوحدات زنجية القديمة المهجرة إلى أعلى النيل لم تكن كثيرة العدد ، ونعم هذه الشواهد ، ما رآه يوم من أن السودان الجنوبي بسوده الجماع إلى يطلق عليها اسم مجموعة سيلية Notes ، لأنها تحتل أقاليم تحاور نهر النيل وروافده من عرض لسادس جنوباً إلى الثاني عشر شمالاً . وهذه السلالات جمع الكتاب على أنها حديثة الهجرة إلى السودان ، ومتشابهة في صفاتها الجسدية شامهاً شديداً . لا بدع محالاً للشك بأن العناصر السابقة لها ، التي اندمجت فيها لم تكن كثيرة العدد إلى درجة تؤثر في شكل هؤلاء النيلييين وفي صفاتهم الطبيعية^(١) . فإن تشابه صفات النيلييين ، جنباً وحدوا ،

(١) النيلييون سلالة زنجية يحافظها عصر فوقارى ، وتنتشر بالقامة الصوبية والرأس الطويل ، أما السلالات السابقة لها في أعلى النيل ، وتتمثل في الجماعات التي تحاورها في بحر الغزال ، فإنهم أقصر قاماً ورأساً .

نصطرحه لأن تقرير واحد من أمريين : إما أن هذه السلالات قد قصت على العناصر الساهرة أو أنها منتصب واندحت فيها فإن كانت الأولى فلا بد أن هذه العناصر كانت من القلة بحيث سهل اسفل عليها واستغفل لها وإن كانت الثانية ، فإنها كانت من المنة بحيث لم تؤثر في الساعات الحدية للمبين وفي هذا ما يبرر القول بأن الانتشار القديم للعناصر الزنجية في السودان كان على نطاق ضيق .

٦ - مصادر العناصر القوقازية

مصادر القوقازية التي سكن السودان اليوم - وهذا القول ينطبق على مصر أيضاً - لم يتركها طاقاً حياً ، ولم تزل من ناحية واحدة أو مصدر واحد . ومع تسلم أن مصر مصدر الأثير للعناصر القوقازية في المصور التاريخية ، فإن هذا حقيقة أدنى لا يمكن إنكارها .

(١) - من ضمن حوى :

هو أن سلكه لدراب حميه ، ودفعت منه إلى قربية عن طريق معالاب مصر ، ومصدر مصر حمير إلى بلاد الصومال والحلا ، إلى إقليم بحيره روم ، وشرق ، ثم حركت الجماعات الهامة بأصاف الحاميين ، مثل السادة ، وركبوا من شاكلتهم ، وهاجر بعضها شمالاً بعد أن حفت مسطحات في - يوم رتبة حمويه ووجه إلى إقليم الواقع بين النيل والبحر الأحمر . وثبت من هذه القوم من جهة البحر إلى نفسه ، ودخل إلى بلاد النوبة وخط مصرى من هذا الطريق ، كما أن مصر بطريق مباشر من مصر إلى شرج ، شرقية من جنوب إلى شمال ، ولعلها في ذلك الوقت المتقدم كانت من حدة هي يوم

ومعروف أن المصريين القدماء كان لهم صلات قوية ببلاد نوب ، وهي في الأضراف الجنوبية من البحر الأحمر . وكانوا يدعونها بلاد الآلهة ، وكانوا حريصين

على بقاء الاتصال بينها وبين مصر ، وكذلك لاحظ سلحمان وجوه الشبه القوية بين المصريين القدماء وبين البجة^(١) .

(ب) الطريق الشرقى ، عبر البحر الأحمر :

والراجح أن الحاميين كانت وطنهم القديمة في الأطراف الجنوبية من الجزيرة العربية ، وإن لم يبق فيها منهم أحد اليوم ، ولذلك كانت محراتهم إلى إفريقية كلها من إقليم بوغا ، باب المدب .

أما السامون ، فقد امتلأت بهم الخربة العربية في الشمال والجنوب ، منذ زمن بعيد . ولا شك أن تجاورة البلاد العربية للبحر ، الشمال من القارة الإفريقية عامل عظيم الأثر في التكوين الحسى لسودان . فإن عبور البحر الأحمر في كل جزء من أجزائه لم يكن في يوم من الأيام ممراً صعباً . وكانت بلاد اليمن وما يليها إلى الجنوب والشمال مصدراً لمحرات عديدة أثرت تأثيراً بالغاً في الحضبة الحبشية وأعلى النيل الأزرق والسطره وبلاد أرتريا وسواحل السودان الشرقية .

وقد كانت المؤثرات السامية تدفق من الجزء الجنوبي لخربة العرب أكثر من تدفقها من الجزء الشمالى ، وذلك لوفرة السكان في بلاد اليمن من جهة ، ولصغر مساحة البحر من جهة ثانية ، ولبراعة السكان في الملاحة من جهة ثالثة .

ولكن ليس معنى هذا أن البحار لم يتصل اتصالاً مباشراً بالسودان ؛ فإن هذا الاتصال قد حدث وإن كان لم يبلغ مبلغاً عظيماً إلا في العهد الإسلامى .

(ج) الطريق الشمالى :

لا شك أن هذا كان أهم الطريق الذى سلكتها العناصر القوقازية إلى السودان في العصور التاريخية القديمة والحديثة ، لأن كثيراً من القائلين القديمة كانت تنحدر إلى مصر أولاً ، عبر برزخ السويس ، ثم تصعد إلى الجنوب ، فواصلات بين شمال الوادى وحنوبه كانت دائماً أوثق وصلات ، سواء من ناحية الحس والسلالة ،

(١) مقالة الأستاذ سلحمان في عدد سنة ١٩١٣ من J.R.A.I. وعنوانها :

The Hamitic Problem in the Anglo - Egyptian Sudan.

أو من الناحية الثقافية ، وسواء في ذلك ما حدث في العصر الفرعوني القديم ،
أو في عصر الرومان المسيحي ، أو في العهد الإسلامي .

(د) الطرق الليبية :

وهي التي تصل السودان بشمالى العربى صحراء ليبيا أو اقامة عربى نهر النيل .
وتمشى هذه الطرق يشمل النطر المصرى وورقة ، فهو جزء من الطريق الشمالى ؛
وبعضها نعى . من بوس وصر لس وفزان . وبعضها من الصحراء رأساً من
مضنة نسي وودى ، حمل إلى السودان جماعات ليبية في عصر متأخر مثل الزاوة
واخرى من السلاط . من إقليم بحره سند وغرب إفريقية ، وقد هاجر من هذا
الطريق في لأرسة الحديثة جماعات الغلات وهي مزيج من الهاميين والرخ .

٧ - تقبل السلاطات القوقازية والرجية

سواء كان ذلك من التوسع إلى نوى نحو حوض النيل ، وفي مرحلة متأخرة ،
ولعله من بلاد ما بين النهرين احتلت العاصم لقوقازيه حروا كبيراً من الحوض الشمالى ؛
من نوى البحر المتوسط إلى أقصى بلاد امونة . ولعله ليس مستبعد أن قد مضت
فئة من السلاط من قبل إلى بلاد المصر من وحيها نوحه ، وأن يقترب أحدها من الآخر .
ثم لم يكن من أن يلقى المصر من . وأن يختلط ، وأن يترتب على هذا
لاختلاطهم من . وقد كان هذا الاختلاط إما نتيجة للهجرة والتوغل
السلمى ، في حدود التي تسمح بها وسائل الانتقال ، والتي تتحكم فيها الظروف
الطبيعية ، أو فديعى . لاختلاط نتيجة عرو . وفي وسعنا أن نقرر استناداً إلى
ما نعلمه من الحوادث التاريخية ، أن صهر العرو هذه كانت دائماً تتحد بصورة
واحدة وهي عرو القوقازيين لآتين من الشمال ، وليس معروف على وجه التحقيق أنه
كانت هناك عروات رجية أدت على الأوطان القوقازية . وقد رغم كل من
ماكايكل وترمنجهام^(١) أن جماعات رجية عرت من جنوب كردوفان على حدود

(١) راجع الجزء الأول من كتاب « تاريخ العرب في السودان » لما كايكل من ١٢
وما بعدها ، وكتاب ترمنجهام « الإسلام في السودان » من ٣٩ وما بعدها .

مصر في أرمنة مختلفة في الدولة المتوسطة وفي زمن الأسرة الثامنة عشرة ؛ واستند كل من الكاتبين على ترجمة كلمة نهسو Nehesu المصرية بكلمة زنجي . وقد وجد الأستاذ ينكر وغيره من علماء التاريخ المصري القديم هذا الزعم واثبتوا بما لا يدع محالا للشك أن المقصود بهذه الكلمة هم النوبيون سكان بلاد النوبة ، وهم من سلالة حامية قديمة ، ولا يتقنون إلى الزنج بصفة كما ثبت ذلك الأستاذ سلحمان^(١) .

والطروف الجغرافية الطبيعية للسودان نبي احتمال حدوث غزو من الجنوب ، وذلك لأن الجهات التي يعمش فيها الزنج ، والتي نهبوها ولا يستطيعون الاعتماد عنها طويلا ، تمتاز بوفرة المطر ، الذي يسكن في وسعهم أن يشعروا عنها كثيرا ، وهم أكثر استقرارا في أوطانهم من الشمال ، الذين لا ينفكون عيش البداوة ، وفي المهود المتأخرة كثرة الرعاة بل ، كثيرى الاضطراب ولا تفقد ، وهم صفاتهم الحرية المعروفة .

ذلك استطاع أن يستمد ونحن مطمئنون حدوث غزوات هامة من جنوب ، وأن نقرر أن الغزو كان دائما من الشمال نحو الجنوب ، ومن الإقليم القوقازي نحو الأوطان الزنجية .

ومع ذلك لم يسم الأقاليم الشمالية من أن يصل إليها بعض الدم الزنجي في صورة أخرى . فقد ساعدت تجارة الرقيق على تسرب الدم الزنجي نحو الشمال ؛ وهي ساهرة تجارية سلمية عاليا ، ولكن كان لها أثرها في انتشار الدماء الزنجية ، ولو بدرجة ملطمة ، في جميع أنحاء وادي النيل الشمالي . وإن كانت أكثر في الجنوب منها في الشمال^(٢) .

وقد استطاعت جماعات قليلة من القوقازيين أن تكون لها السيادة في أوطان زنجية ، وأن تؤثر في السكان تبعاً لذلك تأثيراً كبيراً ، بأن زلت بينها وتروحت

(١) مقال سلحمان السالفة الذكر .

(٢) إن بعض الكتاب ، مثل ما كاتيل ، لم يهر أهمية تجارة الرقيق ما نستحق من العناية ، وما كان لها من الأثر في أشكال السكان ، ولكن أحجار الرحلة (راجع مثلا تركهارت من ٣٢٣ وما بعدها) حتى في العصور الأخيرة تريا أن تجارة الرقيق كانت واسعة الانتشار جداً ، وأنها كانت تتناول الآلاف من الرجال والنساء في كل عام .

وأيسر : ومن مظاهرها تعديل في التقاطيع في الأنف والشفيتين ، وبرود الوجه ؛
ففي الأنف تنخفض النسبة لأضحية انحناءً واضحاً ، وهذه الظاهرة تبدو بين
الجماعات الرحية التي دخلها الدم القوقازي ، وكذلك يرول الفطس ، ويرفع
الأنف ارتفاعاً محسوساً ، وتصبح الشفاه أقرب إلى صفات القوقازيين .

أما أثر الدم الزنجي في القوقازيين ، فإنه يبدو بوجه خاص في شكل الشعر ،
والظاهر أن مجعيد الشعر من صفات التي تورث بسهولة (أي من صفات
المالّة Domant في المصطلح السلي) .

وهذا دخل المصدر بقوة مقدار ولو قليل من الدم . نحن لا نثبت
أن يفسر أثر هذا الاختلاط في نمط الشعر ، وإن لم يصبح مطلقاً تماماً كما
هي الحال في الجنس الزنجي عموماً .

أما القامة والنسبة الرأسية : فليس من السهل أن نجد للاختلاط أي أثر
فيهما ، لأن كلا من الجنسين يشتمل على عناصر متنوعة جداً ، والنسبة
الرأسية متغيرة عند أفرادهم .

أما لون البشرة ولونها : فلا يميزه عنهما كثيراً ، لأن أسمرته قد شتت
حداً في العناصر القوقازية . لم تختلط أي دم نحن ، وهذا لا يمكن الاعتماد
عليها وحدها لتقرر درجة الاختلاط .

بلا شك للاختلاط أثره في القامة ، فليس من السهل أن نجد
نصوره قائمة في جميع الحالات ، وهذا أثر واضح سهل الاستدلال عليها ،
ولكن هناك من غير شك أمور خافية أو على الأقل ليست ظاهرة ظهوراً ملموساً .

من الواضح مثلاً أن اللغة العربية قد انتشرت ، حتى تحت بعض اللغات القديمة
وحلت محلها ، كما هي الحال في شمال كردوفان وجنوب الجزيرة ، وفي « هاب »
أدخلت ألفاظ عربية واصطلاحات في اللغات القديمة ، وإن لم تقص عديدها تماماً ،
كما هي الحال في لغات البجة والنوبيين .

كذلك تدرجت عناصر ثقافية من الشمال نحو الجنوب في مختلف شئون
المعيشة كالأدوات والآلات والزراعة وما إليها ، وهذا التأثير يرجع إلى زمن قديم ،

هذه المسائل ومثالها ليس من السهل أن نقطع فيها رأى ، حتى تستوفى دراسة ومبحثاً .

١٠ — العناصر القوقازية غير العربية

نقسم العناصر القوقازية في السودان إلى قسمين : الأولى تتكلم العربية وليس لها لغة سواها ، ولأخرى لها لغات غير عربية ، وذلك نسمى بأسماء خاصة .
فأما الثانية فهي : (١) النوبة على اختلاف طبقاتهم ولهجاتهم ؛ وموطئهم الحالى المعروف الذى يمتد من الدقة إلى شمال السودان ، هو البقية الباقية من وطنهم وأوسع على الأرجح .

(٢) العناصر غير العربية في دارفور : ومعها مثل الزغاوة والبديات والخرعان ، هي من أصل لبي ، أى هزرت الأحيوة كانت من الغرب ؛ والبعض الآخر مثل الميذوب (سكان الحبل اسمى باسمهم في الشمال لشرقى لدارفور) .
والتنجور : كلاهما من أصل نوبى على الأرجح .

(٣) البجة : القبائل الحامية التي تعيش بين البحر الأحمر ونهر النيل .
هذه هي المجموعات الثلاثة الرئيسية غير العربية ، التي نسمى مع ذلك إلى المجلس القوقازى .

١١ — العناصر المسماة « عربية »

أما سائر العناصر القوقازية وتسمى باسم « عرب » وهم يتكلمون اللغة العربية ولا يتكلمون لغة سواها . فلا شك أن نسبة عالية منهم من أصل عربى صميم . كما أن فيهم جماعات فيها نسبة عالية من دماء أخرى . وقد سلب هذه الدماء الأجنبية في بعض الأحوال . ومع ذلك يطلق على أصحابها اسم العرب لسيادة الثقافة العربية عليهم ، وانعدام أى مميزات أخرى غيرهم .

وقد حرت العادة بالنسبة إلى العرب الأصليين — أى في الجزيرة العربية ذاتها — أن تميز بين الجمويين منهم وشميين ؛ وهذا التمييز يستند إلى فرق

ثقافة حوهرية ، وإلى فواصل جغرافية فصلت الحروب عن الشمال فترة من الزمن . وعشاء دعاء الصميمة بفرقون بين دعاء السامية الشمالية ، التي كانت تظهر أثرها في العراق والشام ، وبين دعاء السامية الجنوبية ، التي سودا بين وحصر موت وعدد . والتي كان لها أثرها في بلاد الحشة ونيجرة ورثية

وقد طلب الجهات الجنوبية من حيرة العرب عمل عن الشمية ربما طويلا ، إلى أن حدث صروف دعت إلى هجرة تيمس وإلى انتشارهم في سائر أنحاء الجزيرة العربية ، حيث وصلت قوتهم إلى الحجاز والعراق والشام ، ولم يعد التفرد إلى شذلي وحسين ثم تمكننا ، بل أصبح العرب يقسمون إلى فحطاني وعسائي ، وعلى هذه الصورة . أي فحطاني التي انحلت في مصر ، ومنها إلى سائر حوض النيل ، وإلى بلاد العرب ، لأندلس ما لم يهاجروا

وهذه التفرقة راء ونحو أنصاف في السودان ، حيث نرى للسائل أو الجماعات العربية مقسم إلى قسمين : حمليين ، وأحمسيين ، ولأولون يسمون العرب الشماليين ، والآخرين الجنوبيين .

(١) فقام حمليين وهم أكثر العرب عدداً . وتدخل فيهم جماعات تعيش على جبل شيباء حرموم في أقاليم مثل الحويزة ، وسبيلية ، (في سبوية) والشاقية ومطاحن . ولهاك مجموعة وسبيلية في كردوس : وكذلك « احمليون » ، في منشورين ، صغيرة وحاسي سدافه ومركرة بدة شمدي ؛ وهم تلك الشبهة من حمليين التي يصح عدها لأمم . وسنعود إلى شرح هذا الأمر بالتفصيل عند كلامنا على مجموعة حميلية .

وهؤلاء احمليون يشعرون إلى « إبراهيم » جدهم الأكبر ، الذي ينتمى إلى العباس ؛ وقد روي في بعض من حديث أنهم لحامين ، وقال لهم : « جعلناكم منا » كما يروي هروالد ما كان يسمون به الموصوع « تفصيل عند الكلام على الحمليين .

فما جبهة فسم تسلة عربية مشهورة وهي فرع من قصاعة ؛ وقد هاجر

منها كثير إلى مصر . وانقائل التي تنتمى إلى جهة (العرب الحواريين) في السودان هي :

١ — رفاة (بما في ذلك الحوارة) واعد للاب (صحاح حصبة الملاك) .

٢ — الشكرية

٣ — البقرة : مثل الرزيمات . الحماية ، والتعديسة ، وغيرهم .

٤ — الحسم ، والكبايش وأصرايه .

ولقد كان لدخول الإسلام على أيدي القبائل العربية أثر في الأساس وزيادتها ، وأحياناً تعديلها ، فقد أصبح من المرغوب فيه أن تكون كل قبيلة لا من أصل عربي فقط ، بل بقدر الإمكان أن تنتمى إلى نسب شريف يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الجميلين يشعرون على كل هذا العدد الكبير من الجماعات ، التي آثرت أن تنضوي تحت لوائهم لشرف نسبهم .

كذلك نرى حتى الجماعات الحامية في كثير من الأحيان تحاول أن تحصل نسبها متصلاً بعرب ، وكثيراً ما يكون لها اتصال عن طريق نسب بعض قبائل عربية .

١٢ — الحاميون المستعمرون

ولا مدوحة لنا من أن نفترض أن العرب عندما دخلوا السودان لم يكن ذلك التطور الكبير حالياً من المعاصر القوقازية ، بل لعل السودان الشمالي كله كان وطناً من أوصار الجلس القوقازي في ذلك الوقت كما هي الحال اليوم ، ووجه خاص كانت للحاميين اشاراً أكبر مما لهم اليوم ، وكان كثير منهم يعيشون على ضفاف النيل وفي الأودية المجاورة ؛ فكيف نعلم أن جميع السكان اليوم الذين يتكلمون العربية يدعون « عرباً » ؟ .

لا بد لنا أن نعلم بأن كثيراً ممن يدعون اليوم عرباً ، من غير شئ من الحاميين المستعمرين ، الذين عمرتهم الثقافة العربية ، وغير قليل من الدماء العربية أيضاً . وهذه الحالة تعادل تماماً ما حدث في مصر ذاتها ، بل وفي سائر البلاد المجاورة لجزيرة العرب .

ويقول ما كايكل : إن الكنايس لا بد أن يكونوا من أصل حى أو بحوى ، بدليل أن كثيراً من عشايرهم لها أسماء تشابه أسماء العشاير المنتشرة عند النوبة . ومن الملاحظ في السودان أن مروج القنابل كثيراً ما تنتهى أسماؤها بالقطع آب ، فيقال عبد اللاب وهاتاب وغير ذلك .

ولقطع معناه آل : (آل عبد الله وآل هاشم) ، وهذا القطع منتشر لدى الحاميين ، والنوبيين وحسين وبعض الهبييين ، ولكن هذا لا يقصع بأن وجوده يضعف من النسبة العربية .

١٣ — العرب الذين لا ينتمون الى قبيلة

في بلاد السودان يمتزج فيها الإنسان بمصيبته ، وبالجماعة التي ينتمى إليها ، لا بد أن يكون عذراً على النفس أن يجد المرء نفسه مفرداً لا ينتمى إلى جماعة ، ولا يسند إلى ردهط أو عشيرة . هذا أمر مألوف في البلاد التي غمرتها الحضارة منذ حوالي ، وبعد فيها عهد العظارة و مداوة ؛ فأصبح الناس ينتسبون إلى ما كان يسمون فيه ، لا إلى جماعة أو ردهط أو قبيلة .

ومع ذلك فإن في السودان آلاماً مؤلمة من الناس ، الذين لا قبيلة لهم ، ولا تتسبب أن نصف الواحد منهم بأنه جعلى أو جهنى . ومن الجائز أن يرجع هذه الظاهرة إلى سببين : أولهما ، ما تعرض له السودان من الحروب الداخلية ، ولأحد باب تشايبه في عدة عصور . مما أدى إلى تفكك بعض الوحدات ، وشريد بعض جماعات .

وسبب الثاني ، ولعله أهم سببين ، هو التخصر ، فإن الاستقرار يبعث على تقوية الصلة بين الشخص ومن السكان الذى يقيم فيه ، فيقطع الصلة بينه وبين الوطن بعيد ، الذى يقيم فيه قسسته أو عشيرته . ولا يمتصى من صوبل حتى يكون الشخص قد أخذ ينسب إلى مدته ، دون قبيلته ، وكثير من هؤلاء الأفراد الذين لا ينتمون إلى قبيلة ، قد يكون من أصل بحوى أو نوبى ، كما أنهم قد يكونون من أصل عربى .

١٤ — الطرق الدينية

لا يد لنا قبل أن نتحدث عن السلالات القوقازية المختلعة أن نشير إلى ظاهرة في الإقليم القوقازي كله ، تشملها كله تقريباً دون تعرفه بن حامى وسامى ، بجوى أو عربى أو نوبى ، أو غير ذلك من الفروع والسلالات .

سبقت الإشارة إلى أن الإقليم القوقازي علبت عليه الثقافة العربية ، والدين الإسلامى بوجه خاص ، بحيث لم يبق بين القوقازيين من يدين رسمياً بأى دين آخر . وأنباع النصرانية في السودان الشمالى — مثل الجنوبى — كلهم حديثو المحنة إلى السودان ، ومن أصل غير سودانى ، وقل منهم من تربطه بالأرض صلة دائمة .

من الممكن القول أن جميع سكان السودان الشمالى مسلمون ، شديدو الإحساس للأمور الدينية ، ولذلك رأت حكومة السودان أن الأوفى ألا تسمح للمشركين بأن يمارسوا حرقهم في السودان الشمالى . والمسلمون في السودان سيئون ، وأكثريهم يتبع مذهب الإمام مالك .

ومن أهم الظاهرات الإسلامية في السودان تلك الطرق الدينية المنتشرة في جميع أرجائه . وربما لم يكن من السواء أن ندعوها طرقاً صوفية ، وإن كان مشيئوها الأول ، جماعة متصوفة ، أو شخصاً متصوفاً ، أى له تمكيد ديبى وفلسفى خاص ، والأولى أن نسميها طرقاً دينية .

ومن الملاحظ — كما قدمنا — أن لهذه الطرق في السودان انتشاراً فل أن نجد له نظيراً في أى بلد إسلامى آخر ، مع أن هذه الطرق أو معظمتها قد انتشر في مصر وغيرها من الأقطار دون أن نجد البسرة تلك التربة الملائمة التي وحدتها في السودان . ومن الممكن أن ننظر إلى ظاهرة الطرق الصوفية على أنها ظاهرة أشربووجية ، أو اجتماعية لها مميزاتها . وقد يكون للمقائد السابقة للإسلام أثر في قوة انتشارها في السودان .

والطرق الدينية كما رأينا ليست مقصورة على سلالة من السلالات ، وبذلك تصبغ لها أهمية خاصة في التقريب بين المجموعات الحسية ، وربط العرب بغير العرب ، ولو في حيز محدود .

ومن هذه الناحية سدو لها أهمية سياسية خاصة ، لأنها تعمل على إضفاف
المعصية القبلية ، وإيجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة .

من أجل ذلك كان لهذه الطرق خطر كبير . ولا بد أن يحسب لها حسابها في
دراسة الظواهر الشريفة للسودان ، ولم يتيسر لنا إلى الآن بحث وف عن الطرق
وتوزيعها ، بوجه دقيق في مختلف الأقاليم ، وإنما ندون ما نعرفه بوجه عام .

وليست الطرق عبارة عن مذاهب أو فرق دينية مثل فرقة « الشيعة »
و « السنة » بل هي نظام يجمع عدداً كبيراً من الناس في سلك واحد . ولهذا
السلك رئيس واحد هو شيخ الطريقة ، وهو القائد والمرشد لأتباعه . ويكاد كل
سوداني مسلم أن ينتمى إلى بعض الطرق . كما قال هلاس في مقال له ^(١) .

(Nearly every Moslem native of the Sudan belongs to one
or other of these Societies, and looks to the head of his tarika
for guidance in matters spiritual and temporal. Their influence
is accordingly very great)

ويزعم هلاس أن الفكرة الأساسية في الطريقة هي اعتقاد الناس من العامة ،
أنهم في حاجة من أجل مصلحتهم الروحية ، إلى إرشاد شخص من ذوي الكرامة
والبركة ليكون واسطة بينهم وبين الله .

وستطبع أن تؤكد أن مثل هذا الحاطر لم يجر في نفس أحد من أتباع أي
طريقة . فليست الرغبة في التماس واسطة بين العبد وبين الرب هي التي تدفع الناس .
بل إحساس داخلي يدفع الناس إلى الانتظام في سلك العبادة المنظمة وهو إحساس
وليد أحبال أو قرون ، ولعله إحساس يرجع إلى ما قبل الإسلام نفسه .

وليس نظام الطرق مقصوراً على السودان . ولكنه نجح في السودان نجاحاً
ممتازاً ، وقد اشتهر في الإسلام عدد من مؤسسي الطرق الدينية مثل عبد القادر
الجيلاني (١٠٧٩ - ١١٨٦) وأبو الحسن الشاذلي (١١٩٦ - ١٢٥٨) . أي في
القريب الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، وقد وصل أثرهما إلى السودان . كما وصل
إليه أثر غيرهما من القادة الصوفيين . وكثير منهم جاء من المغرب . ونحن نعرف أن

(١) في كتاب The Anglo Egyptian Sudan from Within ص ٢٠٩ وما بعدها .

ولعل هذه القاعدة لا تنطبق تماماً على بعض طبقات من المتعلمين .

في المغرب عادة تمجيد القديسين الأحياء ، والاهتداء بهداهم ، ولذا كانت بلاد المغرب من أهم جهات الإنتاج للطرق الصوفية .

وقد دخلت الطرق الدنية السودان في القرن الثماني عشر الميلادي . وفي ظل دولة الفنج كان ازدهارها الأول ، وإن لم تنبع من التنظيم الدرحة التي وصلت إليها الآن . ففي العهد الحديث تم لها نظامها ، واستكملت عديمها وشماثرها .

وكل طريقة من الطرق لها كاد كراما شيخ هو رئيسها الأعلى . ومنصبه يوشك أن يكون وراثياً ، وله مساعدون يسمون حلفاء ، يحملون رسالته ، وينعدون أوامرهم . ومن الخطأ ما ذهب إليه هلسن من أن « الذكر الذي يشبه الرقص » هو أهم ما يميز الطرق بعضها عن بعض ، فذكر والأوراد والأحزاب وغير ذلك ، ما هي إلا مظاهر للطريقة ، ولكن العنصر الأساسي في الطريقة هو العهد الذي يقطعه التابع للطريقة ، بأن يسلك مسلكاً رسمياً ولا يحميد عنه في مسائل خاصة تتصل بالمعاملات والمبادات .

ونظام الطرق كنظام القبائل . أو ككل نظام اجتماعي له تطورات الخاصة . فكما أن القبيلة قد تنقسم وتتفرع منها قبائل . أو يندمج بعضها في بعض كذلك في الطرق الدينية ، قد تتفرع طريقة من طريقة أخرى . وقد تضعف أو تقوى ، وقد يمو القرم ويزدهر ، ويضعف الأصل ويضمحل .

وفي السودان اليوم عدة طرق متفاوتة في الأهمية :

(١) منها الطريقة المرغنية أو الختمية . أسسها في السودان السيد محمد عثمان الكبير (الذي ولد بالحجاز في الربع الأخير من القرن الثامن عشر) ونسب إلى مؤسسها الأول جده الأكبر السيد علي المرغني . وقد جال السيد محمد عثمان في السودان كله . ثم استقر في كسلا ، وأدباً قرية خاصة بجوارها تسمى الختمية . ولا شك في أن هذه الطريقة هي اليوم أوسع الطرق انتشاراً وأعظمها خطراً ، ويشمل نفوذها أقاليم النيل الأزرق والمطبرة ؛ وشرق السودان بوجه عام ، كما أن لها نفوذاً كبيراً في دنقلة ووادي حلفا وغيرها من الجهات .

(٢) ومنها الاسماعيلية . وقد تفرعت في القرن الماضي عن المرغنية وكان

رئيسها من أكرم أنصار الخليفة ، وقد عظم شأنها في ذلك الوقت ، أما اليوم فإن نفوذها مقصور على منطقة الأبيض وبعض جهات غرب السودان .

(٣) ومنها السهمية . وأصلها فرع من طريقة قديمة تسمى الخلوئية (يرجع تأسيسها إلى القرن الرابع عشر) . ودخلت السودان على يدي « الشيخ الطيب » ، في أول القرن التاسع عشر . وكان رئيسها في أول أيام المهدي هو الشريف نور الدائم ، الذي كان شيخاً للمهدي نفسه ، ثم تحلى عنه المهدي ، واتخذ له طريقته الخاصة .

وقد تفرع عن السهمية طريقة أخرى تسمى الهندية ، رئيسها الشريف يوسف الهندي ، وكان أحد القادة الروحانيين الثلاثة في السودان ، وقد أخذ نفوذه ينتشر في الأعوام الأخيرة (١) .

(٤) ومنها المندوبية . وكان لها في مصر شأن كبير في السودان ، ويقال إنها تنتمي إلى الطريقة الشاذلية ، وقد أسسها شيخ من الحمليين يسمى محمد المندوب في القرن الثامن عشر ومراكزها في الدامر ، وفي القرن الثامن عشر كانت الدامر وما حولها بلداً مستقلاً تحت رعاية شيخ الطريقة . وكانت مركزاً علمياً دينياً كبيراً في السودان كله ، وقد وجدها بركهارب كذلك عندما مر بها في سنة ١٨١٥ .

واليوم يرى هذه الطريقة . منتشرة بين الحمليين والمندوبين ، وبعض الشاربيين وكذلك على سواحل البحر الأحمر وعلى الأخص في سواكن .

(٥) ومنها الإدريسية ، وهي طريقة قديمة ، وقد تفرع عنها بعض الطرق الهامة ويقال إن ختمية فرع منها ، وقد أسسها رجل من قاس في مصر أكش يدعى أحمد ابن إدريس ، ورئيسها الحالي مركزه في القاهرة أو دراو أو أرجو في دنقله . ولهم نفوذ كبير في هذه المديرية .

وهناك فرع في العسير ينتمي إلى نفس الطريقة كما هو معلوم .

(٦) ومنها التيجانية ، وهي من أشهر الطرق في السودان ، ولعلها من أهم

(١) توفي الشريف يوسف إلى رحمة الله في عام ١٩٤٣ وخلفه نجله الشريف عبد الرحمن .

الطرق في إفريقية كلها . وكان لأصحابها فضل كبير في نشر الإسلام في غرب إفريقية ، وتغلّب عليها الزعة الصوفية العميقة ، لذلك رآها اليوم منشرة حتى بين التملّين في السودان ، وأهم ميدان انتشارها في إقليم النيل الأعظم بين أم درمان والدامر ، وربما كان جميع افلاتة التميمين حول سنار تميم لها أيضاً ، ولها أيضاً انتشار واسع في دارفور .

(٧) ومنها الرشدية وهي متفرعة عن الإدريسية ، وأساعها في دقته وأم درمان والنيل الأبيض .

هذه هي الطرق الرئيسية ، ولكن هناك طريق عديدة مكررة في أمكنة محدودة ، ذات صبغة محلية ، أو قد تكون هناك جماعة صميرة ، يركز حول أشخاص من ذوى الصلاح والتقوى ، مثل اليعقوب^(١) ، الذين اكتسبوا شهرة بالتقوى والصلاح ، وإن لم يكن لهم أتباع كثيرون .

* * *

هذا وصف عام مهدنا به لدراسة سكان السودان الشمالي وسنتناول في الصفحات التالية المجموعات الرئيسية لسكان مستعدين بالبحر ، ثم المجموعات العربية المختلطة . وكذلك نعالج بإيجاز إقليم دارفور ، وإن كانت قد تسربت إليه سلالات غير عربية ، نظراً لموقعه في السودان الشمالي من جهة ولغلبة ثقافة العربية عليه من جهة أخرى . وقد رأينا من المفيد أن نهد بوصف كل جماعة أو قبيلة بوصف حفراني موحر لأوطانها التي تعيش فيها ، وإن كان الهدف الأول للكتاب هو وصف القبائل وأنسائها وأهم مميزات كل منها .

(١) معظم اليعقوبات يتبعون الطريقة السانية ، ولكن رؤسائهم يتمتعون بنفوذ ديني خاص.

الفصل الثاني

البجة (البجاه) (١)

١ - مواطنهم وأقسامهم ...

إذا بدأنا دراسة الطوائف القوقازية بالترتيب التاريخي ، وحب علينا أن بدأ
بغير العرب من سكان السودان ، الذين استقروا في روعه منذ عهد معرقة في
القدم . . . ليس من هذا أن الجماعات العربية كلها حديثة الهجرة إلى السودان ،
و لكن معناد أنها جميعاً - وإن اشتملت على عناصر قديمة - قد تشربت الثقافة
العربية في عصر متأخر نسبياً ، واكتسبت سماتها العربية بفضل هجرات قبائل
عربية ، دخل السودان من إفريقية الشمالية والشرقية بعد أن ظهر الإسلام في
حديثة العرب وأخذ ينتشر في قارة إفريقية .

والبحر والنبوة كلاهما معرق في القدم ، ولكن البجة يحكم بينهم ، وانقطاعهم
عن طائفتهم ، نصفي جوهرياً من حونة ، لم تتم بصورتها للاحتلاط بمصادر غربية
عندها كما نرى من النبوة . وقد لاحظت غير واحد من الكتاب سبباً قوياً من البحر
وإن المصريين القدماء مما يدل على قدم عنصر البجة فيه قد استوطن البلاد التي
يسكنها اليوم منذ آلاف السنين .

لا شك . مواضع البحار في الوقت الحاضر أصيب مساحة ، مما كانت عليه

(١) لا بد من أن نلاحظ أن كلمة البجة هي بكسر الهمزة ، وهذا تطور حديث ، ومن
المألوف على مصر . من أن تحول الحرف من عجم إلى الكسر . وقد كان المتقدمون من
الكتاب ، كالمصريين ومن سبهم لأسوان والغريزي يكتبون الاسم بضم الباء وبمدها
ألف وهاء . وصحاح أن الاسم قديم جداً ، لأن سبب البجة كان معروفاً للمصريين القدماء
باسم المروى أو مساحوى ؟ ومادة الباء باليم أصح عربياً على اللغات السامية كما في الحال
في مكة ومكة .

في الأرمنة العابرة . ومواطنهم اليوم تتألف من الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً ، ونهر عطبرة ، ثم النيل الأكبر غرباً ، وتنتد من المنحدرات الشمالية للقصبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية مديرية أسوان في الشمال .

أراض فسيحة شاسعة — وإن كانت أقل من أوطانهم القديمة . وبيئة فيها تنوع كثير وإن علبت على معظمها صعة الشدة والجهد .. وهذا التنوع يشمل التصاريس ، وسقوط المطر ، وما يترتب على ذلك من نوع النبات والحيوان .

ولعل اختلاف التصاريس هو أكبر عامل طبيعي يؤثر في الظواهر الطبيعية الأخرى . ولذلك يجدر بنا أن نتأمل فيه لحظة ؛ وأكبر مظهر لاختلاف التصاريس هو وجود تلك السلاسل الجبلية المعتدة من الجنوب إلى شمال موارية وملاصدة للبحر الأحمر ، مرتفعات متصلة الحلقات ، اللهم إلا في مكان واحد حيث يشقها حور بركة ، ذلك المجرى الذي ينحدر من الركن الشمالي للقصبة الحبشية من ارتفاع ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر ، ثم يجري نحو الشمال ، وسط فجوة واسعة بين جبال البحر الأحمر ، حتى تنتهي مياهه إلى الأرض الفصاء قرب طوكر ؛ إذ لم يستطع لقلة مائه أن يبلغ البحر الأحمر .

وفي عدا هذه رى مرتفعات البحر الأحمر ممتدة بمحددة ملتصقة به أحياناً ، حتى لا يكاد يفصلها عنه شيء ، ونبتة أحياناً عنه ، ففترت بينها وسهلاً ساحلياً ضيقاً ، عرضه يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ كيلو متراً ..

فتصاريس الوطن المحاوي إذن ذات اتجاهات شمالية جنوبية ؛ أولها من ناحية البحر ذلك الشريط الساحلي المنخفض ، وهو ليس سهلاً ساحلياً بالمعنى الصحيح ، بل عبارة عن أرض محدرة نحو البحر ، وقليلة الارتفاع عن سطحه . وهذا الشريط الساحلي ضيق في القسم الأعظم من الجهات الداخلة في السودان ، ولكنه أكثر اتساعاً ، في الجزء الداخل في حدود مصر .

كذلك جبال البحر الأحمر ، ليست كلها متساوية في الارتفاع والوعورة ، وهي تزيد على الألف وحمائة متر ، في الكتلة الواقعة جنوب فجوة طوكر ، والواقعة شمالها مباشرة . ولكن أكثرها ارتفاعاً ووعورة الكتلة الواقعة بين

خط العرض العشرين والثاني والعشرين؛ والراحح أنها تبلغ أكثر من ٢٠٠٠ متر في مواضع؛ وعلى الساحل في شرق الكتلة بلدة دنخوناب على خليج دحاة، وفي هذه الكتلة بعض مرتفعات توصف بأنها حبال، مثل جبل شلال، وجبل عليه، وجبل إربه.

هذه المرتفعات الساحلية هي أهم مدبرة تصاريسية في الوطن النحوى، ولها آثار ساحية خطيرة. ومن الأماكن المرتفعة فيها بلدة أركويت ١٠٩٣ وسنكات (٨٧١ متراً) ونهايم (٦٤٧ متراً) وبنجسوارب ٥٣٩ متر، وكلاهما متقاربة. أما البلاد الساحلية أو شبه الساحلية، فيمثلها عقيق في أقصى الجنوب، ثم طوكر (إلى الداخل قليلاً) وسواكن، وبور سودان، ودنخوناب، وعيذاب، وبرنيس، (وهما بلدتان باتدتان)^(١)

على الحد من الغرب الانحدار نحائى أو تدريجى، وهو على كل حال أسهل من الانحدار الشرق نحو البحر الأحمر. ثم يصل بعد ذلك إلى مسطحة أدنى إلى السهولة وسجدر بالتسريح نحو سهر النيل، وفي كثير من المواضع تحتطها أودية قدام تحرى فيها المياه في أوقات الحاضر، مثل وادى علالق ورافده وادى قنقة. وهذا إلى جانب الانحدار من الشرق إلى الغرب ذلك الانحدار التدريجى من الجنوب إلى الشمال، الذى يشترك فيه سائر حوض النيل، وإن لم يكن ذلك الانحدار مطرداً ولا منتظماً.

وبعض الجهات في هذا الجزء اسحقص لها أسماء اشتهرت بها، مثل سهل البعانة بين النيل الأزرق والمطيرة، وتمثله بلدة القصارف في الجنوب وأبودليق في الوسط. ثم يليه من جهة الشمال صحراء القومور والمتباى الممتدة إلى القطر المصرى. وقد آثرت الجبال من غير شئ في سقوط الأمطار؛ وبذلك أصبح لبلدة مثل دنخوناب Dongonab مطر يبلغ نحو ٤٠ مم، وهي محاذية لوادى حلفا التى لا يسقط عليها مطر قط. وفي عقيق نحو ١٤٠ مم، وفي كرورا ٢٨٣ مم. وفي بورسودان ١١٠ مم، وسواكن ١٨٠ مم.

(١) بالقرب من موقع عيذاب القديم مرسى صغير يدعى مرسى حلايب.

أما الجهات المرتفعة مثل سنكات ونهاميم فطرها ١٣٤ مم ، ١١٣ مم على التوالي .
ومن الدراسات الساخية الممتعة في هذا الإقليم مقارنة مواسم المطر ، إذ نرى
أن بعضها صيفي وهو الواقع على مرتفعات تنحدر نحو الغرب ، والبعض شتوي ،
وهو الواقع على المرتفعات التي تنحدر نحو الشرق ، والجهات الساحلية فطرها
شتوي ، وإن شذت بعض الجهات لأسباب خاصة ، كما هي الحال في سواكن
وطوكر ، إذ يالهها بعض المطر الصيفي أيضاً ، . ولعل هذا بسبب موقعتها من
العجوة التي يجري فيها خور بركة إذ تسرب في الصيف بعض التيارات الجنوبية
عن هذا الطريق ، ومطر الصيف على كل حال أعزر من مطر الشتاء .

أما سهل البطنة فطره أعزر ، وفي الجنوب نرى انقصاراً . ومطرها يبلغ
٦٧٦ مم (ومطرها صيفي) ونبو دايق (١٥٠٥٥) : ومطرها ٢٠٨ مم (أكثر
من الخرطوم وهي على نفس خط العرض ومطرها ١٦٠ مم)

ولهذه الأمطار أثر في السهول يختلف عن أثرها في الجبال ، لأن المطر في
المرتفعات ذات الحرارة المنخفضة يعطى أثراً وطلاً . وما يقدر بالبحر منه أقل
بكثير مما يقدر في السهول . . لك ترى المرتفعات يكسوها مقدار محرم من شجر
والخضرة في جبل غلة وشلال وإرنة وحول أركوبت ، وإشدة قرب هذه المرتفعات
من البحر الأحمر . بعضها ربما طويلاً عطاء كثيف من الصناب والسدي ، له أثر
كبير في غزارة الحياة النباتية . بل لعله السبب الأكبر في تندرته حيث المرتفعات من
وهرة الساب ، وهرة لا يبررها مقدار ما تساقط عليها من الأمطار . أما الإقليم
الجنوبي ، في مثل كسلا والقضارف على حدود أرتريا ، فإنه يمتاز بمطر أعزر من
الأقطار التي تحاذيه على نهر النيل .

وهكذا نرى في مواطن البجة تنوعاً ملحوظاً في التضاريس والساح والنبات . .
ولئن كانت تغلب عليها قلة المطر عامة . والطبيعة الصحراوية تسودها في الشمال ،
فإنها لا تخلو من جهات يغزر نباتها في بعض فصول السنة ، ويتنوع فيها سقوط
المطر بين الصيف والشتاء ، هذا عدا الأنهار التي تجري المياه في بعض أجزاء منها
مثل خور بركة وخور الجاش ، والأنهار التي تجري بالقرب منها مثل العطبرة .

فالسنة قاسية في حملتها ، ولكنها أقل قسوة مما يتوهمه الإنسان لأول وهلة .
ومع التسليم بأن النصف الشمالي شديد الجذب ، لكن يخفف من حدة
انتشار الآبار في مختلف أحيائه ، وإن كانت المسافات بين الآبار تزداد كلما اتجهنا
شمالاً أو غرباً . ولذلك كان امتلاك الآبار من أهم المعاصر في حياة النحبة الشماليين
وعلى الأخص البشاريين والعبادنة .

في هذه البيئة ، إذن ، تعيش جماعات النحبة ، منذ عصور عديدة ، وقد نظموا
حياتهم على السوال الذي تعرضه خصائصها الطبيعية ، فأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها
. وينقسم النحبة إلى أقسام أربعة رئيسية ، ويسمى أن يطلق على كل قسم منها
اسم قبيلة ، لأن بنو فرادة عصبية ، ولكل منها رعيم (ناطق) : وهذه الأقسام
هي البشاريون في الشمال ، وفي تلك السنة الحولية لصحرة القليلة الماء والسكلاء ؛
كما يحتلون معظم لإقليم السمن تحراء القضاى

يلتهم من الجنوب الأمراء ، ويمتدون باتجاه في اتجاه من الجنوب العربي في
مسار على الخط الحديدي ، إلى الشمال الشرقى ، في اتجاه مورسودان .

ويلتهم جنوباً المندوبه ، وهم كبر النحبة في السودان عدداً ، ويمتدون من
سواكن إلى سار ، وفي الأصاخورة لاحظ احيدى المتمدن البدين ، وبذلك
أصبحوا يحتلون دلتا الخاش ، ويهبطون على شواطئ المطيرة المخاورة لهم . على خط
عرض ١٥ ، وأخير يحد إلى الجنوب الشرقى جماعة بني عامر ، ويمتدون من طوكر
شمالاً إلى داخل حدود إرترية في الجنوب

وهذا لك جماعات أخرى من النحبة ، أو قبائل صغيرة ، مثل الأشراف والأرنقا
والكميلاب ، والحلقاء غيرهم . بعضهم يدور في تلك القبائل الكبيرة ، ويرتبط
بها . وسكن أكثرهم يدعى الاستقلال ويحاول أن يشت ماله من الأهمية والخطر
ويحدثنا عن أبطاله القدماء ، وما كان لقبيلتهم من عو الشأن ومحو المقام في المصور
العابرة . . وليس في دعوائهم هذه وجه غريبة ، لأن نظام القبائل من طعمه عريضة
للتقلب والتطور على مدى الأزمنة ، فيعلم شأن بعضها حيناً من الزمن ، بفضل
أسرة قوية الشوكة ، كبيرة الثروة . ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف

بسبب الحروب أو الأمراض ، أو سوء القيادة ، فيضنف أمرها ، ويقل عددها ، وهذه الظاهرة واضحة في تاريخ القبائل العربية نفسها في جريده العرب ، ولا عجب إذا رأيناها لدى البجة أيضاً .

يتكلم البجة لغتهم الحامية ، وهي اللغة التبدواوى (أو بدابوت) ويستثنى من هذا معظم القبائل الجنوبية من بني عامر ومن يحاورهم من الخفاف القليلة التي تتكلم لغة تبحرة (الخاصة) وهي لغة سامية منتشرة في أرتريا وشمال بلاد الحبشة ، وإن كان بعضهم يتكلم اللغة التبدواوية .

وأكثر البجة يعرف اللغة العربية إلى جانب معرفتهم لغة التبدواوى أو تبحره . ولكن العربية ليست لغتهم الأصلية ، على الرغم من أن بعضهم يحتمد نطقهم بسموه « سبة » وهي ورقة مكتوبة أو حديث محفوف برجح بهم « إلى » فرش « فادين الإسلامى المشر بينهم ، واللغة العربية ما هي إلا أثر من آثار النفوذ العربى الذى دخل فى عهد متأخر نسبياً إلى وطنهم ، ويوشك أن يكون من الحق أن هذا النفوذ العربى وصل إليهم من الشمال والشرق .

وبصف بعض السكتات البدواوى أنه حاد الطبع ، شديد النفور من الناس ، بل يذهب بعضهم إلى وصفه بالتوحش وإن لم يكن لهذه الكلمة مدلول صريح . غير أن السكتات لا تخبر من موطنى حكومة السودان يحملون هذا رأى

والذى يطالع لغة لا أنهم يأس منهم تحيلاً للقبائل البجاوية وبعض تتعامل على العرب ، فيؤكد لما مثلامستر بيوسيد الفرق بين العربى والبجاوى بقدره يوارى فيها بين طبع كل من الفرقين فيقول : إن العربى (Fuzz) وهو وصف مشهور عند الإنجليز للبيعة مشتق من طريقتهم في تصفيف الشعر) ، عاش في مرمعات البحر الأحمر أربعين قرناً على الأقل ، أما العربى فإنه « دجيل » منذ العصور الوسطى وللجة أحادار شفوية وأساطير أبطال ترجع نسبهم إلى نحو ١٢٠٠ سنة على الأقل ، والعربى يحب التجمع والاحتلاط ، وهو تثار بخلاف ما اشتهر عنه ، أما العربى فيحب العزلة ، نفور من الناس ، قليل الكلام ، وليس كالعربى ، عبداً للتقاليد

الاجتماعية الصيقة، والتقاليد القبلية السائدة. وهو كثير التسامح والتساهل في اتخاذ
أصدقه من الأحاب، وفي التشكل بكل بيئة جديدة وجبه للمزلة الذي يقوم
الناس خطأ أنه يرجع إلى طبع وحشي، ليس في الواقع وليد اخوف، أو لإحساسه
بأنه غريب عن سائر الناس، بل هو خلق يرجع إلى طبيعة البيئة الحبلية، التي
لا تساعد على التجمع والاحتلاط، فهو ليس مضمناً للعرب، والأحاب، بل ألف
المش نفسه، فلا يجد لهم مكاناً في دائرة حياته، وصادية لمريية نبعث على التجمع
والحظظة: حتى عند لوهائيين، الذين اشتهروا ببساطة العيش، ترى الأفراد تتجمع
تحدث واعماء و اسمر حول النار أو فناجيل القهوة المديدة التي يستوعبونها،
كما سكر لبحر الأحمر - وفي عداى عامر - فلا يقيمون إلى إيشاء قري أو مساكن
مختمه في ساحة كبيرة: و جوهم المكنونة من « البرش »، أو الحصر الممدود
على عيان محبيه، يقوم كل منها بمفرده، أو كل بيتين معاً، أو ثلاثة، على رأس
« صر لأودية و لأحوار ولا يكاد السائح المتجول أو الطائر المخلق في السماء،
يشعر منهم بطره أو نفسه... هكذا يعيشون في حروب وروايا وسط التلال
أو الحصان، حيث لا يرهم نعم، على عدا من انهن والحبوب، وقيل من اللحم
والسكر في من الرحة، وعلى ملن وحده فرياً حده، نقاهم الكوارث، من
احراد أو الحب أو الطاعون^(١).

ومن الخائر بالطبع أن الحياة - قروا عدة - في حوار هذه البيئة الحبلية
قد علمت الدجة أن البيئة مفردة في على الأودية لها أيضاً قيمتها من ناحية الدفاع
سواء في ذلك ما كان دفاعاً ضد أعداء من غير البجة، أو من البجة أنفسهم،
ولا بد لنا أيضاً أن ندخل في حساسات ما طراً على هذه البيئة من لتغير منذ المصر
المطير إلى وقتنا هذا، فإن كثيراً من الأودية المتعلقة في الإقليم السحراوي، تدل
على ورة من الماء ليس لها اليوم وجود، وقد اضطرت السكان لتفضيل رءوس الأودية
في المرتفعات، لأن الأمطار سرعان ما تصبح نادرة أو معدومة في الجهات المنخفضة.

(١) راجع ص ١٤١ وما بعدها من كتاب Hamilton, The Anglo-Egyptian Sudan from within

على أن حالة الانحدار والتشتت في شتات الجبال وشلالاتها ، وإن لم ترل قاعة ؛
قد تأثرت من غير شك تأثراً شديداً بالاتصال بالعمران ، وبالشاريع الزراعية التي
تمت في طوكر ودلتا الحاش ، وفي نمو مدينة كسلا والقصارف ، وما يصحب ذلك
النمو من اشتباك المصالح ، واحتشاد العناصر المختلفة . وقد استجاب البعجه إلى هذه
التطورات ، فأخذوا يتحدون قري على ضفاف القنوات ، ويحتلون أحياء من بعض
المدن . وأخذ كثير منهم يشتغل بالزراعة وفي مختلف الحرف .. ويقول بيوليد إن
هذا التطور لم يترتب عليه — حتى الآن — تفكك في النظام القبلي أو المصية
القبلية ، ومع أن المستقل في يد الأقدار ؛ فقد لا يكون من المستحيل أن يسلك
البعجه هذه المسالك المستحدثة ، وينعموا بهذه المرافق الجديدة ، دون أن يفقدوا
شخصيتهم أو تحلل طابعهم . فالناسي الذي يحكم في حصوماتهم ، سيان إن عقد
مجلسه في داره في القرية الجديدة ، أو في حيمته وسط مسالك عتاي الوعرة .

ومعظم المتفهمين بشروعات الري في طوكر وكسلا من البعجه ؛ ومع
التسليم بأن مستواهم في الإنتاج الزراعي ليس عالياً ، فإنه مع ذلك ليس منحنطاً ؛
ومما ينبت قابلية البعجه للشكل بالبيئة الجديدة أنهم استطاعوا أن يتحولوا من
بدو رحل إلى راع مستقرين ، وأن يقللوا على هذا العمل الحديدي الذي لم يعمروه
ولم ياعمروه .

المراحل التاريخية لبعجه :

فدعنا أن البعجه عريقون في القدم ، في أوطانهم الحالية ؛ ومن الحذر منهم
أول من سكن هذا الإقليم ، الذي يحتلونه اليوم ، فإن نشأته صعبة وطراد
أشكالهم الطبيعية لا يدع مجالاً للظن بأنهم قد دحنتهم عناصر أخرى ، إنهم
إلا القليل جداً ، الذي جاء عن طريق بعض القوافل التجارية في الأطراف
الشمالية ، أو عن طريق الاتصال بالحبشة في الأطراف الجنوبية . وقد مرت
بهذا الإقليم وسكانه أدوار تستطيع أن نسردها على سبيل الاجتهاد ؛ وإن كانت
تمورنا بعض التفاصيل ، لأن الدراسات الأثرية لم تتسع بعد لكي تشمل هذه
الأقطار النائية المنعزلة .

١ - في العصر القديم اساقى لتاريخ كان هذا الإقليم على الأرجح أغزر مصر آنذاك ، ثم هو اليوم . وكانت طوائف من حيوان المنطقة ترحل في أرجاءه وحواسه ، وفي سهوله ومرتفعاته .. فكار الصيد متواراة ووفرة عظيمة . ولا شك أنه كان يستعمل على حيوانات مثل الزراف ، وقطوف من الوعول ، بل والفيلة أيضاً ، وغيرها من حيوانات الصيد ، مما لا يكاد يكون له أثر فيها اليوم . كانت البلاد حمة لمخترقي الصيد . ولا شك أن هذه كانت حرفة السكان في ذلك الزمن الصيد .

٢ - ثم أحدث الآفايم نحس الخفاف ، ونقل صيدها وساتها تدريجياً . وقد تربى على ذلك حجر بعض الجمال القليلة العشب ، التي أخذت تعلق عليها الطبيعة الصحراوية . والتجأ السكان بالتدريج إلى الجمال الأوفر ماء ، التقرب من المرتفعات ، أى في النصف الشرقى من البلاد إلى بحلتها البجة الآن . ولكن بقي لهم بعض الاتصال بالشمال عن طريق الأنهار ، وبعض المسالك التي تحلفت فيها مياه في صورة آبار ؛ أو في الأودية مثل العلاق .

٣ - ولا شك أن هذه الحالة دامت طويلاً ، وكانت فيها الجمال الصحراوية أقل سكاناً ، حتى ما هي عليه اليوم ، ثم جاء الدور الذي مرّ بجميع الجمال الصحراوية ، في أفريقية ، حين أدخلت الإبل إلى هذه القارة للمرة الأولى . نحن نعلم أن الإبل دخلت مصر في العهد الفارسي ؛ وانتشرت بعد ذلك بالتدريج .. ولا بد أنها تسربت إلى الجنوب بسرعة . والروايات التي تروى عن بعثات قبيل إلى الجنوب ، التي لم تصادف النصر دائماً ، إن صحت فإن بعض هذه الحملات قد أدخلت الإبل إلى الجنوب ؛ في وقت كان البجة قد عرفوا كيف يربون الماشية وإن كانت ماشيتهم من أنواع أخرى . ولا بد أن البجة قد أدركوا ما للإبل من الفائدة ، فأقبلوا على تربيتها في عناية فائقة . ولا ندري حتى على وجه التقريب متى بدأ البجة يربون الإبل . ولكن براعتهم فيها اليوم تدل على أن عهدهم بها ليس حديثاً^(١) .

(١) كانت لبلاد البجة صلات بالجزيرة العربية ترجع إلى زمن قديم جداً . ولكن ليس هناك دليل على انتقال الإبل إلى بلادهم مباشرة عبر البحر الأحمر في ذلك الزمن القديم . ولم أنها وصلت إليهم قبل العهد الفارسي لا تنقلت منهم إلى مصر لما بين البلاد من الروابط القديمة .

ومهما يكن من شيء ، فإننا نستطيع أن نرحح أن اقتناء الإبل كان بمثابة ثورة في حياة البجة ، إذ مكّهم من استثمار الجهات البعيدة ، واختيار أسفلة الشاسعة ، ومنحهم وسيلة لتعمير أقطار كانوا محروها من قبل . فقد حدث — إذن — في صحراء القتبای ، بصورة مصفرة ، ما حدث في صحراء ليبيا والصحراء الكبرى بصورة أكبر .

(٤) وفي أثناء هذا كله اتصل البجة بسكان وادی النيل ، واقتبسوا من حضارتهم ، وتعلموا الزراعة واستئناس الحيوان . وكان من أهم مناطق الاتصال وادی الملاق ومايليه من جهة الجنوب ، حيث معدن الذهب المشتق من عروق الكوارتز . وقد أثبت سلجمان أن البجة والمصريين القدماء من سلالة واحدة ، أو سلالات متقاربة ، وعلى الأخص سكان مصر الجنوبية الذين لم تخرج دماؤهم كثيراً بلهاجرين من آسيا عن طريق برزخ السويس . وقد التحا سلجمان في إثبات رأيه هذا على مقارنة الجاهج ، فوجد تشابها تاما بين أشكال المصريين القدماء ، ومنهم بعض الملوك ، وبين أشكال البجة الذين يعيشون في أوطانهم الحالية^(١) فالشمان من أصل واحد ، وإن كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقاً وأسلوباً في الحياة ، وسلكت بالبجة طريقاً آخر . وانفصلت أوطان الفريقين فترة من الزمن إلى أن نشأت بينهما صلات لم يكن منها بد بحكم التجاور .

ولا ينسجم الحال هنا لشرح المراحل المختلفة لانساع الصلات بين الشمال والجنوب . وحسبنا أن نذكر أن الدولة القديمة لم تحاول أكثر من إرسال البعثات التجارية إلى الأقطار الجنوبية . ولكن الدولة الوسطى ذهبت إلى أبعد من هذا ، فأمنت في التوغل في بلاد النوبة ، وأسست دولة في الجنوب تتصل بالشمال اتصالاً سياسياً وثيقاً ، وامتد سلطان الدولة الجنوبية إلى أراضي النيل الأزرق ، وبذلك صارت جميع أوطان البجة مجاورة لهذه الدولة لواسمة الأرحاء ، ذات الثقافة المشتركة . فلم يكن بد من أن يساهم البجة في بعض نواحي الثقافة المصرية ، ومنها الديانة التي ظلوا متمسكين بها إلى العهد المسيحي .

(١) راجع مقالة سلجمان في مجلة J.R.A.I لسنة ١٩١٣ .

ومع أن مسألة استخراج الذهب ، هي التي يرد ذكرها على الألسنة ، بوصفها العامل الأساسي في الاتصال بين المصريين والبيجة ، فإن نحاور الأوطان كان له أثر أكبر . وقد كان استخراج الذهب من مظاهر اتصال المصريين بالأقاليم الصحراوية الشرقية والتوغل فيها . لأن أهم المناطق واقع في وادي العلاقي والجهات التي تليه جنوباً إلى الإقليم الذي تمتد فيه السكة الحديدية اليوم بين مسمار وسنكات ، وآثار هذه المناطق لا تزال قائمة إلى اليوم (١) .

(١) م س ك علاوة مصر القديمة ونحو قائمة على استعمال الناجم وحده ، وليس من المؤكد أن سعة أسمهم كانوا يستخدمون عمالاً في استنفاط الذهب بل الأرجح أنه في هذه المشروعات في ذلك الوقت كما في اليوم ، كانت تجلب جماعات من صعيد مصر للقيام بهذه الأعمال وليس العمل إحدى مما يرغب فيه البيجة . ومن الخطأ الفاحش ما ذهب إليه مستر نيوبولد في مقاله لكث إليه ، من أن المصريين كانوا يسفرون البيجة لهذه الأعمال لتغير الصيد الأرفاء (ص ١٤٥) .

"Many of the Northern Bera must have been enslaved and decimated in the Egyptian slave gangs."

وهكذا أن هذا لوطط الأحرار السوداني — حتى وهو بصدد كتابة مقال علمي — إلا أن يهتم على المصريين ، حتى المصريين القدماء . وقد ثبوت هذا لموسوع مع بعض العلماء الأثريين ، وعلى الأخص مع الدكتور أحمد غري . وقد فصل حضرته بكتابة البيانات الآتية :

(١) أن مصطلح "بيرا" أو "بيجة" هو الاسم الحديث للقبائل القديمة التي كانت معروفة القدماء المصريين تحت اسم "م" أو "مجرى" والكلية هجاءات مختلفة ولكنها متقاربة كما يبدو من مراجعته . موس الحمر في حوسه أو كتاب كيس Kees عن مصر (سنة ١٩٣٣) ص ٢٣٧ ، ٣٤١ .

(ب) كان هذه القبائل على حد ما وده مع مصر . وقد استعان بهم المصريون منذ لأسره دسة (حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م) في مختلف الأعمال ، وعلى الأخص كانوا يؤمنون منهم في قاعك ، سعة ، ونايس أو الحرب . وكانوا من القبائل الخنوية التي تناصرت إلى مصر في زمن سعة وكل به ذلك من الأول حصاع ثوره في فلسطين

(ج) كان حدود سعة من دعاتم لصدايقه في بلاد كما يستدل من النصوص . وكان أن ذكرها مؤيد شامهم في نصوص رده سعة ، حيث يوسفون أنهم زحود مصر ويستكروا منهم اسم كهم في إحدى مسمرت ويثوبون : "وهو قبل امراء أمه" .

(د) سعة ولاء سعة لمصر في المعصية ، فالتة ، وكانوا من الخوذة الذين عاونوا المصريين في تروء همسكهم .

وفي حد كة نأيد به رأي س جال أن سعة والمصريين سلاله وحده و"ب" رنحه يوبولد لا سعة في أي علمي

(٥) وعنى البطالسة بالأقاليم الجنوبية أيضاً ، واعتصموا باستسباط الذهب ، بعد أن تمطل فترة من الزمن سبب الاحتلال المارسي . ومن المعروف أيضاً أنهم كانوا يحلبون القيلة من الجنوب لاستخدامها في الحرب ، واستطاعوا أن يستأنفوها ويروضوها ، مع أن الفيل الإفريقي لم يستأنس بواسطة الإفريقيين أنفسهم . وقد كانت لهم عناية بتجارة البحر الأحمر ، وذلك أشأوا على السواحل السودانية بمصر الموانئ ، من أشهرها بريس بالقرب من الحدود المصرية الحالية ، والمقيق Ptolomais Epitheras بالقرب من طوكر .

(٦) وهذه الموانئ طلت قاعة في العصر الروماني ، ولكن أهميتها أهدت تنقص بالتدريج ، لأن الرومان لم تكن لهم مآرب في مناجم الذهب أو القيلة ، إذ كانت تجارتهم أوسع مدى وأشأراً . هم يكن البحر الأحمر بالسمة لهم سوى طريق إلى المحيط الهندي . ومكثهم تقدم الملاحة من الاتجاه من مصر إلى جنوب البحر الأحمر رأساً ، ومنها إلى المحيط الهندي ، دون حاجة إلى الترام اشأطي . ، والروور بكل مرفأ . ولم يكونوا حريصين على التجارة التي يجمعونها من موانئ السودان ، بل كان حل همهم غلات الهند . وكان اتصال الرومان بالبحر مقصوراً على الشينيين منهم الذين يعيشون في مصر أو على تخوم مصر في شمال السودان . وكأوا يظفون على هؤلاء اسم البلميا .. Blemmye . وإن كان هناك شك في أن هؤلاء هم البجة أو جماعة أخرى .

في ذلك العصر كانت دولة أكسوم في شمال الحبشة قد عمت وقوت شوكتها ، وأحدث تغير على الساحة من جهة الجنوب ، وتدور بين الفريقين مبارعات تقور حياء وتهدأ أحياناً . وهناك لوحة ترجع إلى القرن الأول للميلاد ، كتب عليها ملك من ملوك أكسوم كتابة يرعم فيها أنه انتصر على البجة . ورحف على مصر ، ويقول بيوبولد إن هذه أول مرة في التاريخ يذكر فيها البجة باسمهم المعروف اليوم^(١) ، والظاهر أن هذا الملك لم يذهب بعيداً في رحفه نحو مصر . والأرجح أن انتصاره على البجة لم يكن نصراً دائماً ترتب عليه إخضاعهم لسلطانه فترة من

(١) راجع ما جاء في ص ٣٢ عن اسم البجة .

الزمن ، بل مجرد غارات لا بد أن تحدث بين دولة مستقرة ، وبين قبائل على حدودها لا تقبل الاستقرار أو الخضوع . بل من دأبها هي أيضا أن شور وأن تغير .

وحكام مصر في العهد الروماني عانوا أيضا بعض المشقة في إخضاع النوبة ، لأن كل الدول المتحضرة تحاول دائما أن تخضع القبائل الواقعة على حدودها ، ونسى في أن تفرض عليهم قيودا تنافي مشاربهم في الحياة ، ومما زاد الحالة تعقيدا أن المملكة الحبشية من جهة ومصر من جهة أخرى سادتهما الديانة المسيحية . بينما ظل النوبة متمسكين بعبادة إيزيس ، التي اقتبسوها عن المصريين القدماء وظنوا إلى القرن السادس مقاومون كل محاولة لتحويلهم عن وثنيهم .

٧ — لم يكن بد من أن تنتصر المسيحية في النهاية . وفي القرن السادس أحدثت تنتشر بينهم تارة من الشمال عن طريق بلاد النوبة ، وتارة من الشرق عن طريق الواقي . التي يجتمع فيها النوبة بطريقة سلمية مع الوافدين من مصر من التجار والعمال . واستطاع أن تصور أن جميع النوبة الذين كانت لهم صلات مباشرة أو غير مباشرة مع مصر والنوبة والحبشة قد اعتنقوا المسيحية بالتدريج . أما الذين يعيشون في جهات منزلة ظلوا على وثنيهم .

٨ — وفي القرن السابع بدأ ظهور الإسلام في الشمال ، ثم أرسلت البعثات لفتح المناطق القديمة ، وقام النوبة نزع الإسلام حينما من الله . وبعود القصة سرتها الأولى كما حدث في ظهور المسيحية ، فاحتلاط في الشمال وفي الواقي . أدى إلى التعارف ثم التزاوج . واستمر انتشار الإسلام في القرن العاشر وما بعده حتى اعتنقه الجميع . ومما ساعد على ذلك أن طريق الحج في ذلك الوقت كان يصل إلى ميناء سيذاب ، في آخر حدود مصر وأول حدود السودان . ومنها إلى جده ، ويقال من سب تفضيل عيذاب أنها بعيدة عن غارات الصليبيين الذين نقلوا في ذلك العهد سفنهم إلى البحر الأحمر . وقرب عيذاب من جده يحملها موصفا ملائما لاحتراق البحر الأحمر : وقد اندثرت عيذاب بعد ذلك تماما^(١) وانتقل نشاطها إلى بلدة

(١) كانت الحملة التي أرسلها صلاح الدين سنة ١١٦٦ إلى عيذاب من أهم العوامل في تدميرها . وقد دعه في ذلك أن بعض رؤساء النوبة استولوا على ضائع حرملة إلى مكة .

سواكن ، وهى أيضا واقعة فى أرض البجة . ولكن لم يؤسسها البجة ، ونحن نجهل تاريخ تأسيسها ، ولعله يرجع إلى العهد الفرعونى أو البطلمى ، وإن كانت الروايات الحديثة تمزج تأسيسها إلى عرب الجنوب ، وعلى الأحص الحصارمة .

وقد اشترك فى تعمير سواكن عناصر عديدة غير البجة^(١) ، الذين لم يكن لهم فى تعميرها شأن يستحق الذكر . وأهم هذه العناصر العرب ، سواء من الشمال أو الجنوب .. ولذلك وصفت بأنها مدينة عربية أكثر مما هى بحاوية . ومنذ القرن الخامس عشر أحدثت تؤمها السفن القادمة من المحيط الهندى ، من آن لآن ، وقصدتها تجار من حضرموت ، واليمن ، والهند ، والصين ، والبرتغال . واستولى عليها الأتراك فى سنة ١٥١٧ وأصبحت ملحقة بمصر . وازدهرت تجارتها وطلت تلمب دورها الخطير ، إلى أن قررت حكومة السودان أن تنشئ بور سودان متحول إليها كل النشاط التجارى الذى امتارت به سواكن . وأصاب البلدة الأخيرة ركود لا يزال غيبا عليها إلى اليوم .

وعلى الرغم من أن البجة طلبوا محتفظين بطائفة من العهد العربى . وكثير منهم الذين كانوا يعيشون فى الجبال والجهات النائية لم يخصصوا لأى عود أحسن . فإن رؤساءهم ، بل وكثير من عامتهم ، قد انضموا للعرب وشارك الرؤساء ، على الأقل ، فى النشاط التجارى ، وتزوج كثير من التجار العرب نساء من البجة وأقاموا بينهم ، حتى اندمجوا فيهم . ولم يكن بد من أن تتأثر البجة بالإسلام والثقافة العربية تأثراً شديداً . فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعاً مسلمين لا يدينون بأى دين آخر . والكتاب الأوربيون مثل بيوبولد وسلحمان لا يفتأون يذكر أن الإسلام لدى البجة لم يؤثر فيهم تأثيراً عميقاً وأن تقاليد الوثنية لا تزال شائعة بينهم ، مثل الختان الفرعونى للنساء ، وعادة دق الأحراس عند ما يولد طفل . ولكن عادة دق الحرس وقت الولادة لها أثرها فى مصر أيضاً ، ووجود تقاليد وثنية بعد اعتناق الإسلام

(١) لابد لنا أن نذكر أن سواكن تتألف من حرية ملاسقة للساحل ومن الر المحاور لها والمياه الحرة من سواكن الحففة ، وهى التى يؤسسها البجة أما البلد المحاور لها على سر ، فقد عاش فيه البجة ، وهو جزء من أوطانهم .

أو المسيحية ظاهره ليست مقصوده على البعج ، بل نجد لهذه الظاهرة أمثلة في مصر
بل وفي أوروبا نفسها بحيث لا يكاد يخلو منها قطر من الأقطار .

لما الثقافة عربية فقد تأثر بها البعج أيضاً ، كما تأثروا بالإسلام . فأصبح
أكثرهم يعرف العربية معرفة تامة ، وعلى الرغم من احتفاظهم بعبقريتهم «التبداوى»
فإن هذه اللغة قد تسربت إليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما أثرت العربية في
بعض الصيغ النحوية للغة التبداوية .

(٩) وهكذا نت - بفصل هذه الأحداث التاريخية المتعاقبة - المراحل
الأساسية في تكوين المجد كما نعرفه اليوم ، وفي تشكيلهم على الصورة التي
رأوها ، كما هم قسيميهم في لأقسام رئيسية هي سنن دكرها . وممطلمها يرجع
إلى وقت حديث . ماعدا لأمرار بين كانوا معروفين بهذا الاسم وقت اتصال
سجدهم في القرن التاسع الميلادي . أما النشاريون والمهندوه ، فقد كان
كويهم على الصورة التي رأوها اليوم في أوطانهم المعروفة إلى الآن حديثاً .
ولملا أكثر بطور في العهد الحديث (أي منذ منتصف القرن الثامن عشر) هو
ظهور النشاريين والمهندوه في حالة الانحطاط والسيطرة على الإقليم الذي يحتلون
اليوم ، قد انتشر النشاريون حمواً حتى احترقوا المطرقة واحتلوا الجزء الشمالي من
سهل البطنة وحملوا صمتهم أو مركز الرئاسة لهم في بلدة بعلوك على المطرقة ،
وبعد مسح أوطانهم تمتد من خط عرض السادس عشر جنوباً إلى الثاني
والعشرين شمالاً أي من سهل بطنة إلى بحيرة مديرة أسوان والصحراء المحاذية
لها من الشرق ، وهي مساحة تبلغ نحو ٥٠,٠٠٠ ميل مربع ويحاورهم من الجنوب
العرب الشكرية ومن الشرق المهندوه والأمراء .

وقد نسمع وصلاً لأمرار أيضاً من الجهات الحيلية في الشرق إلى السهول الواقعة
شمال المطرقة ، أي إلى الوص النشاري الحالي ، وعلى الرغم من بعض الاحتلات
والترواح بين الفريقين ، قامت منازعات حول المراعي والمزارع في هذا الإقليم بين
الفريقين ، ولم يفصل نهائياً في هذا النزاع إلى اليوم .

أما المهندوه فكانوا قبيلة قليلة الخطر إلى منتصف القرن الثامن عشر . ولكن

الحروب التي دارت بين مملكة الفصح والحشة ، وأضعفت نفودا عنيق في الأقاليم الواقعة حول كسلا Taka وإلى شمالها ، قد أتاح فرصة للمهندوه ، فأخذوا يتشرون ويزداد نفوذهم حتى أصبحت أوطانهم تمتد إلى الأقطار التي يحتلونها اليوم وأصبحوا أكبر قبائل البجة في السودان . في ذلك الوقت كانت دلتا الحاش منطقة مستقعات وأعشاب وشجر ، تؤمها السباع ، وقد ظهرت هذه الأراضي وزرعت بعد ذلك بمختلف المزروعات ما بين ١٨٤٠ ، ١٨٧٠ ومن بين مزارعها القطن .

وهذا الازدياد السريع في عدد المهندوه ، وفي حطرم ، وروزم لأول مرة كأ أكبر مجموعات البجة ، لا بد أنه يرجع إلى تمسكهم على عدة وحدات صغيرة ودماجها بعضها في بعض وترعها بواسطة القبيلة المالكة . وسرى في تفصيل الكلام عليهم كيف تم لهم هذا التوسع .

١٠ — ثم جاء عصر المهديّة ؛ وقد كان الحكم المصري قبله سهلاً ليّناً ، لم يحاول الحكام أن يخضعوا البجة لحكم صارم دقيق ، يباي ما ألقوه من الحرية . ولذلك لم يقم من البجة لمعاونة المهديّة سوى بعض المهندوه بقيادة عثمان دحنة ، ولم تكن ثورتهم في الغالب عطفاً على المهدي وأصاره بل لأسباب أخرى ، ويرغم بيوبولد أنهم قدموا خدمات للجيش وقبوا بأنفسهم حنة ولوارمها عبر الصحراء ، ولم يكافأوا على ذلك المكافأة التي كانوا يرجونها . ولذلك ثار عثمان دحنة وأصحابه وناصروا المهديّة فترة من الزمن ثم تحلوا عنهم بعد ذلك بالتدريج ، حتى قبل فتح السودان الأخير . أما سائر القبائل : الأمراء وبنو طاهر والبشاريون ، فلم يشتركوا في الثورة اشتراكاً يستحق الذكر .

الفصل الثالث

المجـه

٢ - الحياة الاجتماعية

تعلمت شئون المجـه بعد عهد المهديـة تطبيقاً تدريجياً . وجعل لكل قبيلة رئيس (ناظر) يتولى شئونها العامة ، ويكون حلقة الاتصال بين الحكومة وبين القبيلة . وإذا أحسن اختيار الناظر ، وكان رجلاً محترماً من قبيلته ، ينتمى لأسرة سبق لها أن كانت ذات مركز ممتاز ، انقادت له القبيلة . وسارت الأمور على ما يرام . وقد تعلمت الحكومة بالتجربة أنه لن ينفعها أن تعرض على المجـه أى ناظر تجبه ، ما لم يكن محبوباً من القبيلة ، معترفاً له بالسيادة . وقد أسندت البطارية الآن إلى أمر نصيبها ، وأصبح النصب وراثياً قريباً^(١) .

وليس من الممكن أن نحصى عدد المجـه تماماً في الوقت الحاضر ، ولكننا نستطيع أن نقدره تقديراً تقريبياً والأرقام الآتية المستقاة من نيوبولد وغيره تمثل لنا حنة هذه القبائل في الوقت الحاضر على وجه التقريب ، واختلاف عددها يرجع أساساً إلى طبيعة البيئة . فالجبال الشامية أقل سكاناً بوجه عام من الجبلية ، حيث انظر أعرض ، ومشروعات الري تحت مورداً حديداً للمعيش

ومشاريون في الشمال (أم على) يعيشون بين البحر الأحمر وأسوان . وعددهم يبلغ نحو ١٢,٠٠٠ نسمة ، لهم تجارة مع مصر في الإبل التي يبيعونها لكي يشتروا حاجتهم من الحبوب وغيرها . وبعضهم يشتمل في مناطق الذهب بوادي الملاقى ، ويبدع عليهم ذلك بضعة آلاف من الجنيهات سنوياً .

أما شاربو الحبوب (أم يحيى) فيتركزون حول المطهرة والجبلات التي حوله

(١) كـذلك كثير من المجـه للمؤلف أن السياسة لا تزال تلعب دورها في اختيار الناظر .

وعددهم يبلغ سبعة آلاف نسمة ، وأرض الشاريين واسمة مسيحة تبلغ نحو ٥٠,٠٠٠ من الأميال المربعة ، لكن تغلب عليها الطبيعة الصحراوية .

والأمراء يعيشون في مساحة تبلغ نحو ١٠,٠٠٠ ميل مربع ، بعضها في الجبال وبعضها في السهول . وأرضهم أكثر مطراً من أرض الشاريين ، ووراعتهم أكثر . منهم نحو ٣٠٠٠ نسمة يشتغلون ويعيشون بصعة دائمة في بور سودان ، وهم الذين يزودون المدينة وسكانها بمحاحتهم من اللبن والسمن ، ويعملون في الميناء . أما سائر الأمراء فيعيشون في المرتفعات غربي بور سودان ، والمجدرات التي تليها إلى الغرب ، وتمتد أوطانهم إلى العظرة ، ويمارسون في هذه المساحات حرفتي الرعي والزراعة . ويبلغ تعدادهم حسب تقدير ساندروز ٤٥,٠٠٠ يملكون نحو ٣٠,٠٠٠ رأس من الإبل ، ونصف مئات من البقر ، ونحو ١٢٠,٠٠٠ رأس من الضأن والماعز ، ولكن هذه الأرقام كلها تقريبية .

وهم ينقسمون إلى ١٢ قبلاً (بدنه) ونحو ثمانين عشيرة .

أما الهدندوة فعددهم الآن نحو ٨٠,٠٠٠ أو أكثر ، ينقسمون إلى أربعين بدنه ، وعدد كبير من العشائر ، والشاليون منهم رعاة ، ولكن الجنوبيين يمارسون الزراعة في الأودية الواقعة غرب سككات ، وفي دلتا الحاش ، وقد أمكنهم أن يجلبوا بعض المال من الفل بواسطة إبلهم ، وعلى الأخص قبل إنشاء سكة حديد كسلا . ولهم فوق ذلك بعض التجارة ، كما يستعملون بحيل الدوم ، وكذلك يبيعون السنا المكي ، والألبان والحلوى ، والفحم السائى والسمن ، والحصير المصنوع من ألياف النخيل .

أما بنو عامر في السودان فلا يزيد عددهم على ٣٠,٠٠٠ نسمة . ولعل هذا العدد إذا أضيف إلى الشطر الآخر الذي يعيش في أرتريا يبلغ ثلاثة أمثال هذا القدر أو أكثر قليلاً ، وهم أهدأ عيشاً من سائر البجة ، ومواطنهم في طوكر ، وحوض بركة مكنتهم من الانتفاع بمشروعات الري .

هذه مقارنة موجزة لحالة البجة ، بأقسامهم المختلفة ، وإذا استثنينا الجماعات التي تعيش في مدن ليست من صنعهم ، يمارسون صناعة وأعمالاً تناسب بيئة خلفها

غيرهم كالأراغ في طوكرو وكسلا ، وعمال في بور سودان (وفيها مضي سواكن) أو
التجار المقيمين إلى حوار أسوان . نرى سائر البججه يعيشون جماعات صغيرة في رؤوس
الأودية ، عيشة تغلب عليها الشدة ، ولا عمل لهم إلا رعي ماشيتهم . ولا يعرفون
القري الكبيرة بل يعيشون عيشة المرأة ، في بلاد يشتد حرها في الصيف ، وبردها
في الشتاء . في بيوت من الحصير (البرش) عداؤهم اللبن ، وقليل من الحبوب .
ومض اللحم من آن لآن ، وفي منى الحدب يقاسون مرارة الحرمان .

هذه البيئة القاسية التي تتعرض لموتات من الحدب والقحط في بعض السنين
كما حدث في عام ١٩٤٩ ، قد صيبتهم بصعته القاسية ، وعمرسوا بها ، حتى
أصبحوا حراً منها ، مد أن عاشوا فيها آلاف السنين . فأمسحوا ولهم جلد
كثير على تحمل الشدائد وشطف العيش ، يجزئون بالقليل من الزاد إذا تيسر ،
ويصرون على الحرمان إذا حانت سنوات الجهد والشفقة . ومظهرهم الطبيعي يتفق
مع هذه الظروف القاسية .

القامة تمتاز بالنحول وارشاقة متوسطة الارتفاع أو فوق المتوسط قليل
والشرة سمراء نصرت إلى الحمرة ، تشتد سمرة في بعض الأحيان . والرأس
مستطيل باطراد ، وإن وجدت بعض مقاييس للشاربين تكشف عن ارتفاع
النسبة الرأسية ، فليس من الضروري أن تعلق عليها أهمية كبيرة ، حتى تزداد
لدينا الأمثلة بما يمكننا من الإدلاء برأى نهائي .

الشعر مموح أو محمد قليلا . وإن بدا غير ذلك ، بسبب طريقتهم في ترجيل
الشعر وربطه على صورة خاصة . كأنه حرمة من الحطب أو الدريس . وإذا كان
الشعر محمداً جداً كان ذلك دليلاً على الاختلاط ببعض العناصر الزنجية . وهذا قليل
لدى الشاربين والأمرار ، الذين وقهم عزلهم الطويلة من الاختلاط والامتزاج ،
والنسبة الأنفية معتدلة أو متوسطة دائماً . وليس هنالك بروز في الفك أو أي مظهر
آخر للصفات الزنجية المروفة . وقد صيقت الإشارة إلى ما يراه ملحقان من الشبه
القريب بين البججه والمصريين القدماء .

والأمر الذي يلفت النظر في البجة جميعاً على اختلاف قبائلهم وأوصافهم أنهم لاتصلهم بالبحر أدنى صلة ، فليست لهم سفن أو قوارب أو روارق . ولا يرفون حرفة الصيد البحري . فيحملون بذلك مورداً للغذاء هم في أشد الحاجة إليه . وعلى الرغم من أنهم يرعون إبلهم على ساحل طوله ٤٠٠ ميل ، وقد تشرب إبلهم قليلاً من ماء البحر أحياناً ، فإن البجة أنفسهم لاللقون إلى البحر بالآ . وقد طوف بالسواحل جماعات عربية ، واشتغل بعضها بصيد اللؤلؤ في دنجوبات وغيرها من الجهات . غير أن البجة لم يتعلموا شيئاً من ذلك . ومواشهم المعينة أنشأتها شعوب غير البجة . وعلى كثرة السفن والنشاط البحري بواسطة المصريين وابطالسة والعرب اليمنيين والحصارمة والمهودو والصين ، فإن البجة لم يكتروا لشيء من هذه الأعمال البحرية . ولم يحاولوا أن يتعلموا صعة من الصناعات المعينة التي تنصل بالنشاط البحري .

وهذا إلى أوصاف الحياة البجة الشماليين ، وتنطبق في حملتها على سائر البجة ، لاحظها مستر كلارك^(١) الذي عاش في بلادهم فترة من الزمن .

السكن :

تقضى حياة البداوة بأن يكون السكن جميعاً ، سهل نقله وساوؤه . ولذلك نرى في جميع مواطن البجة الشماليين ، أن البيت السائد هو الديجائو Bidigau أو البرش المصنوع من الحصير ؛ وإقامة المنزل وتقويمه من عمل النساء ، وليس للرجال تدخل في ذلك ، بل يعد من غير اللائق بالرجل أن يقوم بهذا العمل ، اللهم إلا إذا كان المنزل لصيف أو لرجل مريض ، حيث لا يسنى للنساء أن يظفرن . وهذا المنزل يتألف كله تقريباً من الحصير ، وأسقف المصنوع من هذه المادة ، يتألف من طبقة واحدة أو طبقتين ، طبقة داخلية ، من الحصير الدقيق الصنع ، والمخارجية وهي من حصير أعظم وأعمك ؛ وينصب هذا السقف مفرداً أو مزدوجاً على أعمود منخعية في الطرفين . وفتحة المنزل أو بابه من الجانب الشرقي في العادة ، ولكن قد تكون من جهات أخرى .

(١) في Sudan Notes and Records مجلد ٢١ (لسنة ١٩٣٨) الجزء الأول .

وجواس المنزل ليست كلها من الحصير ، بل تغطي أجزاء منها من الداخل أكسية من الصوف (كل كساء يسمى شملة) والأماشي منها (الشرق) من الصوف الرمادي ، والحلقتي أسود اللون ، وتصنع هذه الشملات من صوف الغنم أو شعر الماعز .

والأثاث بالطبع غاية في البساطة ، فالفرش أيضاً من الحصير الدقيق ، ومن تحته الحصير المغطى وفي المنزل أيضاً أدوات القهوة ، وبعض القدور ، وأوعية من الجلد أو الخوص أو القرع لحفظ الماء واللبن ، وغير ذلك .

وفي وقت الظلمن تكون الأكواح صغيرة منجمعة ، وفي الإقامة الطويلة تكون كبر وأعلى ، لا يبعد منها ماء المطر ، ومن هذه الناحية تفصل بيوت الشمر التي للأعراب . ولا يجد عند البعجه اليوم تلك البيوت من الأدم التي أشار إليها المقرئ ، ولعله كان واحداً .

عادات تتعلق بالولادة :

حين يولد طفل توقد النار أربعين يوماً أمام المنزل الذي ولد فيه الطفل . وبعد بعض القنائل قد تكون المدة أقل من ذلك . ويروي أحد الأمراء أن إبقاء النار لسر ضرورياً ، بل يكفي أن يوقد مصباح أمام الدار . وليس من الضروري أن تظل النار أو المصباح موقداً ليلاً ونهاراً ، بل المهم أن توقد ليلاً . ومن الحكمة في إبقائها الأندس ، أو كما يرمي كلارك أنها لطرد الجن عن الأم النساء التي تكون مدة انعاس عرسه لأن تتأذى بهذه الكائنات .

وبعد أن يولد الطفل مباشرة ، تخرج النساء التي ساعدت في الولادة ، من المنزل ومعها الشيعة ، والخرق الملوثة ، وتغشى مساحة حتى تصل إلى شجرة ، فتلقى بهذه الأشياء وسط دروعها . وهن يمين أشودة خاصة في الذهاب والإياب ، إذا كان مولود كراً ، ولكنهن يدهن ويمدن صامتات إذا كان المولود أنثى ، وبهذه الطريقة يسهل الإعلان عن نوع المولود ، من غير حاجة إلى أي إعلان آخر . وبعد هذا الإعلان ، يقوم الوالد في خيمته الخاصة بتقديم وليمة للجميع . والظاهر أن

عادة دفن المشيمة وسط فروع الشجر ليست عامة ، فمعد بعض البجه يدفن الخلاص في الأرض ، ويكتفى بالزغاريد بدل الفناء في حالة المولود الذكر .

وبعد الولادة بأسبوع — وبلاحظ مراعاة السوع وما لها من اتصال بالعادة في مصر — يحتفل بتسمية الطفل ، فيأتي الوالد بشاة ، ويدبجها للوليمة ، ويطلق باسم الطفل ، في أثناء السبع . . . والعادة ألا يرى الوالد طفله إلا بعد ثلاثين يوماً من الولادة .

الختان :

عدد البجه ، كما هي الحال عند العرب والنوبة ، الختان شائع للأولاد والبنات ، وهي في الأولاد عملية سهلة يسيرة لا تكاد تختلف عما يحدث في مصر . ومن الحائر أن تعمل والطفل في حوله الأول أو الثاني ، ويظهر مكان العملية بالشحم الساحن . أما ختان الفتاة فعملية قاسية ، في معظم الأحيان . فهناك نوعان أو طريقتان : الأولى وهي طريقة الختان السلي ، وهي لا تختلف عما يحدث في مصر . والطريقة الثانية ، التي تدعى الختان الفرعوني . وهي بوشك أن تكون عملية جراحية ، تعمل عادة في الحول السادس إلى الثامن ؛ وتقطع فيها الأشعار الملياً من العرج وجزء من الأشعار السفلى ، وقد وصفها الأستاذ سلجمان وصفاً مستفيضاً ، وقد أكدها أيضاً القريري إذ يقول : « وأما النساء ففقطوع أشعار فروجهن ، وأنه يلتحم حتى يشق عنه لعنروح »^(١)

المراهقة :

عند ما يكبر العلام عند البجه بحيث يستطيع أن يرى بمص العنم ، يعطى خدجراً ، فإذا بلغ ١٤ أو ١٥ سنة أعطى سبياً ودرة ، عتراق سوعه مرتبة الرحولة . والظاهر أنه ليس هناك حفلات مشتركة كبيرة يجتمع فيها الصبية معاً عند ما يبلغون هذه المرحلة من العمر كما يحدث لدى القبائل الجبوية من النيلييين وانصاف الحاميين ، كذلك ليس هناك نظام لتصنيف المجتمعات بحسب السن .

(١) راجع الجزء الأول من المخطوط ، طبع مصر سنة ١٣٢٤ هـ من ٣١٥ ؛ وهذا النوع من الختان منتشر عند بعض القبائل الأخرى من عرب البجة ؛ وسبته إلى الفراعة ليس لها سند تاريخي معروف .

مركز المرأة .

من المعروف أن المرأة عند كثير من القبائل الحامية تتمتع بمركز ممتاز . وهذه الحالة قد لاحظها ابن بطوطة لدى الطوارق في الصحراء الغربية ، كما لاحظها الكثير عند الحاميين الشرقيين . وعادة الميراث التي تقضى بأن يرث الرجل ابن أخته ، هو مص مظاهر أهمية المرأة . والفتي يملو شأنه بملو شأن حله ، وفي أهمية الخال في الأحداث والقصص والأعاني عند كثير من الشعوب السامية والحامية ، ما يدل على أن عادة الاعتزاز بالأخت وأولادها ، هذه قديمة عند كثير من الشعوب ؛ وعلى الأخص الشعوب الحامية . وحياء الصحراء بطبعتها تعطي المرأة شأنًا ومهلة خاصة ، حين يعيب الرجل أيامًا في التجارة أو الدر ، ولا بد للمرأة أن تنهض لكثير من الأمل في عيانه .

وسواء أكانت أهمية المرأة مما استقرته طبيعة البيئة أو كانت عادة منتشرة لسبب آخر ، فلا شك أن المرأة عند المح كان لها في معنى مكان ممتاز . ولكنها لم تصبح لها اليوم المهلة المتأخرة التي كانت لها من قبل ؛ وإن بقيت من ذلك بقية في بعض النواحي الاجتماعية .

وقول كلارك في مقاله المذكور إن المراد قلما يعاقب أو تنال حرًا رادعًا إذا ارتكب منكرا ، ويرغم أنه أراد مرة أن يوقع عقابًا صارمًا بامرأة شابة كان سوء سلوكها سببًا في تخاصم وشقاق وتصارب بين طائفتين من البشاريين . فطلب قديمها لمحاكمة الحماينة ، فاحتج أعيان البشاريين وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يعاقبوا عقابًا داخليًا . فسألهم ما نوع العقوبة التي يقترحونها ، فأجابوا أنهم سيقصون شعرها ، ويلزمونها أن تقوم بطحن الحبوب . . .

وفلسفتهم في هذا أن المرأة عاجزة بطبيعتها عن مقاومة الإغراء ، ولذلك يجب أن تعذر ولا تؤاخذ ، وكل ما يجب عمله هو أن تلزم دارها وتراقب مراقبة دقيقة ، لكي لا يتعرض لها أحد بسوء ، وبذلك تنق جميع دواعي الإغراء أو تكون في حكم النادر . . .

ولسكن على الرغم من هذه الفلسفة يبدو أن ظروف الإغراء ليست نادرة ، ويرغم كلارك أن النساء — وعلى الأخص لدى الأمراء — لسن على جانب كبير

من الوفاء . وكثيراً ما تكتشف الحياة ، فلا تعاف المرأة ولا يلحقها أى وصمة فيها يبدو ، ولكن الزوج له الحق دائماً فى أن يحصل من العاشق الأثيم على دية تقدر بنحو ثمانية من الخييات (سنة ١٩٣٨) وهكذا تسود فكره بأن الرجل دائماً هو المذنب ، وعليه وحده تقع جريمة ما ارتكب من أثم .

وتظل هذه حال المرأة حتى تلغ الأرباب ، فتصبح « أم العيال » ، ويتسنى بذلك عهد الصبي والنزل .

وعند السجدة — وعلى لأخص النصارى — لا تقوم المرأة بحلب الماشية ، وقبلما تقوم برعيها . وهذه الحاة تختلف عما هو سائد عند حيراهم من العرب مثل الرشيدة ، الذين يشتدور فى معاملة النساء ، إذ يشتركون بساؤهن فى أعمال الرعى وحلب الماشية ، وفى كثير من صروب النشاط ، وقد نصرت المرأة عند الرشيدة ، ولكنها لا تصرف لدى البجة ، وإن كان ذلك لازماً لها فى بعض الأحيان عن جدارة واستحقاق .

وتنحصر أعمال المرأة عند البجة فى القيام ببعض الصناعات مثل عمل أوعية من الخلد وتجليتها بالودع ، وسج الشملات من صوف الماعز أو الغنم أو وبر الإبل ، ويقمن بتربيت الرحائل لئى يحلمن عليها حين تنقل بهن الإبل من مكان إلى آخر . وكذلك يسج الأسرة ، التى تصنع من الخوص ، وتربط بسيور من الجلد . وفى وقت « الحريف » أى موسم المطر يصنع السمن من الألبان المتوفرة فى ذلك الوقت من السنة .

فما مضى كانت المرأة فى الميراث مكملة ملحوظة ، إذ كان الولد يرث خاله ، وقد كان لدخول البجة فى الاسلام أثر فى تغيير هذه المادة ، فأصبح النساء يرثون آباءهم . ولكن صحب هذا التحول حرمان النساء من الميراث عاماً . لأن المرأة إذا ورثت انتقل ما ترته إلى قبيلة أخرى . وكان من أهم الأسباب فى تركيز الميراث فى ابن الأخت ، أن الأخت كانت متصلة بأخيها ، فيظل لارث فى القبيلة أو العشيرة ولا يخرج منها . والظاهر أنهم يحشون من توريث البنت لثلاثين إلى العشيرة الأخرى التى تنروح منها . ومهما يكن من شئ ، فإن هذه المادة تنقص

من حقوق المرأة عند البجعة . وقد ظهرت لدى الامراء حركة ينادى أصحابها بأن هذا الاحراء مخالف للشريعة . ولكن هذه الحركة لا تزال في بدايتها .

الزواج :

وحده الشبه كثيرة بين الزواج لدى البجعة وعند القبائل العربية . وأبناء العمومة أو الخؤولة معصون دائماً ، ولا يعطى الرجل ابنته زوج غريب إلا بعد استئذان أقاربها الصالحين للزواج ، والصدقات يحدده العرف السائد ، وهو عند الشاريين الملييات لا يقل عن ثلاث من الإبل ، وثلاث من النعم ، جزء للأب وجزء للام وجزء مساو للحال الأكبر كذلك يقدم الخطيب هدايا مختلفة من الأقمشة والأسلحة وما إليها .

هذا بالطبع هو أقل صدقات ونعما لمقام الزوجة والزوج يرتفع الصدقات إلى الصنف أو إلى أكثر من الصنف . وبدأ الخطوبة عادة بأن يقدم الخطيب هدية من البن والسكر أو بعض الماء وهذه الأشياء ترد إليه إذا لم يكن طلبه مقبولا . فإذا تمت الخطبة ، يقدم الصدقات الذي يقضى به العرف ، ويعطى للزوج والزوجة ناقة عشراء وتكون بداية عهد الزوجية .

وتقوم ساء الحلى ساء بيت الزوجية الحديدية ، ومن المادات السائدة أن تعد النساء ثمناء الشروع في ساء المنزل ، طبقا فيه عمر وحاتم من الفضة أو الذهب . فإذا قبل رجل واقترع من النسوة وهن يقمن بأعداد المنزل ائتمت له أحداهن وقدمت إليه الطبق ، فيضطرون لأن يتناول بعض التمر ويضطرون في الوقت نفسه لأن يقدم هدية إلى تلك المرأة ، والهدايا التي تحصل على هذه الطريقة يستمتع بها في إعداد وليمة المرس . ومعظم رجال الحلى يعرفون هذه المادة ، ولذلك يحذرون أشد الحذر من الاقتراب من مكان يبنى فيه بيت المرس .

وساء المنزل يشتمل على إعداد الأبراش والشملات اللازمة ، وتركيبها وتحليتها بالأصباغ والألوان برسم دوائر وخطوط عليها ، وفي النهاية يحلى مدخل المنزل بحلقة تصنع من الألياف الصغيرة من نخيل الدوم ، وهذه تربط فوق المدخل ، ويعلق بها حبل على صورة مقود الماكة ، وحف صغير مما يلبسه الأطفال الذكور . والغرض من

هذا حطب السعادة الزوجين ، بأن يولد لها الأصيل الذكور ، والإبل الإناث ، وهذا بالطبع منتهى السعادة وأقصى ما يتمناه الزوجان . غير أن هذه التمويده (التي تدعى سكبواب Sankwab) لا تعمل إلا لمن يتزوج للمرة الأولى .

ويجوز الطلاق عند البجعة طبقاً للعرف السائد عند العرب ، ولكن لديهم عادة خاصة تدعى « التعليق » أى أن يطلق الرجل زوجته بشرط يفرضه عليها ، فإذا لم يستوف هذا الشرط لا يجوز لها الزواج من رجل آخر ، بل تصل معلقة . كأن يفرض عليها مثلاً ألا تتزوج من رجل يشك في أنه عشيقها ، وأنه هو السبب في فساد الزيجة الأولى .

احترام الحِم والحَماء :

يحترم الزوج حماته وحَمَاهُ احتراماً شديداً يذكّرنا بما هو سائد عند الديكا ، بل لعله أقوى عند البجعة منه عند أية جماعة أخرى . ويبلغ بالحق هذا الاحترام درجة تجعله لا يستطيع الخوس في حصرة الحِم . ويتجنب حماته كل لاحتساب . ويروى الأستاذ كلارك أن أحد الشاربين (العلياب) انتحى في سنة ١٩٣٤ ولم يتم العمدة بالتبليغ عن هذا الحادث فعوقب من أهل ذلك ، وأظهر البحث والتحري أن سب انتحار الشاب يرجع إلى أنه حطب فتاة من أبيها ، فوافق الأب على ذلك غير أن السنة السوء وشت بالشاب راعمة أنه عاشق لامرأة هذا الشيخ ، أى حماته في المستقبل ، وأبى الوالد أول الأمر أن يصدق تلك الوشاية ، فما تكررت دعا إليه هذا العنى وواجهه بهذه التهمة ، فكان مجرد التهمة من الشاعة بحيث لم يطلق الشاب أن يعيش وهو في ظل هذه الوصمة ، فأمسك بسير من الحلد وشنق نفسه .

الأطفال المولودون خارج الزواج :

يقول كلارك إن انتشار العلاقات غير الشرعية وانماضى عنها ، استمر أن ينظر إلى الولد الذى يولد خارج الزواج ، نظرة تمطوى على كثير من التسامح ، فلا تلحقه وصمة ولا عار نسب حادث ولادته . وهؤلاء الأولاد يلتحقون في النسبة بأمهم . وإذا كانوا ذكوراً كان لهم جميع الحقوق التي يتمتع بها أبناء اأقنية ، وعند بعض الشاربين تدل البست على الرجل الذى أعواها ، وله الحق في هذه الحالة

أن يأخذ الفتاة واسمها ، ويدفع مهرأ مخفصاً قلماً يريد على بعير واحد ، وبوجه عام تصبح قيمة الزوجة التي سنن لها أن حملت من غير روحها ، في سوق الزواج أقل بكثير من صواحبها . . . وكثيراً ما تلجأ الفتاة إلى هذه الحيلة لكي تتزوج من الرجل الذي تحبه ، وتتجنب الرجل الذي أختارته أسرته ليكون سلاها .

الوفاة والحجارة :

يدفن الميت في حفرة ويهال عليه التراب ، وتغطى الحفرة عند مص القائل (العطره) بحصى أبيض ومن حولها إطار من الحصى الأسود ، وأما الأطفال فلا يوضع على مبرم سوى الحصى الأسود . وهذا الحصى الأسود لا يوضع على القبر إلا بعد أن قرأ عليه آيت وسبيحات

ويحتمل ذكرى عقيد ثلاث مرات إذا كان له بعض الخطر ، المرة الأولى بعد أسبوع من وفاة ، والثانية بعد أربعين يوماً ، والثالثة بعد مضي عام . وبذلك ينتهي الحداد . . .

دق الطبل :

ومن عادة الأمراء أن أقرب الناس إلى الفقيد يحرم على نفسه أن يجلس على فروة إذا رك بعيره وذلك من مظاهر الحداد . فإذا كان الفقيد من الرؤساء أو من في صفتهم دق له الطبل مرة واحدة ، ثم لا يدق بعد ذلك عاماً كاملاً ، ويطلق على الطبل اسم النحاس ، وهو الإسم الشائع في السودان ، وذلك لأنه عادة يتكون من قاعده كروية من النحاس شد عليها عطاء من الخشب ، ولا يدق الطبل عادة إلا في ثلاث مناسبات : الأولى بعد وفاة فقيد عظيم ، والثانية للدعوة إلى الحرب ، والثالثة لحمله عطيمة تهب القسلة كلها . ولا يجوز مطلقاً أن يدق النحاس لسب تافه ؛ لأن له تأثيراً شديداً في نفوس الناس . ونهيج له الجميع حتى الشيوخ الطاعون في السن . فلا يكاد الطبل يدق حتى تنور الحماسة في القلوب وترهف الأعصاب ، وتحرد السيوف من أعمادها . ولكل قبيلة طريقة أو عدة خاصة في دق طبلها ، تميزها عن غيرها .

الحياة الاقتصادية

الزراعة :

ليس من المتصور في بيئة مغلب عليها الصعوبات الصحراوية في معظم جهاتها أن يكون فيها للزراعة شأن كبير ، ومع ذلك هناك جهات متفرقة أمكن أن نشأ فيها حياة زراعية . وقطع النظر من التطورات الحديثة التي جاءت نتيجة لتسليم الثروة المائية المحدودة لكل من خور بركة ، واستغلالها في ري نحو ٣٠,٠٠٠ من الأفدنة ، وفي خور الحاش لري مقدار معادل ، وما ترتب على ذلك من نمو الزراعة في منطقتي طوكو وكسلا ، فإن البجة قد مارسوا الزراعة في جهات متفرقة ، وعلى الأخص في الحبوب ، وعلى صغاف المطيرة ، وفي بعض الأودية والأحواض ، وفي سهل المنطقة حيث يعود المطر من عام مام ، وإن كان من عادة أن يخلف الظنون في بعض السنوات .

والزراعة بوجه عام لا تدرس بحماسة وإخلاص ، شأن البجة في ذلك شأن جميع الرعاة في جميع الأنظار . ومن الحائر أنهم لم يكونوا يمارسونها مطلقاً ، أو كانوا يكونون أمرها إلى الخدم والعبيد . وبعبارة أخرى ، فمهم الزراعة بحسب أنواع الحبوب إلى أربعة أقسام :

١ — في الأقاليم التي على الشبهة بالصحروية تقع مسجلة ، را حادها أو حتى ، التي الزارع بالحلب في الأرض ، ثم يعود إليه بعد ثلاثة أشهر لملعاطيمة أن تكون قد قامت بالواجب فأنتت الزرع فاستغلظ واستوى على سيقه . وهذه الزراعة وسط الفيافي ، كثيراً ما تتعرض لها الإبل الساعة ، فتري فيها مريعاً شهيحاً فتشبهها عن آخرها . فيصيح صاحبها ويضج بالشكوى مطالباً صاحب الإبل بمرامة كبيرة ، وهذا من أهم أسباب التقاضي .

٢ — على صغاف نهر المطيرة ، يمكن للبحاوي إذا شاء ، أن يستفيد من قصان النهر ، فيقتطع ريشاً يهبط الفيضان ، ويرجع الشواطئ ، وحرر ، كما يحدث على طول نهر النيل . غير أن هذا العمل يتطلب مجهوداً زراعياً خاصاً ، إذ لا بد من تطهير

الأرض من الأعشاب ، وعدادها إعدداً خاصاً . ولا يقل على بدل مثل هذا المجهود إلا من استاد الإقامة على شواطئ النهر ، مسطوبلاً ، كما هي الحال في إقليم النوبة . ولذا يقوم المصاوي بإحسانه الزراعية لها في شيء من التراخي .

٣ — بذلك نراه يؤثر الزراعة في سهل البطانة نفسه ؛ وللشواطئ النهرية ميزة أنها لا تنوء فيها الزراعة على المطر ، لأن العيصان يدع العربة في حالة من الرطوبة تمكن من رعتها ، ولكن سهل البطانة له ميراثه ، وهي حصوبة التربة ، ووفرة المحصول لأقل مجهود يبدل ، بشرط أن تتوفر للزراعة مقدار — ولو معتدل من المطر . والبشارى في سهل البطانة متفائل دائماً ، وقد يهمل زراعة الأراضي الحدية على شواطئ المطر ، أملاً في سقوط المطر وحيث محصول وافر في سهل البطانة ، وقد ينجح طبعه فتتبدل منه الزراعة في الإقليم مماً ، ويصنع عليه ما عساه أن يكون ينوره من الحبوب . والسبب الأساسي ، السكائن وراء تفضيل السهل على الشواطئ هو بفض العمل اليدوي ، الذي يحتقره البدو عامة . وليس يستغرب أن نحمده لدى الأمراء والبشاريين .

ونسبه الزراعة في سهل البطانة ، ذلك لأقطار الحموية الممتدة حدود الحشمة ، حيث انظر نهر وأوهر ، وسقوطه أقرب حملاً . وذلك رى أن حط المهنددوه وبني عامر من الزراعة أكثر من حط سائر أبعده .

٤ — والصراع الرابع من الزراعة ، هو ما يحى في ذلك ركة والحش ، وهذا زراعة تكون على العيصان . وقد دمت زراعة هذا حديثاً نصيباً خاصاً ، وبدأت زراعة دلتا الحش في عهد محمد علي ، ثم استمرت في نمو والزيادة بعد ذلك . ويقول الأستاذ بيوبولد إن المهنددوه في إقليم الجاش يقبلون على الزراعة إقبالاً لا بأس به . ولم يكونوا زراعاً من الطراز الأول ، فإن ما يقومون به عملاً بعد تقدماً عظيماً بالنسبة إلى أعمالهم قبل ذلك . ووفق كبير بين شعب اعتاد الزراعة منذ آلاف السنين ، وبين قبائل بدوية لم تكن تقبل على الزراعة إلا عن كراهية واضطرار .

وأهم ما يزرع هو الحبوب ، وعلى الأحص السرة الرقيقة . وفي الأقاليم الشمالية ، حيث الزراعة هائلة والمحصول ضئيل ، ترى البشاريين وغيرهم مضطرين كل عام إلى

شراء حاجتهم من الحبوب للطعام ، ولكي تستخدم ثباته التقاوى عند الزراعة
أما في الحبوب فإن البجعة قلما يحتاجون إلى شراء الحبوب للقبول أو الزراعة .
ويصف لنا كلارث بعض المراسم النعمة و. الزراعة ؛ ويقول إن البجعة يقربون
قرباناً في الحقل قبل بدء الحبوب ، ويدحجون بحلاً أو حلاً أو كشت أو ممرى ، تبعاً
لقدرة المزارع وسعة لأراضي التي يملكها ، وبعضهم يصب هودجاً ، فتعدو حوله
رجال على ظهور لابل ، والساعة عرد ؛ وبعضهم — دوو الرعاة الدبية —
يلتزمون الصيام فترة من الزمن ، وآخرون يكثر من الصلاة — صلاة
الاستسقاء — والدعاء والتسبيح .

فإذا اقترب وقت الحصاد ، ضرراً ذلك موعداً لا يحفوه ، وفي هذا العمل
بالذات يبدى البجعة نشاط كبيراً ، ويتفقون أنهم يحكي غلته من صاحبه
ومن عادتهم أن من انتهى من محصوله أولاً يصيح بخاره : «الأرب حالك» وهكذا
حتى يسي آخروهم وهو الذي وصلت إليه لأرب ، فيضحك الآخرون منه . وربما
كانت هذه تبة عادة قديمة . وهكذا نرى أن البجعة — إذا تقاءموا وتكلموا
في أعمال الزراعة — يبدون نشاطاً هائلاً وقت الحصاد

الرعى .

على الرغم من احتراف الزراعة ، ويمدد أنواع المزارع ، وضرورة أعمال
الزراعية لاستكمال التنمية ، فإن الرعى هو الحرفة الأساسية لجميع البجعة ، على
اختلاف قبائلهم وأوطانهم ، وقد ازدادت صروب النشاط الاقتصادي ممدداً
وتنوعاً في الأرمنة الحديثة ، وأصبحت تتناول البيع والشراء ، والتجارة في مختلف
مظاهرها ، وتتناول استعمال بعض العملات الطبيعية ، كما تتناول العمل في المواشي
وفي الخدمة العامة (الجيش وما إليه) ، ولكن هذه الفواحي المختلفة لم تستطع أن
تحقق الحقيقة الأساسية وهي أن البجعة شعب من الرعاة ، وإن تعددت وجوه النشاط
فيه وتنوعت . ومن الممكن أن تتصور أنهم جاء عليهم حين من الدهر لم يكونوا
يحتفون حرفة أخرى . بل كان حل اهتمامهم وضم حياتهم مركزاً حول القطعان
والعناية بها والدفاع عنها . فبدأ نازع حول أرض ، فذلك لأنها مرغى لماشينهم

أو فيها آبار سقاية دوائهم ، وإذا أغاروا على حيراتهم فإن أهم أسباب الخصاص
الحصول على قطع أو الثأر لعدوان على قطع ، وإذا كانت الروح الحربية هي الخلق
الذي يحب أن يرى في كل فرد ، فذلك لأن حياة الرعي تتطلب التأهب الدائم للذود
عن لقطع ، ورد العدوان عنه . والطامع والخشع ، لا يتخذ إلا صورة واحدة ،
وهي رغبة في الاستئثار بأكثر عدد ممكن من الإبل . فالحياة كلها مركزة حول
شيء واحد ، ويرى ظهره في مطاع مختلفة .

ومن المضحك أن البعثة قد عرفتوا الزراعة ويزرعون دماً طويلاً ، دون أن
يعارسوا تلك الحرفة أو يتدربوا من إتقانها . ولا شك أنهم منذ زمن طويل جداً ،
عرفوا فائز الملائكة ، رعية ، وعلى لأحسن الخبوة ، وحصلوا عليها واستخدموها
في مدبهم ، دون أن يفكروا في استثمارها بأنفسهم ، وحسنهم أنهم كانوا يحصلون
عليها بحدس وسيتبين . ربما لا مرة ، بل كان لزراع - وهي الحرفة في كثير من
الأحيان - حجاب مستعصمة ، متفرقة ليس يسهل سائمين ومعاون ، ولا سام
دعائهم من دود عن أرضهم ، وإدخالهم وأشر ، بأن يطولوا يحصل عن
حاجتهم من شئمة ، يحصلوا في تطيرها ، وحاجتهم من الثمر أو الحبوب .

من البعثة حساً من ، هم يحصلون على حاجتهم من غلات الزراعة بحدسها بين
السلتين ، ولا تزال ساداة عنصرياً هم إلى اليوم في حياتهم ، تمكنهم - وعلى
أحسن ما كان شمل - من الحصول على حرفة غير قليل من قوتهم الضروري .

ولا بد من وحدة اجتماعية من ، لا كيف أخذ البعثة يعارسون الزراعة ،
مقديراً ، بل من استعترس ، الأمر من حقلهم وحرارهم ، ولكن ظاهراً
الأمر من عن شئمة البعثة لا بد من الأمر القديم ، الذي في القدم ، لأن
منازلهم وشعائهم وحسب مدبهم ، كما لا شير بأن - مجتمعهم موحدة الأرض
وحده من ، فيه جمع ما ، وكثرت فيه ، وفي جميع مطاع هذه الإحتياجية
لأستعصمة ، رعي لأحسن ما ، مع قطعاً تحل مكانهما ، فحينئذ إنهم
تدريج مدبهم في معصية حوشه معص تطور ، ودخلته ألوان مختلفة من النشاط
الاقتصادي ، لكن رعيه ذاتية لا يزال هوها الرعي والعنصر المهيمن عليها
من لقطع من شئمة من دال ولعمري .

والإبل بالطبع هي أهم هذه الحيوانات ، وأعلاها شأنًا ؛ وليست الطيور
الأخرى سوى أجزء متممة للثروة الحيوانية . ولا وجه للمقارنة بينها وبين الإبل
في الأهمية ، والقبيلة التي تنقص إبلها ، تنبذ تتعرض لسكارثة محققة ، وإن تلت
زمنًا طويلاً حتى تذهب ويحيا ، ويضطرب كيانها ، ولا بد لها بعد ذلك من أن
تندمج في قبيلة أخرى أو تتعرض لعناء محقق .

والأرجح أن الإبل لم تأت إلى البجّة عن طريق البحر الأحمر مباشرة ، وإن
الاتصال بين جابى البحر في هذه المنطقة لم يكن ميسوراً في الأزمنة القديمة ،
وأكبر الظن أن استند إبل كار من الشمال إلى الجنوب ، أي أنها وصلت إلى
بلاد البجّة بعد أن وصلت إلى المطم المصري ، ومدت تشارها في بحر مصر ، في
عهود مطالسة ورومان

وأيا كان الوقت الذي قدّر فيه المجه وقتد الإبل - إلى جانب ما كان يسهم
من الماشية قبل ذلك - فإن إدخال الإبل إلى بلادهم صديق تربية حسنة . وضح
هذا التعبير ، لا تشابه ، وربما أنها وقد كان محبلاً لا شئت دعاء بارعين قد أن تدخل
الإبل ديارهم ، فلما جدوا في اقتنائها لم يشعروا أنها لها . وتدوا في تربيتها بركة
فائقة لا تقل عما أبدته أي قبيلة عربية ، أشهر تربية الإبل ومن الخيل بالطبع
أن السجدة قد عرفوا بعض مواعيد أساسية لتربية الإبل من جماعة أو لحاج
لبي أحدهم عنها هذا النوع الجديد من الحيوان . لكن لا شئت أنهم زادوا كثيراً
من ما تعلموه ، وتخصصوا في تربيتها على طريقهم وأصاليهم ، وبذلك اختلعت
طرقهم عما هو متبع لدى الكوش مثلًا ، وليس غيرهم من القبائل ذات الإبل
التي تعيش في الجبال الغربية من النيل .

لم يلبث البجّة بعد أن اقتنوا الإبل أن أدركوا الصفات الأساسية التي تميز
بعضها عن بعض ، وأن إدراكه عنصر هام في تربيتها ، وفي تأكيد بعض صفاتها
المتأثرة ، وهالك بالطبع صفتان أساسيتان : السرعة من جهة ، والقدرة على حمل
الأثقال ، وأن كلا هاتين الصفتين لا بد من توافرها . وكان من الجائر أن تتجه تربية
الإبل نحو الجمع بين هاتين الصفتين ، بأن تكون الإبل ذات سرعة مقبولة ، وفي
الوقت نفسه تستطيع أن تحمل أكبر مقدار ممكن من الراد والتاع . غير أن طريقة

الوجه في تربية الإبل ، حملهم يدركون أن الجمع بين هاتين الصفتين على الوجه الأكمل
يوشك أن يكون مستحيلا ، لأن إبل الحرج ، يجب أن تكون قوية العضلات ،
ضخمة السنام ، وباحملة ثقيلة الورر إلى درجة بعيدة ؛ بينما المهجن السريعة العدو
يجب أن يكون خفيفا ، قليلة نسجهم ، حتى تكون سريعة الحركة إلى أبعد مدى .
لذلك ترى المصحة قد جهت في تربية الإبل وجهتين : لأولى تربية الإبل السريعة
حداء ، والأخرى تربية الإبل القوية ثقيلة التي تعمل أمتعتهم إذا استقلوا من مكان
لآخر . فأخذوا يربون إبلهم بدقة وعناية حتى يبعثوا ، بطريق التورث ومراقبة
التناسل ، إلى سيطرة هذه الصفات . وبذلك انقسمت الإبل لديهم إلى
هذين النوعين .

والإبل سريعة عند الوجه إلى عناية خاصة ، لأنها أعظم مما يدل من العناية
في تنشئة النوع الآخر . وتبدأ العناية بها من قبل الميلاد . فلا يسمح للمائة السريعة
أن تسبل إلا من بكر سريع . وكل فصيلة يوجد تكون شجره سنة معروفة ومحمولة
والعناية تبدأ باختيار الأم ، يستمر بعد تولده . في جميع المراحل ، إلا لا بد
من ضرب غسل في السور الأربع لأولى من عمره ، إلا تدر أو استحالة
تدره عند ذلك . وحتى تتم تدره أصبح صاحب نركوب ولقطع المسافات البعيدة
في سرعة في قطع أحيا سريعة . يملأ من شربهم المجدبة ذلك في مصر
و سودان ، وأخص حكومتهم على قدرتها جميع لأعمال التي تفصل براقه الحدود ،
وكانت في ماضي لها مكان في نظام حموس . ولا شك أن الدافع الأكبر الذي
حدا بأسرها إلى هذه السرعة ، هو ما لها من شأن الأكبر في الحرب وفي الكر
والفر . وفي لا تقصص عدا على مدو . حتى يقوم بالوراء أي يقتل له الخيل
في البلاد العربية . ومن من سهل على مصحة أن يروا خيل في وضعهم التي
لا ينوم فيها أمشب إلا في جهاب متعدة . وتقتل العربية التي تقتل الخيل
صطر لأن تخصص لها عددا من الإبل لتعمل القوت اللارم لها ، أثناء قطع
المسافات البعيدة في الصحراء ، ولا شك أن في هذه تعطيل لعدد كبير من المشاة ،
وإذا أمكن أن تعمل الإبل عمل الخيل ، فإن هذا أوفق ليثة البادية .

وهذه الإبل — عندما اشتهرت به من السرعة — تعد مطية مهلة الركوب ، لا يحس راكبها بصياً ولا عاء ، ويستطيع أن يقطع المسافات البعيدة ويقصى عن ظهرها الأيام الطوال دون مشقة ، لأنها عودت منذ الصغر أن تمشي مشية مستوية سهلة ، في حطائها السريعة أو المعتدلة . وبطراً لطبيعة البنية التي تجمع بين المسالك الوعرة في الجبال والفيافي الواسعة في الصحراء ، اعتادت هذه الإبل أن تسلك الطرق الجبلية المنحدرة والممرات والثناء الحجرية ، من غير مشقة ، وهي ثابتة الخطى ، لا يخشى عليها أن ترل بها الرجل أو تنثر في الأحجار والمنحدرات والشعاب الصيقة ، وهي ميزة قلما نجدها في الخيل .

لا شك أن الإبل السريعة تحتل المكان الطاهر الراق من حياة البعجه ، فالنشاط الحرن والرياضي والحملات لها فيها السكان الواضح المنار . وهي أيضاً التي شكلت المجتمع ، بأن حملته يجمع بين التفرق في مختلف الأنحاء والأودية المعرلة ، والتجمع السريع إذا كان هناك حاجة لهم شمل القبيلة ونحميمها لمرص من أغراض الحرب أو السلم . ولكن هذا يجب ألا يسببنا أن فوام الحياة الاقتصادية هو الإبل الأخرى ، التي تستخدم في الحر ، وهي التي تدر الألبان الغزيرة . وتساعد في انتقال المشيرة من موطن إلى موطن . وهي العماد الأساسي للاقتصاد القومي ، وهي التي تستخدم في نقل السلع والملاط الزراعية ، فوق حملها للحجيم والأش والأمتعة ولأولى . وهي عماد النشاط التجاري ، يؤجرها البعجه للنقل في الصحراء للحكومتين المصرية والسودانية ، حيث تستخدم وسائل النقل الأخرى . وقد تؤثر للأفراد أو للبعثات ، وهي بذلك تكون مورداً من أهم موارد الرزق . ولما لا تقل عناية البعجه بها عن عنايتهم بالإبل السريعة التي تستخدم في الذود عن القطعان ، وحماية الممتلكات .

فالعناية بالإبل إدر تشمل النوعين ، وإن كانت المهجى السريعة أقرب إلى قلوب البعجه ، لأنها موضع افتخارهم ، ولأنهم يصطحبونها ، وتلزمهم في أسفارهم ، ويركونها حتى في غير أوقات الانتقال من مرعى إلى مرعى . وكثيراً ما يكون للرحل هيئته المفصل يعرفه باسمه ، وبصاحبه في غدوه ورواحه . وبين الاثنين

علاقة وصلة ، لا يقتضى وجودها بين الرجل وبين الإبل التى تحمل الأثقال .
على الرغم من هذا كله يعنى الصحوى بإبله كلها ، ويعرف طباعها وحاصلها ،
وهو طبيب معها وأمراسها ، ويسمى فى كل مرحلة من حياتها باسم خاص ، كما
يفعل العرب تماماً . ولكل قبيلة علامة تكوى على كل جمل أو ناقة ، وتعرف بأوسم ،
يميز إبل كل قبيلة عن إبل القبائل الأخرى . وهى علامة واضحة لا يمكن إحصاؤها
أو سترها . وقد تكون على العنق أو البطن أو أى جزء آخر من جسم البعير
أو الناقة . وإلى جانب العلامة الأساسية ، خاصة بالقبيلة ، يصيف كل جماعة أو أسرة
علامة أخرى خاصة بها ، وكثيراً ما تكون هذه العلامة الإضافية هى لأسره الأم
إذا كانت الأم من قبله أو عشيرة أخرى ، وهذه بقية أخرى ليعود الأم بين
لحمه وفى أثناء السمع والشراء والمادة نصف علامات أخرى ، بحيث يمكن
لحجبر أن يصالح على حد الحمل تاريخه فى صورة مصمرة ^(١) ، ولو أن بعض
الشربين يكفون بعدد صمير من العلامات : علامة فى أعلا الساق ، وأخرى على
العنق تحت أو من مسطرة .

وبه لح السجدة إنهم بط فهم ابتدائية ، حيث لا تتوافر وسائل العلاج الحديثة .
والكى من أهم الوسائل التى لمحاوون إليها وقد يستخدمون السكين ، فى
استئصال كتلة مريضة من اللسان أو أى جزء آخر من الجسم .

ورعى الإبل فى بيئة كالتى يعيش فيها السجدة تستدعى بالصع كثيراً من التنقل ،
فإن الإبل على الرغم مما أشهر من قدرتها على أن تقطع أناما وليالى من غير طعام
أو ماء . ليس معنى هذا أنها قليلة الطعام والشراب بوجه عام . والصحيح أنها
يرمها الكثير من الماء ، وقسط وافر من الراحة فى الرعى ، قبل أن تشرع فى
رحله طويلة . وإذا كثرت الإبل فسرعان ما تستبعد الرعى القريب ، ولا بد أن
تساق إلى مرعى آخر . فإذا استنفدت المراعى القريبة فى موطن من المواطنين ،
فلا بد من الانتقال بها إلى موطن يبعد عن الأول بمسرات الأميال . ومن الجائز
للقبائل القليلة التى تعيش على حافة نهر كبير كالمطيرة أن تظل قريبة من مواطنها

(١) راجع مقال كلارك المشار إليه فى S. N. R. لسنة ١٩٣٨ من ٢١ .

الأصلية ، حيث لا تقدم الماء والرعى . ولكن القبائل التي تقيم في حوار الجبال ، وهي الجهات التي كان لها فضل كبير في تشكيل حياة البجّة الاحتمالية والاقتصادية ، لا بد لهم أن يتحولوا عن موطن إلى آخر تبعاً لما يقتضيه البحث عن الرعى .

وفي السهول الممتدة شمال المطره إلى القطر المصري ، حيث يغلب الخفاف ، ويقل الماء الجارى أو ينعدم ، ترى الآبار بعيدة بعضها عن بعض ، وكثيراً ما كانت ملكية هذه الآبار بحال لا يقع بين القبائل . وصراً لقلة هذه الآبار يرى حولها حاملاً لا يكاد ينقطع ليلاً أو نهاراً ، وعلى الأخص في الليل . فلا كادته جماعة من رعى مشينها ، وملء فرسها ، والمضى في سبيلها حتى تحيى جماعة أخرى . لا ينقطع النساء والشيد ثماً ، هذا كله . ويرعى كلارك أن يمتدح مئات من الأمانى يشدونها وهم يسقون مشينهم ، ولكل نوع من الحيوانات ، في رعيه ، يشيده احص .

وإلى جانب الإبل يربى بجه قطعان كبيرة من الصغار والسنن . ويصفقون عليها اسم لاشية انديقة (لسميره الحجم) إذ فورب إلى ماشية الحظية وهي الإبل . والماعز كما هو معروف أكثر احتمالاً خشونة العنق من الصغار . ويقول كلارك إن البجّة يربون الصغار ، بحيث يكون موسم تولاده في الصيف حين يبدأ موسم المطر . وتأخذ السمات في النمو ، فتمضى الحملان حلف لشيء وترعى معها . أما موسم تولاده للماعز فهو الشتاء ، حين تكون القبيلة أكثر سفراً ، لأن الحدى الصغير يتعرض للضياع إذا ترك لكي تتبع أمه في مواسم الانتقال . وتوفيت مواسم الولادة على هذه الصورة هو من عمل البجّة أنفسهم ، ولكن لعل السبب الذي دعاهم إلى ذلك ليس ما يقوله كلارك من خوفهم على الحديان أن تصيع وهي تنزع العترات ، بل إنهم أرادوا أن يجعلوا للصغار موسمًا وللماعز موسمًا ، حتى يكون لذيها موسمًا لرعاية الصغار ، والعناية بها . وبالتالي يكون لذيها موارد اللادان واللحوم في المواسم المختلفة .

ويربى البجّة ، إلى جانب الإبل والضأن والماعز ، قطعاناً من البقر . وهذه الثروة الحيوانية ليست مقصورة على قبيلة من القبائل ، بل يشترك الجميع في تربية البقر ، وإن كان بعضهم أعنى من البعض . وبديهي أن تربية البقر لا تنجح إلا

لكن الأفطار التي تتوافر فيها المرعى فترة طويلة من السنة ، ولا سبيل إلى اقتناء
القر بواسطة سكان العتمور أو القساي ، أو الأقاليم الشمالية بصفة عامة . ولكن
طراً لأن أوصان الشارين قد اتسعت وامتدت إلى نهر المعطرة ، فإن هذه القبيلة
أصبحت استطاعت أن تمتلك قطعاناً من ابقرة ، وإن كانت أقل بكثير مما يقيه الأمرار
أو الهددوه أو بنو عامر ، أو القبائل الصغيرة من الوجهة مثل الخالقيا والأرتيقا .
ولكن مع ذلك لا يستطيع أن يسمى الوجه رعاة بقر أو نقارة بالمعنى المعروف ،
لأن ابقرة ليس هي الماشية الرئيسية لمطعمهم ، وأكثرهم لم يفكر في اقتنائها إلا
في العقود الحديثة^(١) . والجماعات التي تمتلك قطعان البقر ، هي في العادة نفس الجماعات
التي تمارس الزراعة وكثيراً ما ترى قطعانهم في سهل البطانة ترعى العشب ، وهي
تحتل من مراع من الإبل والحصان والبقر والخيول . وهكذا نرى أن ماشية
الوجه أكثر حرصاً في الشغل ، حيث تملك تربية الإبل ، ثم تردد احتلاماً
وسوفاً كل أختها إلى حنوب من في تنوع الثروة الحيوانية في الحنوب ،
من يقيم له عوق الشارين الشماليين في تربية الإبل على جميع الوجهة .

وللمحبة نداد خاصة تفصل بالليل وحلب الماشية ، منها أن الرجل كما ذكرنا
من قبل ، من حنوب الماشية ، ويكرهون من الزبيدية والرشيدية (وهم عرب
من أن حدمو محمدي إلى السويان) أنهم سمحوا للنساء بحلب الماشية .
ومنها أنهم لا يخلعون في وعية من النجار ، وإن كان لدى كثير منهم وعية فخارية .
وأيضاً ، انقصر حب الألبان هو انقصره الحافة ذات الفشرة السمكة ، أو أوعية
الحوص ، وهي سمع من الحوص أرفع حد . ويقول الملحار إنهم ربما استخدموا
قرنه من الأده لهذا الغرض أحياناً ، ولكن هذا نادر .

ومن عاداتهم أيضاً أن الرجل بعد الحلب لا يجوز له أن يذوق قطرة منه قبل
أن يتناول منه شخص آخر حنوتين أو ثلاثة . ومن أكثر العادات أن يرتكب

(١) جون (استدساجر في ماله The Hamitic Problem (مجلة IRAL) سنة ١٩١٤
ص ٦٥٤ وما بعده) إن بعض الوجه يهدون القر ماشية حنوتة ، وهذا القول يطبق بوجه
خاص على الأمرار . وقد يهدون إلى غيرهم .

وحل هذا الأمر لشكر . مهما بلغ به الطمع . وهم يصفون هذا العمل المستحق ،
بقولهم « فلان حلب وشرب »^(١) .

الصناعات :

حياة البداوة وكثرة انشغال لا تساعد على شغل صناعات كثيرة ، فالصناعة
مقصورة على الأشياء الضرورية . ومن الجار أن تصنع أشياء قليلة لكي تناع في
أسواق بعض المدن لدى اعداد في اقتنائها . والمادة الأولية بالطبع محدودة ، وأكثرها
مشتق من النباتات أو الحيوانات . وأهم النبات نخيل لدوم ، وشجر السنط ، وأهم
الغلات الحيوانية الشعر والصوف ونور الخلود . ولأبناط الطبع لصناعة السمن ،
وليس هناك مجال كبير لزيادة الإنتاج والتفنن في الصناعة ، إذ كانت المهمة متجهة
إلى الفائدة العملية دون سواها . ومع ذلك فإن الطمع الشري لا بد أن يكون له
أثره ، ولذلك لا ينجو الأمر من بعض الميابة التحميل .

ومن أهم أنواع السيج ، صنع الشملات . وهي تصنع عادة من شعر الماعز ،
وأحياناً من صوف الغنم . ولكن أكثر ما يستخدم فيه الصوف هو لتحميل
الشملات أو الأوعية الجلدية . وهذه الصناعة كما سبق ذكره من أحسن عمل النساء .
وعد أشهر بعض الأمرار في صناعة الرداء ولا كور للإبر . وجميع النح
يعترفون لهم بالبراعة في هذه الصناعة . كما يشتهر بعض المشائير النشارية
بالمصنوعات الجلدية ، وبديع الخلود ، وبعض هذه المصنوعات قد تجد سيلاً إلى
أسواق أسوان .

ويستخدمون في الداع القرد ، لشتق من شجر السنط . فيقطعون دوع
الشجرة التي تحمل القرد ويتركونها لتجف . ثم يتحدون أحواصاً من الطين
ويغلاونها بالماء ، ويجمعون فيها القرد بسمه رطل من قرد لكل قرة من الماء .
وفي هذا المحلول يضمنون الخلود ثلاثة أيام سوا ، ثم يميرون الماء . وهذه العملية تتكرر
ثلاث مرات . يستخرج الخلود بعدها وعسل الماء مراراً ثم تغلا بالطين وتعلق
على الشجر لتجف ، وبعد أن يتم حدها تؤخذ من الشجرة وبعض عنها التراب

(١) سلجيان في نفس المقال والموضع .

وتفصل وتخط على شكل قرب . وتستحده في حفظ الماء ونقله من مكان إلى مكان ،
وسقى أثر الساعة في القرية فترة من الزمن ، ثم رمل بالاستعمال . ولا شك أن
الهرب المعسوة في هذه الصورة من أحسن وأنسب الوسائل لحفظ الماء ونقله .

وبدا كانت الخلود تستخدم في صنع أوعية لحفظ السم ، فإنها علاوة على
عمية الدم ، لا بد لها من أن تعالج بواسطة دواء أخرى تجعلها أشد اندماجاً ، بحيث
لا ينفذ منها الدهن

والبحر بوجه عام شعب لا تزال تغلب عليهم الصفة مسكنة ، والطبع الحري
الذي أملت البيئة وسكهاج المحافظة على النفس والمال وشجاعتهم وفوقهم لهم
مصرع لأمثل . وفي الزعم من أن حكم القرون حدسهم ؛ وفي براع بين
القتال ، غير أن هذه روح لا رل سائده فيهم ، متعلقة في نفوسهم . وسلاحهم
رئيسي هو سيف الخدم ، والبرقة يدق ، وفيه يستخدمون الرمح . أو القسي
ولسهم . ولكنهم يخدمون في مسطحاتهم حجارة من الحجر ، وطون عتقطن به
ويسر هناك دليل على أن هذه الأسلحة ، استضاء برقه ، هي من صنع أيديهم ،
وليس في أوطانهم معدن حديد . وبذلك لا بد أن يقرر أنهم يشترون سيوفهم
وحمايرهم عن طريق سمع والشر . وسدون حديد ملحوظ في العناية بها
ويحسون على قتل أحوالهم وأحسب ؛ ومن الحار ، بل الأرجح ، أن سلاحهم
في مضي كان الرمح ، سلاح أهل جنوب ، ولكن سيفهم من شمر ، أو من
حريه العرب عن طريق البحر الأحمر . وقد يشتر أن وصحهم مبرة السيف على غيره
من صروب لأسلحة فقلوا على قتلهم . وكثيراً ما يطلق الواحد منهم على
سيفه اسماً خاصاً ، كعده فرسان العرب . ويروون قصصاً عن بعض السيوف
وحدثها ، وكيف سقطت على الحجر ، قطعت من أعلاه إلى أسفله وهم جرا .

وتظهر البرعة الحربية لسجته حتى في لحوهم ولعبيهم . فيرفصون رفصاتهم الحربية
على دقات الطبول ، وأنشيدهم وغمياتهم تردد قصص أبطالهم . وإذا اجتمعوا في
المساء حول أكواخهم ، أو حول نار من حطب السط ، أحاطوا برجل يصرب
الرباب ، ويفنيهم الأنشيد الطويلة عن نطل من أبطالهم القدماء .

ومن رياضتهم المحبوبة أن يلقوا الحجارة على نصب من الخشب يضعونه على مسافة منهم ، ويختارون لهذه الرياضة الأحجار الباطنة المستطيلة . ويرعون في هذا براعة تامة . ومع ذلك فإنهم لم يحولوا هذه المهارة إلى الرماية بالقوس والسهام ، ولكنهم كثيراً ما يصيدون الأرنب الوحشي بحجر يرمونه به عن بعد . ولهم بالطعم براعة خاصة في ركوب الإبل ، وكثيراً ما يتسابقون عليها ، وحفلاتهم العامة فرصة لكي يظهر كل منهم براعته في ضروب مختلفة من الركوب والعدو في مختلف الصور والأشكال .

هذه خلاصة عن أبحاث عامة ، وأقسامها ، وتاريخهم وأسلوب معيشتهم . وفيه على فصول تخص كل فرع من الفروع الرئيسية للبحث بواحد منها ، وتتحدث فيه عن كل من تلك القضايا بشيء من التفصيل . على الرغم مما قد تضطر إليه من تكرار في سرد بعض الصفات والأحوال الطبيعية أو البشرية .

الفصل الرابع

البشاريون (البشارين)

يحتل البشاريون النصف الشمالي من أوطان البجة ، متوغلين من جهة الشمال داخل حدود مصرية ، وممتدين في الجنوب إلى سهل البطانة ، في مساحة تقرب من ٥٠,٠٠٠ مس مربع ، منها جهات تشرف على البحر الأحمر ، وأخرى تنصل بقبض أسور ، وأخرى لمع المطارة . وهي متنوعة تنوعاً كثيراً من ناحية التصريف والمخ ، كما هو مستقر في هذه المساحة فائقة ان تتد من خط عرض ٢٤ شمالاً إلى عرض ١٦ جنوباً . ونعم ساندرو أوطان البشاريين إلى أربعة أقاليم رئيسية ، هي ^(١) :

(١) الغوبس Gwneb : هو المنحدرات الشرقية لجبال البحر الأحمر ، و سهول الساحلية التي تليها ، وتشمل جميع لأراضي التي تنحدر مياهها ووديانها شرقاً إلى بحر الأحمر ، ولا تدخل فيها المنحدرات الغربية التي تجري سيولها — إلى وادي سيول نحو غرب أو جنوب الغربي ؛ أي إن هنالك خطاً لتقسيم المياه الشرقية ، عن الغربية ، وهذا هو الذي يفصل الجوفين عن ما عداها من بلاد البجة (أولاً) ^(٢) ، ويلاحظ أن هنالك وادياً مستطيلاً يجري من الجنوب إلى الشمال في ثوة منخفضة من جبل غلة شرقاً ، ومن الجبال الواقعة على حدود مصر والسودان وفي هذا المنخفض يجري الوادي المسمى باسم وادي دثيب ، وهو "يصب" في البحر ، الأحمر في منتصف المسافة بين عيذاب والحدود المصرية .. وعلى

(١) مقال The Bishairn ، تأليف G.E.R. Sanders في مجلة S.N.R لسنة ١٩٣٣ المرة ثلثي . أو في مقال عن الشرقيين في متناولنا الآن ، ولعلك اعتمدنا عليه كثيراً هنا .

(٢) سمى منحدرات الشرق باسم جوبس والمنحدرات الغربية باسم أولب يسرى على جميع أوطان البجة ، التي يمثل فيها إثنين ، ومن الاصطلاح مقصوداً على بلاد البشاريين .

الرغم من أن هذا الوادي يصب في البحر الأحمر ، فإن معظم مجراه وروافده واقعة في الأقاليم الغربية ، ولذلك لا يعد حوضه جزءاً من الجوف .

وإقليم الجوف يمتاز بأمطاره الشتوية التي تساقط ما بين نوفمبر إلى مارس كما سبق ذكره ، ولا يصل إليها من الأمطار الصيفية إلا الدر اليسير ، حيث توجد فجوات وسط الإطار الجبلي تنفذ منها التيارات الجنوبية .

ومقدار المطر الذي يساقط على هذه الارتفاعات والمحدرات الشرفية ، ليس كبيراً وإن كنا لا نستطيع أن نذكر بأرقام صحيحة شاملة عنه ، فإما في حدود ١٠٠ مم لا يزيد على ٤٠٠ ملمتراً ؛ وهذا الرقم قد يعد كثيراً بعد خصه بتداول سنوات طويلة . فقد ثبت أنه قد يسقط في بعض السنين أضعاف هذا المقدار . وفوق ذلك ليس لدينا محطت من ناحية لمجهرات المرتفعة المحلية . وهذه قد تكور أغزر مطراً من السادل الذي سجل فيه ذلك الرقم . ولشاهد أن الحال والأودية الحميرية ذات سيات حريز وأشجار كثيفة .

وهناك ظاهرة أخرى تؤثر في السات وموه ، عدا طهره المطر ؛ وذلك أن الرطوبة السائدة في هذا الإقليم ، والندى المساقط ، والصداب الذي يكمو هذه المنحدرات طوال فصل المطر ، كل هذا له تأثير مزدوج في توفير قدر من الماء والرطوبة ، كما أن هذه الحالة تجعل الشجر فيلا ، بحيث يستفيد النبات فائده كاملة من الأمطار المتساقطة على قلتها . ولا شك أن محاذرة البحر الأحمر هي العامل الأكبر في تراكم الضباب والقيم الجيم على هذه المنحدرات ، والرياح الشمالية (التجارية) التي تهب من البحر ، تحمل معها قليلاً من الرداد التشبع بمناوحة مياه البحر ، وهذا له أثره في السات وطعمه بالنسبة إلى الإبل التي تمتد منه ، والتي لا بد لها أن تتعوده حتى تستسيغه . وهذا الأمر ينطبق بوجه خاص على الجهات الساحلية .

(ب) المتاي : هذا الإقليم الثاني من أوطان المشاريين ، يمتد من قم المرتفعات الشرقية في الشرق ، إلى وادي بيقعة في الغرب ، ومن الحدود المصرية شمالاً إلى وادي عامور جنوباً ، وهو وادي يجري في اتجاه شرقي عربي ويصب في النيل شمال الشلال الخامس ، في منتصف المسافة بين بربر وأبي حمد .

والظاهرات « النهرية » - إذا استخدمنا هذه الكلمة لشيء أكثر من
التحاور - التي تسيطر على هذا الإقليم هي من عبر شت مجموعتان ، تكون الأولى
مهما ودي دثب ، يصب في البحر الأحمر ، ووادي العلاقي ، الذي يصب في
البحر في الموضع الذي يطلق عليه اسم العلاقي ، الواقع شمال كرسكو نحو خمسين
كิโลمترا . وحتى عن لبنان أن عبارة « يصب » في البحر الأحمر أو في النيل ،
مستخدمة هنا شيء كثير من الشذو ؛ بل أن مصب العلاقي ، أصبح الآن يتقل
بأساه المشتقة من - ميل بسب ارتفاع مستوى البحران .

ومن حذر بالجميع أن يجري ليل في كل من العلاقي ووادي دثب ،
وبكر مدة هذا البحران قصيرة جداً . ومن أهم أن سطر إلى هذين مجموعتين
التي يتصلان ، وهما طغرتين متصارتين من جهة ، وأوسيه لتصرف مياههما ،
حين تجري فيهما مياه ، من جهة أخرى . وقد يؤسف في هذه الأودية أنه لا تحمله
من ١٠٠ م من بعد مياه الكافية من السلطات الرسمية ، فلم من تحتط بحراها
ورده هذه عداية حكما من تمنع خصوصها الرئيسية شيء ، من الافة ، وهذا كان
وصفها وسه ، إجمالاً ، ذات مجموعة ودي دثب ، فتتلف من حوار تجري من
البحر ، من جهة حواضر - . وذلك في الحاد حولي الشرقي من إقليم القدي
وهذا ما قد قلناه - أشهر ودي كياو ، تجري من الغرب إلى الشرق وصب
أبدا في ودي دثب ، واتحاد الذي دثب هو من الجنوب إلى الشمال ، حتى ينفرد
خط العرض ١٢ في ثوة تنقطع عندها ارتفاعات كما ذكرنا ، ثم تجري شمالا حتى
ينتهي إلى البحر الأحمر ما بين عدايا وحدود مصر ، وفي بحر الأحمر ، قد يصب
في ودي دثب من ارتفاعات ، وهذه الوادي تجري في هذا الموضع من الغرب نحو
الشرق ، من الأمتار استويها ، وذلك مجتمع في بحري أو ودي مياه صيفية
في - - - - - في مياه وهي تنزل من عذرة عن سيول قلعة
قصيرة مدة حرا .

هذا هو - - - - - الذي دثب . امتد : اتجاه حولي شمالا في النجوم
شرقية لعملى ، ملازم بدرجة ٣٨ من درجت طول ، أما وادي العلاقي ،

فواقع كله في المصنف الشمالي العربي من العتباى ، ولا يتمتع بمياه المنحدرات الشرقية ولا بالأمطار الساحلية فائدة تذكر . ومع ذلك فإن مجموعة العلاق ، مجموعة نصريمية ذات شأن ، واد حوض عظم ، وتشمل مساحة واسعة من الأرض ، ويمكن تقسيم حوضها هذا إلى قسمين غربي ، وشرقي ، فالعربي يجري فيه رافده الكبير المسمى بقبة ، وطوله يزيد على الثلثة كيلومتر ، ويجري من الجنوب إلى الشمال في الجانب الغربي من العتباى ، ويتعدى من روافد كثيرة العدد قليلة المياه حداً ، معظمها يأتي من مرتفعات في الشرق من مجراه ، وليست بعيدة عنه ، أي أنه لا يأتيه شيء من المرتفعات العالية الملاصقة للبحر الأحمر ، بل كل ما يحصل عليه من الماء مستمد من مرتفعات في إقليم العتباى نفسه .

أما القسم الآخر لهذه المجموعة ، فهو وادي العلاق نفسه ، وقد يكون من حيث الطول أقل من وادي ققنة ، ولكنه أكثر ماء ، لأن روافده أعلى واقعة على المنحدرات الغربية من حمال البحر الأحمر ، ويتمتع بما قد تحمله هذه الأودية من الأمطار ، وبعد أن يلقى هذه الأودية ، يتجه نحو الشمال الغربي حتى يصب في النيل كما ذكرنا .

والراجح أن هذه المجموعات النصريمية قد حشرت أوديتها في وف كابت للأمطار فيه أغزر مما هي اليوم ، وهذه الأودية تحكي في حرماتها صهوات التصاريح الأساسية للعتباى ، فهناك المنحدرات الشرقية ، التي تجري منها الأودية نحو الغرب ، وهذه تتحول بالتدريج إلى سهول مسطحة ، تكسوها الحصى أو الرمال الشاسعة . فالمرتفعات هنا في الشرق ، والمنخفضات تظهر بالتدريج في الغرب . على عكس إقليم الجوبيب ، ولكن هذا الاختلاف من الشرق للغرب ليس مطرداً ، بل تتخلله في بعض المواضع كتل حبلية صغيرة المساحة قليلة الارتفاع كما هي الحال حول وادي العلاق الأعلى . ومعظم هذه الكتل جرداء قليلة الشجر والنبات ، وإن كانت بعضها قد تنبع منه أودية تتصل بالعلاق ، أو يواذي كياو .

والحياة البدائية تنبع الطاهرات الماحية ، فامطر أكثر ما يكون في المرتفعات ،

حيث يكثر العشب والشجر ، ثم يقل النبات تدريجياً ، حتى يكاد يعدم في السهول البعيدة ، كما تقل فيها الآبار أيضاً .

(ح) والإقليم الثالث من مواضع الأقاليم هو المسمى تماراب Tamarab ، وهو إقليم يحكي شكل مثلث قاعدته وادي عامور ، في الشمال ، ورأسه في الجنوب عند مشرع متان Milaleb ، على الضفة اليمنى لنهر المطيرة ، على بعد ٣٠ كيلو متراً إلى الشمال من قوز رحب . والتعاضد هنا تشابه من وجوه عديدة تضاريس الغنای ، أي أن الانحدار بوجه عام من الشرق للغرب ، مع شذوذ يبدو في وحواد كتل صخرية عالية وسط السهول ، كما أن الأستاذ ساندروز يشير في مقاله الآف المذكور إلى وحواد سلسلة متقطعة من الكثبان الرملية تمتد من الشمال الغربي جنوب وادي عامور بالقرب من حراغاب (حيث توجد بئر مشهورة) في الحناء نحو الجنوب الشرقي ، مارده ناواك Odak وأحرر Ogrein (حيث تحترق السكة الحديدية) ثم يستمر حتى تصل إلى إيتباي وستجوانب إلى الغرب من سكة حديد كسلا . هذه الكثبان الرملية تختلف عن الكثبان الصحراوية ، في أنها أكثر ثباتاً وأسمكاً ، وبعد المطر يمرر حولها العشب ، والرمال تساعد على حفظ المطر . وكثيراً ما يحدق الكثبان مساحة من الأرض تجعلها بمثابة حوض من أحواض الزراعة ، مثل حوض إيتباي ، فتيسر زراعته . وطراً لأن هذا الإقليم أقرب إلى الجنوب كان مطره أغزر من الغنای بوجه عام .

(د) لأقاليم الرابع هو إقليم « النهر » وهذا ذكر النهر بالنسبة إلى المجه عامة ولشرب من حصة ، فهو نهر المطيرة . وإقليم النهر أصغر الأقاليم الأربعة مساحة ، وهو وقع كله على الضفة الغربية للنهر . في صورة مثلث منفرج الزاوية دعته نهر مطيرة نفسه ، بين قوز رحب ، ودية حرمسي على بعد نحو ٥٠ كيلو متراً من المصب ، ورأسه في داخل البطانة عند آبار أم شديدة .

وعلى صعيد النهر تتوافر الأشجار التي تعطى مراعى متوسط الجودة ، كما أن على الشواطيء والخرر عدداً للزراعة إذا انتفع به البشاريون ، وعلى النهر بعض السواقي رفع الماء ، لسكبها غنية ، وعدان ميرة المتخدمة من الزراعة تهيبها للماشية

مرعى جيداً . وتتار التصاريح بالنسبة العامة ، وفي عدا بعض الكشبان
الموادية للشاطئ ، الخنوبى للنهر . وبعد الأمطار تتوافر المرعى في هذه السهول .
ومعظمها أعشاب جيدة ، وهذا لك أشجار من السط فليلة الارتفاع معثرة في
الساحة كلها . ويتخلل السهول بعض الأخوار ، التي تجري فيها مياه النهر ، وهي
ذات قيمان شخلة واسعة ، وتصلح للزراعة بعد المطر ، وإذا حدث المطر أتت محصول
وافر ، ويعملها الشاريون على الزرعة السهوية .

هذا وصف إجمالى لمواطن الشاريين ، أتبعها في تقسيمه إلى هذه الأقسام
الأربعة تبعاً لطريقة التي سر عليها سادرس . لأن هذا التقسيم يعكس من الأراء
نصوره أكثر وضوحاً لهذه الأقسام ، وإن كانت هذه الأقسام متصلة من الناحية
الشرقية ، ولا تمثل تقسيماً للوحدات والأقسام السهوية ، إلا على وجه التقريب ،
والشاريون مقيمون حول المطهرة بوجه خاص لهم طابع وتاريخ يميزهم عما عن
أقاربهم في الجهات الشمالية .

في هذه الأوطان الترمية الأطراف يعيش الشاريون ، وهم ليسوا جميعاً متصلين
المسب والقراية ، بل دخلتهم بعض العناصر غير الشارية والدمجت فيهم ، ولا تزال
آثار هذا الاندماج واضحة في أسماء بعض الجماعات « الدحية » وذلك بسبب اتوسع
الحديث في القرون الثلاثة الماضية . وفيما عدا هذه الجماعات التي اندمجت في الشاريين
ينقسم هؤلاء بوجه عام إلى قسمين : وهما : (١) بشاريو أم عى (٢) وتم نأحي .

(١) والشاريون المنتسبون إلى أم عى يشتملون على أربعة أقسام رئيسية ،
وهي الملياب والممراب ، وحمدوراب وشاطيراب . هؤلاء جميعاً في السودان ،
وهناك بعض فروع منهم في داخل حدود مصر . فبمليات حلة بخوار أسوان ،
ولحمدوراب أخرى بالقرب من دراو .

«بمليات» يحتلون أعلى نهر العلاق ومعظم المنحدرات التي تجري منها روافده ،
يليهم الممراب من جهة الجنوب في مساحة أصغر وأصغر . أما الحمدوراب
والشاطيراب فيحتلون المنحدرات الشرقية ، والسهول التي تبها على البحر الأحمر .

(ب) أما الشاريون المنسبون إلى أم ناجي ، فيحتلون جميع أقاليم المطهرة والتزاب ، والأحواز الحنوية والعربية من العتبات ؛ ويمكن تقسيمهم إلى شمتين : الشمية في التماي والتماز ، وشتمل على الإرياب ويميشون في الجانب الغربي ، والمصورات في الشرق ، والنافع Nafaab ، والمديبولاب ، وفي بينهما ، وفي بلهما من الحبوب .

أما في الحبوب ويميش القسم الآخر ، بشاريو المطهرة ، وهم حداب ، وإبراهيم ، وولاياب ، وبطران ، وجاراب ، ومشبولاب ، ومداكر . . وهذه الثلاثة الأخيرة لا تمد بشارية بالمعنى الصحيح ، ولكنها هي والمديبولاب من القبائل التي اندمجت في الشاريين ، وكانت نقايا لمجموعات أكر .

وهذا القسم الحنوي يطلق عليه أحياناً قسم المطهرة ولكنه يحتل إقليم المطهرة والصف الحنوي من إقليم تماراب . وإن كان الأمر قد احتلوا حر ، أمه غرب مسر ، وعلى شواطئ نهر بصاً .

وهذه جماعة من الشاريين : تسمى هنار ، تنجت من اندماج بعض الشارين والأمرار ، وتميش مسرلة على شاطئ البحر حول دنجوناب والجبال التي تليها غرباً . . وهذه الجماعة تمد حر ، من شاري أم ناجي ، وإن بعدت مواطنها عن الأوطان الرئيسية لهم

صلات النسب

رُما كيف يصف انقريزي البجة بأنهم جيل من البربر . غير أن الشاريين اليوم لا يقرون مثل هذا النسب ، بل لا يكاد يخطر لهم ببال . ونحن نعرف أن البجة — سواء سموا بهذا الاسم ، أو باسم آخر — كانوا يقطنون هذا الإقليم منذ عهد سويل . وهم سكانه الأصليون وأن اسمهم « البجا أو البجاه » صم الباء قد عرفوا به في العهد العربي ، ولكنهم اليوم يسمون أنفسهم البجة (بكسر الهمزة) . وليس في هذا وجه غرابة ، لأن حركة الصم كثيراً ما تتحول على مضي الزمن إلى الكسر . غير أن البجة اليوم ، مع اعترافهم بأنه قد سبقهم في ديارهم شعب يدعى

البُجَا ، يرى بعضهم أنهم يختلفون عنهم اختلافاً كلياً . والحقيقة أن نقطة الخلاف الوحيدة هي أن البجة في هذا العهد الأخير مسلمون ، يدعون الانتماء إلى أصل عربي . ولا شك أنهم قد دخلتهم دماء عربية في العهد الإسلامي ولكنها قليلة نسبياً لم تحدث بهم أي أثر من الناحية الجسدية الطبيعية . ولكن المؤثرات العربية ظهرت في وضوح في القتبات اللموية التي دخلت لغة تداوى ، والدين الإسلامي الذي أصبح شائعاً بينهم . كما أن الاتصال بالعرب قد أثر في حياتهم العسية ، التي حملتهم يفتخرون أو يؤكدون نسبهم العربي على حدائته ، ويرجحونه على نسبهم المجاوي العربي القديم . وسرى مما يبي أن هذا النسب العربي له أساس من الواقع .

يرحم البشاريون أنهم من نسل كاهل ، وأن كاهلاً هذا يرجع نسبه إلى الزبير ابن العوام . وكاهل هو أيضاً أحد الكواهلة الذين يعيشون في كردوفان ، ويرحمون نسبه أيضاً إلى الزبير بن العوام ^(١) . والبشاريون يقولون أيضاً إن أجدادهم كانوا يعيشون في جبل عليه الواقع على بعد عشرة أميال إلى الغرب من عيذاب . وفي عيذاب تاريخ مشهور سبق لنا شرحه . وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته إلى عيذاب (سنة ١٣٤٨) أنه صادف في رحلة جماعات من البجة ، ومن نسل كاهل متجاورين ، وأن نسل كاهل كانوا « مختلطين بالبجاء عارفين بنسبهم » . والكواهلة في كردوفان يتفقون مع البشاريين في بعض التفاصيل الخاصة بكاهل جدهم . وأنه كان له ثلاثة عشر ولداً من الذكور ، وأن أحدهم يدعى بشر . وهذا هو أيضاً في أسماء ثلاثة آخرين من أبناء كاهل . ومع بعد الشئمة بين العيليتين البجاوية والعربية لا شك أن هذا الاتفاق له مغراه .

والظاهر أن العناصر العربية قد تم توغلها في بلاد البجة في القرن العاشر الميلادي ، وكانت أكثرها ينتمى إلى ربيعة (العرب الشماليين) ، وقوى الاتصال بين الفريقين ، وأصهر العرب إلى شيوخ البجة ، وكثيراً ما كان للبجة اتصال وثيق بأرؤساء والحكام في عيذاب . وكان أهم قبائل لبجة التي يتحدث عنها المؤرخون العرب في ذلك الوقت هم المسلمون الحدارب أو الحدارة ، وهم مسلمون .

(١) بعض البجة يرجع بكاهل إلى الوليد بن المغيرة .

أما اسم الشاربي فلم يكن له أى وجود فيما بعد ، ولكن يستطيع أن تصور أن بعض الأمراء من العرب قد صهر إلى بعض النجبة ، ثم ورث الامرة والرئاسة فيهم ، ومن الراجح أن أحد الذين صهروا إلى النجبة على هذه الصورة كان فعلاً ينتمى إلى بني كاهل وإلى أحد أبنائه اسمى شار أو شارة ومنه اشتق اسم الشاريين .
ومهما يكن من شئ ، فإن شاراً ليس الآن سوى مجرد اسم ، وليس بين الأحرار والسير شئ آخر يدل على أعماله أو صفاته ، ومثل هذا يقل أيضاً عن معاصره وأقاربه . وأول اسم له بعض الأكر في تاريخ الشاريين هو اسم كوكا . أحد أبنائه أو أعمامه . ونقول بعض الروايات إن شاراً ولدان وست . فالولدان هما كوكا وكاما . والست سمي فاطمة ، ولم يكن لسكبان أى أهمية في تاريخ الشاريين . وإن كان هنالك جماعة صغيرة تحمل اسمه إلى اليوم ليست بذات خطر .

أما كوكا نفسه فكان رجلاً فقهاً وقاضياً وناجراً في آن واحد ، وكان يقضى الصيف في حواري حل سنة والشتاء عند معب العلاقي ، ولرواية التي نحن بصدها ترجع به إلى قرن الحادي عشر . والظاهر أنه كان يشتغل بالتقن والتجارة ما بين عيذاب ومهر النيل ، ولما رادت شهرته انتسب رحلاته فشمط جهاب أخرى من بلاد النجبة ، وكان به سمعة أساء لم يترك أحدهم أى أثر خطير في القبيلة ، ولكن حلهم في اليوم لا يزال يدعى باسم حيناً كوكا . أما أخته وصمة فكانت تصاحبه في رحلاته في الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كانت تشغلها واجباته كقاضي فتقوم فاطمة بأعمال التجارة وبيع والشراء . والظاهر أنها احتفظت في بعض الروايات وذهب بها حاصدها ، أو ذهبت هي معه حسب رواية أخرى ، إلى الجهات الشمالية فولدت من هذا المشيق أو الخاطف ولداً اسمه عنقو Anakw تقول الروايات إنه قد شب فتى وسياً فأنحى النون قوى الجسم طويل القامة ، وعندما كبر عاد إلى بلاده فانزع منك وادى العلاقي من غاصبيه وبسط نفوذه عليه ، وأخذ له زوجتين من أسر النجبة وهما أم سى وأم ناجي . ثم تزوج فاطمة بنت هنار .

أما كوكا نفسه فقد قضى نحبه بعد عمر طويل ودفن بموضع يدعى كوكيلاي في وادي إلكيدى ، بالقرب من آرياب ، الواقعة شمال مسبار بنحو خمسين كيلو متراً

واسم كوكا اسم غريب ، ليس له نظير الآن بين النح ، ولعله اسم محاوي قديم .
وهناك رواية أخرى يرويها الشاريون لا تذكر شيئاً عن أنباء نشار
ولكن تذكر أنه كان له حفيد يدعى حسب الله ، وكان له أربعة أبناء : كوكا ،
ومدكور ، وشمال ، وصالح ، ويجمعون لكوكا السكان الأول . بينما الآخرون
ليس لهم شأن ، ومن كوكا جاء بطريق التناسل الشرعي العادي حفيده المسمى
عنقو Anakw وهكذا تلتقى جميع الروايات عند عنقو هذا . وسواء أكانت
قصة الاحتطاف لها أصل ، ثم حولت إلى غير ذلك برأ من الوصمة ، فعلى كل حال
نرى أن هناك ثلاثة أسماء بارزة في التاريخ القديم للشاريين وهي نشار الحد الأول ،
ثم كوكا الحد الثاني ، ثم عنقو الحد الثالث . وإلى هذا الأخير يرجع الفضل
في تأسيس القبيلة بأقسامها الثلاثة التي نعرفها اليوم : وهي أم علي ، وأم ناجي ،
وهار . وقد يسمون أنفسهم أحياناً باسم Anakwabab عنقو باب تمييزاً لهم
عن جنا كوكا !

زواج عنقو ثلاث نسوة ، أولهم أم علي ، وهي التي أنجبت أبناء وأحفاد سميت
باسمهم اجماعات المختلفة التي تشعبها شجرة أم علي ، وهم ناجي كذلك هي التي أنجبت
الأنساء والأحفاد الذين نسميهم القمائل الحوسة . أما فاطمة بنت هار فتسمى
إلى الأمرار حسب بعض الروايات ، ويتمثل سلها في بيت اقمينة الصميفة التي أشرنا
إليها ، والتي تعيش بالقرب من دحوباب ، ويدعى الأمرار الملكية في نصف نسبها .
ظاهر مما تقدم أن أسس الشاريين إلى شخص من سل كاهل ليس أمراً
مستبعداً ، والراجع أن هذا الشخص كان اسمه — فعلاً — نشاراً أو نشاراً ..
والراجع أيضاً أن الأشخاص الذين خلفوا نشاراً في شجرة النسب كان منهم كوكا
ومهم عنقو ، وأن هذا الأخير هو الحد الذي تفرعت منه فروع الشاريين المختلفة .
أما فيما عدا ذلك فلا شك أن يعرف من أمر هؤلاء الأحفاد وطروف حياتهم
وأعمالهم شيئاً .

المهاجرة والتوسع

تجمع الروايات المشتقة من مختلف المصادر على أن الشاريين جميعاً كانت نشاطهم إلى حوار جبل عليه ، وأن احتلال الأوطار الجنوبية وعلى الأحص إقليم المطهر لم يتم إلا بقوة السلاح في المصور الحديثة ؛ والطاهر أن البشاريين يحكون في نشاطهم وتطورهم جميع الظاهرات التي ستطر أن تحدثها في الجماعات البادية ، وكيف يظهر بعضها على بعض ، ويسمى المملوك في المالب ، ويمقد اللواء للقبيلة التي أمكنها أن تسيطر نفوذها وتوسع سلطانها . وكل الشواهد تدل على أن تاريخ الشاريين ، عبارة عن أسرة نشأت في جبل عليه منذ بضعة قرون ، ثم أخذت توسع

توسع البشاريين



- (١) نواة تكمية الشاريين
عواشي قر - "
- (٢) مفرمة ودعمرانه -
عواشي ١٧٦٠ م
- توسع الشاريين من وسط
القرية الخامسة عشر
- القرية التي ضمها حمد وعمرانه

شكل (٢)

يوضح انتشار الشاريين من وطنهم الأصلي في جبل عليه إلى الشمال والجنوب

سلطانها في جميع الأنحاء وكان آخر مرحلة لهذا التوسع احتلالها لإقليم المطيرة في ظروف لا تزال تروى إلى اليوم ، لأنها لا ترجع لأكثر من أواخر القرن الثامن عشر (بين ١٧٦٠ و ١٧٨٠) .

وقصة التوسع نحو الجنوب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقصة قبيلتين من البجة ، هما كلال ومرعما . ويقال عن أصلهما روايات مختلفة . منها أنهما هاجرا من مصر في القرن الرابع عشر ، ونزلا في الإقليم الجنوبي من العتباي ثم انتقلا بالتدريج حتى وصلا إلى نهر المطيرة واحتلا الجانب الغربي منه .

والظاهر أن كلال ومرعما هما من القبائل البجاوية القديمة ، وكأنا منفصلين تماماً عن الشاريين ، ولم تكن لهما بهم صلة . إلى أن اشتعلت حرب بين كلال ومرعما من جهة ، وبين العرب المسلمية من جهة أخرى ؛ فلما هزمت المسلمية استنحارت بالطاحين وهم من عرب البطانة ؛ فأصبحت الحرب بين المرعما والكلال من جهة ، وبين البطاحين والمسلمية من جهة أخرى . وكان للمحاربين العرب القور في معظم المارك . فاستنحار شيخ المرعما بالشاريين . ورح نحو الشمال إلى جوار أرياب ؛ حيث صرع إلى شيخ الشاريين أن يبيعه هو وبيته على البطاحين والمسلمية . . وكان شيخ الشاريين إد دك ؛ هو حمد بن عمران بن عيسى ابن أم ناحي . هم بلث حمد ود عمران ر حشدر حاه واسطو نحو الجنوب ، واحرق المطيرة إلى الضفة الغربية وهزم البطاحين . ثم ضم الإقليم الغربي من المطيرة لغاية قور رحب إلى الممتلكات الشارية وأرسل فيها جماعات الإبراهيم والحدا .

الظاهر أن شاريي أم ناحي كانوا منذ زمن ساس لهذا الحادث يتطلعون إلى فرصة لكي يحتلوا الضفة الغربية ، فأتاح لهم هذه الفرصة الرابع من المرعما والبطاحين فانهزموها . والظاهر أن المرعما لم يسروا لهذه النتيجة ، لأنهم كانوا يظنون أن حمد عمران سيكتفي باحتلال الضفة الشرقية ، وحاولوا أن يشوروا على أتباع حمد ، ولكنهم عجروا عن ذلك ، ورفضوا هم والكلال أن يكونوا حراً تابعا للشاريين أم ناحي في إقليم المطيرة .

هكذا اتسعت أوطان شاريي أم ناحي في أواخر القرن الثامن عشر حتى

شملت إفلما على الضفة اليسرى للمطره . وهم يدعون أن هذه الأوطان كانت تمتد على ضفتي المطره إلى قطة « القرن » أى حيث يلتقى نهر النيل . وإذا صح هذا فعنده أنهم فقدوا جزءاً من أراضيهم في الطرف الغربى . أما من ناحية الجنوب ، فإنهم توسعوا توسعاً قليلاً ، حتى وصلوا إلى الحدود التى يحتونها اليوم .

وقد كانت سيادة أول الأمر لشعبة الحذاب ؛ وظلت كذلك إلى آخر القرن الثامن عشر ، ومنصف تسع عشر .

في أوائل القرن التاسع عشر مر السائح بوكهارت بأوطان البشاريين من النيل إلى البحر . ويقول إن البشاريين في أقصى الشمال كانوا يعيشون هم (العبادة في شمال وجنوب حدود القطر المصرى ، يسود علاقتهم الوثام والصفاء . ولكنه يروى أنه كانت هناك عداوة مستحكمة بين البشاريين والحذارية . ومعلوم أن الحذارية هؤلاء لا بد أن يكونوا بقية من الحذارى القدماء ، الذين جاء ذكرهم في روى مصرى ، ومن العرب أنهم لم يأت لهم ذكر في أحاديث البشاريين عن تاريخ حذارى . ولا ، أن الذين جاء ذكرهم في كلام بوكهارت ما هم إلا البقية الباقية من هذه القبيلة ، المحاوية القديمة ، الذين لم يبق لهم اليوم فيما نعلم أى أثر اسم . لا تسمية الرأس أو أفع حبوب عذاب باسمهم (رأس الحذارية)^(١) .

ولا بد أن مصر من شأنهم كانوا يوماً ما هم المهيمنون على كثير من الأقاليم التى يحتلها شاربو النيل حتى اليوم ، وحتى لأحضر في الجهات الساحلية ، وأنه قد دارت بينهم ، بين بشاريين حروب طويلة ، دوحتهم وأدالت من سلطانهم ، وأن البقية الباقية منهم وراى . مح في البشاريين اندماجا تاما ، وهكذا طوت الأحداث ذكرى هؤلاء الحذارية ، الذين يكثر ذكرهم في أوائل العهد الإسلامى ، والذين كانوا أكبر قبائل السعدوية التى اتصلت بالحكام العرب ، على حدود مصر وفى عذاب ،

(١) نذكر تشاربى وغيره من ذكر الحذارية دون أن يدكروا أى علاقة بين هذا الاسم وبين حصاره . ودون أن يدكروا أن اسم الحذارية ما هو إلا تحريف للحضارمة (نسبة إلى حضرموت) . ومع ذلك فإن بعض الكتاب الأوربيين (مثل هارولد ما كايكل فى كتاب تاريخ العرب فى العصور) يذكر ذلك صراحة باسمه لبعض المحطات التى تعيش بالقرب من سواكن ، ثم جمع — من غير صراحة — بين حضارمة الحبوب وبين الحذارية البشاريين ، الذين أجمع كتب العرب على أنهم من السعدية . راجع الجزء الأول من ما كايكل ص (٢٤٦)

وكانوا فيما يبدو أول جماعة بمحاوية اعتنقت الإسلام ، ولعلها ساعدت كثيراً على نشر الدين الجديد بين طوائف أخرى من البجاء .

لا شك أن هؤلاء الحدارب قد احتملوا خسارة كبيرة ، حين تحولت التجارة والحج عن عيذاب إلى جهات أخرى ، مثل القصير في الشمال وسواكر في الجنوب . وصادت هذه التطورات ، قيام البشاريين ، واشتداد شوكتهم بأن تولى زعامتهم سلسلة متتالية من محاريبي ذوي الكفاية والأطباع السعيدة . فأقصى بنارع النقاء ، إلى ذهاب الحدارب ، وظهور البشاريين عليهم .

ويحدثنا بوركهارت عن بشاري المطيرة ، فيشهد بأن زعيم الحدارب كانت له السيادة العليا على الجميع ، وقبيلته أعظم قبائل أم ناجي . وأن الحرب كانت متصلة بين البشاريين والمهددوه ، والطاهر أسما كانت لمصلحة البشاريين ، لأن الحدود بين القبيلتين ، كانت في زمن بوركهارت امتدت إلى الشمال نحو ٢٥ كيلو متراً . كذلك كان بين البشاريين والاشكرية عداً وحروب . ومع ذلك استطاعوا أن يشتروا أمام هذين العدوين القويين وأن يوسعوا أراضيهم على حساب كل منهما . والطاهر أنه دارب بين الحميين والبشاريين منازعات أصاً ، أدت إلى انصواء بعض الحمليين تحت لوائهم . ولكن تراجم البشاريين فيما بعد عن مهر الليل ، يدل على أن الحمليين مجتحووا في إقصائهم وإبعادهم عن وظائفهم .

ويقول بوركهارت بصاً إن رؤساء بشاريين كانت لهم خيل ودروع يلبسونها في القتال ، مما يشير إلى تقدم في فنون الحرب لعله كان من أسباب غلبتهم على الطوائف الأخرى . كذلك تدل القرائن على أن البشاريين كانوا في ذلك الوقت أكثر عدداً منهم اليوم . وقد اندمجت فيهم جماعات كثيرة ، واحتلظ بهم جماعات من الحمليين ، وعلى الأخص القسم المسمى عند الكريعات ، وقد حدث بين الفريقين تراوج وامتزاج .

وطلت شوكة البشاريين قوية في المصنف الأول من القرن التاسع عشر وقد رآهم لبنان دي ملفون في حوالي عام ١٨٣٠ . ومن أهم ما يلفت النظر في أقواله وقد رآه زعيم الحدارب في عاصمته بعلوك على المطيرة ، أن هذا الزعيم من قبيلة الحدارب ، لم

يكن معتزلاً بسيادته على شارين أم نأحي لحسب ، بل كانت أم على تدين له أيضاً .
والأرجح أن هذا الخضر كان اسمياً ، لأن بعد الشقة يجعل من المستحيل أن يكون
له سلطان قوى مفروض على الشعة الشمالية . وإن كان من الأرجح أنه يكون له
نفوذ كبير على يدات أم على . كذلك يقول لبنان إن الشارين في الجنوب
كانوا خاضعين للحكومة ، ويؤدون الضرائب المفروضة عليهم .

والظاهر أنه بعد ريادة لبنان بزمان قصير ، أى في حوالى عام ١٨٤٠ انتقلت
الزعامة من الحداد إلى الإبراهيم حيراشهم . كأنما هدوء النزاع بينهم وبين
القبائل الأخرى ، من الشكرية والحملين والمهندوه قد دفعهم إلى إثارة نزاع حديد
في بين القبيلتين الشقيقتين ، طبقاً لتقاليد البدوية الماثورة :

وأحياناً على نكر أحياناً إذا ما لم نجد إلا أخانا

وسدو أن الحداد قد صدرت عنهم مخالفات أحفظت رجال السلطة في برر
والحرصوم ؛ وذلك انحازت الشرطة إلى جانب الإبراهيم . فتمت لهم الغلبة
وأصبح الرئاسة فيهم . ولا شك أن هذا أفضى إلى اضطراب الأمور في شارين
أم نأحي . وقد سبق بعد هذا الحادث ذلك التركيز القوي للسلطة في يدرئيس واحد .
لأن زعم الإبراهيم لم يكن له ذلك النفوذ الواسع على جميع القبائل الشمالية ، بل
أصبح نفوذه مقصوراً على الشارين في منطقة المطهرة ، ولم يكن له على الشماليين
سوى نفوذ اسمي . وكان الشيخ لأول من الإبراهيم يدعى محمد أبو عيسى .

وتدل هذه الضرائب التي كانت تجبي من الشارين في ذلك الوقت ، على أن
عددهم كان كبيراً كثيراً مما هم اليوم ، ونزولهم أعظم ، وشاغلهم الاقتصادي أوسع .
وفي هذه القوائم أسماء تسعة أقسام بشرية لم يعد لها اليوم وجود . منها جماعة بني
قرب ، وكان ترتيبهم شك في الثروة والحياه . وادي يرور إقليم المطهرة اليوم
يرى أن هناك موضع لمواق ونواعير قديمة لم يبق منها اليوم سوى ما يقرب من
٦٠ ساقية ، تعمل اليوم . ولا بد أن كان في ذلك الوقت أربعة أمثال هذا العدد .

والمعلومات التي تركها لنا لبنان دي تلقون عن البشاريين الشماليين (أم على)

لا تريدنا شيئاً كثيراً عما نعلمه اليوم . فالأقسام التي رآها لا تكاد تختلف إلا
اختلافاً يسيراً عما نعرفه الآن . وهو أبصاً يحدثنا أن العلاقات بين الشاريين
والمعبدة كانت طيبة بوجه عام ، وأن أكثرهم ثراء هم قبائل محدودرات وشطيراب
الذين يعيشون في جبل عليه وعلى المنحدرات الشرقية ، فإن طيب المرعى مكنهم من
تربية سلالات ممتازة من الأبل ، كذلك كانوا يصيدون أنواعاً من الوعل ibex
ويسمعون الجلود بسهولة في أسواق مصر والسودان . بل كثيراً ما كانوا يبيعونها
لسفن التي رسو على شواطئهم .

ولم تكن حياتهم بوجه عام تختلف كثيراً عما هي عليه اليوم ، سوى أنهم
لم يكن لهم رؤساء دود يعود قوى بمضمون لسلطانهم . والنساء كن أكثر حرية .
ولم يكن في ذلك الوقت عتشاء في ريهن كما هو اليوم . وقد دهش لسان
الحال النساء في قبيلة بالحاب Baqab ، وقال لهن أحمل نساء في الشاريين جميعاً
ولو أن العفة لم تكن متوفرة كتوفر الحال ، ويقول الأستاذ ساندروز إن
الوصف في كلا الحالين لا يزال مطبقاً حتى هذه القبيلة إلى اليوم . ومن مظاهر
الحياة عندهم في ذلك الوقت — ولم يمد لها وجود اليوم — أنه كانت تزورهم من
آن لآن جماعات من البشر من الحجار ، نصترهم بأمر دينهم ، وتعلمهم
تلاوة القرآن .

ويقول ساندروز عن بشاري أم على إن الحكم المصري كان رقيقاً بهم ، ولم
يحاول قهرهم أو السيطرة التامة عليهم ، بل كان يكثر من محاربتهم على أهوائهم ،
مادموهم مسالمين بعيدين عن كل عدوان ، والصراخ المفروضة عليهم كانت حفيضة
بل لم يكن هنالك تشدد كبير في جمعها منهم .

وفي عهد المهدي كانت حالة الشاريين في الشمال (أم على) ، تختلف اختلافاً
كبيراً عن حالهم في الجنوب (أم ناجي) . فالأولون كانوا سجوناً من سلطان المهدي
من جهة ، حريصين على حريتهم واستقلالهم من جهة أخرى ، ولم تكن لهم رراعة
تقيدهم بالأرض وتزمتهم البقاء في قراهم . وعند ما اتسع نفوذ المهدي ، أرسلت
عشرات عديدة لإخضاعهم ، فكانوا دائماً يتعلمون عليها ، وكثيراً ما سحقوها

عن آخرها . ولا شك أن بعد لشقة ووعودة الممالك مما ساعد البشاريين (أم على)
على النجاة من الوقوع تحت سلطان أنباخ الخليفة .

أما بشاريو الجنوب (أم نجي) ، فكانت حطيم محالمة لهذا كل المحالمة .
وطهور عثمان دجنة على رأس المندود ، ومشايعه النهدي كانت من أهم العوامل
في التأثير في البشاريين ، وقد كان عثمان دجنة يعطف على الحداد وشيوخهم ،
ولذلك لم يفتأ صرهم ، وقضى على رعية الإبراهيم ، وأحسمهم سلطان
جماعة عند الكريش ، الذين كانت أراضيهم في جزء الأسفل من المطيرة ، واتخذ
عثمان دجنة مركزاً حربيّاً أدراما ، وبذلك أخضع جميع البشاريين في الجنوب
لسلطته ، وحملهم أحياناً يحاربون في صفوفه ، وإن كان أكثرهم لم يفعل ذلك
إلا مكرها .

وقد رتب على ذلك كله أن ضمت الصلات بين البشاريين في الشمال وفي الجنوب .
وردهم الصاعرة تاركين تقدم الأمرار وزحفهم نحو الغرب واحتلالهم إقليم مصر .
وكانت حكومة السودان ترى أن من المفيد لها توحيد جميع القبيلة تحت رئاسة
واحد . على الرغم من اتساع المساحة التي يحتلها البشاريون . وحاولت أن
تحد رئيساً ينسب الجميع ، فقامت دون ذلك صعوبات عديدة . ويقول ساندروز إن
رؤس ، مشائر أمهم لم يكونوا متحمسين لذلك ، أو لم يريدوا أن يحتملوا تبعه
احتيال رجل واحد يرصد الجميع في الشمال والجنوب . وبعد زمن طويل ، وتردد
كثير ، رأت الحكومة أن تفرص عليهم بطر من الحداد ، وهو أحمد كرار ،
فميتته في هذا المنصب في سنة ١٩٢٨ ، وجعلت أخاه محمود كرار عمدة للبشاريين ،
في قدر مطيرة ، لكي يدع ذلك مجالا للناظر للعناية بشئون القبيلة كلها .

حالة القبيلة في الوقت الحاضر

لا زال حكومة السودان تعد البشاريين قبيلة واحدة ، وذلك لتسرع على ضمها
وسائل الاتصال بهم والتعرف عليهم . وهذا بالطبع عناصر تشابه لا شك فيها .
كالمدارة منتشرة بمرجات متفاوتة ، ولسان التداوى ، ولاحتكام إلى الشريعة

على الطريقة التي يفهمها قضائهم ، وإلى العرف احرارى منهم ، وهم يحترمون كل رجل اشتهر بالتقوى والصلاح ويحلونه و مظلونه ويحسمون لحكمه ، على ارفع مما يقال عنهم من قلة الدين . ولكن وحوه الشبه بين الامر والجماعات ، يقالها بعض وحوه الاختلاف في اساليب الحياة ، وفي درجة البدوة ، وعبر ذلك من التفاصيل ، لأن البيئة الواسعة التي يعيشون فيها ، واختلاف مظاهرها الطبيعية ، قصص بعض من الاختلافات المحلية في قسائم اقليمه

والمداره عند الشاريين لها مداخل خاصه ، وليس مشابهة لمداره في إقليم كردوان أو في سهل البطانة مثلاً لأن البدوة في هذه جهات لأخيرة بحري تماماً لسقوط المطر فتتحرك القبيلة كلها نحو شمال أو نحو جنوب تبعاً لموسم المطر . وفي ذلك الموسم ترى كلها وهي تتحرك في اتجاه واحد . وضيفة السطح في إقليم الشاريين أو في معصمه تحول دون هذه الحركة الجماعية ، ولك يكون استقلالهم جماعات صغيرة جداً ، لا تتجاوز خمس نوسب أسر ، لأن إذا ائى ييسب واسعة حتى تسمع لأكثر من هذا العدد وسقوط المطر — وفي الأحص في الجهات الشمالية — عبر مطرد ولا منتظم ، ورنما سقط في مكان ولم يسقط في مكان آخر . لذلك ينتقل كل جماعة صغيرة إلى المكان الذي يملأها سقوط مطر فيه . وقد يحى ، عام يفزر فيه بصر عصفه شتائية في هذه الجهة ينتشر سبب وبكثير دغى في المنبأى والقراب . وفي مثل هذا العام قد تتحرك القبيلة كلها في اتجاه مطر . ولكن هذه الأحوال نادرة . وأكثر ما يحدث أن سقط مقدار من المطر محلياً في بعض الجهات فيؤمها عدد محدود من الأسر محليتهم .

والجهات الشمالية التي تتعرض مطر عذري في مض الأعواء ، هي جهة خاص الجهات الساحلية . وهناك تتحرك جميع البسات (من قسم أم حى) نحو الساحل ولكن شاري أم حاجي لا يتعمرون إلا إقليم الساحل لأن إلههم لم تعود تلك المراعى الساحلية .

وشاريو المطر يترحوب عن أوطانهم على شواطيء البحر في الخريف ، عقب الأمطر ، بعضهم يذهب شمالاً إلى منطقة سككسان ارمية ، وآخر جنوباً إلى سهل البطانة وأخواره وأوديته .

ويصف لنا سائر في مقامه المذكور حياة القبائل المختلفة وانتقالاتها ،
وفي بي موحى لحد الوصف :

الملياب والحدوراب . كلاهما به شعبة تميش في القطر المصري . فالملياب
لهم « مستعمرة » قد استقرت بالقرب من أسوان . وعددها يبلغ المائة . والآخرون
لهم سبعة أصغر عدداً تمش بالقرب من دراو . وكلا الفريقين له سم تتصل
بالمسد في دخل حدود القصر المصري . ويسمى مصاهرة ، وعلى الأحص مع قبيلة
« امشاب » التي ترابط في الجزء الشمالى لوادى الملاقي .

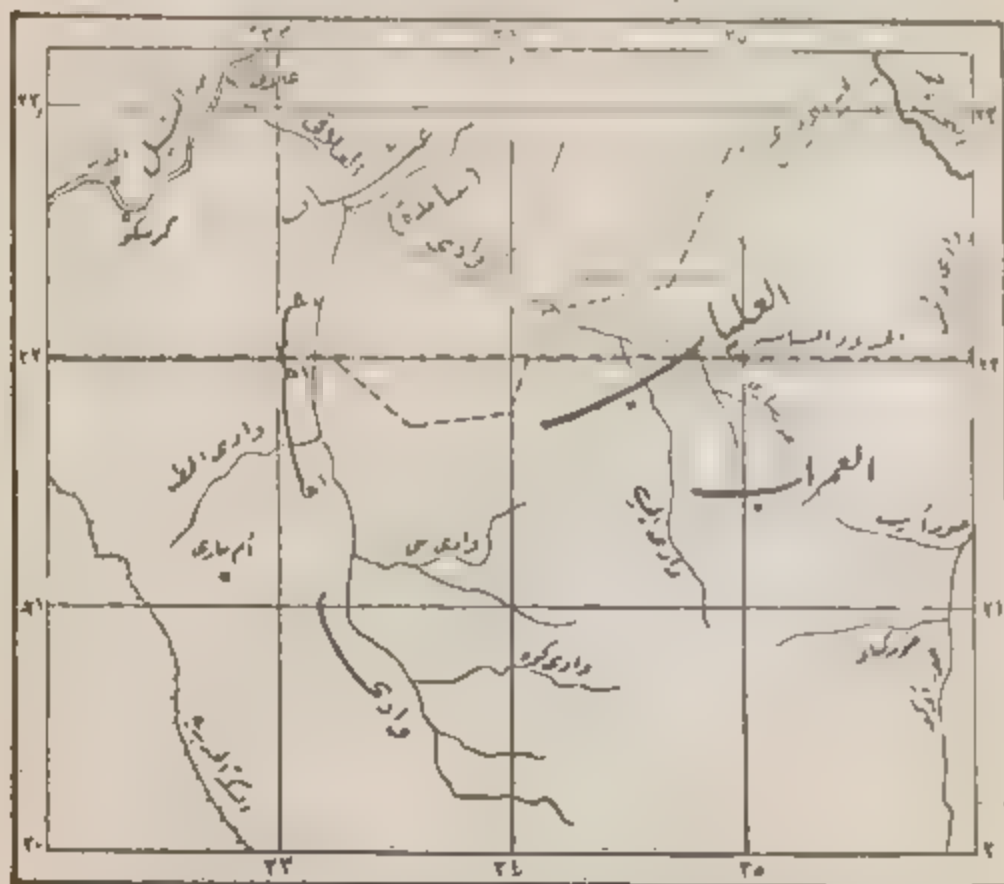
وتروى لملياب نكر بوجه خاص في إلههم ، ويربون نهر سلاطات الإبل
المجاوية وحسب . وهي المعروفة باسم كيلايو « Kleiow » والملياب أكثر
الصحوة وانتقالاً . ويتحركون من الساحل إلى النهر ومن حدود مصر إلى
المصاهرة . ولم حدود إلههم ومصر عنها هي الدامل المساعد على هذه الحركة الواسعة
إلى ليس لها طير عند أية شعبة أخرى من شعب الصحراء . ومما يؤكد مدوتهم
أهمهم لا يارسون أية زراعة في أى جزء من إقليمهم ، ويشترون حاجتهم من
الخبز من الأسوي المصرية أو السودانية .

أما الحدوراب ، فهم زراعة قليلة جداً في الجزء الأسفل من وادى دثيب ،
وهم أيضاً قطمان كثره من لابل أشهرها نوع يسمى البسحر ؛ ويربون نوعاً ممتازاً
من البسحر الأبيض ، وأراضهم أوفر مطراً وعشبا من أراضي الملياب ، وتشتمل
حتى لأودية حصنة التي تنحدر من جبل عليه نحو البحر الأحمر . وعلى الرغم من
أهمهم قد يصبون أحباب في رحلاتهم إلى نهر النيل والمطيرة ، فليسهم أقل بدابة من
الملياب . وتتقلاهم الموشية أضيق مدى ، وقد ساعدتهم اتصالهم بمراسى السفن
ومركز الحكومة في عيذاب وحلاب ، على تسهيل تجارتهم ، فأصبحوا أكثر
نفعاً لمحصارة واتصالها ، فالتحق كثير منهم بأقسام الحدود وقوات
السواحل المصرية .

وهم سبعة يسمونها . وقد يمتصق على الملياب أيضاً . هي الإبل والغنم .
وهم أسواقهم أسور ودرو ، وروا استخدموا يور سودن أيضاً ، وقد يصنعون

ساندرز بأنهم أكثر المحبة توحشاً ، وأقلهم ذكاء ، وهذا الحكم التقاسي يمثل وجهة نظر الحاكم الذي يريد أن تصل يده إلى جميع السكان لأغراض الحكومة . والشطيراب ظلوا رماً طويلاً بعيدين عن متناول الحكومة . وقد أشىء في سنة ١٩٢٥ مركز للإدارة في نقطة سلالا ، بالقرب من أوطانهم فأمكن بذلك الاتصال بهم . ولكن هذا لم ينقص كثيراً من وحشيتهم وانقباضهم .

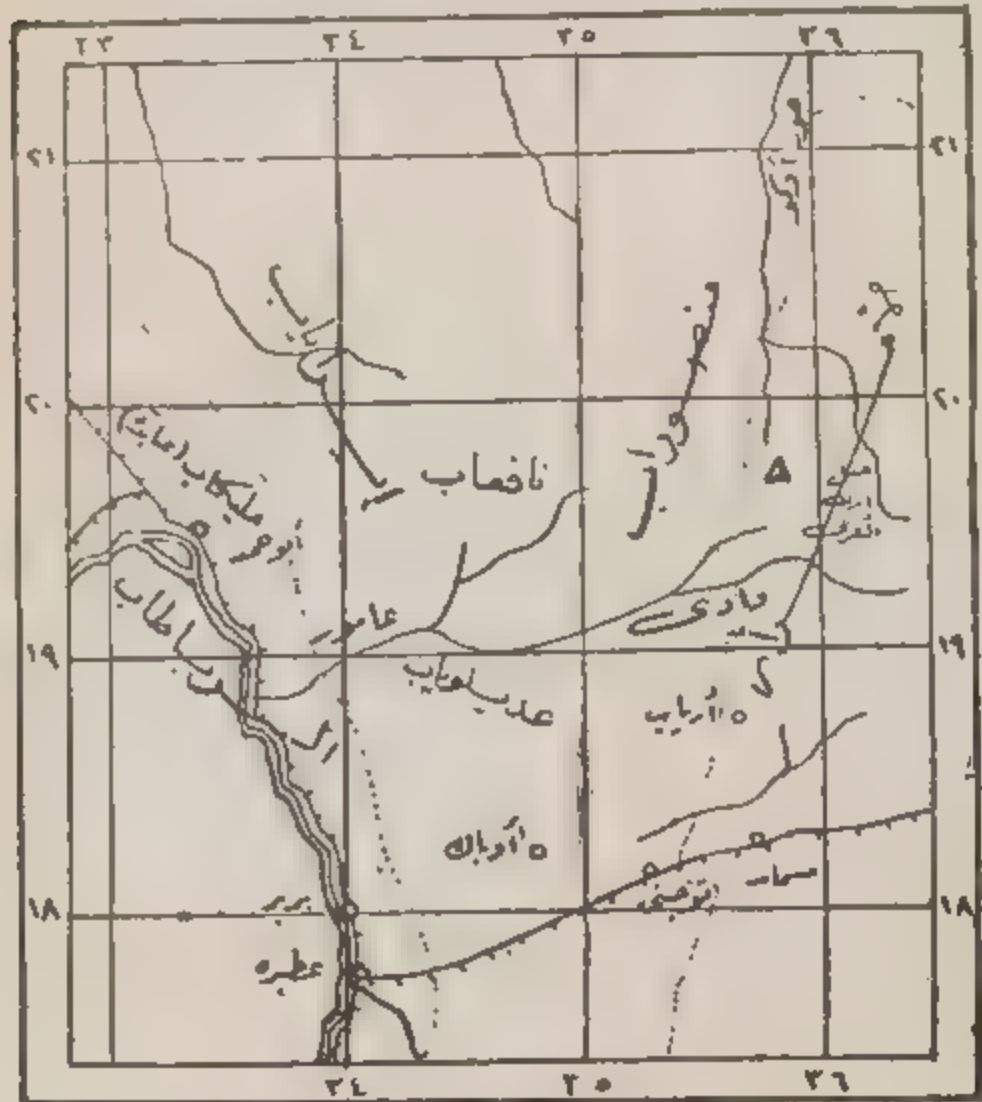
بقسم لغزی من بشاری ام علی



مشکل (۱)

وجبالهم تشتمل على شجر كثير رعى الحيوان ورقه . ولهم قطمان كبيرة من الصأن ، ولكن إنهم ليست من طرار ممتاز . وليس هنالك ما يدعوهم لتربية أصناف ممتازة ، لأن حركتهم وانتقالهم قليلة . وهم من أقل الطوائف البجاوية بدواة ، لشدة الترامهم لأوديتهم وجبالهم ، ولهم زراعة محدودة في وادى دثيب ، الذى يخطط أرضهم ، ولكنها على كل حال أكثر مما يمارسه الجدوراب .

أما العرب : وهم شعبة أربعة من الشرقيين (أعني) قائل الأربعة
خطراً ، تعيش في أوطانها أربعة حروب أوائل الشطوط والربيع ، في أرض
قليلة الماء والزرع حول حور يدعى حور^١يب ، وهو (ريف) من روافد وادي
دثب . وطبيعة بلادهم تعوهم إلى الانتقال مسافات مديدة أحياناً ، ولسكنهم فلما



شک (۵)

المجموعات البشّارية الوسطى

یصلون إلى المطبخه ، وقد يزورون أسواق بربر أحياناً ، ولكن معظم تجارتهم مع أسواق أسوان ، ويمارسون بعض الزراعة في وادی دثیب ، وفي الجنوب في وادی عامور ، حيث يجاورون بشاري أم نأحي . وعما يمتاز به نشاطهم صناعة

الدابة ، وإن كان أقل حودة من إنتاج حص الخنازير لأخرى ، لأنهم لا يستخدمون
ثمر السط ، بل شجر السم ؛ ومع ذلك لم تحرره لأناس بها في الحلود المدبوغة
ببهمومها في أسوان سوان .

وهكذا يرى جميع شاربي أم تى وجهتهم نحو الشمال ، وانصاهم لأكر
بإقليم سوان وعلى هؤلاء كان أكثر الاعتماد في مساحم الذهب ، التي لا تزال
آثارها ماثرة في مختلف الجهات

بين هؤلاء جميعاً ، السمة الشامية من شاربي أم تى ، الذين يعيشون في
فيدي اعتدى ، في تلك الأقطار ، وفعلة من البحر واحمل ، داب امياه اقليلية والبيات
الشحج . هؤلاء ، أم ، يدو كثير من الرحل والتقل ، وسكهم لا يصان في
استلاليهم إلى سوان البحر الأحمر ، بعدا شمة هدر إلى تعيش حول دخوات ،
بل قه ، بعد من في الحلال شرقية ، وأكثر حركتهم من الشمال والجنوب ، حيث
يصان إلى مطهره ، نظام . وعمد زوتهم الإبل وسم وفيل من المسار ، ولهم
نقص ررعة في لأودية نوقة إلى شمال الشرق من أبي حمد ، وجنوباً إلى وادي
غامور ، وإلى الجنوب من حمد نو دي لمية أوباك ، ولهم صلات طيبة مع قبيلة الرباطات
حيوت أبي حمد ، وكثيراً ما يمارسون الزراعة معاً ، كذلك لهم صلات طيبة مع
العبادة (ميكاب) ، بين يعيشون في الإقليم بين أبي حمد وكرككو

ومعهم تميم في هذا زكن الشمال بين أمست ، وعموماً يسيطر في بلاد
أهمها معروف في مختلف الأنحاء ، يعيشون جماعات صغيرة ، كثيرة الحركة والتقل .
وقد كان هذا سناً في توية نفود رب الأسرة ، نجمة أيضاً شديدة الخدب عليها
وحرص على مصحها . ومع أن لكل شعبة شيخها أو زعيمها ، المعترف به
ورعيته ، فيه من له نفوذ مباشر بحيث يمكن الالتجاء إليه في حل مشكلة ،
أو لاحتكام إليه في حصومة . وفي بعض الساعات يلجأون إلى مجلس رؤساء الأسر ،
لا إلى رئيس الشعبة الذي قد يكون بعيد الدار وقت شجر الزراع . ثمظم الحصومات
يقضى فيها أرباب الأسر المتخاصمة . وهذا لم يتفقوا على رأي ، التجدوا إلى شخص

آخر يثقون به ولو لم يكن من شيوع شعبتهم أو من قبيلتهم ولو بقى الوحيد حتى
يلجأوا فيه إلى زعيم الشعمة ، هو إذا حد الحد ودعا الداعي إلى جمع الخوع
والتأهب للحرب .

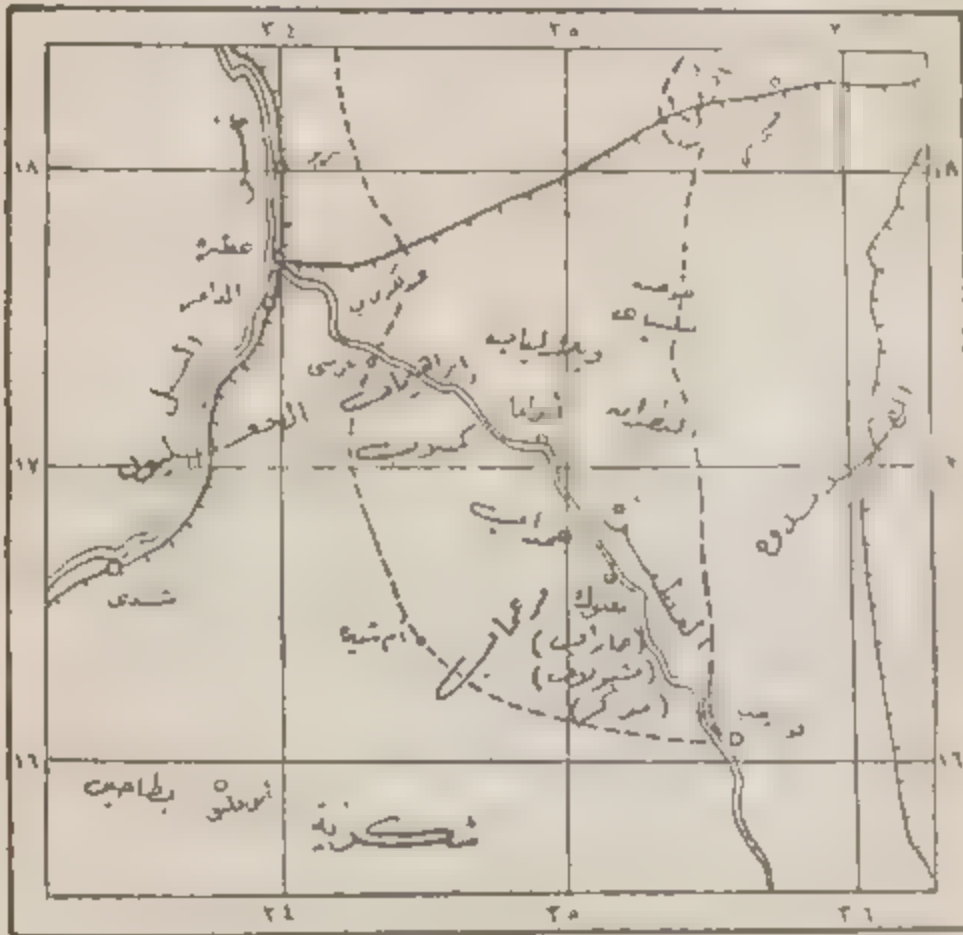
وتقسيم الشاريين إلى شعب أو حوائف ، مثل غلياب ، والمصورات ،
والإيراياب ، ليس هو التقسيم النهائي . بل إن كل شعب مقسم أيضاً إلى بدات ،
وهذا التقسيم يعترف به الشاريون ، وله غايته في رئاسة ووراثة ، وقد رأت
الحكومة أن تقسم البدات إلى حصص (جمع حصص) لسبوة تقسيم العرث
وجمها ؛ وهو أمر لا تلقى به الحكومة توفيقاً كبيراً . ولكن الحصص تقسم
لا يعترف بها الشاريون ولا يقيمونها لها وراثة .

وهذه — أخيراً — صورة الشاريين في المعطرة ، شمال النهر وحمويه .
وهؤلاء لهم عمدة واحدة . كما أن شياخة الشاريين جميعاً رفعة واحدة أيضاً في سدة
« بدات » على الصفة العامة للنهر . وهذا هو لإقليم وحيه ، في جميع أنظار
التي يسكنها الشاريون الذي نجد فيه فرقة واحدة مستقرة في بعض الجهات ،
هذا إذا استثنينا بعض المواضع الساحلية مثل حالات ودخوب ، التي لها وصيفة
خاصة ، وهي الدالة ، وقد يكون فيها مركز ثمانية حكومة

ولقرب المعطرة من الجهات العربية المسممة ، يرى الشاريون هذه جهة يعرفون
التمتين العربية والبداوية معرفة متساوية . ومع ذلك فإن عمدة المعطرة شتم على
عناصر ، ليست كلها متساوية تماماً في حياتهم وأسلوب معيشتهم ، وبغير ذلك
ثلاث عناصر رئيسية :

أولها : الزراع ، الذين يعيشون عيشة نصف بدوية ، وهؤلاء هم الشاريون
الحقيقيون ومعهم بعض عناصر من البجة امتزجوا بهم مثل الكلاب . وهؤلاء
يزرعون الجرد في النهر ولأودية الواقعة شرقه وغربه واسواق إلى تحفه به .
ولهم أيضاً إبل وبقر ، وعم ، وفصان العم بوحه حصص كثيرة ، أما الإبل والبقر
فعددتها قليل . وهؤلاء ينقسمون إلى شعبتين : سكان الجانب الغربي من الحداب

والإبراهيميات ، ومن ولائم ، من الكلاب وغيرهم ، وهؤلاء حركتهم ورحلاتهم نحو الجنوب ، أما سكان الجانب الشرقي ، فيتحركون نحو الشمال إلى منطقة الكثبان في يسنبي وما إليها مثلاً . وقبلما تذهب بهم هذه الرحلات إلى أبعد من ١٥٠ كيلومتراً ، وعادتهم أن يقيموا في النهر - نوحس الرئيسي - من أكتوبر إلى آخر فبراير . ويتعمدون عنه من يوبيه إلى أكتوبر ، وفي بين اغترابين ، يعيشون



شكل (٩)

شكة

على حد لا يريد على ثلاثين كيلومتر منه . ومعنى هذا أنهم يتعمدون عن النهر وقت مجيئه ، فإن برراعة ليست مناسبة حين يعطى النقصان الحزر والجسور . وفي ذلك الموسم يحسن تستط لأصغر وليست لها حاجة إلى الترام النهر .
مصر الثاني : هم الإبراهيميات ، وقسم كبير من الكلاب ، وهؤلاء رعاة وأصحاب فئسان ، ولا يقيمون في النهر ولا يزرعون . وزياراتهم بوجه عام قليلة ، وأكثرها

مركز في أودية سهل المطانة . وعماد ثروتهم الإبل ، وقطعان أخرى من الصان والماعز ، ومن أهم النواضع التي يستسقون منها آبار أم شديدة التي يدعى البشاريون ملكها ، وينازعهم في ذلك قبائل أخرى .

العنصر الثالث والأخير : يشتمل على طوائف غير بشارية ، ولكنها تعيش مع البشاريين جيباً لجنب أكثرهم من الجمليين ، ويسكنون دائماً على النهر لا يبعدونه وحرقهم الأساسية الزراعة ويننون قرى من طرار ما بينيه الجمليون . وهؤلاء زراعت قبل كل شيء ، وليست لهم حركات انتقال أو هجرة . وعلى الرغم من أن لهم بعض القطعان ، كما يكون للزراعت ، فإن عمادهم الأساسي هو الزراعة . وهم مع ذلك يعيشون في كنف البشاريين ، ويررعون الأرض بإذن منهم ، ويدعمون لهم بعض الأجر بطير ذلك ؛ وقد أدن لهم البشاريون أيضاً أن يستملوا شجر الدوم المنتشر على جوانب المطرة ، وأن يحموه ويبيعوه . لأن البشاري فلما يرعب في مثل هذا العمل . فهم يعيشون إذن تحت رعاية البشاريين . وبذلك تكون الشياخة البشارية تشتمل على نحو ثلاثة آلاف عربي .

هذا مجمل القول عن حياة البشاريين ، التي نختار اليوم شيء كثير من الهدوء وفي المساحة الواسعة التي يحتلوها ليس من السهل أن تراقبهم الحكومة أو تنزع حياتهم في السميرة والكبيرة . وعزلتهم في جبالهم وفيافهم تحجب إليهم الحرية وتبفض إليهم أي تدخل كثير في شئونهم ، وهم يتفرون من دفع الضرائب . لأنه لا بد لهم من قطع مسافات طويلة لبيع حيواناتهم ، ثم لا بد لهم من قطع مسافة أخرى إلى المراكب التي تدفع فيه تلك الضرائب . وفي المطرة يمكن العثور عليهم بسهولة وقت ردهم على النهر . أي في موسم الحفاف . ولكن في غير ذلك من الأوقات ليس من السهل العثور عليهم وتحصيل الضرائب منهم . ولا يكاد يظهر لهم شبح رجال الشرطة من بعيد ، حتى يختفوا عن الأنظار ومع ذلك فإنهم لا يظهرون عداء أو يقاومون رجال الحكومة أو يشيرون اضطراباً أو عصياناً ، وعلى كل حال ليست لديهم اليوم أسلحة نارية ، فلا يخشى أن يقوموا بمصيان مسلح جدي .

وقول ساندري إن أهم ما يميز أخلاق الشاريين التسامح والتسوية ، ولذلك تراهم يصلون بسهولة فيما يشجر بينهم من خلاف أو نزاع ، وبحكمهم في كل ذلك رؤساءهم وتاليدهم ابوروثة . وقد اردات الزراعة انتشاراً بينهم مما كانت عليه فيما مضى ، بسبب تذبذب الأسعار في ثمن الإبل ، والماشية عامة .

ورعاً كان خير وسيلة تمنع نحو الشاريين في المستقبل ، هي أن تتخذ حكومة بعض الوسائل لتوفير الماء ، وتحسين الآبار ، حتى يتحول عدد أكبر منهم إلى حياة الإقامة والاستقرار مع ممارسة الزراعة . وقد تهيأت الأسس لمثل هذا التطور ، بسبب الحكم السطر ، والاحتلاط بالسكان لآخرين من غير الشاريين والمجعة ، ومن كثرة عشائهم الذين وإطلاعهم على وسائل وأساليب الحضارة والحياة مستفزة .

ومن الشاريين جماعة قبيلة واحدة ، تآظرها يعيش على المطيرة في بعلوك ، ويروو الشعب الشايه مره في كل عام في شهر مارس ، حيث يجتمع بامعاً أثر الشايه (أم عى) وفصل دي ، ييب ، وهذا بحرى كله بالقرب من مرسى حلايب .

الفصل الخامس

الأمرار

المجموعة الثانية من الدحة ، هي من البشاريين ، إذا اتجهنا جنوباً وشرقاً ، هي الأمرار^(١) ، وهم اليوم أكثر عدداً من كانت أوطانهم أقل مساحة من البشاريين . وتوسع البشاريين نحو الجنوب جعلهم مجاورين لكثير من الأمرار والمهندووكثير من القبائل العربية ، ولولا ذلك لكانت مواطن البشاريين كلها أمم من الشمال من مواطن الأمرار . وقرب البشاريين من مصر ، واحتلالهم للأقطار التي كانت معادن الذهب تستخرج منها ، جعلهم أقرب إلى صرق الانتقال بين مصر و أسودر ، وأكثر اتصالاً بالعالم الخارجي . وحدثت كانت أعمالهم وأخبارهم وأحوالهم معروفة للسامعين ، الذين فلما صادفوا الأمرار أو مكثوا بأرضهم زمناً طويلاً ، ومنذ لم تبرز أخبار الأمرار ولم يتحدث عنها في لأزمة المصيدة ، كما برز أخبار البشاريين . ونظرة عاجلة إلى أوطانهم الممتدة ، ونشيم إلى مشون فيها كهيئة بأن توضح لنا السر في ذلك .

القبيلة ومواطنها الحالية

اسم القبيلة — كما هو معروف الآن — مشتق من اسم حدها المعروف أممر (والأرجح أنه محرف عن عمار أو عمرو) مصاب إلى عظم «ر» وهو في اللغة التبدؤة

(١) يراجع إلى جانب مقالة دائرة المعارف لبرصيه عن الأمرار ، مقده في مجلة National Geog. Magazine الأمريكية ، لسنة ١٩٢٩ ، عنوانها Two Fighting Tribes of the Sudan ، ومقالة ساندرو في مدونات أسودر لعام ١٩٣٥ ، وهي ثم ما كتب عن الأمرار ، وقد اعتمدنا عليها كثيراً في هذا الفصل .

جمع كلمة « ر » : تعني ابن : ولأمرار إذن هم أبناء أمر^(١) ، ويحيى ذكر الابن بعد ذكر الحد ، على الطريقة التي بعدها عند الإنجليز والاسكتلنديين ، في جاكسون وجونسن . أو عند الصفاة في إيفانوف ، والآراك في لاطو على ، وكثير غيرها من أمم التي تصاف فيها كلمة الابن في الآخر بدلا من وضعها في الأول كما هي الحال في أمم السامية — والظاهر أن العادة الحامية في إضافة المقطع إلى آخر الكلمة قد سربت إلى العرب في السودان ، بإضافة آب في آخر الكلمة ، كما هي الحال في العدلات والرباطات ، (بن عبد الله وبن إرباط) ويبدو أن هنالك فرقاً بين آب وار ، بد نصيف كل منهما لآخر الكلمة لأن آب تفيد معنى الأهل ، وأر معنى الأسد ، ولكن عرق طفيف .

ويطلق اسم لأمرار في الاصطلاح العام على القبيلة كلها ، وعلى أقسامها المختلفة . وهذا هو الاصطلاح الذي توأصع عليه الكتب ، والذي يجري به اللسان عند الكلام عليهم ، في الأوساط العربية والنصح الحكومية ، ولكن القبيلة نفسها ، بل من خير منهم من لحنه ، يقصرون لفظ الأمرار على شعبة واحدة من القبيلة ، وهي أشعة نسبة الفصائل ، أما سائر قبيلة فيصفون عليه اسم « عن » وسيجيء شرح ذلك في الكلام على أقسام القبيلة . وإذ كنا سنلزم في كلامنا الاصطلاح العام . وهو سلاق سم لأمرار على قبيلة كلها .

يحتل لأمرار مساحة من الأرض . تبلغ ٨٠٠٠ ميل مربع ، وهي ترتكز من ناحية شرفية على بحر الأحمر ، شدة من خط عرض ٢١ في الشمال إلى قرب دور ودور في الجنوب . وليست يورسودن دحلة أو مواطنهم ، وإن كان فيها عدد عر قليل منهم ، والحد الغربي ملادهم يمتد محادياً لوادي دثيب ، ويحتلون الجزء الأعلى منه . وفي طرف مري من ملادهم توسعوا جنوباً في الأزمنة الحديثة حتى احتلوا لأراضي الواقعة غرب بلدة ممر وحبوبها العربي . ولكن هذا التوسع نحو جنوب اتخذ صورته سان ضيق ، يمتد من خط عرض ١٩° إلى ١٨° ، وفيما

(١) يبدو أن الاسم الأصلي للأمرار هو أنهم أبناء عمار أو عمرو ؛ غير أن حرف الين لا وجود له في لغة هذه وبذلك حور الاسم إلى صورته الحالية . ولا بد من استخدامها كما هي .

عدا ذلك نرى أن معظم أوصان الأمرار واقعة شمال خط عرض ١٩ وحوط خط عرض ٢١ : وهي أطول من الشمال إلى الجنوب ، وعرضها من الحدود الشرقية إلى الغربية يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ ميلا .

وعلى الرغم من أن مواطن الأمرار لا تمتد على البحر الأحمر ، إلا إلى منطقة تبعد بنحو عشرة أميال شمال بور سودان ؛ فإن لهم اليوم مساحة محدودة على الساحل جنوب بور سودان ، تحتلها جماعة نورات ، وهي عشيرة حريرة من الأمرار في وسط أراضي المهندوه ، في منتصف المسافة بين بور سودان وسواكن تقريباً ، وإن سكن أقرب إلى سواكن . وموقع ذلك يحتل نورات منطقة طوكر ودلتا حور ركة ، يحاورهم فيها جماعات أخرى من البجة ، وعلى لأخص بني عامر

والأقليم الذي يحتله الأمرار شبه الخرج الشرقي من إقليم الشاردين ، أي أنه يشتمل على المرتفعات المحيطة بالبحر الأحمر ، تحتطه من الشمال بحبوب . وهي له عشيرة العمودا . قري ، يحاورها من شرق السهل الساحلي ، أو حووط دي لأمطار الشتوية ، ومن الجانب الغربي استحداث التي تنحصر بدرمجة نحو الغرب ، وتسمى أول . فهناك إدا ثلاثة إقليم : السهول الساحلية ، وسمجرات الشرقية والمجدرات الغربية ذات الانحدار التدريجي . ويشتر الإقليم كله ما عوردة شديدة والأودية المصيبة إلى مجدرات شرقاً وغرباً

ولاحظ أن توسع الأمرار نحو الحبوب إلى منطقة السكة الحبيبية غرب . سمر ، قد ساعد عليه امتداد بعض المرتفعات الوعرة في هذا الاتجاه . كل الأمرار قد أهدوا الترام المسالك الوعرة ، فلا يبدون الاسداد كثيراً عن حصارهم ومرقعاتهم . ولكن إقليم الأمرار ينار على ظهره في الأوصان الشرقية بأنه أقرب إلى الجنوب ، وحطه من المطر الصبي أعظم من حط الجهات الشمالية ، ومع أن وفض الأمرار لا يدح فيه إلا جرب يسير من القباي والتمراب ، فإن هذا الجرب أيضاً أوفر مطراً من الجهات الواقعة في أوصان الشاردين .

فالوطن الذي يحتله الأمرار في الوقت الحاضر يمتاز إذن بالوعورة في مجلته ، ولا نكتشفه السهولة إلا في الأطراف الشرقية والغربية ، المتاخمة للبحر الأحمر من

والجزء الأسفل من هذه لأودية هو وحدة الصلح ندراعة ، ومقالة ساندريز
عن الأمرار بعيدت زرعة حتى استحدثات اشرفية قبيلة حد ، أو هي في حكم
معدومة ، امية ، لا في دلتا وادي أربعات .

فسام القبيلة وفروعها

سقف الإشارة إلى أن الأمرار أنفسهم ، بل وكثير من البجة يقصرون اسم
الأمرار على شعبة واحدة من القبيلة ، وهؤلاء هم الأمرار القح Amar'ar Proper
أما الشعبة الأخرى التي سمي العتار ، فبهم يمتنون أيضاً بالنسب إلى أمرار ولكن
عن طريق المصاهرة .

والشعبة الأولى تضم البدات التي يطلق عليها إجمالاً اسم فضلاب ، وهي تحتل
ثلاث مواطن منفصلة .

١ - الموطن الأول وهو الأكبر ويمتد من منطقة السكة الحديدية حول محطة
سلام ، ويشمل الجزء الأوسط من مجرى وادي أربعات ، والجزء الأعلى من وادي
عامور ، وهو كبير الامتداد من الشرق إلى الغرب ، محدود من الشمال للجندوب ،
وبعض البدات في هذا الإقليم يطلق عليها اسم محمداب .

٢ - الموطن الثاني مساحة محدودة حول جبل إربه العري ، منفصل تماماً
عن الإقليم الأول .

٣ - الموطن الثالث ، مساحة محدودة أيضاً ، في إقليم الخط الحديدي غرب
مسار وحوالي محطة توجي Tojny ، وهذا أيضاً إقليم منفصل ، وهو آخر امتداد
للعضلاب نحو الجنوب ، ويطلق على جماعة الفضلاب في الإقليمين الأخيرين اسم عشباب
وواضح من هذا التوزيع أن الموطن الثاني والثالث ، منفصل عن الموطن الأول بواسطة
مساحة عظيمة يحتلها جماعات جوبلاي ، وهذا مما يحمل على الظن بأن أوطان
العضلاب كانت متصلة ، حتى فصل بينها امتداد هذه الجماعات نحو الجنوب ،
واحتلالها أقطاراً كانت فيما مضى ملكاً للفضلاب .

الشرق من موطن القبيلة ، ويحيط بهم الشاريون من الشمال ، والعلباب من الغرب والجنوب .

ولهم فوق ذلك مساحة صغيرة منسطة جنوب جبل إربه العربي ، أي جنوب الفصلاب السعالي في الغرب ، والقرباب هنا في هذه الجهة المنعزلة قد اتصلوا بالشاريين وتر وحو معهم ، فلا يكاد تصلهم سائر القرباب أية صلة .

٣ - الدوارب ، وهم أيضاً منه واحدة ، ولهم ثلاثة أوصان صغيرة مورعة أولها حول دلتا وادي زمامات ، وثانية مساحة ضيقة مستديرة على الساحل بين سواكن وور سوان ، وثالثة في طوكر ، حيث أمكنها بوضع اليد أو الرجل أن تكتسب حقاً شرعياً في أرض لم تكن داخلية في نطاق بلاد الأمراء .

٤ - الحولاي ، ويكوون خمس بلدات تنسب على التوالي إلى عبدالرحمن وعبد الرحيم ، وموسى ، وسدير ، وعمر حيصا ، ووصيه ، معادل وطن العلياب اساعاً من البحر لأحر شرقاً ، إلى قرب جبل إربه العربي ومن حدود علياب شمالاً إلى عرني بحشة من ر جنوباً .

وبعض الأمراء قد ساءلوا في معنى أن يصعد إلى اعطاره ودائماً لحس ، ولما لا يزالون يدعون أن لهم رصاً في هدين الإقليمين ، وإن لم يكن لهم اليوم مساحة دائمة هـ .

المنشأة والساريح

إر إلبه لأر - وعلى الأحص في حدوده لأصلية - هو أشد أقاليم أبحه عرلة ، وتعدى عن طرق الانتقال ، وحركات الهجرة ، وهذا الموقع المنعزل يضمن لهم كياناً ، تدعى إلى الاعتكاف ، ولبعد عن الإحتلاط إلا بقدر يسير ، ومما يساعدهم على الامتناع عن عدائهم ، وإتقاء عدوانهم . وهذا ساعدنا أن أبحه سكنوا وحاضرتهم هذه منذ زمن بعيد ، فلا شك أن الأمر قد ضمن لهم موقعهم الجغرافي حماة متقنة مستعمرة في مدى آلاف من السنين ، وممكنهم إذا شاءوا ذلك - أن يحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم أكثر من أي قسم آخر من أبحه . وقد

وضع سلجبان ، في مقالة عن المشككة الحامية في السودان ، الأمرار في المكان الثاني بعد بني عامر ، من حيث مقاؤهم وبعدمهم عن الاختلاط بعناصر عربية بخلاف الهندوه والشاريين ، واعتمد في حكمه هذا على الصفات الطبيعية التي لاحظها في الأمثلة القليلة التي احتضرها ، ولعله لو لقي الفرصة لاختار أوسع وأشمل ، لحكم بأن الأمرار هم أكثر البجة نقاء وصفاء ، واحتفاظاً بالصفات الحامية الأصلية . فإن الموقع الجغرافي لمواطن بني عامر ، ومحاورتهم للفضة الحشوية يحمل من الصعب أن نتصور أنهم أصفى أرومة من الأمرار . ولئن كانت قسلة بني عامر اكتسبت لغة الحاسة ، ونسبت لغتها الحامية ، فمن غير المألوف أن تأثرهم بثقافة عربية لم يكن مصحوباً بتأثرات أخرى ، واختلاط بدماء عربية .

ومما يمتاز به الأمرار اليوم أن ملجئهم التي يتحدثون بها هي أوى وأحسن اللجات في اللغة التداوية . وجميع البجة بقرون لهم بالفصل في سلامة لسانهم ، وتفوقهم في هذا على الجميع . ومن المقرر أن نسبة الأشخاص الذين لا يعرفون العربية ، ولا يتكلمون لغة سوى التداوية ، هي أعلا عند الأمرار منها عند أى قبيلة أخرى من البجة . ومباراة أخرى بن الحمل بالعربية أكثر ذبوعاً وانتشاراً من الأمرار منه في أى جماعة أخرى من البجة . ومعنى هذا أن القعود التقى العربى لم يتمل في ديار الأمرار وإن كانت الديانة الإسلامية قد استطاعت أن تسيطر سلطانها على الجميع أسوة بسائر البجة . وهكذا رى أن ما توحى به البيئة من قلة الاختلاط والاتصال ، قد صدقته الحالة الاجتماعية والثقافية .

ولئن كانت هذه الشواهد توحى لنا بأن الأمرار من صميم البجة ، وأهمهم يمثلون عصرأ حامياً خالصاً ، وبه مما يزيد عجبنا أن راهم يصطعمون الأساس العربية ، ويتفاسون الأدلة الواضحة التي ذكرناها والتي تميزهم على حبرانهم من العرب ، ولهم بالطبع في ذلك عذر ، كما أن البشاريين لهم عذر في انتسابهم للكواهلة كما رأينا من قبل ، لأن النسب العربى مهما كان متأخراً في ربه ، وضيقاً في حدوده ، فإن الإسلام قد رفع من شأن هذه النسبة ، وأكسبها لونا براقاً لم يلبث أن طغى على المجد القديم ، والنسب الحامى العريق . ولعل البجة

لو ذكروا أنهم من أقدم وأعرق القبائل في السودان ، لأدركوا أن في ذلك من أسباب العجز ما يحمل للحنولة الحامية مقاماً ، قد لا يقل خطراً عن العمومة المربكة .

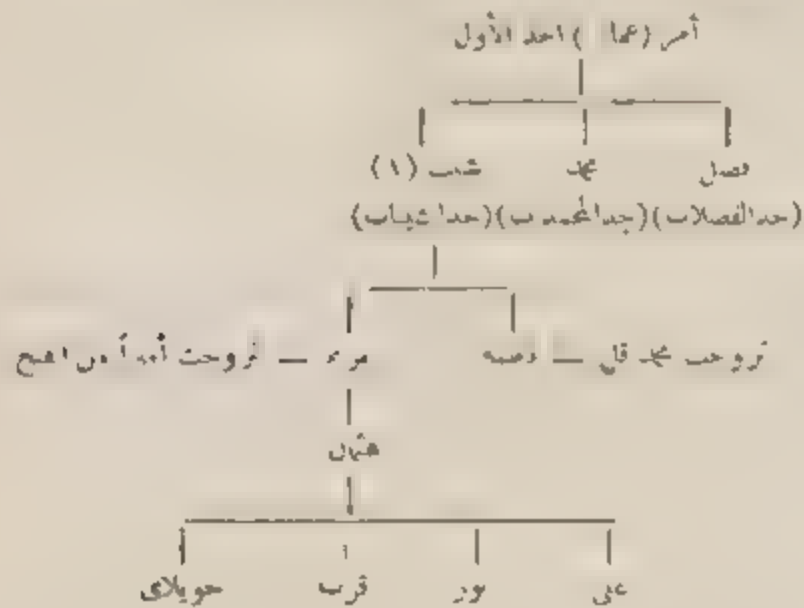
والأمر أن قد لا يقلون في مراقبتهم عن النصارى ، غير أن معلوماتنا عنهم أقل . وهم مثل النصارى ينسبون إلى الكواهلة ، وأن حديم أمر كان أحد أساء أو أحماد كاهن ، وكان أحاً شقيقاً أو أحاً من الأب فقط لشار حد النصارى . ذلك ما يرمعه الأمر ، والنصارى أنفسهم يسمون ببعض هذه القرابة ، ولكنهم مكرون أن أمر كان أحاً لشار . بل إنه أحد أساء العمومة البعداء ، وأنه عاش بعد بشار بأجيال عديدة ... وليس معروف عن أمر هذا أية أبناء أخرى . ولكن الشواهد تدل على أنه كان دعياً ذا خطر ، وأنه كان أحاً شقيقاً لمريم . حد امر مات ه وخامن الأب لكمال وكميل حد الكلال والكميلات . ولم يحدثنا الرواة شيء عن والد هؤلاء الأنطال الأربعة ، ولمله كان رجلاً خطيراً ، وربما كان فعلاً من قبيلة عربية ، وأنه أمكه بالمصاهرة أن تؤسس هذه القبائل الهامة بين البجة .

وصفة القوس ، أن كل ما نستطيع أن نستنتج من هذه الروايات أنها تأييد للقصة الشهيرة التي لا شك في صحتها بأن الكواهلة قد نزوا على شواطئ البحر الأحمر ، وانصوبوا بالبجة ، وكانت بينهم مصاهرة . وأن بيعة هذه المصاهرات ليست مقصورة على النصارى بل تناولت الأمر أيضاً . أما أن الأمر قد اخترعوا هذه البسمة تقابلاً للنصارى كما يشير ساندروز في مقاله فلم يستبعد .

وتتفق الروايات على أن أمر أنجب خمسة من المذكور منهم فصل ومحمد وشيب ، ابدين نسب إليهم الجماعات التي تحمل أسماءهم والتي سقت الإشارة إليها . وأن إحدى حفيداته تزوجت من رجل يدعى محمد قل ، الذي يسمى باسمه المرفقاً الواقع شمال بور سودان بنحو مائة ميل ، وكان مقره الأصلي سواكن . وأن حفيدته الأخرى مريم تزوجت رجلاً من عظماء الفنج في سواكن ، فأنجبت منه ولداً ، سمى عثان . وأن عثان هذا زوج امرأة من الأمر ، وأنجب منها أربعة أولاد : علي ،

ونور، وقرب، وحويلای، الأحقاد الأربعة للفروع الأربعة التي تنتمي إلى عثمان .
 وكان حويلای أصغر أبناء عثمان سناً، وأكثرتهم حيلة وأقوام مراساً، فالرواة
 يزعمون أنه تزوج نجساً من النساء، ولم تكن منهم واحدة من الأمراء، بل كلهم
 من الشاريين أو الأرنيقا أو المهندوه أو بني عامر، ولا شك أن هذه الرواية
 ترسم لنا الصورة التي تم بها للأمراء عامة، وللحويلای بوجه خاص، التوسع على
 حساب القبائل الأخرى عن طريق الزوج والمصاهرة، وإذا كانت مصاهرات
 حويلای محتلطة جاءت عن عمد وخطة مرسومة، ولم تكن نتيجة الصدفة الخفية،
 فإن هذا مما يؤكد حسن سياسته وبعد نظره

وهكذا نستطيع تبسيطاً لهذه الروايات الكثيرة أن نرسم شجرة النسب للأمراء
 على الصورة الآتية مع استبعاد الأسماء التي لم تترك أثراً هاماً :



وهكذا نرى كيف تفسر لنا الروايات انقسام الأمراء، إلى الفصلا وإخوانهم
 وإلى عثمان ومروعه الأربعة، وأعطى بلا شك الحويلای . وإظهار أن عثمان
 كان يعيش حوالي ١٦٠٠ — ١٦٥٠ ؛ وقد أمكن شعبة عثمان، بفضل حسن
 سياستها ودهاء قادتها أن تصح لها الزعامة على جميع قبيلة الأمراء، بما في ذلك

(١) أحب شيب المذكور أسماء لأخضر له، وسمي فامية ومراء وشبهه من أم عثمان .

شعبة العصابات والمثبان ، وقد استطاعت جماعات المثبان أن تتوسع نحو الغرب في
نحو المسائي عام الأخيرة ، حتى أصبحت تحتل جميع الإقليم الذي تسكنه اليوم ،
بما في ذلك الامتداد السيق إلى مصقة غربي مسر . وبمصر الهجرات إلى المطهر
ودنا احش وحوور ركة .

وقد صب الرعامة معقودة نعمان في جميع القبيلة ، إلى أن جاء عهد المهديّة ،
وفي رغم ساندوز أن احلاف من مثبان والعصابات بدأ يظهر قبل المهديّة بر من
يسير ، بسبب التنافس على حراسة الطريق بين بربر وسواكن ، وبحصيل الإتاوة
من القوافل في هذا الطريق . والظاهر أن العصر السابق للمهديّة كان يمتاز بالهدوء
الذي تأسس عليه جميع الأمراء ، وكان يدخل الحكومة في شئونهم فيلأ حد ، ولم يكن
خاضعاً وثيق إلا بأحكام المحورة لسواكن ، ومد بلغ ما تحصله منهم من الضرائب
حوالي ٦٠٠ جنيه ، مما يدل على أن حراً أصميراً من قبيلة كان يدفع هذه الضرائب .
وعمل أشرها كان يدفعه لجماعات التي تجبى رباحاً من جمع الإتاوة على القوافل
وحراسة العرب ، وتقديم الإبل للحكومة .

وقد رأت المهديّة في القبيلة تأثيراً شديداً فأضعفت تماسكها ، ومزقت وحدتها .
وكانت كثرة هاجر بفضل الحيات الدم ، ولكن نفوذ عثمان دجنه من جهة ، ووجود
الحامية المصرية في سواكن ، وصعوبات الرعما ، وتقلبهم بين الفريقين قد أثر
الحارات من أقسام كثيرة منهم ، وقد بولد هذا العصر عداوة بين المثبان والعصابات
وحدهما ، بل كذلك بين أقسام ومدب مختلفة .

وفي أوائل القرن الحادي كانت حدة الانقسام واضحة ، ولم يكن من السهل
المشور على عبيد بنين في قبيلة ، أو تعاون معه . وقد حاولت الحكومة أولاً
أن يعين شيخاً من العصابات ، فم يفلح في لم تعمل لقبيلة . وفي النهاية عين أحد
رعمه الخولاى أحمد بن حمد محمود رعمه ، واتخذ مركزاً له في أريب ، ثم انتقل
بعد ذلك إلى مسر ، حتى رغبة الحكومة . وقد وجد المركز الجديد ملائماً
كل ملائمة ، لأنه بقعة لواء الشرابين ولحدوده ولأمرار ، وبذلك أمكنه بحسن
سياسة أن تحسن العلاقات بين قبيلته وتقتل المحورة .



المجموعات العرقية
سكان السودان الشمالي

المجموعات النائية

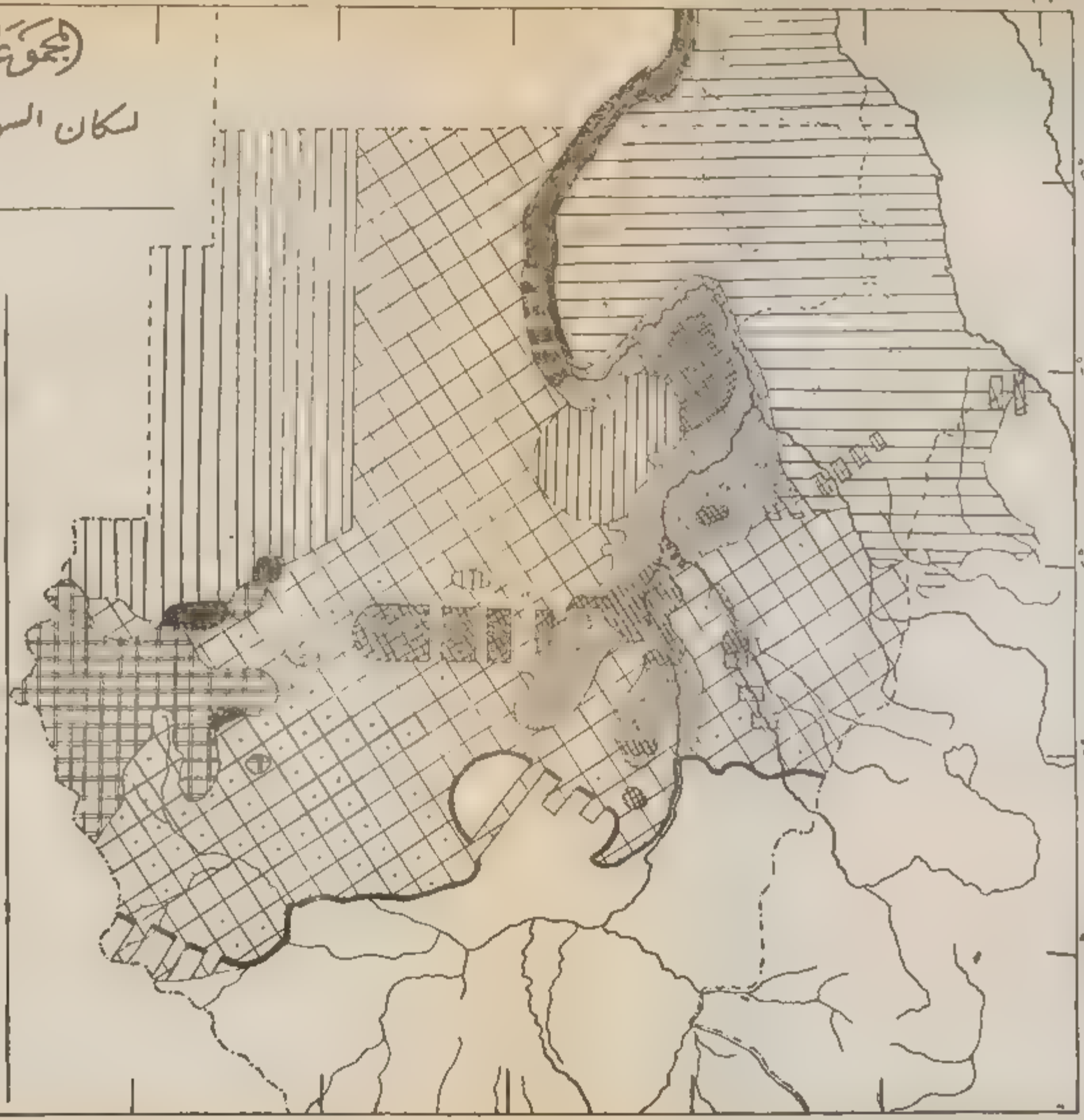
- البحر
- النوبيون
- القبائل الليبية

المجموعات العربية

- الكويلة والحسانية
- المجموعات المحلية (الغسانية)
- قبائل جسيمة

مجموعات الفور

- الفور وغيرها



الحالة العامة للقبيلة في الوقت الحاضر

ملخص فيما يلي الصفات العامة للأمراء كما وصفهم الأستاذ ساندرز مع بعض التعديل :

لا يختلف الأمر في مطهرهم العام عن سائر النحى ، وصفاتهم الجسدية هي السائدة بين نظرائهم من الحاميين ، وإن كانوا يعدون أصبى جوهرأ من غيرهم ، وذلك يمتازون بمظهر أكثر ملاحظة ورشاقة من الذين . وروحهم الكثير منهم خيرا من البجة ، وأحياناً غير لينة لم يؤثر في سجنهم وصورهم ، لأن مثل هذه المصاهرات محدودة ومقصورة على زعماء . ومنهم كما سبق أن ذكرنا ، هي أئى اللهجات وأقلها قنباساً من العربية ولحنهم معتبره في نظر جميع النحى الحسن اللهجات البداوية ، وهم أربع في الحرب وأشد جراً من سائر النحى كتحامون جانبهم قدر الطاقة . وهم برعم دماثة طماعهم شديداً لإحسان بكر منهم ، سريمو الغضب إذا توهموا أقل إعانة ، حتى ولو لم تكن مقصوده . ومعشهم في بيتهم ، والبرامهم هذه المدة عودهم مصر على الخوع والطمس وطول الحزن المكاره . وصحة أديانهم جعلتهم مع ذلك أقدر من غيرهم على الاصطلاح بالأعمال الشاقة الجسدية مثل حرفة الحمالين ويبرها من الحرف لئى تهم لما انطفة الجسدية العظيمة .

وعداؤهم المأثوف هو اللين والندرة ، وقليل من النجم . ولا بأ يكون السمك ، اللهم إلا عدد قليل من القرى يشتغل أهدا بالصيد ، ويكتفون بالسمك عن النجم وقد ألغوا عيشة الحمال واعتادوها . وسأؤهم يتمتعن بقسط وافر من الحرية . ويقول ساندرز أيضاً إنهن عادة يستخدمن هذه الحرية استخداماً تاماً .

ويقدر عددهم كما ذكرنا من قبل بنحو ٥٠٠٠٠ ، منهم نحو ٤٠,٠٠٠ من العثان ، و١٠,٠٠٠ من الفضلاب . وأكثر هؤلاء يعيشون في الجهات الجبلية السابق وصفها . ولكن منهم نحو ٥٠٠٠ من النورات يعيشون في طوكر ، كما أن هنالك عدداً منهم في بور سودان يبلغ أيضاً نحو ٢٠٠٠ ، معظمهم لا يقم

بصفة دائمة فيها ، بل يعود إلى بلده ويحى عيره فيحل محله . ومنهم أيضاً نحو ٣٠٠٠ قد استوطنوا إقليم المطيرة ، ولا شك أن القبيلة قد ازداد عددها ازدياداً كبيراً في المائة عام الماضية . فقد كان الشاريون منذ مائة عام أكثر منهم عدداً وأوفر ثروة وقوة وأعظم حظراً . واليوم قد أصبحوا ثلاثة أمثال الشاريين في العدد ولا يقاومون عنهم في الأهمية . ومع أن الشاريين قد نقص عددهم في الزمن الأخير ، غير أن هذا السبب وحده لا يكفي لتعطيل هذا الفرق الكبير بين القبيلتين . بل السبب على الأرجح هو أن الأمرار زاد عددهم فتوسعتهم نحو غرب واندماج وحدات أخرى فيه ، وجلب المهاجرة خارج القبيلة ، وهو ما يسمى في علم الأجناس بالاغتراب . وهجراتهم وانتقالاتهم الموسمية محدودة . وفي المنحدرات الشرقية لا تتجاوز ٣٠ أو ٣٠ ميلاً . ويرتدون إلى السهل الساحلي في شهر نوفمبر وديسمبر ، حين يبدأ ظهور الحشائش عقب الأمطار الشتوية ثم يعودون إلى سفوح الجبال في مارس ، وإلى المرتفعات في أبريل ومايو ، حيث يمكن تعبئة أشنية من براعم الطلح والسمط . أما في المنحدرات الغربية ، فلا بد من الرجوع إلى سهول العربية في الصيف ، لتعبئة الإبل بالأعشاب والحشائش بعد مطر الصيف ، وطلون في هذه الجهات إلى شهر نوفمبر ، ثم يعودون إلى السفوح والمنحدرات ، حيث أدبار أوفر ماء منها في قبلي العشي . ويمكثون في السفوح إلى شهر مارس ثم يرجعون إلى المرتفعات بعد ذلك لتعبئة ما لديهم من براعم الطلح والسمط في شهر إبريل ومايو ويونيه ويوليه ، شى لأشهر التي يقضون فيها تجميع في سكنى المرتفعات .

والهجرات في أحياء العربية أصول وتوسع مدى ، وقد فصل بالأمرار أحياناً إلى الحبيب حتى المطيرة وقد تبلغ هذه الرحلات ٦٠ أو ٧٠ ميلاً ، أو ثلاثة أمثال المحجرات الشرفية ، وما أخذ بين الأمرار جماعة تجمع في رحلاتها بين المراعي الساحلية في الشرق ، ومراعي العتبات في الغرب ، لأن الإبل في الجهات الغربية لا تستسبح الأعشاب الساحلية ، ذات العظم المالح ، وإنما تستسبحها الإبل إلى اعتادتها .

وهما لك فرق واضح في الحياة الاجتماعية بين سكان الشرق والغرب ، وهو فرق

قضت به اليشة . ذلك أن البدئات في الجهات الشرقية بعض متقاربة طول السنة وفي مختلف المواسم . فإذا أنجدوا أو أسهموا كان صعودهم ونزولهم في مواسم متقاربة وكانت صلاتهم دائماً متقاربة ، ولذلك كانت وحدة البدنة أو الشعبة محافظاً عليها ، والزعيم له اتصال دائم بيدته طول السنة .

أما الجهات الغربية ، فإن التوسع في مدى الرحلات ، والانتشار في السهول الغربية مسافات بعيدة ، وتوزع الرعاة بين الآبار القريبة والبعيدة ، وانقطاع بعض الأسر للرعاة في جهات قد تكون خارج حدود القبيلة ، كل هذه الأعمال حملت من الصعق على شيخ القبيلة أو البدنة أن يكون دائم الاتصال بجماعته ، ولذلك قويت سلطة زعيم الأسرة .

ومن أحسن ما امتار به الأمر أن الجماعة منهم قد تتحول عن موطنها ، وتنزل موطناً جديداً بين أقوام غريباء ، ومع أنهم يشعرون إذا اعتدى غريب على أرضهم ، فيهم لا يحدون بأساً في لزوح عن أرضهم والنزول في أرض عربية . وهذه من غير شك هي النزعة — أي رعة التوسع السلي في الجهات المختلفة — التي مكنتهم بعضي الزمن من التوسع واحتلال الاقطار الكثيرة التي يمشون فيها اليوم . ولا يعرف عن الأمر أي فتح أو غزو منظم كالم الذي قام به النصارى . ولكنهم بوسائلهم السلمية والدبلوماسية قد تمكنوا من توسيع رقعتهم على حساب جيرانهم ، وهكذا زاحموا قداماً طوكرو وحوار الحاش والمطهر ، وجاوروا اهددوة والشاريين وبني عامر ، من غير مشقة — ولم يلبثوا أن ادعوا الحق في الجهات التي يحتلوها — ومنهم في الأرمنة الحديثة من هاجر إلى القصارف وبربر مل وأسوان أيضاً^(١) .

وعادة الأمر أن إذا برلوا في أرض عربية ، وهم عادة قليلو العدد جداً ، بحيث لا يفاذي من وجودهم أصحاب الأرض ، أن يبادروا بمصاهرة جيرانهم الجدد . وبذلك يكون لهم حق التمتع بالماء والرعى ، ولكنهم متى كثر عددهم وأصبحوا يعادلون السكان الأصليين في الثروة والعدد ، أخذوا يطالبون بحقوق لم تكن لهم ، وبذلك تلتأ الحزازات والخلافات التي لا يزال كثير منها قائماً إلى يومنا هذا .

(١) هذه النزعة إلى التوسع ستراها أيضاً في حيوة أسلم عند المدهوه .

ويرى سندر أن العامل الاقتصادي في الشأن الأكبر في هذه الهجرات لأن البيئة الجبلية التي استوطنتها الأمرار هي بوجه عام فقيرة الرعي . ولا تلت القطعان إذا كثرت عددها أن تتطلب مراعى جديدة ، وهذا يضطر الأمرار إلى الارتحال والبحث عن وطن جديد .

وقد أصبح للأمرار بعد توسعهم بثبات عديدة ، يختلف بعضها عن بعض نوعاً ما . وهذا الاختلاف له أثره في حياة كل شعبة ، فاشرب مثلاً سكان حمال ، وبين مراعيهم في الساحل وفي المرتفعات مسافة قصيرة ، وشيوخهم لهم نفوذ كبير فيهم . وأكبر ثروتهم قطعان الماعز وهي من نوع جيد كبير الحجم وهم أيضاً يربون أحسن أنواع الإبل الجبلية ، وهي سلاية صعبة الحجم بوعاً ، خفيفة ، بطيئة ، ولكنها تستطيع أن تسلك وعراً المسالك الحسنة وأشدّها انحداراً ، وتتسلق الشدايق الوعرة وتحولتها على ظهرها . وليس في بلادهم أرض يصلح للزراعة ، وهم يحصلون على حاجتهم من الحبوب بامم في مياء بور سودان ، ويبيع الألبان ومستجاتها هناك . ومنهم جماعة تربت في محمد قل ، وتطلت صيد اللؤلؤ

أم الوراق ، هم في حالة انتقال سريع من الرعي إلى الزراعة والاستقرار ؛ وهذا نراه بوجه خاص في مواطنهم في دلتا وادي أرمات ، وفي طوكو والجاش ، وهم الوحيدون بين الأمرار الذين يربون النقر بمقادير محسوسة ، وقد بدأوا صلاتهم في الجمات التي تربوها ببيع النباش إلى الزراع . وهم الآن يموتون طوكو بالدين ، وفي وقت نفسه أخذوا أيضاً يشترون بالزراعة .

ويرى سندر أن الغلياب هم أكثر الجماعات البهاوية توحشاً ، وليس لهم نظام يجمعهم ، وسواء في أوطانهم الشمالية أو في الجمات التي تربوها بالمطرة ، فإن علاقتهم مع أنفسهم ومع جيرانهم لا تبتعد على الارتياح . وعماد ثروتهم الصان ، ويربون منها أنواعاً طيبة في المراعى الجيدة الواقعة شرق جبل ديروربه Deirurba وفي بلادهم منجم الذهب في حيت^(١) ، وقد أمكن استخدامهم في التعدين ، وبعد أن كانوا ينقرون عوراً شديداً من العمل تحت الأرض ،

(١) حيت لماعة واقعة إلى الشمال بخلاف بلدة حيت المشهورة ، الواقعة في بلاد الهندو .

أصبح كثير منهم يرتقى من هذا المورد ، وكذلك يجنون ربحاً طيباً من بيع اللبن واللحوم والسمن للمستقلين بالتمدين في جيت .

والجولاي هم أكثر جماعات الأمرار نشاطاً ، وأسهم حيلة ، وهم بوجه خاص الذين قادوا حركة التوسع نحو الغرب ، ونشطوا في إبعاد الزراعي نشاطاً ملحوظاً ، ومع ذلك يربون قطعاناً صالحة من الإبل ، وهم يعملون في الزراعة إلى جانب الهدندوه والشاريين في المطر ، وفي إقليم مسير . وهم أبرع الأمرار في معاشره جيرانهم بحيث قلما يشجر خلاف بينهم وبين الهدندوه أو الشاريين .

وصفوه القول أن الأمرار في حالة توسع مردوح ، فهناك حركتان : من الحبل إلى السهول ، ومن الشرق إلى الغرب ، والجنوب الغربي ، ولكن حالة التوسع هذه مشرفة على نهايتها ، وبجملها اليوم أصبح أضيق مما كان في مضي .

الفصل السادس

الهندوه (١)

نعد الهندوه أحدث اوحداث البجاوية ظهوراً ، وأكثرها عدداً ، ولطروف تاريخية خاصة ، أوسعها شهرة في العمود الحديثة . ومركزهم في الاقتصاد الوطني - بحكم موقع أوصالهم والساعها - أهم من مركز أية جماعة محاوية . وفي أوطانهم تقع مستنقعات كثيرة في تاريخ السودان ، وهما سواكن وباك (كسلا) . ولكن على رغم من مركزهم وأهميتهم ، فإن بشتهم عمسة ، وتاريخهم القديم يحيط به صلام كثيف . وه كن هم إلى وقت قريب أية ساهة أو ذكر . ومع أن كثير من هذا الوصف ينطبق على الأمرار ، غير أنه في الهندوه أظهر وأبع ، وعلى نطاق أوسع .

ولاسك أساهها أهم طاهرة قد سبق وصفها في الساريين والأمرار ، وليست بالأمر عر المألوف في الشوب البادية ، التي تظهر فيها بعض وحداتها ، ثم تنمو وتقوى إلى حساب اوحداث السعيرة التي تندمج فيها في زمن وجيز ، حتى تكبر تلك وحدة وتحتل المكان الأول . وقد امتص الهندوه في المائتي عام الأخيرة عدداً كبيراً من وحدات السح الصغيرة ، وربما اندمج فيها أيضاً وحدات من غير السح حتى مسحو اليوم قبيلة عظيمة تعدادها نحو الثمانين ألفاً أو أكثر ، وتعيش في إقليم بلغ مساحته عشرين ألفاً من الأميال المربعة . وإن لم تكن هذه المساحة كلها حصة لهم ، بل يتركهم في القليل منها جماعات أخرى من السح وغير السح . تمتد هذه طين الهندوه امتداداً عظيم من الشمال إلى الجنوب من شمال خط العرض التاسع عشر إلى جنوب الخط الخامس عشر . فأوطانهم تمتد إذن من الشمال

(١) قد يكتب البعض اسم الهندوه بالألف المدودة أو القصورة في الآخر ، ولكن كتابته بألفاء أكثر انتشاراً بين الهندوه أنفسهم ، وللفرد هندوى .

إلى الجنوب مسافة تزيد على ٢٨٠ ميلاً ، ومن الشرق إلى الغرب تبلغ المائة ميل أو تزيد في الشمال ، ولكنها تضيق في الجنوب بين حدود الارتريا ونهر المطرة . هي إذن في صورة مستطيل ينحني في الجنوب بما يشبه الثلث ، وسكة حديد كسلا ، من أول خشم القرية إلى شمال سككات بحري في ديارهم وأوطانهم .

وليس للهندوه على البحر الأحمر سوى مساحة قليلة تبلغ نحو خمسة وثلاثين ميلاً ، تتوسطها مدينة سواكن ، وإن لم تكن هذه المدينة داخلة في الأوطان البجاوية الصميمة . والحدود الشرقية للهندوه تبدأ جنوب سواكن بنحو عشرين ميلاً ثم تمتد نحو الجنوب بين خور ركة وخور لانبج ، حتى تصل إلى الحدود الأثرية ، ثم تتبع هذه الحدود في بحراف نحو الجنوب المرنى إلى خشم القرية ، وهنا الحد الجنوبي لأوطان الهندوه . أما الحد الشمالي فسواكن ثم يمتد غرباً مخترقاً السكة الحديدية شمال سككات ، إلى بقعة في شمال شرق آرياب . ومن هنا تتجه الحدود نحو الجنوب في شبه خط مستقيم ، محترقة خط السكة الحديدية غرباً مسير ، وتمد نحو جنوب إلى أن تصل نهر عطرية عند فور رجب ، ثم تلازم هذا النهر إلى خشم القرية .

يتبين من هذا أن الهندوه قد احتلوا سيطراً من الصفات الشرقية (الشمالية) للمطرة يمتد إلى نحو المائة ميل ، وخور الجاش بحري في ديارهم . ويصحبها بحاورين للعصبة الحبشية في أطرافها الشمالية ، كما أنهم حاورو بعض الأنهار والحدود التي تنحدر منها ، ولو في جبر صيق . وليس من السهل أن نقسم بلاد الهندوه إلى المنحدرات الشرقية (الحويب) والمنحدرات الغربية (أول) كما هي الحال في بلاد الأمراء ، لأن المرتفعات فيها تتناول أقطاراً أخرى ، خلافاً لمنحدرات البحر الأحمر والمنخفضات أيضاً أكثر تنوعاً مما نجده في أوطان الأمراء . ومع ذلك فمن الممكن تقسيم أوطان الهندوه إلى مرتفعات ومنخفضات ، وأن نميز الأنواع المختلفة التي تدخل في كل من هذين القسمين .

فالمرتفعات ليست متصلة ببعضها ببعض ، ومن الممكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام محتمة : أولها مرتفعات البحر الأحمر ، وهي في بلاد الهندوه أقل ارتفاعاً منها في

بلاد الأمازيغ ، وتمثل هضبة متوسطة الارتفاع يريد ارتفاعها بوجه عام على الألف متر . ويمثل هذه الهضبة تمثيلاً حسماً لهذه إركوب ويبلغ ارتفاعها ١٠٩٤ متراً فوق سطح البحر . وفي هذه الكتلة العالية عدد من القمم مثل جبل أرياب وهو إلى الجنوب من إركوب ، وارتفاعه نحو ١٨٠٠ متر ، ويليه من جهة الجنوب رؤوس عديدة نصارعه أو تدومسه في الارتفاع . وهذه الكتلة تنحدر انحداراً صريماً نحو الشرق ، وانحداراً تدريجياً نحو الغرب . وتنتهي هذه الكتلة بحافة منخفضة ، في أصرافها الجنوبية فتتحد الأرض بالتدرج نحو الجنوب ، حتى تنخفض إلى مستوى لا يريد ارتفاعه على ثلثائة متر .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن مرتفعات البحر الأحمر تكتنفها الفجوات من آ- لأن ، وهذه الفجوة الواقعة جنوب أرض الهندوه هي من أشهر هذه الفجوات ، وهي التي فصل بين سائر المرتفعات وبين هضبة الإريتيرية المتصلة بهضبة الحبشة . وفي هذه الفجوة بحري حور ركة محترفاً الهضبة الإريتيرية إلى سهل طوكو . وليس حور ركة هو الوحيد الذي يجري في هذا الإقليم ، بل يجاوره إلى الشمال حور حر فز منه ماء لأنه لا يستمد من الهضبة الحبشية ماء كثيراً ، وهو خور لانب ، وهو الذي يجري في أرض الهندوه ويعف بالمرتفعات الشمالية ، أما حور ركة فلا يجري في أرض الهندوه ، مع أن خور لانب يمد من روافده ، ولكن أكثر مجراه منفرد عن بحري حور ركة . وبين الخورين كتلة جبلية مستطيلة ضيقة محدودة المساحة ، وهي تمثل القسم الثاني من مرتفعات أرض الهندوه ، ويريد ارتفاعها بوجه عام على ألف متر . وبها جبل واحد بارز وهو جبل أدارياب ، ولا يريد طولها من شمال لجنوب على اثنين ميلاً ، وعرضها على العشرة الأميال . هذه هي الكتلة الثانية من لأرض المرتفعة في مواطن الهندوه . أما الكتلة الثالثة فعبارة عن مساحة من الأرض المرتفعة نسبياً تحيط بالحدود الجنوبية لأوطان الهندوه ، والحدود الجنوبية الشرقية الملاصقة لبلاد الإريتيرية ، وهي مرتفعات يتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ من الأمتار ، وهي في الحقيقة بمثابة السفوح الغربية للهضبة الإريتيرية .

أما المنخفضات ، فهي أيضاً تقبل التقسيم إلى ثلاثة أقسام تماثل أقسام المرتفعات ، وأولها السهل الساحلى المحادى للبحر الأحمر ، الذى تتوسطه بلدة سواكن ، مما يلى الكتلة الجبلية الشمالية وهو لا يكاد يختلف عن بطيه فى بلاد الأمرأ ، اللهم إلا أنه يصيبه مقدار أكبر نوعاً من الأمطار . والإقليم المنخفض الثانى هو تلك الفجوة الضيقة التى يجرى فيها وادى لانبج ، وهى الواقعة بين الكتلة الجبلية المنزلة ، حول جبل أد ربات ، وبين المرتفعات المحادية للبحر الأحمر . وفى هذا المنخفض الضيق يجرى وادى لانبج ، فى اتجاه من الجنوب إلى الشمال ، حاملاً ما يستطيع جمعه من الماء النحدر من المرتفعات الإرتوية ، والمرتفعات الشمالية . وهى على كل حال مياه قليلة تناسب نحو سهل طوكر ولا تصل إلى البحر

أما القسم الثالث من الأراضي المنخفضة عبارة عن سهل فسيح يشمل الخاب الغربي والجنوبي من بلاد الهدندوه ومهايته فى احبوب فى إقليم كسلا . وهو عبارة عن الامتداد الجنوبي لسهل المتناهى أو الثمرات . وتجرى فيه طائفة من الأحيار يزداد ماؤها كلما اتجهنا جنوباً .

والظواهرات المناخية فى بلاد الهدندوه توفى النظام الذى رأيناه فى بلاد الأمرأ ، فالطريق شتوى على السهل الساحلى والمحدرات الشرقية ، وتسرب إليه مع ذلك مقدار قليل من انظر الضيق ونورم انظر فى طوكر على مدى السنة هو كما يلى :

بأبريل ٢٢ ١ ١ ٢ ٣ ٤ ٣ ٠ ١٠ ١٧ ٢١ ٨٨
 وفى سواكن :

بأبريل ١٧ ١ ١ ١ ٨ ٧ ٠ ٢٦ ٧١ ٤٢ ١٨١

أما المحدرات الغربية فى حمال البحر الأحمر ، شير مثال لها بلدة سككات شطرها ضيق ولا نصيبها من انظر الشتوى شئ . وانقدار السوى ١٢٤ مليمترأ مركرة حول شهر أغسطس الذى يسقط فيه ما قرب من ٦٠ مليمترأ .

والسهول الغربية يمثلها مناح كسلا ، ولكن شئ من لتطرف ، لأنها واحة

في الطرف الجنوبي من بلاد الهندوه ، ومطرها أغزر من سائر جهات تلك السهول .
وتوزيع المطر فيها كما يلي .

يناير فبراير مارس أبريل مايو يونيو يوليو أغسطس سبتمبر أكتوبر نوفمبر ديسمبر المجموع
١ ٢ ١١ ٣٠ ٩٣ ١٢٥ ٥٧ ٩ ٠ ٠ ٠ ٠ ٣٢٨

وقرب كسلا من المرتفعات الأثرية سب في ازدياد أمطارها ، لا عن الجهات
الأخرى في السهول الغربية من بلاد الهندوه فقط ، بل إن مطرها أغزر بكثير
من الجهات الواقعة على نفس خط العرض في إقليم نهر النيل ، حيث نجد أن الخطوط
الواقعة على نفس خط العرض لا يزيد مطرها السوي عن ١٦٠ ملليمتر ، أو أقل
من نصف ما يسقط في كسلا .

وليس هنا لك محطة لقياس المطر في الجزء الشمالي من السهول الغربية ببلاد
الهندوه ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن هذا المطر الغزير نسبياً في كسلا ، يتناقص
بسرعة كلما ابتعدنا نحو الشمال ، حتى لا يكاد يبلغ الشاطئ ملليمتر في الأطراف
الشمالية لتلك السهول ؛ وأقرب مثال نستدل به على المطر في تلك الجهات الشمالية
هو بلدة تلجشوارب وهي واقعة على السهول الغربية لمرتفعات البحر الأحمر ،
على حافة السهول من جهة الشمال ، ومطرها لا يزيد عن ٧٥ ملليمتر مكرراً حول
شهر أغسطس .

ومع ذلك فإن المطر بوجه عام أكثر في أوطان الهندوه منه في أراضي البجة
الشمالية . وإلى جانب المطر يشار الهندوه في الاستفادة من نهر المعبرة في حزم
غير قليل من محرم . ولهم فوق ذلك دلتا حوض الحش الذي يقذف بمياهه في مساحة
واسعة شمال كسلا ، وقبل أن ينظم فيضان الحش لكي يستفاد به في الزراعة
الحديثة ، كانت هذه المياه مورداً منتظماً للرعي ولتعض الزراعة . وكانت تكتنف
الإقليم نبات وأشجار كثيرة ؛ وكانت تأوي إليه صروب من السباع . والحياة
الغائية بوجه عام أغزر في إقليم الهندوه تبعاً لازدياد الأمطار ، وإلى جانب
الحشائش والمراعي في السهول وشجيرات الشرقية والغربية ، تنمو أشجار السنط
والطحح ونخيل الدوم وغيرها من صروب الشجر .

في هذه المساحة الكبيرة تعيش قبيلة « الهندوه » ، ومن التواضع أن نصفها

بأنها قبيلة ، وهي التي يزيد تعدادها على ٨٠,٠٠٠ نسمة . وتوشك أن تكون شعباً ، وعددها لا يزال آخذاً في النمو . ومهما يكن من شيء ، فهي قبيلة تتألف من عدة عناصر بحاوية صميمية ، يندمج بعضها في بعض والتحت أعضاؤها وأوصالها التحاماً قوياً ، ومع ذلك لا تزال محتمة بمقدرتها على النمو وامتصاص عناصر جديدة .

وليس من شك في أن الهدندوة — وإن دخلهم منس الدماء غير الحامية — من أصل بحاوي صميم ، والكثرة العظمى من العناصر التي تدخل في تكوين الهدندوة عناصر حامية ، يشهد بذلك طابعهم الحامي الذي يفلب على جميع الأفراد . ومع ذلك لم يكن بد من أن يخار الهدندوة حيرانهم من الأمرار والبشارين في الانتماء إلى أصول عربية أو إلى نسب عربي ، وهي دعوى لا بد أن يكون لها أساس من الحقيقة ، إذا ذكرنا أن بلده سواكن ، كانت دائماً محالاً لنشاط عربي مصدره جزيرة العرب من جهة والقطر المصري من جهة أخرى .

والرواية التي يذكرها مستر أوين في مقاله^(١) ، ولا تكاد تختلف عما رواه بعض زعماء الهدندوة للمؤلف تتلخص فيما يلي :

يرجع أصل الهدندوة إلى أمير بحاوي عظيم يدعى شكابيل (أو شكابتلو) ، لا يعرف مع الأسف عن تاريخه ولا عن أعمامه شئت ، سوى أنه كان ملكاً على السج أو على الأقل على النصف الجنوبي منهم ، وإلى العرب من سكات جبل ارماعه نحو ١٧٠٠ متر يحمل اسم هذا الجد القديم إلى يومنا هذا .

وقد هاجر من الحجاز إلى أرض السج شريف عربي يدعى محمد هداد ولم يلبث أن تزوج أميرة من أحفاد شكابيل وأنجب منها فتى يدعى محمد مبارك ، الذي لم يلبث أن أطلق عليه الهدندوة اسم محمد براكون أي محمد الحري ، الذي لا يهاب شيئاً . وهما يلاحظ أن اسم الشريف العربي محمد هداد نفسه يتألف من كلمتين : محمد وهو اسم عربي ، وهداد ومعناه الأمد في اللسان التبتاوي ولعلمهم ترجوا اسمه العربي

T.R.H. Owen : The Hadendowa, S.N.R. Vol. XX. 1937, Part II (١)

وهذه الدالة على ما بها من قصور أو في ما ساء من أوجه جمع من هذه القبلة

وهذا التأويل هو السائد بين القبيلة إلى وقتنا هذا . والرواية على علاقتها تدل على أن الأسرة التي أسست القبيلة لا ترجع إلى أبعد من عصر الفنج . بل إلى الشطر الأخير من عصرهم . ولذلك لا يستطيع أن ترجع بمحمد براكوين إلى أبعد من النصف الأخير من القرن السابع عشر ، أو أوائل القرن الثامن عشر ؛ ولكن هذا التاريخ يحدد لنا اسم المهندوه وطهوره ؛ ولكن المهندوه أنفسهم كسائر البجة يرجعون إلى قرون عريقة في القدم .

والرواية التي يتداولها المهندوه إلى اليوم تقول إن أحد أحفاد براكوين الشجاع ، واسم هذا الحميد ويلالي تولى الزعامة والقيادة العسكرية للقبيلة الناشئة . أما الزعامة الدينية فكانت من نصيب حفيد آخر يدعى سمره ، وهو الحد الأكبر لشعبة السمرندواب ، ولم تزل الزعامة الدينية قائمة في هذه الشعبة إلى وقت قريب ^(١) أما زعامة القبيلة المدنية والعسكرية ، فكان لواؤها دائماً - ولا يزال إلى اليوم - معقوداً لشعبة ويلالياب ، ومع أن لكل شعبة شيخها ورئيسها ، فإن المهندوه لا يسلطون زعامة القبيلة إلا إلى أحد أحفاد ويلالي ، فولاء القبيلة لهذا الفرع ولأولادهم لا يتزعزع .

وهكذا نظمت الشؤون الدينية للقبيلة ، وأخذت تنحى في أسائها وعموها المطرد ، ومصاهيرها التي لا تكاد تنحى من ذلك أن تركيا يدعى لو لو Loglog زوج امرأة من حفيدات الزعيم ، فشا عن هذا الزواج جماعة السمرار وهي من أكبر شعبيات المهندوه اليوم ، وتزوجت أخرى رجلاً يدعى بشاره من قبيلة الشكرية ، فشا عن هذا شعبة المشارياب ، وأخرى تزوجت من أحد الجمليين ، فتولدت من ذلك شعبة لشرعاب ؛ وحفيدة أخرى تزوجت من أحد الفصح ، وكميته أو فرعة ، فتولدت من هذا الزواج شعبة القرعيب ، ويقال إن هذه الكنية ترجع إلى أنه كان يحمل قرعة فيها بقوده ، فسقطت من يده فتخطمت . وإلى ألا يرجع مكانه هذا ؛ وكان بالقرب من جببت فتزوج هناك من إحدى المهندويات . وأصبح جداً لشعبة سميت باسمه . ويرغم آوين أن هذه الشعبة لا تزال مشهورة بالحرص على

(١) يلاحظ أن الزعامة الروحية أصبحت الآن مفقودة للسيد علي المرعي باشا ، وإن كانت هذه الشعبة لا تزال مشهورة به .

دراهمها . وعلامة بينهم دائرة شمس . وهي النجمة الوحيدة التي يسمح بحلها
للنساء باقتناء وتربية الدجاج ، ثم مع البيض ويحصل بذلك على الدراهم اللازمة
لهن ، بدلا من أن يأخذنها من الأزواج (١) .

وهكذا أخذت القبيلة تنمو وتوسع ، تتكاثر ، ولكن لم يكن يومهم كله
بالمصاهرة . وقد كان ماشيهم أو لأمر صبية ، ومواطنهم في الحال الشهادة
محدودة : فلم يشاء أن رأوا أن توسع ، حيث هو الخوف . حيث يرى
أمر والمأشيه . ولا بأس من لا تجد ، إلى أنهم ، سلب إذا اقتضى الأمر
ذلك . وقد أمكن لبعض الشعب ، في عصر من ، أنهم ، بدوهم نحو
الجنوب ، وسعة أخرى حرمت لدراسه نحو عرب ندر الإمكان ، وشهر
وبلالى محمد (ولعله عاش حوالي ١٧٦٠) ، توسع نحو الجنوب ، في حساب الفصح ،
الدين أخذ سلطانيهم سمحوا من لأمر من هذه الأسراب التي به ، وكذا أركش
سلطانيهم نحو الجنوب ، وروا عنه ، ثم يمتد الهندية من ملأوا ، ذلك أمرا .

وحاء الله وحبيده من هذه سبابة أو والد واحد ، حتى تمسكهم في نهاية
القرن الثامن عشر (حوالي سنة ١٨٠٠) ، أن يحملوا دلتا الخمس وهي أعنى بقعة
في جميع بلاد الهندية ، وجهلوا عاصمتهم في بلدة عايك ، وقد استدعى هذا التوسع
التغلب على جماعات كثيرة من بني عامر وأحد ألقبه وملهتكم ، وهذا الامتداد إلى
الجنوب لم صححه توسع نحو العرب ، وأمل مقاومة مشاريع وشدة بينهم حالت
دون هذا التوسع .

وهكذا لم يجد الربع الأول من القرن التاسع عشر أن تكامل حتى كان الهندية
قد سيطروا سلطانيهم كقبيلة موسده في الإقليم الذي يحتلونه اليوم . وبطراً
لقرهم من مراكر الحكم ، ولأن الطريق من سواكن إلى بربر من رصهم ،
وهو من ثم الطريق التي كانت تستخدم بعد اتصال السودان بحصر ، بذلك لم يكن
- من أن يكون للهندية ، سبل بالحكومة أكثر مما كان الأمر . وقد سيطروا

(١) من مبعث صفة شيخ من قبيلة محمد حار . وهو من أكرام الناس
والجدهم . ولا شك أن أول ما به وصفه هذا

هذا الاتصال لمصلحتهم بما كانوا يحصلون من الإتاوات من القوافل المارة ببلادهم ،
 ويتعمدون ببيع بعض الماشية والعلات للحكومة . كما ساهموا في التقدم الزراعى في
 منطقة الخاش ادى بدأ في منتصف القرن احدى ، ولكمهم كانوا كثر الشعوب
 البدائية يعضون أشد النقص أن تطالبهم الحكومة بدفع ضرائب ، وكانوا يتقصرون
 في السهر من دفعها مختلف الوسائل السلمية والعدوانية . وكانت هذه عدهم أيضاً
 في أربع لأول من قرن العشرين . وبلى وقت قريب كانت حماية الضرائب هي
 سبب الصراع لأكثر بين الحكومة والرعية . إلى أن ظهر سبب آخر وهو محاربة
 الحكومة لتجارة الرقيق وأثر هذا حفيفة بعض المشايخ ممن يشتغلون
 بهذه التجارة .

أما في العهد العثماني في ثورة لهدية دور كبر وأحضر مما كان لسائر النجدة .
 فقد رأى مهدي ر طريق من سوا أن يترك من أخطر الأمور التي تهدد
 سلطانه . وهما خط إلى رحل يستقيم في كل سنة قطع هذا الطريق . وشاءت
 الصدفة أن تكون هذا الرجل هو الذي كان سفيره بحرية ستوت على بعض ضرائب
 كان له ولأهله فيها خرد عظيمة هم الرقيق ادى كانت تحمله . فأصيب وأسرته
 بحسرة فادحة هذا الرجل الذي كان مكرماً وحي من صفحات التاريخ ، وهو
 عثمان دحمة . جمع سنة في شهر ابريل عام ١٢٥٠ هـ من الأكراد هاجر إلى
 سوا أن ، بعد أن سمى عليها لأثره ، ولم يترك حدث المصاهرات بين أسرة
 دحمة . بين المهذود وغيرهم من محبه ، ولم يتوا أحسن نواها مكاناً ممتدراً بين
 النجدة من قبل ، ولكن عثر على دكانه وسئل أنه ياد طعة الدينية أمكمه أن
 يفود عدد كبير من أساء قماش . وإن يكون سوكه في حب القوات امراطة في
 سوا كن في شرق السودان . ما طوله . ولم يسه خطره إلا بأقبص عليه وهو في
 كهف مصر في حب ولربنا ، وحمله إلى رشيده ، ثم إلى ودي حلفا حيث
 طر في الأمر إلى أن توفي عام ١٩٢٦ .

• بين هذا المثل تقصير لسرد أعمال هذا الرجل ، الذي ملأ أعماله فضولا
 كثره ، لأن مداه معروفة في كتب التاريخ . ولم يكن في الحقيقة قائداً للمهذود .

بل لطائفة من المحاربين التحمسين جمعهم من مختلف القبائل حتى كان في نهاية أمره يعتمد على بعض التمايشة اندعيم سلطانه في كسلا وإقليم المطيرة . فحدثه وأن كان له مكانه في تاريخ السودان الحديث ، فإنه قليل الاتصال بتاريخ المهندوه كقبيلة . اللهم إلا ما كان لهذه الاضطرابات والثورات من الأثر السيئ في تماسك القبيلة وإضطراب أمورها .

وبعد انتهاء عهد المهدي طر المهندوه قبيلة تمورها الوحدة ، وبما ساعد على ذلك أن بلادهم كانت مقسمة بين مديريتين ، فلما أنشئت مديرية كسلا سنة ١٩٢٥ واشتملت على جميع بلاد المهندوه ، وصادف ذلك أيضاً التوسع في استغلال دلتا الجاش بواسطة شركة كسلا للتطن ، وبعد سنتين وقعت الحكومة لاختيار ناظر جديد ، من رجال شمية وبلال العريفة ، وامكسه أن يكتب ثقة القبيلة بالتدريج ، فعاد للمهندوه عبس الهدوء والتقدم . وأصبحوا القبيلة المعروفة بين جميع البعده

حالة القبيلة في الوقت الحاضر

لدينا اوصاف للمهندوه من قلام كثير من السائحين لأحباب ، وعلى لأخص من الإنجليز ، شتمل على كثير من العلم وقلة لإدراك الحقيقة أحوالهم ، فقد عنهم حوان دي كاسترو البرتغالي وهو يكتب في سنة ١٥٤٠ ، إنهم يصيدون عمداً وعاداتهم دينية وفنرة . ووصفهم بركهارت ، وكانت رياره لسلاطنة في أوائل القرن التاسع عشر ، فقد إنهم يجمعون الصمغ في دلتا الحان ويحسروه إلى سواكن ، وإن لهم ماشية (أي قرا) من النوع ذي السنام وأن هذه ماشية كثيرة كما كانت مرسية مساع إن تقع على دلتا الحان ، وطاهر أن لأحوال قد تغيرت كثيراً منذ رياره . لأن هذه النوع من الماشية ليس به موسم وجود ، كما أن أشجار الصمغ اليوم قليلة جداً عندهم .

ثم يمدى بركهارت في وصفه فيقول ، بعد أن أشار إلى وجود السباع الصادية حول حور الجاش ، « غير أن أشد الوحوش شراسة هو البجوى نفسه » ^(١) ووصفه

(١) راجع الصفحة الثانية من رحلات بركهارت (سنة ١٨٢٢) في صفحة ٣٠١

بأنه كسول . نفور من الناس ، لا يهيب على سؤال يوجه إليه ، وكذلك زعم
بركهارب أنهم قد بشرعوا الدم المتجمد بعد أن يضيفوا إليه قليلاً من الملح
والسمن ويقولون إن هذا كبد صالحة ، وإن كانت عادة تعطل الله قد انقضت .
ولكن بركهارب لا يكتفي بهذا بل يزعم أن الهندوس ينجيل سحج نحو العرباء
وإن كان كريه نحو أساء حسه ، مثل في السرقة وسكر ، وأن ساء الهندوسه
تتما بالخرقة ذقنة لعمه ، ويرى أوبن في هذا الوصف طفاً للهندوس ، ويؤكد أن
الهندوس في مدة عوره من الناس ، لريم لا ينع الثرى عن الصيف ، وليس
من مقتضى السرقة لهم ، لا في إعرابه أحياناً على المشية . ولا يكاد يمس الخمر
مهم سوى بعض سكان من . وإذا استند سمه سميره بعض في أقصى شمال
بالقرب من نور سيدر ، فإن ساء الهندوسه على جانب كثر من النعة . ويقدر
أوبن وصف بركهارب أنه يرى بالهندوس أنهم كانوا يمشون في كفايتهم والسمن
من أن ساء أن حكم عنهم دحضه لهم ، وبصرده في عراة أحكام الدين ،
وعسوه في مدقة من برنك . قل حريم ، وقد كان به أثره في تهمد
الهندوسه ورفع مستوى الساء بينهم ، حتى أصبحوا أرفى في هذه الماحية
من سائر النحه

ووصفوه آخرون ، فمن عنهم صمويل بيكر بأنه قبيلة رديئة جداً ، وقال عنهم
ناجر الحلبى في عصر مهدية به لأشياء يحسن من سائهم سوى أن يمتنعوا من
الأرض . وصفهم الحلبى آخر بالكسل والكذب ، وهذه الأوصاف كلها
مصدرها التخامل والجهل . فأنما الكسل الذي يوصفون به ولا يرى أوبن ناساً
في التمدن على هذا وصف ، ويرجع إلى أنهم بطيئون بأعمال لا يراعون في أدائها ،
وأما قسوتهم ونفوسهم من الناس ، ومن لم ياه بوجه خاص فبرده إلى بيتهم
في الحدائق تعرض عليهم اعيرة ذقنة الاختلاط ، وقد سرى هذا خلق في دمايتهم
حتى لأرهم بعد أن نزلوا السهول وعاشوا وسط الناس ومارسوا الزراعة وسكنوا
لقرى في دشت الحش

وقد كتب أحد فصلاء الهندوسه بناء على طلب المؤلف — وصفاً لبعض

أخلاقهم وأحوالهم ، يقول فيه : إن الهدندوة قنوع صبور إلى أقصى حدود الصبر ، يحتمل المشاق ويستبين بالعصا ، ويصبر على الحرمان ، ولا يشكو مهما بلغ به الألم . وهو كسائر النجاة — شعاع إلى درجة الاستقامة . ولا تميل إلى المزاح . وهو يشور وينفض بسرعة . ولذلك كثرت العداوات بين القبائل والبطون .

وهو أقرب إلى الشك في الناس وإساءة الظن بهم حتى يعرفهم ، ولذلك لا يزوج بشيء أو يأمر من أموره ، إلا لمن يثق بهم ، ولا يثق شخص حتى يجربه مرتين أو ثلاث مرات ، فإذا آمن بك ، فلن يتحول عن إيمانه مهما سمع منك من الأقوال والنهم ، ولشدة عورهم من الغريب سواء أكان من الهدندوة أو غيرهم — ليس من السهل التعام معهم ؛ وإن كان لهم مع ذلك ضعف كبير باستقصاء الأخبار من كل إنسان حتى من لمرء ، كما يبدو من العادة الشائعة عندهم . والى سموها « سَكَنَات » . والسكبات بلفظهم الخبر ، أو السأ ؛ واستقصاء الأخبار من كل قادم عن شائع عند الهدندوة يحرصون عليه أشد الحرص ، حتى يلموا بلاما دقيقا بكل ما يجري ، في بلادهم والبلاد المحيطة بهم .

ويقول الكاتب إن طريقة نادل السكبات طريقة قديمة تتجدد دائما بصورة خاصة : فيسأل الواحد منهم القادم بلفظه التساوية . « مرحبا ! سلامات ! كيف أحوالك وأحوال قبيلتك . وأحوال البلد ؟ .. هات السكبات ! من أين أنت ومتى ، وماذا رأيت وسمعت ، وهل قابلت أحدا في الطريق ، وهل مررت في طريقك على سكان ومنازل ، وهل مررت بماء ، وهل رأيت شئ من الدواب ، وهل سمعت خبراً من أحد الناس في الطريق .. ؟ »

فيحجب السئول عن هذا كله ليس عندي حصر ، حتى يكرر السائل سؤاله مرتين أو ثلاثاً ، ويأس إليه السئول شيئاً فشيئاً ، فيبدأ بذكر الأشياء القليلة الأهمية ، ويستغرق في ذلك وقتاً طويلاً ، ويسكت من آن لآن لكي يأخذ نفساً من « السكدوس » ، أو غليون التدخين ، الذي يحشونه بنوع خاص من الطباق يسمى السكر كوج ؛ وقد يستغرق السكبات ساعة أو ساعتين . ولكن السائل

لا ينفذ صبره ، لأنه يعلم أن الأحبار الهامة لا نحيء إلا في النهاية ، بعد أن يرداد التعارف بين السائل والمستول .

وهذا السكناك بين الغرباء ، بحرى وهم على ظهور دوابهم ، أو واقفين على قارعة الطريق . ولكن أهم سكناك هو ما يحرى بين أشخاص بينهم معرفة سابقة ، حول حلقة « الحَبَنَة » أو القهوة . وفي هذه الأحوال يطول الحديث ، في هدوء واطمئنان .

وللقهوة عندهم شأن أى شأن . لأنها عند النجعة عامة ، وعند المهندوه بوجه خاص بمثابة الغداء بل أكثر من الغداء . ولها قواعد وأصول وآداب يحافظون عليها أشد المحافظة ، فهي تعمل دائماً على قدر الجماعة الموحودين ، وإذا أقبل قادم حديد ، فلا بد له أن ينتظر حتى يمد له نصيبه . ولعل محاوراة النجعة للعدشة حمل للقهوة تلك أدلة الهامة ، التي تمجدها للشاى عند القائل اللبينة .

هذه حلاصة الوصف لبعض طباع المهندوه ، كما رواها واحد من رعايهم . وهو يرى أن المهندوى قلما يتحدث بصراحة إلى المريب ، حتى لو سأله عن الوطن أو البدنة التي ينتمى إليها ، فإنه لا يزيد على أن يقول إنه همدوى ، حتى يعرفك تمام المعرفة .



ويصف لنا مستر أوين حياتهم الاقتصادية وصفاً نلخصه فيما يلى :

في الجهات الشمالية التي تغلب عليها الصفة الجبلية تعتمد القبيلة على رعى الإبل والاعز بوجه خاص ، وقما تسمح الظروف الطبيعية بتربية أى نوع آخر من الماشية وإن كانت الصور المقوشة على الصخر تشير إلى احتمال وجود البقر في عصر لعل المطر كان فيه أعزر مما هو اليوم . والزراعة في هذا الإقليم الشمالى قليلة ، وأكثرها في بطون الأخوار .

أما الإقليم الجنوبي عامة ودلتنا الحاش بوجه خاص . فالحالة الطبيعية فيه تسمح برعى البقر والغنم ، وبشباط زراعى أكثر . وإن كانت الماشية هي المهاد الأكبر للثروة .

وعلى منحدرات الجبال الشمالية تكون حركة الرعاة في طلب الكلاب من الجبل إلى السهول وبالعكس ، على الصورة التي رأيناها عند الأمرار . أما في الجنوب ، فالحركة والانتقال يكون بين الشمال والجنوب ، وهي في كلا الحالتين حركة محدودة ، ومقصورة على الطوائف التي تشتغل — أكثر ما تشتغل — بالرعى .

وفي العصر الحديث . بعد التوسع الزراعي في الدلتا ، نشأت قرى كثيرة مستقرة سكانها لا يكادون يرحلون . ومع أن الهجرات الموسمية محدودة عادة ، فإنه نظراً لما امتارت به الجهات الجنوبية من وفرة المطر والسات ، ربما ترحل بعض سكان المنحدرات الشرقية الشمالية . في السنين القليلة انظر ، وانتقلوا إلى جهات الجنوب طلباً للكلاب والرعى .

وقدما نعى القبيلة بالصيد — لا صيد البر ولا صيد البحر — على قلة ما لديهم من الزاد ، وحل عيشهم من الألبان ، وقليل من لحوم الحيوانات التي يقتسمونها بالإعارة والتهب ، وقد ينتفعون بنهر الدوم ، فيمصون مشورها . أما حرفة استخراجهم فلم يعيروها اهتماماً كثيراً ، وكل ما عساه منها تحصيل الأناوة من القوافل التي كانت تمر ببلادهم ، أو تأجير إبلهم أو بيعها للتجار . ومعظم هؤلاء من حرية العرب . وحبيبهم للعيلة حملهم ينفرون من الاختلاط بمعربهم — حتى نساء جسدتهم — ومن التجمع إلا لمرض مؤقت ، وحل همهم أن يتركوا لأنفسهم لا يمرض لهم أحد ، ولا يمرضون لأحد . ذلك كان دأبهم وطعمهم ، غير أن العالم الخارجي عشا كله وحضرته وبرعته لم يدعهم لأنفسهم ، وجاءت السلطات تريد اقتراب منهم ولا اتصال بهم ، سواء أرعدوا في ديث أم لم يرعدوا . ورسمت خطة لاستغلال بلادهم ، ولشروعات زراعية على نطاق واسع لم بالقوه . ولكن الهندية قد أدركوا وطوروا عليه من الذكاء أن في هذه مصلحة لهم ، فمدوا جهداً محموداً لكي يلائموا من أنفسهم وبين الحياة الحديثة التي امتدت إلى بلادهم ، فأصدوا عن الزراعة ، حتى عن زراعة أصناف جديدة مثل القطن .

وعلى الرغم من أنهم لم يصححوا مهرة في زراعة القطن — وحدثت العبد بهذا الأمر نكتفي لتفسير ذلك — فإنهم على كل حال لم ينفروا من هذه العلة الجديدة

العربية ، كما نفرون ، من لرباء الفصوايين ، بل أقنوا على ممارستها جهد طاقتهم .
وأصبح السجدة كبر الشتطين في زراعة في دلتا الجاش ، إذ يلقون نحو ٧٥ ٪
من مجموع الزراع . و ٥٥ ٪ من زرايع جميعاً من الهندوه وأخذ مستوى الزراعة
عنده في المحس حتى بات قريباً من مستوى الجماعات الأخرى في الدلتا ،
وأكثرها من سكان عرب إفريقيا ، ممن مارسوا الزراعة زمناً طويلاً . وللهندوه
قوى ذلك شاط راى ملحوظ في مصفحة طوكر ، على اربع من وقوع هذه المنطقة
خارج البلاد .

وبن حاب القطن يتفع الهندوه باستغلال ثمر الدوم ، بأن يبيعوا الحب ، بعد
جمعه ، في الأسواق وهو يستخدم وجه خاص في صناعة الأزار ، ويعميه بعض
سكتا - الملح اسان . ونخيل الدوم يمد عواً طبيعياً ، وهو واسع الانتشار في
بلاد الهندوه الجنوبية ، وهذا نشاط اقتصادى أيسر حصياً وأكثر ملاءمة
لطبيع الهندوه . وذلك يصور عليه عن رعة صدقة . وليس هناك فلاح ولا
رى ولا تطهير الأرض من الحشائش ، ولا تدخل من المقتنين أو الحكام ، ومع
ذلك فإن هذا النشاط الاقتصادى حديث عهد نصاً ، فعلى الرء من أن نخيل
الدوم منتشر في البلاد منذ قرون بعيدة ، غير أن الأسواق التى تستهلكه بكثرة
جديدة ، فارداد شاة بإدياد الحركة التجارية فأصبح مورداً جديداً للثروة لم يكن
معهراً أو لقدماء الدجج .

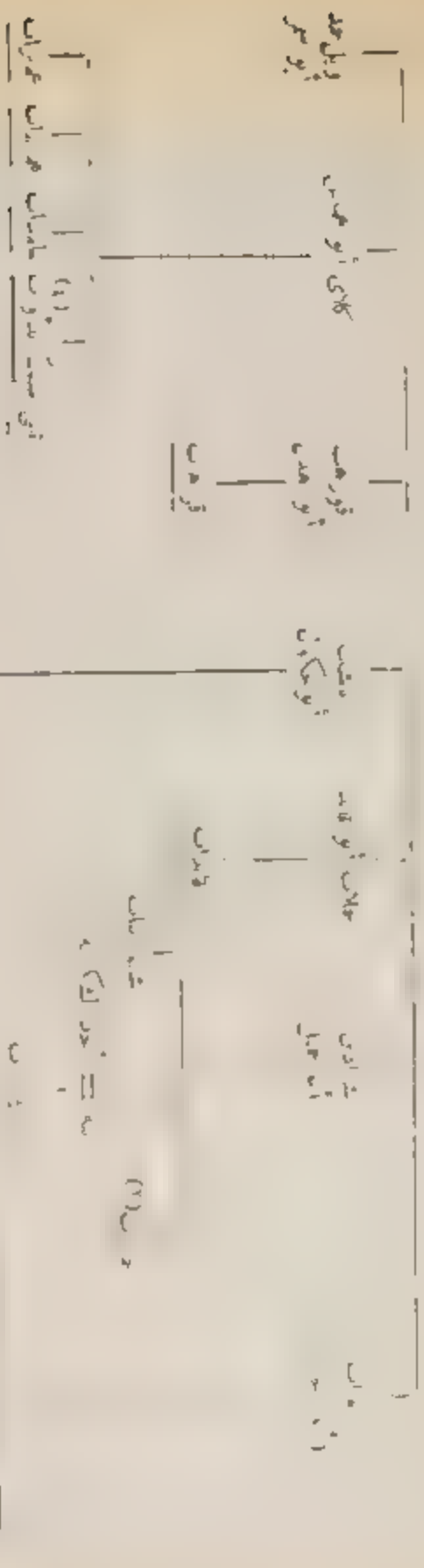
وقد استدى استغلال الدوم بشوء صناعة جديدة عند الهندوه لا تخلو من
المهارة : وهى صناعة استخراج الحبة من باطن الثمرة ، وذلك بطرقها بالحجارة بمهارة
حين تنحصر الشرة الخارجية . وتخرج الحبة من باطنها ، فيطرح الهندوى القشر
بماعر ، و ستنقى الحبة لبيها . وفى وسع الشخص المدرب أن يستخرج ألف حبة
فى اليوم . احد ، وهو ما يعادل ثلثى فطار من العج المباني . وقد يصل ثمن
القصر إلى خمسين أو ستين قرشاً .

وقول مستر أوين إن الهندوه أكثر قحراً وأشد تمرداً على النظام من سائر
البيجج وأن لهجتهم أكثر حشونة ، وأسلوب النطق أقبح أسلوب بين جميع

البحر . وأن نسبة القتلى والشاجرة عندهم أكثر ؛ كما أنهم أكثر النجاة بعداً
 وانطواء على أنفسهم حتى أنهم يحتقرون الجماعات التي تخضع للنظام مثل بني عامر ،
 ومع ذلك فإنهم قد أثبتوا أنهم وبن كاه ، أكثر لبحر تأخذ ، أسرعهم إلى لأخذ
 بأسباب التقدم . وقد أمكنهم بعد أن وفرت لهم القيادة الصالحة من رؤسائهم أن
 يحدوا ويؤلفوا نظاماً قوياً . واستطاعوا أن يحتلوا مكانهم وسط الجماعات
 التي زدهم في مصفة كسلا ، وهي جماعات متعددة المهجات ولسلالات . ومع ذلك
 أمكن للهددوه أن يطمحوا علاقاتهم بشك الجماعات ، ومنهم من هو غريب عن
 السودان ، مثل المهاجرين من غرب إفريقية . وهم دائماً حريصون على حقوقهم
 ومكانتهم ، شديدوا حساسية لأقل شيء ، يتوهمون أن فيه اعتداء على حقوقهم .
 بطراً لأنهم قد أصبحوا وسدة كبيرة منظمة ، لهم عصبية وشوكة ، فإن مصم
 القبائل المجاورة الصغيرة المنتشرة بين حوز بركة والعطبرة قد انصمت إليهم
 وانسوت تحت لوائهم . وهكذا ترى الهددوه لا يزالون يدبجون في صفوفهم القبائل
 الصغيرة بأوسائل ليلية وحدها . ولعله لن يمضي زمن طويل حتى يكون لهم
 الهددوه شاملاً لجميع البحار الجنوبية ، وإن كان كثيراً من الخائفة والأريفا
 والأشراف لا يزال متمسكين بوحدة وتقليده .

۱۰۲۳۴۵۶۷۸۹۱۰۱۱۱۲۱۳۱۴۱۵۱۶۱۷۱۸۱۹۲۰۲۱۲۲۲۳۲۴۲۵۲۶۲۷۲۸۲۹۳۰۳۱۳۲۳۳۳۴۳۵۳۶۳۷۳۸۳۹۴۰۴۱۴۲۴۳۴۴۴۵۴۶۴۷۴۸۴۹۵۰۵۱۵۲۵۳۵۴۵۵۵۶۵۷۵۸۵۹۶۰۶۱۶۲۶۳۶۴۶۵۶۶۶۷۶۸۶۹۷۰۷۱۷۲۷۳۷۴۷۵۷۶۷۷۷۸۷۹۸۰۸۱۸۲۸۳۸۴۸۵۸۶۸۷۸۸۸۹۹۰۹۱۹۲۹۳۹۴۹۵۹۶۹۷۹۸۹۹

محمد صالح (مر'كوب) = هدایت (ابنة الشریف العلوی)



$\frac{1}{2}K_2A_2 = 1$	$\frac{1}{2}K_2A_2 = 1$	$\frac{1}{2}K_2A_2 = 1$	$\frac{1}{2}K_2A_2 = 1$
$\frac{1}{2}K_2A_2 = 1$	$\frac{1}{2}K_2A_2 = 1$	$\frac{1}{2}K_2A_2 = 1$	$\frac{1}{2}K_2A_2 = 1$

تاریخ

[illegible]

أنا مؤثر من شخصي بكو. عددا؛ وبلاحد دونك الصبا، عة. ٥٥

دوره اولی در فلسفه (۱)

(١) كانت لهم الرعاية الكريمة على اعتبار الجمعية

$$g_{\alpha\beta} = g_{\beta\alpha} = g_{\alpha\beta}^{\alpha\beta}$$

(۳) احوال و مسائل

الفصل السابع

بني عامر

يذكر اسم بني عامر دائماً في هذه الصورة ، سواء كان سياق الجحوظ يتطلب الرفع أو النصب ، ولعل السبب في هذا غلبة العامية ، وليس هناك سبب يمنع من استخدام صيغة رفع بنو عامر في العرف الشائع .

وسواء بني عامر هم القبيلة المحدودية التي تحتل آخر أدبها النجدة من جهة الجنوب . وكما أن المشاريين لهم وبنان في السودان ومصر ، كذلك لبني عامر أوطان في السودان والإرتريا : والسكن القيس مع العدي ، لأن المشاريين في النظر المصري قليلاً . بنو عامر في زربا ، بلعون السنين ثباتاً ، أو ما يقرب من صعب عدد في السودان : ومساحة أي يحتلها في السودان محدودة ، عليها لا تريد على خمسة آلاف ميل مربع ، وهي في أقصى الجنوب الشرقي من مواطن النجدة ، في صورة مثلث ، أحد أضلاعه ساحل البحر ، من حدود زربا إلى جنوب سواكن بمحو ١٠ كم . وبلغ شاطئ خط يمتد من ساحل البحر الأحمر ، في اتجاه شمالي جنوبي مغربي سلسلة جبلية ، إلى أن يلتقي بحدود إرتريا ، واصلت ذلك هو الخط المتفرج الذي من الحدود الأثرية السودانية في هذا الإقليم .

ثم متاهر التصديس في هذا الإقليم السوداني من وبنان بني عامر ، هو السهل الساحلي ، وهو هذا أكثر مساحة منه في أي جزء آخر من السودان . وذلك بسبب تراجع الجبال نحو الغرب من جهة ، وبسبب تقطعها الذي سبقت الإشارة إليه من جهة أخرى . هذا السهل هو أوسع ما يكون في الشمال حيث تتوسطه مدينة طوكر ، ثم يصيق بالتدريج نحو الجنوب ، بالقرب من حدود إرتريا ، وفي وراء مرفأ عقيب ، حيث يحد كتلة حارة باردة تحتل هذا الزاكن البعيد من السودان وتستمر إلى ما وراء حدود إرتريا وهي كتلة جبل أدراو ، التي يربو ارتفاعها على ٢٧٠٠ متر فوق سطح البحر .

وهناك كتلة حملية سبق الإشارة إليها وهي كتلة جبل أدارسات ، ولكنها
أضيق وأصغر وأقل ارتفاعاً ، وبين الكتلتين يخترق حور بركة إلى السهل الشمالي ،
ووادى بركة نفسه تغلب عليه السهولة والاتساع .

وهكذا يرى أن أوطار بني عامر في السودان تشمل من أربعة مظاهر
تضاريسية : سهل ساحلي ، ينحدر إليه وادي نهري ، وهو نهري حور بركة ، بعد
بالسمة لهذه الأقليم سهراً عظيم الخطر ، وبذلك في دونه شيئاً إذا قس إلى الأهر
عامة ؛ ثم حوض عظيم في الجنوب الشرقي ، وآخر أصغر منه في الغرب العربي .

وبحور سا أن يعتبر حور بركة هو الحور الذي سالف حوله بلاد بني عامر في
السودان ، بل وفي بلاد الإرتريا نفسها ، ونظراً لأن هذا الحور يخترق نحو الشمال ،
ويبقى بجانبه في صورة دلتا في إقليم طوكر ، فقد احتل هو عامراً جزءاً كبيراً من
هذا السهل الشمالي أيضاً .

وأوصاف بني عامر في إرتريا تزيد في مساحتها في أوصافهم في السودان وبمهما
تبلغ الضعف أو أكثر . وإن كانت كلها تقريباً مكررة حول وادي بركة وروافده ،
وهو الإقليم الذي يطلق عليه هناك اسم أعور داب ، وقد يصلون في رحلاتهم
وحولاتهم في طلب المرعى إلى التوغل في الجنوب صيفاً إلى وادي مارب (أعلى
خور الحاش) وهي على كل حال لا تبعد كثيراً عن أعلى حور بركة .

وببلاد بني عامر بانما كلها تقريباً تسبب من الأمطار الشتوية ، التي تأتي مع
الرياح الشمالية ، وهذا يتزايد كلما انخفضا من الشمال إلى الجنوب . فسم المطر في صوكر
لا يزيد على ٨٨ م م إذا هو يصل في عقيق إلى ١٣٨ م م ، وفي كلا الجانبين تساقط
قليل من المطر في الصيف على السهول الساحلية . غير أن هذا المطر الصيفي يزداد
ويصبح هو الصاعرة الساحية الهامة إذا صعد في وادي بركة وتوغلنا جنوباً إلى إقليم
المرعبات ، ذات شح الحشوي المنطف ، حيث يصل المقرب من ٥٠٠ م م
و ٥٠٠ م م وقيل من مطر استوى يصل أيضاً إلى الخفضة الإرتريه . وهو شح
بعض أوطار بني عامر هناك . وإن كان من الصعب تحديد مدى انتشار الأمطار

الثبوتية ، فإن السهل الساحلى فى إرتريا بئله التصيب الأكرم منها . ولذلك منح
بنو عامر نحو الشرق فى القتاء لرعى ماشيتهم .

وطاهر من هذا الوصف الموحى أن أوطان بني عامر لموقعها الحبوبى بئله من
المطر نمهب أوفر ، ويزداد ثبوتها وعشها وشجرها بما سلك ، وإن لم يكن مطر
من الوفرة بحيث يساعد على الاستقرار التام . ولذلك كانت الحرفة حالبية هى الرعى
وإن أمكنت الزراعة فى بعض الجهات للآفة ، قطع المطر عن اشروعات احاصة
التي تنبت فى منطقة طوكر ، وكانت الكثير من بني عامر وغيرهم من السجدة
يعيشوا عيشة الاستقرار فى كل مطامره .

إن موقع بلاد بني عامر بمصر صلب لطيفة من المؤثرات الخارجية ، فالإقليم
الساحلى ، كما هو الحال فى الشمال ، يقابل هضبة لمسرة واثمن ، وتعرض جميع
المؤثرات التى تتخذ أريقتها فى البحر الأحمر . والخصبة الحفزية عند نحو الشمال حتى
تساحل بلاد بني عامر . وهى تتحدر انحدارا تدريجيا من الجنوب إلى الشمال ،
مما يحمل أوطان بني عامر عرضة لتأثيرات المجتمعة ، ثقافية أو اجتماعية ، التى
مصدرها الهضبة الأثيوبية ، وحتى الأحص الأاطراف الشمالية منها فإذا كان
بنو عامر قد معنى شعبه خالصة من اندماج البعدونية ، يشاركون غيرهم من الشعب
فى ثقافتهم وتقاليدهم ، وكانت أوطانهم الأصلية فى لأودية اعطيلة بحور بركة
ومرمرعات البحر الأحمر ، وبهم على معنى الزمن قد تأثروا بالاختلاط بسكان
السواحل ، وأكثرهم من جزيرة العرب . وبوجه خاص تأثروا بالهضبة الأثيوبية
فى لغتهم وثقافتهم . وسازعهم هذه المؤثرات من الشرق والغرب ؛ وكأهم
الشعبة الوحيدة المجاورة الى غربت ولها جميع هذه المؤثرات . ولأنك أن هذا
التأثير لم يكن مقصورا على اقتباس لغة أو ثقافة عربية بل الأصل عصب ، بل تناول
أيضا اختلافات حسية ، سرية به عاصر لم تكن كلها قوطانية إلى بعض طوائف
بني عامر فى آخر أوطانهم من جهة الجنوب . وربما كان بنو عامر فى السودان
كثير نقاء وأبعد عن الاختلاط بالعناصر العربية ممن سكوا إرتريا . ولذلك
وجد بينهم سلاحيان خير أمثلة للبعج لثمين ، الذين تشبهون المصريين القدماء .
أقرب الشابة .

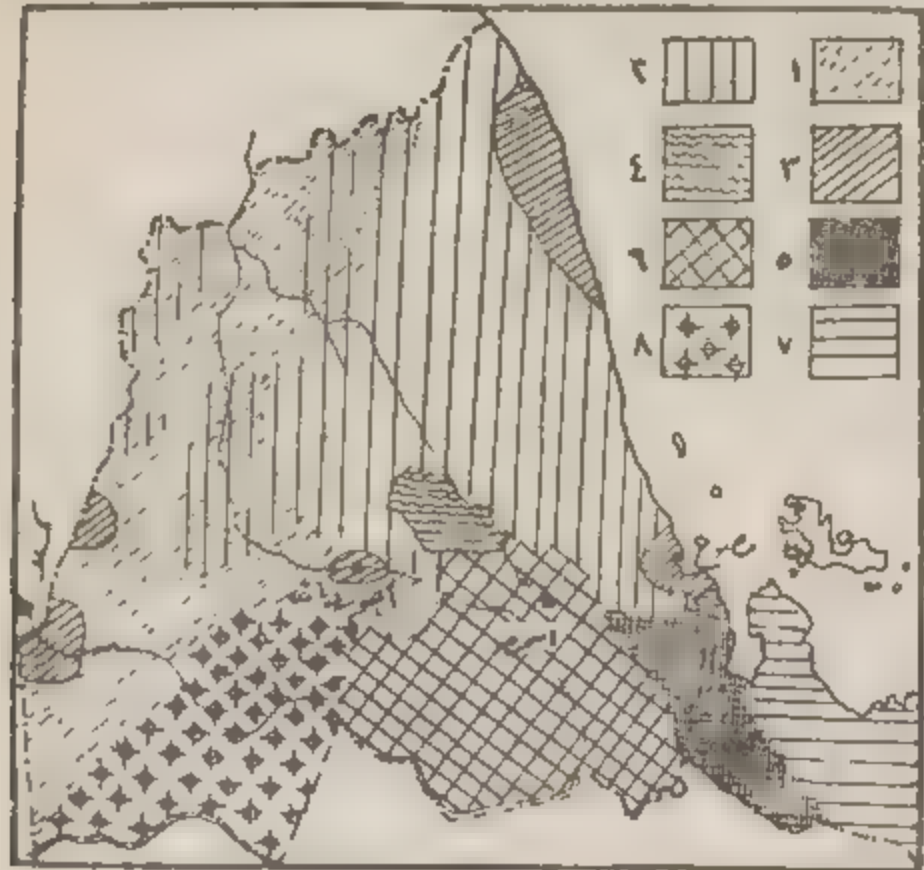
ولئن كانت المؤثرات الجبشية مصدرها الأول جزيرة العرب وإقليم اليمن ، فإن
المصببة الجبشية لم تكن قبل ذلك خالية من السكان ، بل كان فيها عناصر حامية
وأخرى دمجية ، ثم جاءت الهجرات الجبشية ، تدافع كالروح من الجنوب إلى
الشمال ، وكل موجة تحمل معها عناصر جديدة تدفع العناصر التي كانت قبلها نحو
الشمال . ولذلك كانت الهجرات الشمالية في المصببة الجبشية والأثرية أقدم من
الهجرات الجنوبية ، وهذه الهجرات القديمة ، ومنها بعض السكان القدماء ، هي
التي أثرت في بني عامر .

ومن أقدم المصبات السامية التي دخلت المصببة لغة الحيمر ، ونسبه اللغة الحميرية
اليمنية ؛ وانتهجة السائدة في شمال أثيوبيا اليوم وهي اللغة التجريبية ، مشتقة من
لغة الحمر القديمة . ولم كان مركز السلطان والحكم في أثيوبيا فيما مضى في
الشمال ، كانت هذه لغة دات بقو . واسع ، وصل إلى إقليم البحرة ، وأثر فيها
وترب حتى عهدنا متأثر بشيء لغة جديدة ، وهي خليط من الحامية والتجريبية ،
وتسمى هذه لغة الحاسة و لغة عرد . وهي تختلف عن لغة شمال الحشة اختلافًا
جوهرًا ، بحيث تعدر معهم بين سكان شمال الحشة وبين بني عامر ومن حولهم
من أقنان الـ تتكلم لغة تجرد . من أصل هدي . بعض الكتاب يحسب أن
لغة بني عامر السائدة في شمال أثيوبيا لغة الحاسة ، لغة بني عامر ومن
حولهم من عائل لغة تجرد أو لغة حاسة نسمة إلى قبيلة من بني عامر يعيش
بالعرب من علوك .

وعكدا . أي أن من بني عامر جماعات تتكلم لغة تداوي ، ويصحبهم فيها بقرب
من لغة اسندوه . وجماعات يتكلم لغة تجرد ، ومصحبهم يتكلم اللعقيز ، وكثير
منهم يجمع بين هدي . ذبهم بالبرية أيضا .

يختلف شيوخ عامر عن سائر أسحة كما قدم أن دبرهم مورعة بين السودان
والأثرية ، وهذه حالة لا حول لهم فيها ولا حيلة . وهم أيضا يختلفون عن سائر البحرة
ذتهم — في موقف الحاضر . أكثر حيوحا إلى السلم والهدوء . وقد اغتر سلجبان
فيهم المصهر فوصفهم أنهم يتكلمون لغة لشجعة وشده براس بني سندو عند

سائر البججه ، أو التي كانت لهم في مضي^(١) : ولا شك أن سلاحهم مخطيء في أن
يصف نزعهم السلبية بنقص الشجاعة ، وهو أكثر خطأ حين يصف هذا الوصف



شكل (٩)

نورج للمات في دريا (عن لبحر)

(١) سداويه (٢) عره (٣) عريه (٤) نين
(٥) ساهو (٦) حريه (٧) دماكل (٨) ربحه

إلى الماضي أبصاً ، فقد ألى بوء مر بلاه حسناً في الدفاع عن أوطانهم في ارتريا
أمام هجمات الفيرين من شمال الحصنة الحبشية . ولم يستطع المجاشي سطوته وسلطانه
في القرن السادس عشر والسابع عشر على الرغم من عداوت بحيرة ومتكررة أن
يخضعهم ، واضطر في النهاية أن يدعمهم وسامهم^(٢) . وقد احتفظ بوعامر بسلاحهم

"Seemed to lack the qualities of courage and asculence that the (١)
other tribes still show or once possessed . S. N. R. Vol XIII, 1930, pt. 1, p. 83

"Note on the History and present Condition of the Ben Amer"

Longgag, A Short History of Eritrea, 1938, p. 68 ff. (٢)

التقليدي وهو الرمح والدرقة ، ولم يقتسوا استخدام السيف ، الذي تقدم في السودان من الشمال مع تقدم الإسلام . ومع ذلك لم تنقصهم الشعاعة إذا طرأت ظروف تدعوهم للدفاع عن ماله أو ديارهم . فإذا كانوا اليوم يميلون إلى السلم واهدوء ، ولا يجد فيهم ما نجد عند المهددوه من قوة التكيمة ، والتظاهر بالقوة والبطش ، فعمل في تاريخ القبيلتين تفسيراً لهذا الاختلاف ، فإن تكوين المهددوه كما رأينا حديث ؛ وقد اضطروا في توسعهم إلى استخدام القوة والحيلة معاً . وعمل أحداث الاضطرابات المهدية قد أثرت فيهم ، وكان سي عامر بمنزل نوعاً ما عن هذه الاضطرابات . وتكوين بني عامر أقدم بكثير من تكوين المهددوه . والمرحلة التي انتهت بتكوين المهددوه في القرن الثامن عشر ، قد مرت سي عامر قبل ذلك بحوالي أربعة قرون على الأقل .

وسى عامر قصة قديمة تسلمهم بالحزيرة العربية كما هي الحال في معظم البجة . وروايات متداولة ترجع إليهم إلى رجل يدعى عامراً بالطبع ، وهو أيضاً من الكواهلة . وقد رل بينهم وتزوج منهم على النحو الذي رأيناه في الأمراء وغيرهم . ونظام نفوذ الأم شائع عند بني عامر ، بل لعله أكثر ظهوراً عندهم منه عند سائر البجة . وليس في القصص التي تروى في هذه الحية ما يحمل على أن تنفي الرواية أو يستعدها ، فالنفوذ العربي عن طريق الساحل الشرقي للسودان وإرتريا واقع لا سبيل إلى إنكاره . ومع أن وجود عامر هذا بعيدنا في تفسير اسم بني عامر ، فإنه لا يفيدنا في استقصاء أصلهم وناريخ تكوينهم . فإن ظهوره — حتى ولو سلمنا بأنه حادث تاريخي — لا يفيدهم بعد أن تكون القبيلة في أوطان لا تختلف كثيراً عن أوطانها الحالية . وكانت لها دولة تضم بيوتها وعشائرها ، وزعيمها ، إن لم يكن حاكماً مطلقاً ، فقد كان له من مظاهر الرعامة والملك الموروث بقدر ما يسمح بذلك تقليد البجة ، وإن كان التطبيع السياسي والاحتكاك لبني عامر أكثر دقة منه عند سائر البجة ، والأحبار إلى بني أمية يدل على أن بني عامر تكونت لهم « دولة » أو شبه دولة في القرن الرابع عشر ، وسكنها لم تكن تسمى دولة سي عامر بل دولة البيلو Beldi .

ومن نظام السائد بين بني عامر إلى وقتنا هذا ، أن لهم عشائر تمثل طبقة

أرستقراطية ، وهي متعلقة في الأقسام المختلفة التي تنقسم إليها القبيلة ؛ وهذه الطبقة الأرستقراطية ، أو البيوت الحاكمة ، كانت في القرن الرابع عشر تدعى جماعات بلو ، وإليهم تنسب الدولة التي ظهرت في القرن الرابع عشر . واستطاعت أن تنسط سلطانها على الأقطار التي يحتلها نحو عامر اليوم ، على وجه التقريب .

ولسنا نعرف تماماً من هم هؤلاء البلو ؟ ومن أين جاءوا وكيف رلوا هذه البلاد ، وفي أى عصر دخلوها . ويقول لونجريج Longrigg في كتابه عن تاريخ إرتريا : إنه من المؤكد أنهم عشائر بحاوية ، وأسلم عندما صهروا للمرة الأولى كابو وثيس ؛ وبعد ذلك قليل (أو في القرن الرابع عشر على أقل تقدير) انتشر الإسلام بينهم في الشمال ، وظهرت المسيحية بين عدد منهم في أقصى الجنوب ، أو الجنوب الشرقي . ثم اتحدت دياتهم ، كما اتحدت دولتهم . فهو يرى أن البلو سلالة بحاوية بسط نفوذها وسلطانها على سلالات بحاوية أخرى . ومع أن هذا الرأي يتفق مع الصفات الشككية السائدة بينهم ، والتي لا يبدو فيها أى فرق جوهري بين الطبقات المختلفة ، فإنه قلما يفتى في تفسير نشأة هذا النظام الطبقى بين بني عامر من دون جميع البجة ، وهو النظام الذي يشبه بعض الكتاب بالنظام الإقطاعي .

ويرغم راينش Reinsch أن المحدثوه الذين قاطعهم ، ويرعمون أنهم عرب من أصل عراني ، يستخدمون كلمة بلاوى بمعنى عراني ، بخلاف كلمة بحاوى ، التي نشأت الانتساب إلى البجة^(١) . وعلى فرض صحة ما زعمه راينش ، ولم يكن أساء لفهم أو النقل ، فليس من دليل على أن كلمة بلاوى هذه لها صلة بالبلو القدماء . ولكن هالك شاهد آخر يرويه سلحجان نقلا عن كتاب ألمه وحل برتمال محمول ، ونقل إلى اللغة الإنجليزية في القرن السابع عشر . وموضوع الكتاب « موحر في وصف سهر النيل » ، جاء فيه أن حرية سواكن يسكنها مائة من الترك ، ويقع بها الناشا ، خارج نطاق الامبراطورية (لعله يقصد العثمانية) ، وهي (أى سواكن) في الأصل تامة لملك قوى محارب ، تسمى مملكته دولة سوا ، واسمها القديم نحران ؛ وجميع

(١) كما ورد في مقالة سلحجان نقلا عن قاموس راينش للمسى :

مع ذلك فائق وثنية . بعد أن انتشر الإسلام وتوطدت رُكائنه في بحران وغيرها من البلاد العربية . وذلك بالرغم مما يقال بأن بلاد العسير لم تكن تخلو من قبا الوثنية حتى القرن السابع عشر .

لذلك يبدو لنا أن اللو كما اقبيلة محاوية الأصل ، وربما حر أن يطن أن قبيلة أو بيتاً من نجران رل بينهم ، وساعد في نشر الإسلام فيهم ، وسميت الدولة أول الأمر دولة نجران ، ثم علب عليها اسم اللو أو اسم الشعب الأصلي بعد ذلك ، كما حدث في سلطنة المور ، وهذا يوضح أن اللو أعسب كانوا جماعة محاوية تسرت إياها مؤثرات عربية ، وسعت بعددتها على جماعات أخرى محاوية تحاطها بعض الدماء لأحذية .

ومهما يكن من شيء ، فإن وجود جماعة أرسنقراصة بين بني عامر ، دون سائر النجدة ، صهرة تتطلب بعض الإيضاح . وإذا أردنا أن نحكم في هذا الأمر بالقياس إلى نظائره في أنطا أخرى ، لا بد لنا أن نضع في عرواً منظماً قد حدث ، بواسطة جماعة منسكة منظمة ، لم يمت أن ورصب سلطتهم على جماعة أخرى كانت تحتل هذا الإقليم من قبل . وليس في هذا وحده ما يدل على أن ملك الجماعة لم يكن محاوية ، بل يكفي أن يكون هنالك قسلة محاوية تمش في إقليم محدود ، تأرت بنظام خاص ، أو بمؤثرات خاصة ميزتها فتكونت لها شخصية قائمة بذاتها ، وحملتها تحس بوحدها ، وعما يديها وبين سائر الجماعات من الاختلاف ، على سبق بعرب مما حدث في تكوين دولة الفنج . ومن راحح أنها تأرت بمؤثرات مصدرها الحرية العربية^(١) . ثم أخذت هذه الجماعة امعرة بوحدها وكيانها الخاص ، تمرر الأوطار

(١) هالك بعض شواهد تدل على أن اللو تعرضوا في أثناء تكوينهم كجماعة مستقلة لمؤثرات مختلف عما يرمز لها سائر النجدة . يقول ما سيمند باركس Mansfield Parkyns (١٨٥٣) : إن النجدة في حوار مصوغ كانوا عشون صعه المحاريين ، ومن السهل عيبرهم عن غيرهم ممن حولهم من الرعاة ، بأنهم كانوا خلفون شعر رموسهم ، سما الجماعات الأخرى بصعب شعرها في صورة كتلة متجمعة على رأسهم . وليس هذا الوصف مقصوداً على القس حول مصوغ . وقد ذهب الأستاذ نادل Nadel (في S.N.R. لسنة ١٩٤٥) إلى أن اللوات ، الذين حملوا اللو ، من أصل عربي ، وسائر السكان من النجدة . وقد لاحظ أن الصفة الأرستقراطية تخلق رأسها وتلبس الهامة ، بينما عامة النجدة — ويسمىهم تجربة — يرسلون شعرهم في خصلاته مضافورة على الطريقة البجاوية (ص ٧٩) .

التي تجاورها ، حتى أسست دولة تحتل سواحل البحر الأحمر من جنوب مصوع إلى شمال سواكن ، وتمتد في الداخل إلى بحري الأوسط لحور الجاش ؛ أي أنها احتلت مساحة تزيد كثيراً عن التي يحتلها بنو عامر في الوقت الحاضر .

ولا يعرف على وجه التحقيق متى نشأت دولة بنو ، ولكنها كانت هامة بلا شك في القرن الرابع عشر : وربما تم تكوينها قبل ذلك بحو قرن ؛ وقد ناقش بعض الكتاب الرأي القائل بأن البلو كانوا في الأصل نصارى ثم اعتنقوا الإسلام بالتدريج . وبنو عامر أنفسهم يسكرون هذا الزعم كل الإنكار ، وهذا طبيعي لأنهم يريدون أن يرجعوا نسبهم إلى العرب ويفسبون أو يقتناسون تاريخهم الأول . وندى دعا إلى الظن بأن البلو كانوا نصارى قبل أن يعتنقوا الإسلام ، وحوود إشارات في بعض الروايات القديمة ومعظمها من مصدر حشوي ، ولعلها لا تنصرف إلا إلى الجنوبيين منهم ؛ ومن جهة أخرى يرى بعض الكتاب أن الحصيرة التي تمهّل للرأه من بني عامر عندما تزوج تحمل رمم الصليب في وسطها . وقد صر كروسلان ذلك بأن إشارة الصليب علامة سهلة ، ومن السهل على صانع الحصير أن يلصق إليها كعبه . ومن أن يكون ذلك في صلة بالتقاليد الدينية . ولكن سلجيان يرجع أنها من محلات لمصر نسيحي^(١) : ومن الجائز أن تكون هذه العلامة مفسسة من جماعة مسيحية ، دون أن تكون دليلاً على أن البلو أنفسهم كانوا مسيحيين وحتى لأخص التسم الشملى منهم ، ومن الأرجح ما ذهب إليه بوجح Lullman في كتابه عن ارتد ، أن البلو كانوا وثنيين عندما بدأوا يسيطرون مدلتهم على لإقليم الذي استولوا عليه ، وأن الشعة الحوية منهم تعرضت لمؤثرات النسيحية ، إلى مسطرها شمال المصبة الحبتية ، على أيدي غزاة من قبيلة حباب ، ، حصمت أشعة الشمالية للنقوذ الإسلامي عن طريق موانئ البحر الأحمر . ثم كانت الغلبة للدين الإسلامي بعد ذلك عند جميع بني عامر ، كما ذكره من قبل .

(١) راجع الجزء الأول ، وكذا من (مدونات السودان S.N.R لسنة ١٩٣٠ — ويرى بول (مدونات السودان سنة ١٩٥٠) أن النصراية ونظام الارسطاطلي معاً دخلا عن طريق الحشة الشمالية بواسطة صلة حباب الارسطراطيه ، وأما البلو فكانوا في نظره يطلب عنهم الدماء لعريه ، وذهبهم الإسلام .

هكذا تكونت دولة « البلو » بتطبيقاتها الأرستقراطية ونظامها الإقطاعي ،
وويتها الحاكم وملكها الوراثي ، ولا شك أن القبائل المتفرقة « الحاضمة » لها
كانت تتمتع بكثير من الاستقلال في ذلك الزمن كما هي اليوم . ولكنها كانت
على الأرجح تدفع أتاوة للبيت الحاكم ، وربما أدت له خدمات أخرى . ومهما يكن
من شيء ، فقد ظلت سيادة البلو قائمة من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر .
وأمكن للبلو أن يثبتوا أمام القبائل التي تعيش في الهضبة الإيرانية ، وأن يستولوا
أحياناً على أطراف بلاد تجرمة الشمالية .

وامتداد دولة البلو من سواحل البحر الأحمر شمال سواكن إلى إقليم تجرمة
ترتب عليه من غير شك أن امتد نفوذ البلو إلى جماعات تتكلم لغة تجرمة ، وهي
كما ذكرنا لغة تشابه لغة الجمز القديمة ، كما أنها تشابه اللغة التجريبية السائدة
في شمال الحبشة وجنوب ارتريا ، واسكن هجرة تجرمة متميزة عنهما ، ويطول عليها
أحياناً اسم لغة الحاسنة نسبة إلى شعبة من بني عامر تعيش الآن حول طوكر وتدعى
بهذا الاسم . وذكر انقريز أنهم في عصره كانوا يعيشون بالقرب من سواكن ،
وأنتهم يدينون بالاسلام^(١) .

وهكذا بسط البلو سلطانهم على قبائل يتكلم بعضها لغة تجرمة ، ويتكلم بعضها
اللغة البداوية ، ولعل الأرجح أن لغة تجرمة قد امتدت إلى الشمال حتى طاورت الحدود
الحالية للسودان في عصر متقدم ، وحلت محل لغة الأصلية للسكان في أنحاء مختلفة .
فالشواهد كلها تدل على أن لغة تجرمة دخيلة على بني عامر ، لأن اشتقاقها من لغة
الجمز ، وهي لغة سامية نقلها مهاجرون من اليمن ، رلوا الهضبة الحبشية ، وتقدموا
ثملاً حتى رلوا الأودية التي تؤدي إلى السودان . فنشروا لغتهم في وادي بركة
ورافده عنصينة ، حتى وصلت إلى إقليم طوكر وسواكن .

وبس مما يفيدنا الآن كثيراً عند ما ندرس خريطة توزيع اللغات اليوم
(شكل ٩) أن نحاول أن نستخلص من هذا التوزيع أي اللتين سبقت الأخرى ،
وأيهما كان أقدم في إقليم معين . لأن اضطراب القبائل البادية صهرة معروفه . وعلو
استقرارها من أهم سماتها . ولكنا نعلم أن دخول اللغات السامية الجنوبية

(١) الجزء الأول من المخطوط (طبع مصر سنة ١٣٣٤ هـ) ص ٢١٩

متأخر ، وأن اللمحات البداوية ترجع إلى عصر حامي قديم .

والتوزيع الحامى — على علاقة — يربط أوجان العربى من بلاد بنى عامر لا يزال تسوده اللغة البداوية ؛ وفى الجانب الشرقى (الساحلى) وعلى الأخص فى اربابا سود لمة تجره ، وتمتد غربا إلى وادى عنصية وخور بركة . غير أننا نجد فى هذين النقطتين وفى الجهات الشمالية أن لهاتين صنف اللغتين ، وهذا ظاهر بوجه خاص فى حور بركة نفسه ، وفى المنطقة الجبلية الواقعة على حدود السودان وارتيا شرق وعرب حور بركة ، وفى الوقت الحاضر تمتد لغة تجره فى الشرق إلى حموب مصوع وشمال أسمره ، أى حيث لا يوجد الآن شعبية من قبائل بنى عامر ، وإن كانت هذه الجهات داخلة فى دولة ملو القديمة . . .

وقد دامت دولة بنو كج دكرما إلى القرن السابع عشر ؛ ولكن فى أثناء القرن السادس عشر أخذ ينطرق إليها اسمع من ناحيتين ، ظهور الأتراك على الساحل فى أوئل هذه الفترة ، ثم ظهور دولة فصيح من الجانب الغربى فى أواخرها . وقد تأثرت دولة الملوك المؤثرين ، ولكن التأثير التركى لم يكن بعيد المدى بل مقصور على الساحل . وأدى إلى شىء من اشتراك فى جباية الأتاوات من السمن والقوئل ؛ أما تأثير اسمع فكان معدوم . ومثل كان من أسباب ضعف التدعيم الذى سرب إلى صفة الملوك . ولأرحح أن يعود الفصح لم يؤد إلى إحصاء بنى عامر لسلطان اسمع ، أو إلى روال دونه ملو ، بل حمل رئيس الدولة باسم الفصح بالسيادة ، ويرسل بنى ممدوهم لهدايا بانتظام . ومن آثار يعود الفصح أن أصبح رعيم بنى عامر يدعى باسم الدقلال ، وهو لفظ مشتق من اصطلاحات الفصح ؛ ولا يزال هذا النقب قائما إلى اليوم . فإذا كان يعود الفصح كبيرا ، فإنه لم يؤد إلى روال دولة ملو شكلها ونظامها المألوف . ولكن تغييرا آخر حدث فى القرن السابع عشر ، وهو أن اسم البوارال من الدولة ، ولم يعد لهذه الطبقة الحاكمة تلك السيادة التى لارمتها رها الأربعة القرون . بل اختفت فجأة ، وانتقلت السيادة إلى طبقة حاكمة جديدة ، لها اسم جديد وهو النتاب Nabtab مع بقاء نظام الطبقات كما هو . ولا تزال النتاب إلى يومنا هذا هى الطبقة الحاكمة بين بنى عامر :

حدث هذا الانقلاب فجأة في غضون القرن السابع عشر ، وفي وقت امتداد نفوذ سنار ؛ ولكن لا يعرف ان هناك صلة بين روال نفوذ اللو ، وحلول امتاب محلهم . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما سبقت الإشارة إليه من أن اللو طبقة من المحاربين ، إلى جانب توليهم مساهم الرعامة القبلية . فهذا يفسر لنا أنهم إذا اشتبكوا في حرب ، ودامت هذه الحرب زمناً غير قصير ، وكان نصيبهم المهرينة إثر الهزيمة ، فلا بد لهم بعد ذلك أن يرول هودهم غمماً ، أن يسرف عدوهم في الانتقام منهم حتى يسبدهم عن آخرهم .

ومع ذلك فليست لدينا عن هذا الحادث الخطير سوى رواية تكاد تشبه الأساطير ، يرويها شو عامر إلى وقتنا هذا . وهذه الرواية — حتى علائها — تحدثنا أن فقيهاً عالماً ورعاً من قبيلة الخمليين^(١) ، وقد من أسبل الأبيض ويزل في ديار بني عامر . فسلم حوله خلق كثير ، كما هي أماده ، ولم يلبث أن أصبح يتمتع بعود كبير بين أتباعه وأتباعه ؛ بل في بلاط الملك نفسه . وهذا مرة أخرى يفتش عن المرأة البجائية . فإن هذا الفقيه الورع نأقت نفسه إلى الزواج بأمرأة من البو ولم يرض ، حسب بعض الروايات بما دون حفيذة الملك عنه . ولعل هذا الزواج تم بنير رضى أهلها أو بعضهم . ولم يرض عن هذا الزواج شهر أو بعض شهر ، وفي بعض الروايات بضعة أيام ، حتى كان هذا المصير أو الشخص اساحط على هذه الزيجة الجميلة ، قد ازداد سخطه ، ولم يلبث أن جمع عصابة من أتباعه وأعدى على الفقيه فقتله ، ولاذت زوجته بالفرار .

ثم تحرى القصة بعد ذلك في مجراها المتأول — وقد رأينا مشابهة لها عند النشاريين وغيرهم — فإن هذه السببه اللوية لا تلبث أن تلد فتى بموق العتيان بأساً وعزماً ، فلا يلبث أن يطلع أشده حتى يعرف ما حل بأبيه ، فيبادر إلى صلب الثأر ولا يزال يشن الحرب على البو حتى يوقع بهم المهرينة إثر الهزيمة . ويستهي به الأمر إلى تأسيس طبقة حاكمة جديدة وهي التبتاب ، التي لا تلبث أن تحمل محل البو ،

(١) هذا التقي الورع يدعى حسب أشهر الروايات على أبو قاسم ، واسم ملك اللو ، الذي زوجه ابنته أو حفيذته اندريس محمد ، وفسروا اسم التبتاب بأن أبو قاسم وصف نفسه بأنه نبت من الأرض ، (راجع مقال Paul المذكور من ٢٢٤) .

وتصيح لها السيادة والرعاية في جميع قبائل بني عامر وشعبها في ارتريا والسودان .
وأيا كانت الظروف التي استولى بها الشاب على رمام الأمور ، فإن النظام
القديم ، لم يتغير بأكثر من تغير اسم الطبقة الحاكمة . أما النظام نفسه فقد ظل
قائماً كما كان . وقوام هذا النظام وجود طائفة ممتازة ، منتشرة بين جميع شعب
بني عامر ، وهذه الطائفة هي المعترف لها بالسيادة والحكم ، وما سواها من أبناء
الشعب ، هم ارعية . والرئيس الأعلى أو الدلال ، هو الزعيم المعترف برعامة
لجميع قبائل بني عامر .

والأستاذ ومحرج يرى بحق أن وجود هذه الطبقة الحاكمة من النبتات كان
قوة لها أثر فعال في توحيد بني عامر ، وجمع كلمتهم ، بصورة لا نجد لها عند سائر
الأمم . هـ . لا اتحاد كان يشمل القبيلة وشعبها المختلفة في ارتريا والسودان ، وقبل
استيلاء الإيطاليين على ارتريا ، وبإمام حدود سياسية بين شعبتي بني عامر ، لم يكن
للقبيلة سوى دلال واحد : ولكن في أول القرن العشرين ، عندما فصلت الحدود
بين السودان وإريتريا رأب إدارة اسوان من مصلحة أن يكون لبني عامر دلال
في السودان ولو أن إدارة السودان لا تدعوه دقلاً بل ناظراً ؛ وهو وإن كان
من نفس الأسرة التي ينتمي إليها دلال إريتريا ، فإن سلطانه مقصور على شعبة
بني عامر التي تعيش في السودان ، وعلى الزعم من هذا لا تقسم المعترف بجميع بني عامر
بقرائهم والأواصر التي تربط بينهم ، على رغم الحدود السياسية التي شطرتهم شطرين .
ويس بين شعبتين عداوة أو خصومات ، كما كان بين بني عامر والهندو .
ولكن اختلاف الحكومتين ، انتهى انتهى إليهما كل شعبة ، قد وحه كلا منهما
وحدة مستتقة في الحياة ، فاشترى سو عامر في السودان في المشاريع الزراعية في منطقة
طوكرو وكسلا ولم يقل على هذا من شعبة ارتريا أحد إلا في القليل النادر ، وكثير
من سكان إريتريا قد انتقلوا للرعي والتجارة إلى سهول السودان ، ولكنهم
يعودون إلى أوطانهم في ارتريا . أما الشعبة السودانية فإن انتقال أفرادها إلى
إرتريا قليل جداً .

وبتحدث الأستاذ سلجبان عن الشاب ومكرهم المتنازع في قبائل بني عامر ،

فيقول^(١) : إنه يجدر بنا ألا نحكم على هذا المركز الممتاز بما شاهده في الوقت الحاضر ، نظراً لأن الحكومات القائمة لا تشجع هؤلاء الزعماء على الاحتفاظ بكل ما لهم من السلطان . ثم يروي نقلاً عن مترجم أن النقباء كانت لهم السيادة الحقيقية ، ويطلبون الخضوع التام من سائر الطبقات . وكانت لهم حقوق فيما تملكه هذه الجماعات من الماشية ، ولهم نصيب مما يحصلون عليه من العائش في غاراتهم ، وكان لهم حق الحكم بالموت ، وإذا قتل واحد منهم فرداً من الرعية ، لم يطالب بدفع دية .

ويقول سلجبان إن النقباء إلى وقت قريب ، وأفرادهم من جماعة عد هري كانوا الوحيديين الذين يملكون الإبل ؛ وحتى في المصور الحديثة لم تقن البدنات الأخرى من بني عامر سوى القليل منها ، وكثير ماشية هذه الجماعات الضأن والماعز والبقر . وبطراً لما نال من القيمة المتارة عند البجة على سائر أنواع الماشية ، فلا شك أن تملكها والاستثمار بها من علامات الثروة والجاه . وكذلك يشير سلجبان إلى احتمال أن هناك علاقة بين امتلاك الإبل ، وبين ادعاء النقباء أنهم من أصل عرني ، لأن الجماعات صاحبة الإبل سطر باحتقار إلى الآخرين الذين لا يملكون إبلاً ، ونصفهم بأنهم رعية أو رقيق . ولا شك أن سلجبان مخطئ في هذا ، فإن تملك الإبل أمر شائع عند جميع البجة ، وقد كان النقباء قد حرموا على غيرهم امتلاك الإبل واستأثروا بها فإن هذا لا صلة له وبين النسب العرني . ومع التسليم بأن النقباء يسيطرون إلى طغمت التي يحكمونها على أنها أحط منهم منزلة ، فإنهم لا يعمنون ذلك لأن هذه الطبقات قليلة الإبل ، فقة الإبل ليست سبباً في نتيجة لتسلط النقباء واستثمارهم بالحكم .

ويورد سلجبان أقساماً كثيرة لبني عامر ، مستقيماً معلوماته من شيخ من النقباء في بلدة عقيق جنوب شرق طوكو . وعدد هذه الأقسام ثمانية عشر ، وكل قسم كبير في بني عامر يدعى بُعد أو بيت ؛ وأحياناً يدعى القسم بدنة (اجمع بدت) ؛ كما هي الحال عند سائر البجة ، بل وكثير من القبائل العربية ، وكل عد مقسم إلى

(١) راجع مقاله في مدونات السوفان S.N.R. لسنة ١٩٣٠ ص ٩٦ وما بعدها .

حصص (جمع حصّة) . وأقسام سلجبان تناول المحة في السودان وإثريا . ولكن الطاهر أن أقسامه اثنتا عشرة لا تستوعب جمع قبائل بني عامر ، لأن لو نخرج الذي فصر بحثه على إثريا قد أورد أسماء لنحو ٢٥ أو ٢٦ قسماً ؛ وذلك في إثريا وحدها . وأقسامه تختلف من حيث الحجم ، فمعضها مثل الداخا ، وهم الطبقة التي شتمل على معظم الستاب ، يبلغون نحو ١٢,٠٠٠ سمة ، وبعض الشعب مثل عد على لا يزيد على ٣٠٠ .

ويرى الأستاذ بادل^(١) أن تقسيم بني عامر إلى بدئات وحصص ، إنما يتناول صفة الفئان وحدها دون طبقة الموالي ، الذين لا يحسب لهم حساب ؛ وهو يرى أن طبقات الموالي سكوت من عناصر مختلفة بعضها من النواياين علبوا على أمرهم ، وبعضهم من جماعات أخرى ستمى بمسدوه أو لمص القائل إلى حصص ودات لستاب . وأكثر الموالي بقايا قائل قدوة انجحت آثارها ، وصاعت معاملها بسب حصوع أفردها رمة طويلا لحكة الستاب .

وسو عامر يمارسون الزراعة بدرجة محدودة في بعض الأودية ولم يتوسموا فيها إلا في ظروف خاصة ، كما هي الحال في سوكر . وهما أقدموا على الزراعة إقبالا شديداً ، وتدوا فيها تعوقا على المسدود في كملا ، ودراعتهم وبم عدا ديت قليلة . ولا تزال حرفة الرعي هي السائدة بينهم ، ولهم انتقالات موسمية ، في طلب الكلا . ثم أن وطاسهم الرئيسية متجمعة حول خور بركة وروافده ، فإن لهم انتقالات في الشتاء إلى المجدرات الشرقية ، وفي الصيف إلى الجهات الغربية ، وذلك بالطبع تبعاً لمواسم المطر .

ولا بد من الإشارة إلى أنه على الرغم من الوصف السائد لدى عامر بأنهم قبيلة واحدة ؛ فإن عددها الكبير ، والنظام الإقطاعي الذي كان سائداً بينها ولا تزال آثاره قائمة ، يجعل وصفها بإمام بقائل بني عامر أقرب إلى الصواب ؛ لأن كل عد يبلغ تعدادة في كثير من الأحيان تعداد قبيلة كاملة ، ولذلك وصفهم بعض الكتاب بأنهم عبارة عن اتحاد قبائل ، وخصوصاً أن المجموعة كلها تتألف من وحدات قبلية ،

(١) مقاله السالف الذكر ص ٥٦ ، ٥٧ .



لكل وحدة زعيمها ، وطبقها الأرستقراطية من النخيل ، وطبقة الأتباع أو الموال
Serfs . . . وكانت نسبة السادة إلى الموال في كثير من الأحوال نسبة واحد من
السادة لكل خمسة من طبقة الأتباع ، اللهم إلا في حالة الدقلاال نفسه ، فإنه كان
مضطراً لأن ينمي أنشاعه بقدر الاستطاعة حتى يستطع الاحتفاظ بمركزه بين
سائر الزعماء .

ولم يكن هؤلاء الموال بمثابة الرقيق ، هم يكتوبوا سلعة تناع وشترى ، وكان
مباحاً لهم أن يمتلكوا الماشية . ولكن كان عليهم أن يؤدوا الخدمات ويدفعوا
الأتعاب لسادتهم . ولم يكن يحوز للواحد منهم أن يتحول عن تبعيته لسيده
بمحال من الأحوال .

ولا تزال طبقة السادة موحدة إلى اليوم ، وكذلك لا يزال هنالك تلك
الجماعات التي تنتمي إلى طبقات الموال ، غير أن سلطان السادة على الأتباع قد
اضمحل أو تلاشى : وقد بدأت هذه الظاهرة في أوائل القرن ، ثم أصبحت واضحة
كل الوسوح بعد الحرب العالمية الأخيرة . وقد حدث هذا كله رغم الستات ،
وبوشك ألا يبقى من آثار المصاى سوى تمسكهم بأمرين ، النفور من الزواج من
طبقات الموال ، والمغور من حلب الماشية ، وما يشابه ذلك من الأعمال ، التي
كانت مقصورة على الخدم^(١) .

(١) راجع مقالة مستر أ . بول في S.N.R (الجزء الثاني من عدد ٣١ (١٩٥٠)
صفحة ٢٢٧ وما بعدها . وكذلك مقال الأستاذ نادل في سنة ١٩٤٥ من تلك المجلة .

الفصل الثامن

بعض القبائل العربية التي جاورت البجة

في المصول التالية ستتاح الفرصة للتعهد عن المجموعات العربية الرئيسية ،
التي تتألف منها الكثرة العظمى من سكان السودان الشمالي ؛ ولكننا - وقد قدما
الحدث عن البجة بسبب قدمهم في السودان ، ورأينا كيف تأثروا بالعروبة تأثراً
شديداً ؛ وجاء في سياق الحديث إشارات لبعض القبائل العربية التي اتصلت بهم ،
وعلى الأخص الكواهلة - يحسن بنا أن نخصص هذا الفصل للحدث عن هذه
القبائل بالذات ، وإن كان بعضها لم يرد ذكره في الفصول السابقة .

الكواهلة

تعد مجموعة الكواهلة في السودان اليوم مجموعة صغيرة محدودة الأوطان .
إذا قيست إلى المجموعتين الكبيرتين : الحلبية أو الماسية والمجموعة الحميرية ، وهم
يتسبون في أصولهم في جزيرة العرب إلى كاهل بن أسد بن حريثة^(١) . فهم إذن
من عرب الشمال ، ولكنهم منعصون تماماً عن المجموعة الحلبية ، ونسبهم منعزل
عن نسب الحلبيين .

ولا شك أن الكواهلة هم أهم قبيلة اتصلت بالبجة اتصالاً وثيقاً من ناحيتي
الجوار والنسب ، وإذا كان غيرهم من العرب قد دخلوا السودان الشرقي قبل
الإسلام وبعده ، فإن الروايات لم تحفظ لنا من أسلافهم شيئاً ، بينما أثر اتصال
الكواهلة بالبجة لا يزال واضحاً تردده كل قبيلة من قبائلهم ، وكل نطن من طوابعهم ،
حتى أصبحت كل مجموعة يجاوية تنسب إلى بني كاهل ، مفصلة النسب العربي
الجديد ، على النسب البجاوي التليد .

(١) قبيلة أسد وطيها ، هي قبيلة التي كان يحكمها حجر أبو امرئ القيس الشاعر ،
والذي ثارت عليه وقته لقصته . وكان مواسمها في شمال حد ، وقد انسلت حد ذلك من طرف
الحررة العربية بالندرج ، ومن هنا حجاب العرب دخل السودان .

والأمر الوحيد الذى يجب له المتأمل فى توزيع القبائل والبطون فى السودان
اليوم ، أن الكواهلة لم يبق لهم فى السودان الشمال الشرقى مكان يستحق الذكر ،
وليس هناك وحدة قلبية من نبي كاهل تعيش اليوم وسط البجة ، ولولا أن
الكواهلة قد تحددوا ، أو صدأ ، أخرى فى السودان ، كانوا اليوم مجرد أحاديث تروى ،
بعد أن اندمحو فى البجة كل الاندماج .

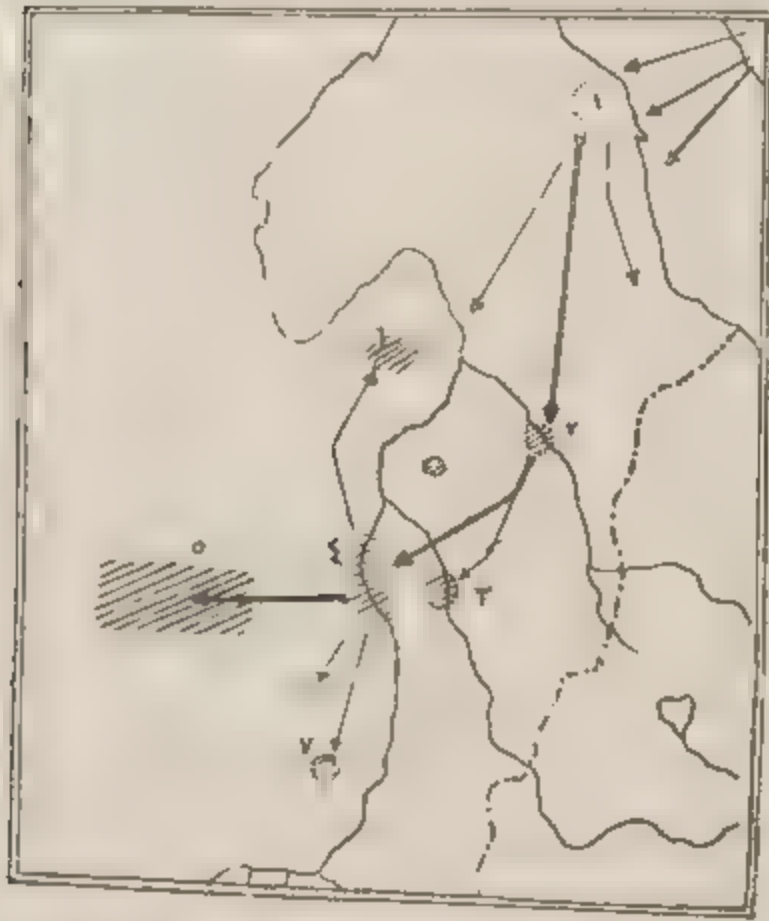
ومن دوى لأسف زائعات التى دوت عن الكواهلة بوجه عام قليلة . برغم
ما لهم من المكان الموضح فى التطور التاريخى لمس القبائل^(١) ، ورغم انتشارهم
أوسع فى شرق السودان قديماً ، وفى الوسط والغرب بعد ذلك . ويكاد أن يكون
من المؤكداً كواهلهم - أو معظمهم - قد دخلوا السودان من الشرق ، ووصلوا
إليه من الحرية العربية مباشرة . وبدأوا حياتهم فيه باحتلال الإقليم الساحلى . أو
حر ، عظيم منه . من سواكن ، فى عديد ، حيث اختلطوا بالبجة وتملأوا لسانهم
وصاهروهم . وربما كان لهم الأثر الأكبر فى نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم .
وكان لهم أثرهم أيضاً فى تنظيم التجارة والقوافل بين وادى النيل والبحر الأحمر .

وليس لكواهلهم اليوم - كما ذكرنا - أوصان فى أرض البجة ؛ وأوطانهم
اليوم مبعثرة فى جهات متعددة ، تحسبها ، قلبه النيل الأبيض ، وأواسط كردوفال ،
ولم يحاول أحد من الكتاب أن يحدد صلة بين الكواهلة الذين يعيشون فى أوطانهم
الحالية ، وبين تلك القبيلة التى انصبت بالبجة وصاهرتهم واندججت فيهم . غير أن
الشواهد التى بين أيدينا تدل كلها على أن جميع الكواهلة - بما فى ذلك القبائل
التي تفرعت عنهم ودعيت بأسماء أخرى - قد كانت لهم هجرة واحدة من مصدر
واحد ، وأنها انتشروا على مدى القرون من الشرق إلى الغرب ، انتشاراً تدريجياً .
شاركهم الأولى فى السودان كانت السواحل الشرقية ، وما يليها من الأقاليم ،
وقد عاشوا فيها زمناً ، وازداد عددهم ، ثم أخذت بعد ذلك بطون منهم ترحل عن

(١) راجع ما ذكره ك. ك. ك. فى كتابه عن تاريخ العرب فى السودان ، وكذا ما عن قبائل
كردوفال . وهناك بحث أوفى عن الكواهل فى المجلد الأخير من سلسلة دراسات
السودان S.N.R. لسنة ١٩٣٠ م ١٤٤٩ وما بعدها ، عنوانه Some Notes on the Tribes
of the White Nile Province

تلك الأقاليم ، وتتحول نحو الغرب ، فزولوا بإقليم العظيرة ، والنيل الأزرق ، ثم ارتحل منهم خلق كثير إلى النيل الأبيض ، واحتلوا جزءاً كبيراً منه على الصفتين الشرقية والغربية . ثم أخذوا يتوغلون في بلاد كردوفا الوسطى والشمالية ، وحالطوا الكمايش فترة من الزمن ، ثم ارتحلوا عنهم واتحدوا لهم أوطاناً مستقلة في النصف الشمالي من كردوفا .

وهكذا يبدو أن من الممكن أن قسم تاريخهم في السودان إلى مراحل :



(شكل ١١) هجرات الكواهلة

- (١) الأسس الأولى (٢) هجرات الكواهلة على نهر النيل (٣) إلى النيل
(٤) الكواهلة والحسا ، إلى النيل الأبيض (٥) في شمال كردوفا
(٦) الحسا في بيوتهم (٧) الكواهلة في بيوتهم

الأولى : نزولهم بالجهات الساحلية واستقرارهم فيها وهذا قد تم في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر ، لأن ابن بطوطة يحدثنا أنه وجدهم مخالطين للبيجة ،
(١٠)

عالمين بلسانهم في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي^(١). وقد زال أثر الكواهلة في هذه الأقاليم كما ذكرنا ، بسبب اندماجهم التام في قبائل النجدة .

والثانية : تمثل نزوحهم إلى جهات عطبرة وخور الجاش وسنار ، ولا تزال لهم أوطان محدودة في هذه الجهات .

والثالثة : نزوحهم إلى النيل الأبيض ثم إلى كردوفان وبيوضه وغيرها . وهكذا تعددت أوطانهم في مختلف الأنحاء . وإن كانت قد زالت من الجهات الساحلية الشرقية ، ولما عرف على وجه الدقة تزيح إشارات الكواهلة وتاريخ نزوحهم من إقليم إلى إقليم آخر . غير أن ما كان كل يرحل منهم لم يصلوا إلى كردوفان ويحاوروا الكبابيش إلا في وقت متأخر لعله في أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل التاسع عشر ، أي قبل وصول اسماعيل بن محمد عي بددة وحيرة . ويرى أنهم لو دخلوا قبل ذلك زمن طويل لكانوا أكثر اندماجاً في الكبابيش واختلاطاً بهم .

فإذا أردنا أن نعلم الفراغ بين دخولهم السودان ووصولهم إلى كردوفان أمكننا أن نفترض أن الكواهلة زلوا السواحل في القرن الحادي عشر ثم تسكثروا واحتشدوا في هذا الإقليم على مدى ثلاثة أو أربعة قرون . وهاجروا إلى عطبرة والنيل الأزرق في القرن الخامس عشر ، ثم احتشدوا فيه ، وفي السادس عشر هاجرت شعبة منهم إلى النيل الأبيض ، وثقت أقدامها فيه ، ثم جاءت طوائف منهم من الشرق ، لم ترض حياة الاستقرار على النيل فهاجرت إلى كردوفان في أواخر القرن السابع عشر ، وبلغت بلاد الكبابيش في القرن الثامن عشر ، ثم انفصلت عن الكبابيش واتخذت لها أوطانها الخاصة في كردوفان في أواخر القرن التاسع عشر .

ولأساء القليلة التي لدينا عن الكواهلة ، نشعرنا بأن لهم ميزة خاصة امتازوا بها ، وهي سهولة اختلاصهم بغيرهم من القبائل ، ونجاحهم في استثمار أقطار بالاختلاط بأهلها . وسط عودهم عليها بعد ذلك ومقدرتهم على استيعاب عناصر عربية عنهم .

(١) راجع مذهب رحلته - بطوطة (١٩٣٧) الجزء الأول ص ١٨٨ وص ٢٢٢ ؛ وشيرازي بطوطة - وجود جماعات - به أخرى في بلاد النجدة ، مثل كسانة وديهم ، و... في جهته ، وهذا لا يمنع لا وجود لهم في النجدة اليوم .

قالأصل في الكواهلة أنهم من العرب المدائين ، ويرحمون نسبهم إلى أربير
ابن العوام ، وهو من بني هاشم . ونحو أنهم من نسب المدائين ، رآهم في ظروف
متعددة يختصون جماعت من قبائل أخرى ، بعضها من أصل قحطاني ، وبعضها
مثل العبادة أقرب إلى النجدة . ولقد كان لهذه السياسة بعض الفضل في الإكثار
من عددهم واتساع سلطانهم ، غير أن التوسع كبير الذي ساقط إليه القبيلة ،
وما أدى إليه من احتلال أقطار متعددة قد جعل من المستحيل عليها أن تحتفظ
بوحدةها ، فترتب على ذلك أن أصبح للكواهلة فروع ودور متعددة ، مفصل
بعضها عن بعض . ولا شك أن كون بعضها رادفة ، بل قد تتحد بعضها اجتماعاً
جديداً خلاف اسم الكواهلة ، كما هو حال في القبائل التي تنسب إلى النسل لأبيص
لأن هذه الشقة واختلاف ظروف الحياة وحده كل شعبة وجهة تختلف عن
وجهة الأخرى

وإن حسب الشعب الثلاثة الرئيسية التي ذكرت من قبل . ترى أن جماعات
صغيرة من الكواهلة انفصلت عن المدح رئيسي لقبيلة ، ونهت وجهة مستقرة
إلى أقطار لم تكن تتوقع أن يراها فيها . ومن أغرب الأمثلة على هذا ما ذكره
ما كما بكل^(١) من أن جماعة صغيرة من الكواهلة تعيش في الجزء الشمالي من حبال
النوبا ، أي في أقصى الجنوب من كردوفان . وكان الدافع إلى ذلك تأسيس مملكة
تقوى الإسلامية ، التي هبت فرصة جديدة لبحره القبائل العربية ، وقد انضم
الكواهلة بهذه الفرصة كما انضموا سبعة^(٢) .

على أن الأقسام الثلاثة الرئيسية هي التي ذكرناها . وثلاث شعبة المعاصرة والبليل
الأزرق ، وهي كثيرة العدد ولكنها قليلة التماسك لأن بعضها لا يزال على المداه ،
وله نظامان من الإبل والتمن والساعة . والبعض يعيش في الحبوب من سبار ،
شرق وغرب النيل الأزرق ، وعلى نهري رهد ودندر . وكثير من هؤلاء قد جنح
إلى الزراعة وحياة الاستقرار

أما القسم الثاني الذي يعيش حول النيل لأبيص فبدراسة معلومات وفي ،

(١) في كتابه قبائل كردوفان Tribes of N. & C. Kordofan p. 214

(٢) راجع مقالة R. J. Ellis عن تمدد قبائل في مدونات السودان S. N. R لسنة

وإن كانت في ذاتها فيه وعم أكثر الأقسام عدداً على الرغم مما تكمنه من الحسائر في زمن مضى . ونحن مدعوون لتقبل مدى معرفه عنهم إلى مقال مسترريد عن قبائل ليل الأبيض^(١) .

وتنتمي إلى أعم من ن قسم واحد من القبائل العربية على اليل الأبيض تسمى « الكواهلة » فإن هنالك قبائل أخرى مثل الحسانية والحسينات تنقسم أيضاً إلى بني دهل . وكذلك هناك قبائل أخرى يصنفها ريد بأنها من القارة ، وهي أيضاً متأثرة بالكواهلة . وطاعمر ن الكواهلة كان لهم أثر كبير في الاستقرار العربي حتى صعد النيل من حص عرض الثاني عشر جنوباً إلى إقليم جبل الأولياء شمالاً : أي مسافة تتراوح بين ٣٥٠ و ٤٠٠ كيلو متر ، وهذه المنطقة هي أبعد توسع للعبود العربي حتى صعد النيل الأبيض نحو الجنوب . وتقسيم المسترريد هذه المساحة إلى قسمين متساويين تقريبا ، ويخصص النصف الشمالي منها للكواهلة والنصف جنوب المطون الحمية والقارة ، وهذا النصف الشمالي موزع بين ثلاث قبائل الكواهلة ، والحسانية ، والحسينات . وهم مورعون من غير نظام مطرد في هذه المساحة غرب النهر وشرقيه ، فالكواهلة مثلاً منهم شعبة في الشمال وأخرى في النيل العربي وثالثة في الغرب بعيدة عن النهر . والحسينات لهم أوطان في الشمال وأخرى في الجنوب ، والحسانية أوطانهم أكثر تجاوراً وتحتل الجزء الأوسط ، وأكثرها إلى غرب ليل (شكل ١٢) .

وطاعمر ن زول بني كاهل في هذا الإقليم ، كان جزءاً من هرات اتجهت نحو الغرب ، حتى مدى بحير عبيده . فأما المطون الحمية فإنها فلم تطب لها الإقامة حتى صعد النيل ، واستأجرت أو استأجرت محبتها نحو الغرب . وأما الذين قلت إياهم فإبرموه ومرتد ورتة .

لذلك لا بد أن يكون بني كاهل لم يجدوا أوطانهم على النيل الأبيض حالية من السكان ، بل حده أحياء عدصر بعضها قوياً والآخر مولى . وقد تمكنوا بالحيلة والحرب من توطيد نفوذهم حتى تمت لهم السيادة في هذا الإقليم . وأول من زل هذه الأقاليم فرق من بني كاهل ينتمي إلى الشعية التي تدعى عرواب :

وهؤلاء نزلوا الأطراف الشمالية . ثم جاء من بعدهم الحسان ، وراحوهم وهدا
القسم الشمالي ، وصالحوهم على تمويص دفعوه لهم من إيل ، وعلى أثر الحسان
جاءت الحسانية . ولما هم جاءه . قال لأمر مساعدة الحسان في حروبهم مع



شكل ١٢٩ : خريطة المنطقة المحيطة بحماة

المسامية . أو لعل مسامية استحدثت منهم من عدتهم في الحرب مع قبائل الجنوب
فلم تم النصر بفضل تدخل الحسانية ، وراحوا المسامية في أوصابهم ثم دارت حروب

كان فيها الحسانية والحسينات حلفاء ، وكان لهم فيها العوز على السلعية وغيرهم من القبائل التي تحتل صفاق النهر .

وعني ابرعم من أن الحسانية جاءوا بعد أبناء عمهم الحسينات ، فإنهم أصبحوا أقوى القبائل الثلاثة التي مثل بني كاهل . وهذا مثل سائر في هذه الجهات يروي مسنر زيد بقول « لا تأمن الحساني ، إن كان غريب بلدان . » والاشارة في هذا المقول إلى اسياسه لبني اسعوش ، والتي سدوا عنها متصلة في بني كاهل ، أن ينزلوا عربا ، ويدفعوا الأصحاب املاذ آخر ، عن لأرضي التي يحتلونها ، حتى إذا كثر عددهم ادعوا الحق فيها ولحقوا ، وإلى اقوة لإثبات حقهم وقد كان الحسانية والحسينات حلفاء ، دنا في حروبهم مع جيرانهم ، وروى قصص كثيرة عن أبطالهم القدماء وكيف حاربوا اشكرية احياء وامكنهم بذلك أن يصموا لأرضي الواقعة شرقي النهر ، والكناش . وروى حتى أمكنهم اتوسع نحو الغرب ، وحاربوا المقار ، إلى الجنوب وأحرقوه عن بعض أراضيهم على النهر ، وسعدوا إلى الحيلة والمسالمة في علاقتهم مع الفنج ، بحيث كانوا يعمرونهم من زك . وبذلك سم لبني كاهل عريق من قومه والحيوة الرئيسية في نظامهم المتقدمة من حمل لأولياء إلى شمال حرة ، آنا ، وتمتد شرق النهر وعربة مسافة تبلغ من ٥٠ إلى ٧٠ كيلو مترا .

ونقول زيد الحسانية اسم إلى ٢٧ شعبا ، منهم يدعى شاشات ، وهو في سمي إليه عين قسمة ، وخمس ١٨ شعبة ، واحدة منها لشعبة العرب ، أما ما كوهلة وفيه ستة دوا ، فقط في إقليم اسيل الأبيض ، ثم تدعى بدوا أن كاهل قد ستوسو هذا لأقرب إلى بحري وسطه اسيل الأبيض ، والتدريج ، وسميهم مبره لاسمته وسميت فيهم المصير التي كانت يسكنه من قديم ولا من جهة كاهل قد أن برود بدوا يرعون الإبل ، وهم صرور حتى من لسميرة ، أي منهم لم يمارسوا الزراعة قبل نزولهم هذه الدار ، وانما هرة من بدوا أول وهذه هي حاب من الفرافة أن الزراعة وما يتصل بها من عرف وعده سدوا متصلة فيهم ، وأمسث عادة مقتنسة في عصر حديث ، فليست لأرض الزراعة ملكا مشاعا للقبيلة كلها ، وليس هنالك دليل على أنها كانت كذلك في أي وقت من الأوقات ، بل الملكية الفردية وحق

التصرف في الأرض ، يختلف الطرق ظاهرة واضحة ، وحق مقرر ، ويعمل مستر ويد ذلك بأن القبيلة عندما احتلت الأرض أخذت كل أسرة تعنى بزراعة قطعة منها عاماً بعد عام ، دون أن تتحول عنها ، لأن الأرض تتحدد زيتها كل سنة بواسطة الفيضان ، ولأن الأراضي التي تروى بالطرق هي أيضاً ذات تربة صلصالية ثقيلة ، وفي كلا الحالين لا يحتاج الزارع لأن يغير أرضه بعد بضعة أعوام كما هي الحال في الأراضي ذات التربة الخفيفة في الجهات العربية مثلاً . فإذا طلت كل أسرة تزرع نفس الأرض على مدى السنين اكتسبت الحق في امتلاكها والتصرف فيها بعد ذلك .

ولكن هذا التعليل وحده قد لا يكون كافياً لأن فيضان النيل الأبيض لا يحدد التربة تحديداً ملحوظاً لقبة رواسه ، ولأرحح أن الملكية الفردية كانت ظاهرة مقررة وقلبيداً محترماً في النيل الأبيض قبل أن ينزله بنو كاهل بقرون عديدة . فلم يزيدوا عندما رلوه على أن اتبعوا الشئنة السائدة في البلاد التي تزلوها ، وفي ظل دولة الفصح كانت الملكية الفردية للأراضي أمراً مقرراً محترماً ، وقد وصل نفوذ الفنج إلى النيل الأبيض .

ومها يكن من شيء فإننا نجد الملكية الفردية حقاً مقرراً على اسيل الأبيض وكذلك حق الميراث والرهن والبيع حتى للأحاب المشتمين إلى قبيلة ميده ، وكذلك حق الإيجار . وبعد الوفاة تقسم أرض المالك وتورع طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية . أما الإيجار فيختلف حسب جودة الأرض . والأراضي الساحلية التي يعطيها الفيضان يقسم ريعها مناصفة بين المالك والمستأجر . أما أراضي المطر فمصيب المالك منها الربع . والأراضي التي ترهن لا تتحول ملكيتها إلى الدائن : بل بطل لصاحبها حق الانتفاع بها فقط إلى أن يسدد الدين . ولأهمية الملكية الزراعية ترى كل صاحب أرض يفرس أحجاراً بارزة توضح حدود أرضه . ومع ذلك فإن الاختلاف على الملكية أصبح ظاهرة شائعة في الأرمنة الحديثة بوجه خاص ، ولعل لأردحام البلاد بالسكان دخلاً في ذلك .

وإلى جانب الزراعة لا يزال لبي كاهل عناية خاصة بابلهم . ولألبانها وورها ولحومها مكان في توفير عدائهم وقيامهم ومساكنهم . وهم يربون الإبل لأبنائها ،

وبراعون ذلك في انتخاب الفحول . وإنك تكون إنهم من الطرار الثقيل ، وعلى الرغم من أنهم يستخدمونها في حمل ثقالمهم من بلد إلى بلد ، فإنهم لا يربون إلا صرعة للركوب . والحقيقة أن أهل الركوب - الخدمة فلما ترى في الجهات العربية من السودان ، وإذا وجدت فإن أصحابها في الأكثر قد اقتنوها بالشراء من أسواق بربر أو من الأقاليم الشرقية .

وسوكاهل يستقون إنهم من النهر أو الآبار أمام الحواف ، وتظل بذلك قريبة من درهم ، ولكن عند ما يبدأ موسم المطر ، ترسل الإبل إلى الحبوب للتمدى بالمشب الطرى . ولا تمود إلى الجهات النهرية إلا بعد أن يجف المشب ويحول .

وسبب تميز مدرلمهم من لظمن والإقامة ، ترى لبنى كاهل ضروباً مختلفة من المال ، منها سوب - السور أن يكون سحها من ور الإبل وشعر المسعر ، وبيوت من الطين والمشب على صف النهر ، ووع آخر يدعى القوطلة وهو مثل التكل الساند في جنوب السودان . ولا سبب أن سوب اشمر قد أدهمها نوكاهل وتمثل عمارتها وتجهزها من السوب سببه من طين من صنع لبنى سوبهم في هذه البلاد ، وقد وردوا الساعة عظم ك. ث. إلى لبنى يقتنوسها اليوم ، ورعيهم حرقهم القديمة . أما السور وقد صبح لهم منه عدد لا بأس به فلم يقتنوه إلا بعد درولهم على صف البيل لأبهر ما ساعر والمان مشتركة من البدو والحضر ، وبين الجهات القليلة ماء حتى تتوفر فيها مياه .

هؤلاء هم سوكاهل في أوصافهم أسيدية^(١) ، إلى استقر وأبها . من نحو ثلاثة فروع . أما القسم الثالث من أوصافهم ، وتعله اليوم هو شهر قسم فيهم ، فهم الشعبة العربية ، إلى ستوصف شمال كردوف ، وتتنازل لتنازل واتحاد الحكمة . وليس لهم راعة مطن ، بل رؤسهم إنهم الكثير جداً ، وما تتبعها من المشاية الصعرة ومواطهم في شمال كردوف حول خط العرض الخامس عشر ، إلى الجنوب مباشرة من ديار الكبابيش ، ومن الصعب أن نصف الجهات التي يقتنون

(١) هناك سميت أخرى من أوصافهم . بعض بعضهم في صحراء بيوضة واليمن بالقرب من شدي .

فيها بأنها أوطاسهم ، لأنهم إنما يقيمون فيها من موسم لومس ويتزلونها برضى سكانها ،
الذين قد يتقاضون منهم بعض الأجر نظير استخدامهم للآبار في بعض الجهات —
ويروى ما كما يكل أن الكواهلة في شمال كردوفان بقصون لشتاء ، أو فصل الخفاف
(من ديسمبر إلى شهر يونيو) في منطقة الخيران ، حول مركز بارا . وهذه الخيران
(جمع خور) ليست أخواراً تجري فيها المياه إلا فترة قصيرة من الزمن . وإلى
تمتاز بوفرة مياهها الباطنية القريبة ، بحيث لا تريد أعماقها على ثلاثة أو أربعة أمتار .
وأصحاب هذه الخيران يزرعون شطراً منها ، ويدعون شطراً لآخر ، التي تنفع بها
الكواهلة بدون مقابل ، ولكنهم يؤدون ثمناً عن المياه التي يستخرجونها من
الآبار . وعند ما يسقط الأمطار يرح الكواهلة إلى أعلى وادي لسان يملأهم
وقطوعهم ، ويصون هناك حتى يستعدوا ليرعى ورحلة صيف هذه تحملهم نصاً
إلى بلاد عرب بلادهم ، إلى بلاد السكندرية

وهذه الخيران التي يعيش عليها الكواهلة : وروى في نفسه ، وقله في الأراضي
والآبار التي يستعملونها أن يدعوهم كتاباً يؤكد روحهم الحديث إلى عدم حب
والطاهر أنهم عند ما هجروا إلى تلك الصحراء الكئيبات حيث من الزمن ،
ورقوعهم ، وسمحتهم أن يكونوا شعبة منهم ، في كل عدد من قلوب
شوكتهم ، وعدم ما ظهر مهدى ، الصبرية بمرارة كارهة . وبعد ذلك
أصبح لهم كيم المستقل . وسكنهم من المصالح عن السكندرية لم تعد لهم دور
خاصة بهم . بل يبعون قصصهم في رص واسعة كثيرة ، مع مرورهم ، في السكندرية
في الشمال ، والمقدرة في الجنوب ، ومما يدل على مرودة الكواهلة في رأس آثارها
عبره مره في تاريخهم . أنهم قد أودعوا في عدد من شعبة من قبيلة من المقدرة ،
تدعى دار حامد ، وروى أن يكون رعيهم منها .

هذه خلاصة قصة الكواهلة الذين رأيتهم تقصون بأرجح في أقصى الشرق
أول أمرهم ، ويتصلون آخر الأمر بالسكندرية والمقدرة في أقصى الغرب في القرون
الحديثة ، وقد اضطرنا سياق الحديث لأن تتبع الكواهلة إلى ديار بعيدة جداً عن بلاد
الحجة ، ولم يكن من ذلك يد حتى يصل الكواهلة القدماء بالحدثين .

الشكرية

ينتمي الشكرية . حسب التقسيم الحالي للقبائل العربية إلى الجانب القحطاني ويصنعهم السابون ، ويتبعهم ما كما يكل ، في إحدى مجموعات جهينة ، وهم أنفسهم مع سلمية . منهم من جهينة بفضلون أن يرجعوا بسبهم إلى قريش ؛ ولهم جد بعيد يدعى شكر ، هو لدى من أحله اتخذوا اسم الشكرية ، وفي بعض الروايات أن هذا الجد يدعى بشكر . والظاهر أنهم نزلوا السودان منذ زمن بعيد ، ولكن لا يمكن تقديره في شيء يقرب من الدقة ، والأعلى أنهم كانوا فيما مضى جماعة قليلة لخطر لأن أحبارهم وأشعارهم ، لم يرووها اليوم يرجع معظمها إلى الفترة الثانية من عصر الفصح . في الوقت الذي أخذ فيه الهمج يعتمدون بالسلطة : أي في أواسط القرن السابع عشر . ومن الممكن أن يعرض أن وقت توهم ونكونهم يسبق هذا التاريخ نحو قرن آخر أو أكثر قليلاً ، بحيث لا يعدو القرن الخامس عشر .

من أكثر الشكرية في إقليم البطانة ، وينتقلون فيه بإبلهم شمالاً وجنوباً ، وفي ناحية كانت استقلالهم تبلغ بهم إلى جوار شندى ، ولم يخل الأمر من بعض الاحتمال بينهم وبين احمليس . وحبوباً يصلون أيضاً إلى النيل الأزرق ، حيث يعيش رعيهم الآن في سدة رفاعه . (شمال وادي مدى نحو حرس كيلومترا) ، ومن ثم مرا كرم سدة بوندي إلى جنوب شرق من شندى على دائرة عرض السادسة عشرة . ويختل جبل حبيبي ، أو في جنوب أتي دليق ، مكاناً واسعاً في روابهم وأحبارهم ، وعلى قمة سدة امص رؤسائهم القدماء .

وهم يحاورون المشاريين (م ناحي) في سهل البطانة . كما أن لهم فرعاً صغيراً بالقرب من كسلا ، له اتصال بالهندوه أيضاً . وهم رعاة إبل وغنم وماعز ، وزراعتهم قليلة . وقد مرت بهم في ربيعهم أحداث كثيرة ، فزعم شائهم فترة من الزمن ثم قاموا الويلات في أرملة أخرى . وكانت لهم حروب مع كثير من جيرانهم ، وفي أحبارهم ما يشير إلى أنهم كانوا يتحدون سلطة الفنج ، وأن أحد رؤسائهم استطاع أن يتزوج من ابنة ملك سار .

ولكن العصر الذهبي للشكرية كان من غير شك هو من عهد محمد علي إلى الثورة المهدية . فقد كان للشكرية أسرة حاكمة يترعها شيخ أحمد أبو سن ، وقد كان من سياسة ذلك العهد محاسبة الرؤساء واكتساب ثقتهم ومعرفتهم ، وكان الشيخ أحمد هذا من أعظم المقربين من الشيخ في ذلك العصر ، وكان موضع ثقة الحكومة ولا شك أنه كان رجلا ذا شخصية عظيمة ، وقد وصفه صمويل بيكر بأسهل والكرم ، وجميع الآثار والمصائل التي شتهر بها العرب في جميع المصور .

وفي عصر المهدية لم يكن بد أن يكون الشكرية أعداء لزمعائها . وأن يعانون من جراء ذلك عذابا وبلاء شديدين ، وقد صادف أيضا أن كانت سنة ١٨٨٩ من سنة الجذب والخفاف اعادت القبيلة حروبها من الحب وشفقة ، إلى جانب ما سكبته حرب البني والاضطهاد .

وتحسب أحوالهم . مد ذلك كثيرا وعاد إليهم عديم القديم ولعلهم اليوم أعظم قبائل بطانته شاء .

وقد قسم هرولة ما كان كل شكرة إلى ثلاثة عشر طنا ، وذاير من هذه الطون انتهى اسمها بمطآ ، مثل بورت وبلاب الح ولكن ليس صاحبة لأن يستتبع من هذا أن لهذه القبيلة أنه صفة نسب بالجملة ، فالأمر أي مدى ذهب إليه سلمه ، بأن كل اسم ينتهي بـ ت يدل على تأثير نحوي ، ربي سطحي . وهو حارباء فيه لما كان هناك عرب حاضرون في جميع السواحل وفي عدد درفور وكردوفان لأمالا بعد نجد قبيلة عربية ليس من أصولها نفس أو أكثر به هذه الصفة ، وكلها ليس لديها دليل على أنها من أصل حاوي . وعلى فرض أن هذا الاصطلاح من أصل نحوي وحى ، فالله لا يمنع أن يشيع وسنتر بين العرب لسهولة وسهولة تدوله .

الرشايدة

من أهم القبائل العربية التي تعيش في وسط البجة وتجاورهم قبيلة الرشايدة . وهم يمثلون أحداث الهجرات من الساحل الشرقي للبحر الأحمر (من الحرية العربية) إلى الساحل الغربي (السودان) . والرايح أن هجرتهم ترجع إلى أحد من القرن

التاسع عشر . وقد تولوا من إقحام طوكري إلى حدود رة ، ثم استقل بعضهم مغرباً إلى إقليم عطره .

كذلك ترحب سبعة منهم ، في أوتوما في منتصب القبر السامي ونزلت الإقليم
الساحلي شمال مصوع ، وهم مثل أفراسهم رعد إبل ونقر وحش ومعنى .

ولما اتى الى نعمة من الزمانيه تعيش في حجرة اعرب على الاقامه الساحليه .
وقد اصطهدوا وادوا في رمن مدينه ، فحصل كثيره من مهاجر الى اتربا
نحوها فاربهم الذين كانوا يعيشون هناك مثل مصوع ، و عبد وال عهد المهدية
على كثير منهم الى السواحل . وعددهم الآن قد بلغ نحو من مئتين او ثلث مئتيه ،
ولما اتى القس الى دية الاحمد المنشوره وسئل اسمه وكنيته لم يشأ منهم مصافحه
او موافقه . فكلوا القس محتفظ بتقديده وعذابه ، و ساء له في الحياه . فربما
يشكون في عوب من السحر والسم ، و قد يدعيهم كذبا عن الاشرار الذين
- عوب صده ، و كثيرا ما جرد في كبر عن حقه مفرده بين اهلهم في
- و ان مطاع حقيقه عند الناس . و قد يكون طريقه في صلاته حقه

من قنبر سميرة ساء - - - - - لأخص - - - - -
عاصم في وقت حصر المدينة - - - - -
بن - - - - - في غزوة أسود - - - - -
- - - - - وهو من غزوة - - - - - من - - - - - حيث انق
- - - - - وهو من - - - - -
حيث انق - - - - - وصفه - - - - -
مستة - - - - - مستندة من - - - - -
سيف مستقيم ذو خدين ووصفه بأخرقة واشجاعة شامة ، وانهاره في صيد
الحيوان : بال - - - - - الحيل والأسود ، بالسيف ، وكثيراً ما يصيدون وهم
على ظهور الخيل .

وقد فتك بهم مدرؤس فتكاً دماً ، ولا شك أنهم اليوم أهل عدداً مما كانوا : إذ لم يبقوا إلا رءوساً من جمع مثلات .

ويذكرهم ياركس (Yarkas) أنهم شاريون من أصل شاري . ولا شك أنه في هذا وهم . وأهل هذا صهر في دونه . إنهم شاريون يتكلمون الهندوه ، وهم على كل حال يقومون بهم شرب ، وأنهم بنو وصفي سلالة عربية .

وقد حمل ما كما كل حجر حذاء من مجموعة الجهبية الكبيرة ، وهم على كل حال مسألة صغيرة ، وربما قد أحرق بعض الشهرة بسب ما كتبه عنهم صمويل بيكر ، عندما ما رل بالزهم ، فأكرموه فوه تكريمهم في كتابه عن الروافد الحبشية بسيل .

والحمران شهرة أخرى في السودان ، بسب قصة تاجوح ، التي اشتهرت وشاعت بسب ما استعمل عليه من معرى روائي مسرحي ولا بأس من أن يورد هذا خلاصة لهذه القصة ، لأنها تشتمل إلى جانب معراها الروائي ، على إيصال ما بين الحمران والهندوه من اتصال .

يعيش الحمران في أوطانهم وأكثرت عملهم رعى الإبل والماشية الدقيقة ومنص البقر ، ومع ذلك فهم على قلة عددهم مولعون بالفروسية والصيد . وقد اشتهروا رحالة وسادة بالبحر ، أعانت تاجوح كانت ذات جمال فائق يضرب به المثل . والقدهر أنهم كانت تعيش في الزرع لأول من القرن التاسع عشر .

وكان بين الحمران والهندوه عداوة وحروب ، وأمكن للحمران أن يحجروا فيها المصر مررة بسب شجاعة وبراعة طلهم الحقيق . وكان اعلمق معره ، متبها تاجوح ، عظم فيها الأشعار ، معلنا غرامه للناس . فغضب والد الفتاة لهذا التشهير باستهوانه أن يروحه معها ، وقد كان هذا حروب عيون في نزوح منها ، من بينهم بطل هندوى يدعى كاد .

وكاد الحلق أن يموت كذا ، لولا تدخل عماء القبيلة والخاصة على والدته حتى قبل أن يروحها منه . ثم يكدا كاد بسمع ذلك حتى أسرع إلى الحلق يطالعه بالقتال والنزال فداوت بين الاثنين معركة هائلة ، لم يلبث البطل الهندوى أن لقي

فيها حنقه ، فأتى وهو يردد اسم تاجوج .

ولعل تاجوج كانت تميل إلى الفتى الممدودى ، لأن روايتها من المخلق لم يكن زواجا ناجحا ولم لت أن اضطرته لأن يقاتلها ، وفاء بوعده قطعه على نفسه أن لا يرد لها ظلما . فلما بات عنه حميمته لم يلبث أن ركد السقم وقضى نحبه .

وحاء الممدود ليشارو تقتل بطلهم أكاد فيه يستطع الجمران أن يقتلوا لهم بعد أن فقدوا قائدهم في الحرب . وفي إحدى هذه العارات عوفقة وقعت تاجوج سبية في أيدي الممدود .

وتجبر الخصام من أطلهم : أيهم تكون السبية اعتادة من نفسه ، وادت السماء تجري ، وتزمت النصارى تسيع هباء فاجتمع شيوخ الممدود لتدر الأمر وسبهم شيخ هرم طلب أن يؤتى بملك لأسيرة لكي يعرف على سب لفتنة فلم تكذب ما مقسة حتى امتشق حسامه وقتك بها قبل أن يتحرك أحد من مكانه . وهكذا قصت تاجوج ، ودور في قبر بين كسلا وحز يدعى أبو كحل ، وسط عنة من المخل . ونقصتها كما ذكر . شهرة واسعة (١) .

هذه أهم التماثل التي أتت لنا في الحاضر أو في الماضي بأدبها ، وهناك قد تل أخرى عربية انصابت بهم مثل الخليلين ولكن قصتهم أطول من أن يذكر في مثل هذا المقام .

(١) كانت قصة تاجوج - موسوعة روية قصصية أنعمها الأستاذ عثمان محمد عشم ، وأخرى مسرحية مثلت مرارا في الخرطوم وكنت أعياها مسرح هاروود . ولا تلاحظ أنه في مدونات السودان SNR لسنة ١٩٤١ من ١٩٧

الفصل التاسع

الجميلون

لقد رأينا في الفصول السابقة ، كيف تزل الفصائل العربية في سواحل السودان ، آتية من الجزيرة العربية مباشرة ، فتجد من أهل الشرق السودان وطناً لها فترة من الزمن ، محنصة لسكانه ، مؤثرة فيهم وفي ثقافتهم ، ثم حمل من هذه الأوطان مجالا ومنبعاً تنتشر منه نحو العرب ، وتتوغل في أنحاء متعددة ، متخذة لها أوطاناً جديدة . وامل قصة بني كاهل هي خير مثال لهذا التأثير العربي ، الآتي من الجزيرة العربية مباشرة ، والذي اتخذ اتجاهاً من الشرق إلى الغرب . ويحق لنا ، إذا تأملنا في الكواهلة ودنستهم في أدوارها المختلفة ، أن نسأل عما إذا كانت هذه القصة فريدة في نوعها ، أم أنها مثال حديث العهد ، لهجرات مشابهة حدثت في مختلف العصور ، قبل الإسلام أو بعده . ولكن هذا السؤال لن يدع بنا بعيداً ، لأننا وإن رححنا أن هجرة الكواهلة لا يمكن أن تكون الوحيدة من نوعها فإننا عاجزون - لقلّة ما نأيدس من الأدلة التاريخية أو ما يقرّب منها - أن نورد أمثلة أخرى .

وحسبنا أن نقرر أن هذا الخاب الشرقي من السودان ، كان واحداً من الأبواب ، التي دخلت منها الدماء العربية ، ومنها الثقافة العربية ، إلى السودان . وأن تأثيرها لم يكن مقصوراً على الجهات التي تقابل الجزيرة العربية ، بل تحورتها إلى السودان الأوسط والسودان الغربي أيضاً .

هذه الأبواب التي كانت مدخلاً للجماعات والثقافات العربية ، هي ثلاثة أبواب ، يفضى كل منها إلى طريق للهجرات ، وإلى أوطان وما كن للاستقرار . ولابد أن نلتقي هذه الطرق في النهاية - على الأقل في بعض الأحيان - ويختتم الوافدون من الشرق مع الوافدين من الشمال ، في بعض الجهات

والباب الثاني الذي كان مدخلاً لفصائل العربية ، هو الباب الشمالي في وسط

السودان ، لدى بقصى إلى بحرى النيل ، والذي أدى إلى تكوين القبائل العربية التى تنش حول نهر النيل فى شمال ووسط السودان .

أما الباب الثالث ، فهو الطريق شمالى العربى ، أو الطريق النيبى ، الذى كان مصدر لكثير من هجرات قديماً وحديثاً ، ولعل هذا الباب لم يكن مصدراً للثقافة العربية إلا بعد الإسلام .

والباب الثانى ، والأوسط ، الذى كان له تأثيره القوى فى القبائل التى تلازم النهر شمال الخرطوم وحوضها هو بلا شك من أقدم الطرق ، وهو الذى أدى فى النهاية إلى تكوين مجموعة القبائل الحميرية ، التى تحتوى الحميريين وغيرهم ، وهم أعظم القبائل العربية فى السودان حطراً ، وأعزهم بقاءً ، وأكثرهم عدداً . ولا يمدو الحقيقة إذا فُرض أن هذا الباب الأوسط ، هو أهم الأبواب الثلاثة ، التى دخلت منها الثقافة العربية إلى السودان ورحبت بواسطته القبائل العربية إلى مواطنها الحالية فى السودان الشمالى ، كما أن الفضل لا كرم فى نشر العروبة فى السودان .

هذا الطريق لا يتبع نهر النيل فى كل جرد منه ، ولا يلام النهر من مصر إلى السودان ، بل يتابع النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو أو قبلها ؛ ثم يحترق صحراء العتمور مباشرة إلى أبى حمد ، حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلازمه نحو الجنوب ، وعلى الرغم من أن طريق العتمور هذا طويل ، يقرب من مائتى ميل ، وتغلب عليه النوعورة والحطب ، فيه أقصر كثير من الطريق لهرى ، ويتجنب الأقاليم النوبية ، الكثيرة السكان ، والتى لا بد لمن يختارها طريقاً لهجرة أن يجمع لها يعرضه سكان من الشروط ، أو يخضعهم لسلطانة ، وهذا لم يكن بالأمر السهل . والطريق وإن علب عليه الحفاف والنوعورة ، لا يحو من أحوار وأودية ، يدها شئ يسير من المطر ، وبها بعض العشب ، وعلى كل حال لا يخلو من المياه الباطنية ، التى يمكن أن تساعد على حفر آبار ، يكفى مؤهالها لى تزود القوافل بمحاجتها من هذه المادة البادرة نبيه . وقد سبقت هذا الطريق حتى فى العصور الحديثة عدد كبير من الرحالة وتركوا لها من بناء وحلبها ما يدل على أنها لم تكن شاقة عندهم بدرجة لا تصدق . وفى كنف رحلة تركب ما يدل على أن هذا الطريق كانت تمر منه القوافل بأعداد وانتظام طوال الأعوام .

ولعل غلبة المشقة والحفاف على هذا الطريق لم تحمل من فائدة ، لأنها جعلته مسلكاً حاليّاً ، أو يكاد أن يكون خالياً ، من السكان المستقرين ، بحيث تستطيع القافلة أن تجتازه دون أن يكون في عملها هذا عتصام لحق بمص القائل ، ودون أن تخشى أن تطالب بدفع آوة ، وإذا كانت تتعرض أحياناً لعبرة أو عدوان من جماعة تقطع الطرق ، فلا شك أن كل قافلة تتحدد مثل هذا الأمر أهميته ، وعدله عذرة (١).

وطريق المتمور قديم معروف في أقدم ، ولا شك أنه استخدم في العصور المصرية القديمة ، والاتصال بين مصر وبين الأقطار التي يحتلها الحمليون اليوم ، حقيقة يشهد بصحتها ألف دليل ، فماصمة الحمليين اليوم في شدى ، ما هي إلا حلقة مروي القديمة ، والآثار الفرعونية حول شدى من أروع وأغرب الآثار المصرية في أى جهة من جهات وادى النيل ، وقد كان الاتصال المستمر بين الشمال والجنوب أمراً عادياً مألوفاً .

فالطريق الشمالى الأوسط إذن من أقدم — بل لعله أقدم — الطرق للاتصال بين الشمال والجنوب ، ويمتاز على الطريق الشرقى الذى وصفناه من قبل ، بأنه لا يمتد منه قبائل مثل الجبه ، التى لا تكاد أوطانها أن تصل إلى هذه الأطراف الغربية . وقد كان هذا الطريق هو السبيل إلى تعمير الإقليم النهري بالثقافة والدماء العربية التى تبدولنا اليوم ممثلة في المجموعة الجميلية ، ومن الصعب أن تصور أن تأثير هذا الطريق على مدى القرون ، ظل مقصوراً على هذه الشقة من النهر ، أو الجهات التى تليها شرقاً وغرباً ، بل لم يكن بد من أن يتجاورها إلى نواح أخرى من السودان ، في سهل البطانة شرقاً ، وفي كردوهان ودارفور غرباً ، وكن المركز الأساسى والمحور الرئيسى ، والوطن الثابت ، الذى نشأت في هذا الطريق ، هي تلك الأقطار التى تحتلها المجموعة الجميلية .

(١) لعل من الطريف في رحلة تركهت أن حصر الإغارة والسلب والنهب لم يحد إلا عندما اقتربت القافلة من أبى حمد ، وتعرضت لعربات الزعيم عمر البدعاني ، وسلك صوب إلى الاعتماد على النهر والذهاب مباشرة إلى بربر

وقبل أن تنفذ المؤثرات العربية إلى هذا الإقليم ، كان بلا شك وطناً لعناصر
حامية ، شأنه في ذلك شأن وادي النيل في مصر ، ولم يكن بد أن يتأثر بها يتأثر به
الوادي الشمالي ، بعد أن ظهر الإسلام في مصر ، وتوطدت أركانه واشتد بيباه .

وبوصول المؤثرات العربية ، من أخفاف صحراء لعمشور ، إلى أبي حمد ، يفتح
أمامها طريقان معدن ، أحدهما إلى الجنوب الشرق ، والأخرى إلى الجنوب الغرب ،
وكلا الطريقين يلقيه النهر ، الذي يرسم من أبي حمد طريقين : نحو عطبرة والخرطوم
من جهة ، ونحو مروى والندبة ، والبلاد النوبة الجنوبية من جهة أخرى .
وكلا الطريقين كان معروف مسلو كما منذ العصور القديمة ، فلقد كان ههنا مركزان
للعصارة القديمة مشهورين ، أحدهما في بيتا ، بخوار مروى الحديثة ، والآخر في مروى
القديمة ، أحدهما شدي . فكان من الطبيعي أن تسلك المؤثرات العربية كلا الطريقين
وأن تصنع بطايعها كلا الإقليمين ، متممة بذلك الطريق التي كانت تسلكها المؤثرات
الثقافية المختلفة في جميع العصور ، ومن ومنت الثقافة العربية نحو الجنوب ، إلى مدني
النيل الأبيض والأزرق ، انفسح أمامها المجال للعصرى في الأقطار الجنوبية ، تلازم
النهر أحياناً ، وتبعد عنه أحياناً ، إلى الغرب أو الشرق .

وهذا الإقليم كله من دققة إلى جنوب الخرطوم لم يكن بالطبع حياً من السكان
حينما زحمت إليه القبائل العربية ، بل الثابت ، لا يحتمل أدنى شك أنه كان
عامراً بالسكان منذ عصور بعيدة ، وليس من الممكن عمل إحصاء دقيق يوضح هذه
العناصر أو صفاتها الأصلية ، وثقافتها حتى مدى القرون ، ومع ذلك يجب أن نعلم
بأن السكان الأصليين من السلالة القوقازية ، التي نجدها ممثلة في شمال السودان ،
وبلاد النوبة ومصر ، عليها أحسن تشيل ، ولم تكن الثقافة السائدة في العصور القديمة
تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في مصر العليا ، وكذلك كانت المؤثرات
النوبة ذات مكان قوي في هذا الإقليم كله . إذ من الثابت أن للنوبيين آثاراً
واضحة في أرض الحرية شينها في أسماء كثير من الأماكن^(١) ولكننا لا نستطيع
أن نعلم فنقول إن هذا الإقليم كان كله حياً لحماً ودماً وثقافة منذ العصور القديمة ،

(١) راجع رسالة شمس الدين بن بطي عن مؤثرات النوبة واليونانية في وادي النيل
الأزرق (طبع واد مدر في ١٩٤٥)

مع كل هذا الاتصال بين الشمال والجنوب ، لأن بعض العلماء يرى أن اللغة النوبية من اللغات السودانية القديمة ، وإذا عثرنا على آثارها في أسب ، بعض الأماكن كن الدمية ، فإن هذا لا يدل دائماً على وجود سكان تربطهم بالنوبيين أو صر القراءة والدم كذلك لا نستطيع أن نستبعد أن وادي النيل في السودان اشتمل كان حالياً تماماً من عناصر النحوية ، لأن آثار هذه العناصر قد تبينها بعض العلماء في بعض جهات كردفان ، لدى بعض القبائل مثل السكاش

أما الدماء النحوية الجنوبية ، فليس هناك دليل واضح على أن سودان اشتمل كان في يوم من الأيام وطناً لها ، حتى إنهم من سخافات السياسية التي سمعها من بعض علماء الاستعمار الأوربي ، بأن العربي دحبل معتصب وأن نخبات السودن الحقيقيين هم قبائل النحوية ، مع أن الكثير من هذه القبائل لم يدخل السودان إلا في زمن متأخر .

وصفة قول أن الثقافة العربية ، شأنها في السودان كشأنها في مصر عمداً ، دخلت بلاداً عريقة في الحضارة والعمران ، فطبعها بالطابع العربي ، وأدخلت فيها الدماء العربية بكثرة وعزارة ، تجعلنا على حق تماماً في أن نصف هذه البلاد بأنها عربية لهما ودم وثقافة

وهكذا تألف وسكوب في السودان الشمل تلك المجموعة العربية المعصية ، التي دعواها باسم المجموعة الحعية ، نسبة إلى الحعليين ، وهم أكبر وهم قسم فيها . وقد رأى هارولد ماكايكل أن يدعوها باسم المجموعة الحعية الدقلاوية . لأن بعض فروعها يعيش في مديرية دققة ، يوم أن كان هناك مديرية بهذا الاسم ، والآن وقد ضمت هذه المديرية إلى كل من مديرتي حافا وبرر وأصبحت كلها تدعى باسم المديرية الشمالية ، لم يبق هالك ما يبرر تسمية هذه المجموعة باسم الحعية الدقلاوية . خصوصاً أن هذا يحدث اضطراباً في التسمية ، لأن الدقلاوة في الاصطلاح الحنسي ، هم فرع من السلالة النوبية ، وابسوا بحرد سكان مديرية دققة ، وهؤلاء الدقلاوة يتكلمون لهجة نوبية : ومع التسليم بأنهم دخلتهم الدماء العربية ، فإن هذا أيضاً يصح في السكور والحس ، والأوغن مع ذلك أن سطر إلى كل منها

على أنه فرع من السلالة الموية ، لأنه ظل محتفظاً بعنقه الأصلية ولم يتحول عنها ،
بخلاف المجموعة الجملية التي ليس لها لغة أو ثقافة سوى العربية .

هذه المجموعة الجملية إذن تركزت على نهر النيل ما بين الخرطوم وبلاد النوبة ؛
ثم انتشرت من هذا مركز العظيم في شعب وروبع ، نحو البطانة والنيل الأزرق ،
ونحو النيل الأبيض جنوب الخرطوم ، ونحو العرب إلى كردوفان ، وفي الشمال قد
توغل بعضهم حتى أصبح (مثل الحوارة واركابية) يعيش وسط الجماعات النوبية .
وإلى جانب هذه المجموعات التي شأت عن حجاب مواربة للنهر ، من المركز
الأوسط المذكور ، هناك أمثلة قليلة تنوعت من شمال أسوان ، مع التزام النهر إلى
بلاد النوبة ؛ ومثل هذه المحجرة تنسب لنا في قبلة الجماعرة ، الذين نزلوا جنوب
القطر الذي بين قوص وأسوان ، ثم انتشروا جنوباً إلى بلاد المحس ؛ ومع ذلك
فإن لهم سعة الآن يعيش في كردوفان ، وتتصل بالحوامة ، وهذه على الأرجح
سلكت الطريق الآخر ، أي طريق الممتور إلى النيل ؛ أو هاجرت من بلاد النوبة
إلى كردوفان في زمن متأخر .

وهكذا تألفت المجموعة الجملية ، التي نشتمل على الكثرة العظمى من العرب
المدنيين ، بخلاف المجموعة الجملية التي نشتمل على الكثرة العظمى من العرب
القبضائيين ، ولكن المجموعة الجملية لا نشتمل على جميع العدنانية ، بل هناك
مجموعات أخرى صغيرة مثل الكواهلة والرشايدة ، ليسوا من جهين ولا من
الجمليين ، بل لهم نسبهم الخاص ، كما أن هناك قبائل قليلة ، مثل الأحامدة على
النيل الأبيض ، تنسب نازة إلى بني كاهل ونازة إلى الجمليين ، والأغلب أنها
مسيحية من الآشوريين .

والجمليون ينسبون إلى إبراهيم الملقب بجمل ، وهو حسب الروايات ،
ابن سعد بن فصل بن عبد الله بن عباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فالجمليون
إذن ينسبون من جهة جدهم إلى الأرومة الهاشمية ، ولذلك يطلق عليهم أحياناً اسم
المجموعة العباسية . ومن المثل أن يحاول بعض الكتاب - كما فعل ما كما بكل -
الترامية بهذه النسبة ، أو الشك في حقيقتها ، فقد سبق أن رأينا الكتاب يشكون
في نسب الشاريين وغيرهم إلى بني كاهل ، ثم أظهرت الأدلة التي لا تنكر والتي

تستند إلى حقائق تاريخية ، أن لهذه النسبة أساساً من واقع . وذلك محذور ما أن
سلم بأن انتساب الحد الأكبر للجعليين إلى العباس أمر واجب التقرير ، ما دام
لم ينهض بخطئه دليل ، ويقول ما كما بكل في كنهه عن تاريخ العرب في
السودان ما ترجمته :

« من السهوى أن هذه النسبة أو الرواية ، إذ لم تكن حرة ، خاصة ، فإن
أقصى ما تدل عليه هو التجمع ، تحت قيادة رجل واحد يدعى العباس ، إلى
بنى العباس ، خليط من القبائل المتباينة الصفات »^(١) .

وهكذا لا يكتفى ما كما بكل بأن يشكك في انتساب إبراهيم جعل إلى العباس ،
بل ويصف تنوعاتهم بأنهم خليط من مختلف القبائل المتنوعة ، ويرى أن هذا كله
من التديهيات . ولما أدرك كيف استتبع أن يتكلم عن قبائل ذلك الزمن بأنهم
خليط أنهم متنوعه الصفات . مع أنها لا تعلم إلا قبيل عن جماعات التي كانت
تتش على ضفاف النيل في السودان شمال غربي ما زح العرب إلى ذلك الخطر
وعمره ، حتى يصعب تنوع ولاختلاط

ومع التساير ذلك لا يلزم لم يكن حاداً من السكان . غير أن جماعات عربية
التي زلت به على مدى حق ، كانت قوية كقوة العرب ، وذلك عانت عليه المسعة
العربية ، وثقافة العربية ، ورون عنه كل أثر للثقافات السابقة . بخلاف ما حدث
في بلاد النوبة ، التي لم يتوغل فيها العود العربي إلا بقدر ، فالنوبة للثقافة العربية
لم يكن رجلاً واحداً التفت حوله قبل مثل متباينة ، بل أسس الثقافة العربية جماعات عربية
عديدة في هرات متويزة ، وهي عربية لحق ودماً ، وليس لدينا دليل واحد يدعوها
لأن سيرة هذه الجماعات ، أو على الأقل نسبة عدد كبير منها ، إلى بنى العباس .
كذلك ليس لنا أن نشك في أن الحد الأكبر للجعليين ، أي الأمير الأول ،
الذي ترعهم في مواطنهم الحالية على النيل الأعظم ، كان يدعى إبراهيم . ورويت
تحدثنا أنه كان رجلاً كريماً وجواداً مصيفاً . وأنه كان يقول للجنائات الوصية

(1) Obviously, in so far as the tradition is anything but a pure invention, it only indicates the collection under the leadership of a single man who claimed to belong to Ben' Abbas' of a more or less heterogenous medley of tribesmen. 'P 197, of Vol. 1 of the History of Arabs in the Sudan,'

التي تنضوي تحت واثه « جعلناكم مناً » وهذه العبارة ليس معناها
 made you « لقد جعلناكم » كما يزعّم ما كما بكل ، بل معناها انكم أصبحتم منا ،
 أو جزءاً منا . لكم ما لنا ، عليكم ما علينا ؛ وإظهار أنه كان كثير التردد لهذه
 العبارة ، كما شغل رعيته جمعة من السكان الأصليين ، حتى صار مشهوراً بهذا
 اللفظ ، وليس هناك ما يدعو لأن شك في صحة هذه العبارة . وهي قد تفهم بأنها
 تدل على أن الشعوب العربي كان كاه أو جله سلمياً ، مبنياً على التودد إلى السكان
 الأصليين ، واتحد بهم بأرضي وأهلي .

الحسن لا يعرف حتى وجهه المتحقق في أي قرن رول إبراهيم جعل هذا على
ضعاف سبيل لأعظم ، وأسس الشعب في نصح يهيمون على السودا انتمالي اليوم
والذي قد رآه رول في استغفره توسع هذه قضايل ، واتمشرها ما بين
الخصوم ودمهم ، وهذا ما من النوع في اليد لأبيض والحرية وكدها ،
وكيف وجد ذلك من هذه الحرية وهذا من الامنة في كما هذه لأفكار -
لا بد من رجع رول عيم جعل في من . تنقده له رجع على لأفكار الى القرن
العاشر الميلادي ^(١) وفيه من مصدرة قروا في فتح الادب الوجة معها ، وفي لم يتم
إلا في القرن الرابع عشر

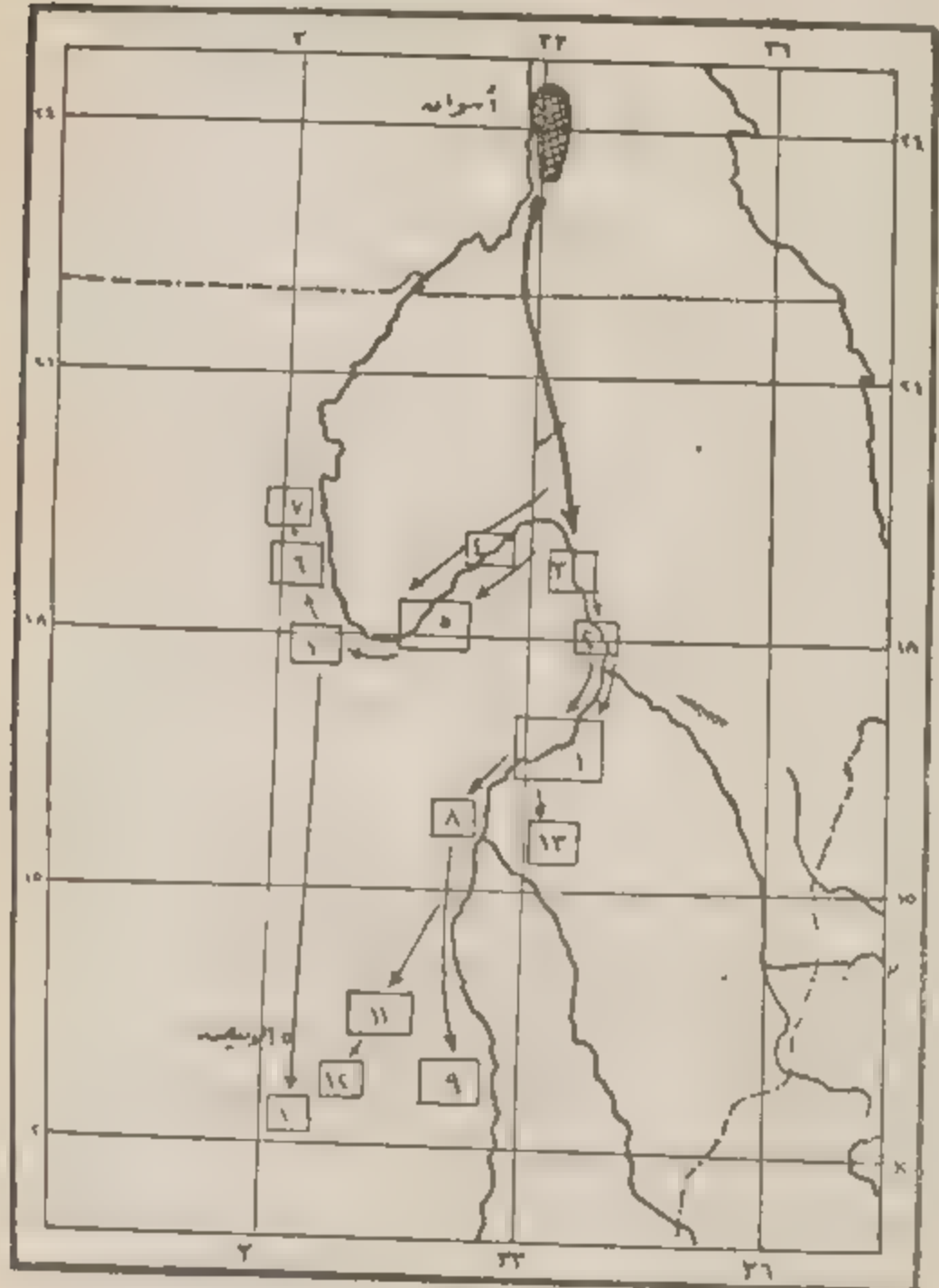
六 五 三

مدينه - مدينه لمر به لأرب بوصف مركزه و صفات ايميل لأعظم ،
و أحب سموره و اشمل ، حبوب ، كس ، من ، تعدد القضاة تعدد
الأول ، بل سحبه تحفة في و حده ، من حمر ربا اصمحا
لا سحش عن قبيلة حميين ، بل عن مدينه حميين و مجموعة قبائل حمية
أورمه

شماره ششم در دوازده عدد از آن قدر که در کتابها معین

۱۔ کیا ستمہ سے ڈرکھا ہے؟ ہم جس شو سے سعدی کی تصانیف سے عید اٹھاتے ہیں اس کی جگہ سے وہ کسی رسد سے لقمہ نہ پھینکتے ہیں۔ یہ شبانہ بعض اوقات ، وہیں کھٹ لا بعض فی حصہ اسر ہم اپنی بر اعجاز ۔

العدد قليل الخطر ، ولم أجد بين سكان من حاول تقصى جميع هذه الفروع .
لذلك لا بد لنا أن نكتفى بالأهم اشتهور منها ، وهي : أولا : القنائل النهرية :



(شكل ١٢)

محاولة لإيضاح المصدر لأون (مصر) وشرق البحيرة وشار القنائل
لجمعية الرئيسية في السودان والأردن - تبين مواضع القنائل كما هي موضحة في الصفحة ١٦٦

- ١ - الجمليون ادين ليس لهم أى اسم آخر : وهم من غير شك أهم أقسام المجموعة ومواطنهم تمتد من خانق مبلوقه إلى المطبره .
 - ٢ - الميرقاب : إلى شمال المطبره حول بربر .
 - ٣ - الرباطاب : من بربر إلى أبى أحمد .
 - ٤ - اساصير : من أبى أحمد إلى آخر الشلال الرابع .
 - ٥ - الشقية من الشلال الرابع إلى إقليم لدة .
 - ٦ - اخو ه (بنى حار) فى داخل بلاد النوبة بين المناقلة والمحس .
 - ٧ - اركابية : وشك فى نسبتهم إلى الجمليين ، وهم على كل حال من العرب الشماليين ، ومواطنهم وسط بلاد المحس .
 - ٨ - اخوعية : وأساسهم شمال و جنوب أم درمان إلى حدود الكواهلة .
 - ٩ - جمع . عرب ايل الأبيض - إلى الجنوب من بلاد الكواهلة .
 - تالياً : القبائل مقسمة من البحر ومن كردوفان .
 - ١٠ - الدبرية . بمصر في بلاد النوبة و بمصر في كردوفان .
 - تالياً القبائل الى امتدت عن النهر .
 - ١١ - الحوامعة فى أواسط كردوفان شمال وشرق الأبيض
 - ١٢ - المديات . إلى الجنوب من الأبيض .
 - ١٣ - البطاحين : فى النصف الشمالى من البطامة .
- هذه القبائل تمثل الأقسام الرئيسية لمجموعة الجميلية أو العباسية ، وهناك وحدات أخرى صغيرة جداً لا يعرف عنها شئ ، يستحق الذكر ، ولذلك سنكتفى فى هذا الفصل بالكلام على القبائل التى تقدم ذكرها .
- وسيجد القارىء أن كلامنا على كل وحدة من المجموعة الجميلية ، حتى على المجموعات الكثيرة العدد ، العظيمة الخطر ، مثل الجمليين والشاقية ، سيكون كلاماً موجزاً مختصراً إذا قيس إلى الفصول التى قدمناها عن قبائل البجة . مع أن مجموعة الجميلية تمثل القسم الأكبر من سكان السودان الشمالى ، ونهض بالعمد الأكر فى حياته المدنية والاقتصادية والاجتماعية . وهم يعيشون فى الأقاليم النهرية

التي تشتمل على المراكز الرئيسية للحياة مختلف مظاهرها . ولذلك قد يبدو لأول وهلة غريباً أن يكون الكلام عليهم موحداً مكرراً في فصل واحد ، مع أن الكلام على البجته تناول عدة فصول . ولكن هذه الرأية لا قلت أن تقول : إذا ذكرنا أن السكان المستقرين الذين ينهضون بأعباء الحياة اليومية ، يشئون الشيء المألوف الذي يعرفه الجميع ، ولقنهم العربية هي اللغة السائدة . فما المجموعات التي تخرج عن المألوف قليلاً في ربيها أو عاداتها أو مصورها أو ثقافتها ، فربما تلعب الأضداد ، وتكثر فيها الكثافة ؛ وقد كانت أوصافهم في جهة دئمة ، كان هذا ما يدفع الباحثين إلى استقصاء أساليبهم وأحساسهم . ولأنك تجد لدينا كثيراً من المقالات عن البجته وعن العور وعن الفصح ، ولكن ما قلت عن المجموعة المحلية يعد ضئيلاً إذا قيس إلى الدراسات التي كتبت عن غيرهم . وحسب أن أذكر أن ما كما بكل لم يخصص للجمليين في كتابه عن العرب في السودان ، وهو يزودني أربعمائة صفحة ، سوى أربعين صفحة أكرها قوائم أسماء السطون . وفيما يلي فصول موجزة عن كل من المجموعات السابقة الذكر .

١ - الجمليون

الجمليون المسمون بهذا الاسم - يشئون كما ذكرنا قسم واحد من المجموعة المباسية العظيمة ، التي تحتل مجرى النيل من دقله شمالاً إلى خط العرض الثاني عشر جنوباً ، وإن شاركهم في بعض أحوالهم من هذه الوادي وحدت فلية أخرى ، وهذا القسم الأول الذي يتمثل في الجمليين هو في لأرجح أكر الأقسام عدداً ، وأعظمها حظراً . وقد قدمنا الكلام عليه لهذا السبب من جهة ، ولأنه يحمل اسم الجمليين من جهة أخرى . ومع أن هذه الحطة لا تمتشي مع الترتيب الجغرافي ، فإنها في العال تتعشى مع الترتيب التاريخي ، لأن الوطن الرئيسي للمباسيين جميعاً هو الإقليم الممتد على النيل من أبي حمد إلى خرطوم . وتعتمد أوطان الجمليين من حالي سلوفه في الحبوب إلى المطره في لشال وتناول الصفتين الشرقية والعربية . عبر أن الجمليين منتشرون في كثير من جهات السودان ، ويميش عدد كبير منهم في

العاصمة المنيشة ، وعلى الأخص في أم درمان ، كما يعيشون في مدن وجهات أخرى عديدة وعاصمة احطلين شدي ، حيث مقر باطر القبيلة . وإن كانت المنية ، المقابلة لها على الضفة اليسرى ، تمثل مركزاً رئيسياً لهم أيضاً .

وفي رغم ما كما يكل أنهم أحدث القبائل الحموية تكوينا ، فإن صبح هذا الزعم حار لنا أن نمسح كعب سكون أحدث القبائل الحولية هي الوحيدة التي تحمل هذا الاسم . وهو في غم أن تكويهم لا يرجع إلى أكثر من ٤٥٠ سنة مضت . ولكن ليس بحاجة لأن نجاري ما كما يكل في زعمه هذا ، لأن كل ما يستند إليه هو الرجوع زعماء القبيلة في نوقت الحاضر إلى حد يدعي غانم ، وابنه دياب أو دؤاب ولكن قدم لأسرة الخاكة شيء ، وقدم القبيلة شيء آخر ، ولذلك لا حاجة بنا لأن نملأ أهمية كبرى على هذه الحجة .

وقد مر بركمرب ببلاد الجميلين في الربع لأول من القرن الماضي . وكان رئيس لأعلى ملك ثماني في شدي . وسمح السائح اسويسري أهل شندي وهو سي . كمن من السهل أن نرى عن أحد ، ولكنه بعد تجارته القاسية في برزني وفي كبراً بين أهلها وهل شدي وغم شيء أعجبه أن حكومة الجميلين لم تكن تحيى شيء من متحروا من اقرب بل تترك القوافل تمر في انهاب ودياب دور أن يصاد شيء . وفي حرب العدة على تسليم هدية رهينة لبعض الرعاء . وسبب هذا التماسح كانت شدي مركزاً على مسجاره بين الشمال والجنوب ، وإن لم يكن جميع التجار من حمليين ، بل كان كثير منهم من لدافلة ، دين وصومعه بركمرب بأنهم يهودن كثيراً من عمان اوساحة ، ووصفهم بأنهم يلمبون بعد دور في يهود في اجتماع لأورني وغيره . وإلى جانب التجارة التي كانت من كبر مصاهر مشاهد في امس شتمور بالزرعة والري . وأحصى در شتمور . في ولس وقليل من قمح . وكسلك يزرعون القمح واخصروا في المحمدية و مصبح وحو دنك من الغلات . ويرغم بركهارب من الجميلين كانوا يستخدمون كثيراً من عميد في زرعة التي كانت تمارس في الجهات التي تحف بالهر وإلى جانب الزراعة في كانت تبعث على الإقامة والاستقرار ، كانت هالك

عشار من الجملين تشتعل برعى الإبل والنقر ، وهي من نوع جيد ، والضأن والماعز . والرعاة بالطبع يدو برعون دوابهم في سهل البطنة أو في السهول الغربية ، وقد لاحظت بر كهات أن البدو من الجمالين أحصى أم أن من المستقرين ، وأن تقاطيعهم القوقارية مشابهة لتقاطع المائل عربية في شدة حرارة لرب ، كما رأيت بر كهات في مادية الشام وغيرها من الجهات ، وهذا على الأرجح صحيح ، لأن المستقرين على صعد ميل ، سكر في بلادهم تحرق رقيق ، وقد وصف بر كهات هذه التجارة وصفاً مسهباً ، ولا سكت أثر وورة ارقين تدعو إلى حرب بعض ادماء العربية . وكثيراً ما بدو السمات عبر القوقارية في لأسر اعمية ذات الحول وطول أكثر مما تسدو في العامة ، لأسر المختارة ، ولست هذه صاهرة مقبورة على الجمالين ، وسراها وحنة عدد الجموعة

لاحظت بر كهات أن الجمالين أيضاً يمارسون الصيد وأهم صيادون بأمر من أوصايم صائفة من الحيوان ذكرها لأسر ولتقتل معدمة وريه^(١) .

ولا يزال الجمالين في أوصايم الأصابع يمارسون زراعة ويرعى كما كانوا في عهد بر كهات ، وإلى جانب استخدام الساقية لاري ، قد أشتب مشروعات عديدة ، استخدام هذا صلبات قوية ربي مسحة . ومدة من لأرضي ، وقد صهر الجمالين كفيه ومقدرة في هذا العسر من المشاط ، غير أن الجمالين كما ذكرنا جايب عذبة منتشرة في اسودن ، وكثير منهم يشمل بالأعشاب حرم ، وعلى الأحص الحرد ، أن صهر فيها دنه ، ميرب وحنة ، وليس هذا يستغرب ممن كانوا يحكم وقع خرافى ملازمهم ، ثم واسطة بين شال وحوب .

والنظام بين لا يزال يشمل أوبر . نفسه ، بين يمسون في وحي . رئيسي بين اعطرد ، سلوكة ، وذرصى بين حوب في سهل البطنة ، أما بين هاجرو إلى جهب ، أبيه ، وبيهم فإن طار محتفون . منهم وفي بعد شقة لا يساعد على دوام الاتصال بهم وبين ابر كيز لأصافة المسيلة .

وقول بر كهات بر الجمالين في رمة تونس وصوله قبيل كاو في حرب مع الشائمية ولم تكن انصر دثنا حبيتهم ، غير أن الشائمية اضطروا إلى هبادة (١) رجع اسعة لاجير ، رحاب بر كهات (صفة ليه) من ٢٧٧ وما بعدها .

الجميلين ، لكي يتفرغوا لمحاربة المهالك وكذلك كان هنالك زراع أحياناً مع الشكرية في سهل البطانة وغيرهم وليس شيء من هذا بمستغرب .

والنيل يجري في بلاد الجميلين في مجرى خال من العقبات سهل الملاحة ، والشلال السادس إلى الجنوب منه ، والشلال الخامس بعيد نحو الشمال ، وفي هذا تيسير للملاحة ، مما ساعد على سهولة الاتصال النهري بين أحياء الشالية واخميمية ، ولأرض من البحر بالنهر نثاراً سهوة بوجه عام ، وهناك سهول فيضية في كثير من المواسم ، مما يربطها بمياه النيل ، ولكنها بعد انقضاء شروق في سهل البطانة تدب الأرض وعرة وظهرت فيها كثبان من الحصى من تارة ومن الصخور اللامعة تارة أخرى ، والمطر الصيفي يقل كلما انجلى شمساً ، وهو لا يكفي للزراعة ، وقد يستعمل لهذا الغرض ، ولكنه ساعد على نمو الأحم والأوع من شجر سبط واسبال والأراك وقد نطم السبابة من أوراها ، بعد أن تحب لأعشاب وتوت .

وقد اصحبت بلاد الجميلين كلها دلتاً في مديرية الشالية ، بل صحت إحدى المدن الجميلة هي الدامر ، إضافة إلى الحروب من مصب بطنه بمصحة أميال ، هي عاصمة مديرية الشالية ، والكلام على الجميلين لا يكمل دون أن نشير إلى مدينة أم مرعده ، وهي وطبقاً لخطيرة في حياء لإقليم ، لأنها عاصمة المديرية الشالية بل ظروف أقدم من تكوين هذه المديرية بأجيال وقرون ، فإن الدامر ، وإن لم تكن مركز الحكم بالنسبة للجميلين ، فإنها كانت دائماً العاصمة الروحية لهم ، بل ولكثير من جهات السودان .

وقد دهش بركهارت عند ما انتقل من بربر إلى الدامر ، وكان ذلك في صيف سنة ١٨١٤ ، وشهد الفرق الدائل بين البلدين ، وأعجب من الدامر أنها بلدة نظيفة ذات شوارع منظمة ، يسودها الأمن والعلمانية ، ولم يحاول أحد أن يجس منه آتاة أو أن يرهقه في بيع أو شراء ورأى البلدة يسودها جو من التقوى والصلاح ، وعلم أن الفصل في ذلك يرجع إلى أن الرئاسة والسيادة في الدامر لرجال الدين ، الذين يتمتعون جميعاً إلى أسرة كبيرة سماها خطأ أسرة المجدولين ، والصحيح أنها أسرة المجدولين أو المجدوب ، والمجدوب في عرف الصوفية - كما هو مشهور -

اسم يعبر عن التماهي في الزهد والتقوى والإيمان ، وقد أطلق هذا الاسم على حد الأسرة ، ولعل الأولى أن ندعوها المشيرة ، وهو المقيم حامد بن محمد المحدث وربعا كان تاريخه يرجع إلى القرن الخامس عشر ، والمحاذيب على كل حال قسم من الجعليين ، وأن كادوا من أشهر أقسامهم ، وقد نما عددهم على مضي القرون ، حتى أصبح يبلغ نحو أربعة آلاف^(١) منتشرين في مختلف أنحاء السودان ، وإن كان مركزهم الرئيسي لا يزال في الدامر ، وقد اتسع نشاطهم حتى شمل طوكر وبورسودان وسواكن والقصارف وغيرها من الجهات .

وقد كان لهذه المشيرة فصل كبير في نشر التعاليم الإسلامية في السودان وكان كثير من أمثها يسافرون إلى القاهرة ومكة للتخصص في الأزهر ، ثم يعودون إلى الدامر ، حيث اتقوا مسجدين كبيرين . إلى جانب الروايات الكثيرة ، التي كانت تنحدر إلى جانب منازل رؤسائهم . وكان المسجدان واروايا الصميرة مدارس ومعاهد للتعليم . وكانت تعد الطلاب من دارفور بل والبلاد الواقعة وراء دارفور غرباً ، وبالطبع من جميع أنحاء السودان ، لكي يتلقوا علوم الدين على أساء هذه المشيرة ، ثم يعودون إلى بلادهم بما حصلوه .

وهذه المشيرة هي التي أسست مدينة الدامر منذ نحو أربعة قرون على أقل تقدير ، وقد كان موطنهم قبل ذلك في قرية صغيرة تعد عن موقع الدامر بنحو عشرة أميال ، ولم يبنوا أن بنوا فيها مسجداً عظيماً . وعمرت المدينة وازداد سكانها ، فاضطر فقهاؤها إلى بناء مسجد آخر ، إلى جانب الروايات الكثيرة المنتشرة بها .

واليوم أصبحت العاصمة الروحية للجعليين ، بل وكثير من جهات السودان ، عاصمة إدارية محلية للسودان ، فأضيف النشاط السياسي والإداري ، إلى ما اشتهرت به من النشاط الديني والروحاني .

(١) راجع مذكره Lorimer عن المحاذيب في الدامر ، في مدونات السودان لعام ١٩٣٩

٢ - الميرقاب

هذا الحرف في شهر العطره ، من الحبوب إلى الشمال ، عند مصبه في النهر ،
اشتقنا من بلاد الخليليين إلى بلاد الميرقاب ، التي تمتد على سبقي النيل من مصب
العطره إلى بلدة عبيدة حيث بدأ الشلال الخامس ، مسافة لا تزيد على الخمسين ميلا
أو ربع مائة التي يحتلها الخليليون . وقد احرفنا مصره ، فالتقنا المدينة المسماة
بهد لاسم ، وهي ، وإن كانت دحلة في إقليم الميرقاب ، غير أنها ليست ، في
صورها الحالية ، من صميمه . إنما هي بلدة حكمة اسمها بالسكة الحديدية ، وقد
حقتارها الإدارة لتكون مركزا رئيسي لمواصلات الحديدية . وبذلك نشأ فيها
نشاط مستحدث راد في عدد سكانها وفي عمرائها واحشد فيها الناس من قبائل
وبلاذ شري . فهي بلدة حلتها ظروف مدينة الحافة ولم يشبها سكان البلاد وهم
في حبه القصره يدرسون أعمالهم إلى أنموها ، وتبقى أممتها عليهم بيتهم .

فما المدينة التي نشأها الميرقاب والتي أصبحت أصحح ، فهي بلدة بربر الواقعة
على العرض السمن عشر ، والتي تتوسط الإقليم الذي يعيشون فيه ، ويمارسون فيه
حرفهم المختلفة من تجارة برعي ورعة ، وتنتشر بربر من حيث موقعها بأن الطريق
منها إلى البحر الأحمر ، لا يتحرق شهر العطره ، بل يذهب إلى الساحل مباشرة .
وقد شتهر طريق سواكن - بربر ، في ثمة ، حكم محمد علي وسماعيل ، وكان
يستخدم أكثر من أي طريق آخر لنقل العلات من شواطئ البحر إلى وادي
النيل في السودان ، ومن الممكن لاسفن أن تحملها بعد ذلك إلى الخرطوم ، دون
مشقة كثره لأن حادال مسوفة يست عتقا خطيرا للملاحة

وقد أساء بر كهرت كثيرا إلى سمعة الميرقاب بما كتبه عنهم ، وتحامل عليهم
تحاملا سيدي . ومن العرب أن ما كاسل في كتابه عن تاريخ العرب في السودان
يكتفى بتلخيص ما ذكره السائح السويسري ، دون أن يصيف شيئا من عهده .
وبتتبع بر كهرت رعماء الميرقاب بالتعسف وإرهاق التجار أو « الجلالة » بالضرائب
الكثيرة ، في كل مرحلة من مراحل رحلتهم ، مد اقترابهم من المدينة إلى أن
يستعدوا عنها وصول مدة إقامتهم بها . وقد كان دفع الضرائب من الأمور التي يسهر

منها بركهارت أشد المفور ، ولعل هذا هو السبب الأكبر في تحامله وإسرافه .
وليست الاعراف من القبائل المحلية الكبيرة ، ولكنهم يصنعون شدة الصلابة
على أنسابهم ؛ وتقاطعهم القوقارية واضحة ، وقد وصفهم بركهارت بأنهم لا يبرءون
من غيرهم .

وطرأ لأن بربر بلدة تجارية وسوق من أهم الأسواق ، فقد زل بها جماعات
غير سكانها الأصليين ، وفيها الآن كثير من الهند ، كما يؤمها جماعات من قبائل
أخرى بزلها لمدة قصيرة أو طويلة .

وقد بدأ بركهارت سياحته موبة من عصر عهد سده دراو ، ثم حترق مع
القبائل بحراء المعثور ، وقد اضطر لأن يثمدوا عن الدن بأثر من في حمد ،
خوفاً من إغارات نعيم ، ولم يصلوا إلى النهر إلا عندما فتربوا من بربر . وبذلك
تجنبوا إقليم الرباطاب كله . فلم يستطع بركهارت أن يتحدث إليهم .

٣ الرباطاب

يعيش الرباطاب على صمى النيل لأعظم من شمال عبيدية ، حيث بدأ لشلال
الخامس ، إلى أبي حمد ، ثم إلى امتداد النهر غرب أبي حمد نحو خمسين كيلو متراً
إلى موضع يدعى شديخية .

يحتل الشلال الخامس جزءاً عظيم من هذا الإقليم ، حيث يجري النهر متدفقاً
سريعاً . تكتفه حزر كثيرة العدد في النصف الجنوبي من مجراه ، وفي الجزء
الشمالي حريرة محرات . ومعظم هذه الجرز يتألف من قاعدة صخرية مكونة من
الصخور البلورية القديمة ، ولكن كثيراً منها تراكت عليه بعض الرواسب ،
وعليه العشب والشجر .

وقد قطع النهر مجراه السريع واداً مرتفع الجوانب ، ولذلك كانت المساحة
التي يفيض عليها النهر ، حين يرتفع ، ويغمر عنها حين ينخفض ، مساحة
صيقة ضئيلة في معظم الإقليم ، وهي عبارة عن شريط يمتد متقطعاً ، شرقاً وغرباً ،
محداداً للنهر ؛ لا يربد اتساعه في معظم المواضع عن بضعة أمتار ، ولكن هذه

المساحة ، على قلتها ، تبدو راهرة باسمه عريضة النيات والشجر ، إذا فورت إلى
المصببة المحدية التي تليها شرقاً أو غرباً ، والتي لا يكثر فيها الميت إلا حيث تجري
الأخوار ، مثل وادي عمور ، منحدره إلى النهر .

في هذه المساحة الضيقة على ضفتي النهر يزرع النخيل ، وتنمو أشجار السط
والطلع ، وبعض الحشائش والعشب ، ويررع الفلاحون ما يستطيعون زرعه من
العلائق ، على أثر هبوط الفيضان ، وبلاستعانة بالمواقي والمواخير . وعلى الحر
كثير من الآثار للمعهد القديم والإسلامي . والإقليم كله منى . تلك الآثار ، أسوة
بالجهات التي تليه في الأجزاء العليا والسفلى من النهر .

ووراء الشاطئ من الناحية الغربية ، ترتفع لأرض ويكسوها الحصى ، إلى
مسافة تتراوح بين نصف كيلومتر ، إلى أربع كيلومترات ، ثم ينتهي إلى مرتفعات
صخرية داكنة اللون ، معظمها من صخور بلورية قديمة . أما الجانب الشرقي ،
فيتعرض لرياح الشمال الشرقية ، التي تسبب الرمال ، وتغطيها كثباناً تحديق بالنهر
في مواضع عديدة ، وتكاد تصل إلى مجراه ، ولذلك كانت الزراعة في الجانب الشرقي
أقل كثيراً منها في الجانب الغربي .

وفي هذا الإقليم يزرع بحيل التمر كما قدما ، وهاها آخر امتداد لهذه الزراعة
من ناحية الجنوب ، ولا يعد التمر هنا معادلاً في الجودة لما ينتجه الإقليم النوبي
في الشمال .

والرياضات ، الذين يمشون في هذا الإقليم ، ينسبون بالطبع إلى بني العباس .
وهم مخورون بنسبهم العربي الصميم ، ولا يعترفون بأن في تكويهم دماء أخرى
نوبية أو سواحلية . ويرجعون بنسبهم إلى جديدي رياط ، ويصلون بين أنسابهم
وبين كل من الميرقات والخمليين من جهة ، وبين الشابية والنفاير من جهة أخرى .
وتتألف لقسملة من سبع عشرة فرقة أو شعبة^(١) ، بين كبيرة وصغيرة ،
وأكثرها ينتهي بالقطع اب ، كما هو مأثوف . ويقول نوريتر إن هذالك شعبة

(١) راجع مقالة Lorimer عن الرياضات في مجلة S.N.R. لسنة ١٩٣٣ (الجزء الأول)

أخرى ، تدعى أنها من الرباط ، واسمها العباسية ، تزعم أنها منتسبة إلى هرون الرشيد . وهو لا يظن أنهم من الرباط حقاً ، بل يتشكون هجرة متأخرة ، اصم أفرادها إلى الرباط . ويميش أكثرهم حول بلدة أوى حمد ؛ وهذا وحده دليل على حداثة هجرتهم . وليس لدينا معلومات وافية عن تاريخ الرباط ، منذ تولوا هذا الإقليم ؛ ومع ذلك فلا شك أنه كان من أقدم الأقاليم التي غزتها الثقافة العربية في السودان . وبلدة أبو حمد في شماله ، بحكم موقعها الجغرافي على نهاية طريق التمرور ، هي من أول الجهات التي يستقبل المؤثرات الشمالية ، وبمصل هذا الموقع كان لإقليم الرباط ، وبالتالي للقبيلة نفسها دور كبير في تاريخ هذه الأقطار الشمالية كلها ، ويستطيع أن تؤكد أنه بولا فقر الإقليم^(١) لكان للرباط شأن آخر من حيث القوة والحاج .

وأقصى ما نعرفه عن تاريخ الرباط ، يرجع إلى زمن الفصح ، وقد امتد نفوذ سلاطينهم إلى هذه الجهات ، ولكنه كان يعوداً اسمياً إلى درجة بعيدة ، وكان للرباط في عهد الفصح رعيين ، واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، وفي القرن التاسع عشر راد المدد إلى ثلاثة ثم ركزت الرئاسة حديثاً في سطر واحد مركزه أبو حمد وهو ينتمى إلى شعبة البديراب .

والزراعة هي الحرفة الأساسية على قفتها ، والصدهر أن الرباط في معنى كانوا يعتمدون على استخدام الرقيق ، لأن الزراعة شاقة محمدة ، وحمير اسواني قد يضطر المرء إلى قطع الصخر الصلب الذي يفصيه الطين . ولما لم يزل يرى ويرى أن الزراعة نقصت اليوم عما كانت عليه في معنى ، وأن كثيراً من الرباط قد اشتغلوا بالتجارة وبمختلف الأعمال ، عدا الزراعة ، ونزح كثير منهم إلى بلاد أخرى في السودان .

والتمر أهم الفلات ، ويبدو أن للرباط نحو مائتي ألف نخلة ، ولحم قطعان ، ولكنها قليلة . ومن الصعب زراعة غلات أخرى ، لأن رفع المياه عمل شاق محمداً .

(١) يروي الرباط قصة طريفة يطلون بها قلوبهم . ذلك أن حمد رباط ، وكان الآن الأكبر جمع إخوته بعد وفاة والده ، وقد صعد إلى من أحب ألا يشعر به خلاف على الميراث ، وضرب لهم القتل الصالح أن أحار أنفراحها . ويقولون إن هذا هو الأمير صحيح لما يشاهد من في شامع بين الأدهم ولاد الحبيبين والشامة

٤ - المناصير

يطبق على هذه القبيلة اسم المصرة نجباء ، وأحياناً مناصير . ولعمري كلا الحالين منصوري ، ولعل هذا هو السبب الذي أدى إلى أن يرى بأن أصلهم من مدينة المنصورة ، صحة اندفالية ، غير أن من هذا رأي قليل ، ومع ذلك فإن تقرير النسب الصحيح للمناصير ليس بالأمر السهل . وقد رأى من كبريائهم أن ينحسروا في رمة الحمليين ، ولا شك أن مواضعهم على النيل ، وتقديدهم وصفاتهم الطبيعية تحمل من الصعب أن ينضمهم إلى مجموعته أخرى ، ولكن بعض السابيين يرحمونهم من قبيلة إلى منصور الكاهلي ، أي أنهم يردون نسب القبيلة إلى بني كاهل وهو الزبير بن العوام أسوة بالعبادة والكواهلة ، أي أنهم لا يرحمون أنفسهم إلى العباس ، كما يفعل الجعليون . وتأيداً لهذا الرأي يرمي بعضهم أن أوطانهم الأصلية في كردوفان (حيث يمين الكواهلة الآن) ، وأنهم هاجروا إلى أوطانهم الأصلية بقلة المرمى في تلك البلاد ، وهذا الزعم يصعب التسليم به . فإن مراعي كردوفان أغزر وأوفر ، من بلاد المناصير المحدودة ، وفوق ذلك فإن وجود الكواهلة في كردوفان شيء حديث جداً ولعل تفسير هذا التناقض والتضارب في الأسباب ، أن بعض العناصر من الكواهلة قد هاجرت وملا إلى بلاد المناصير ، ولذلك احتلقت الأسباب العباسية بالأسباب الكاهلية ، ومحاورة الحسانية في صحراء بيوضة مما يؤكد ذلك .

وقد كانت بينهم وبين حيرانهم الرعاب والشيوعية منارات وحروب ، بسبب ما رحم على يد المندودة التي يعيشون فيها ، ومن أخطر أن هذه هي أطرواف التي حملتهم يقدون مساعدة من كواهلة ، الذين أيدوهم وبصروهم ، فأدى ذلك إلى اختلاط أساليبهم بالأسباب الكواهلة .

ووجودهم في كردوفان شيء متأخر نسبياً . وبدلاً من ذلك ككل^(١) أن شعبة من مناصير هاجرت منذ ما قبل من أوطانهم إلى إقليم دارفور ، وبعد ذلك توجهوا إلى غرب كردفان ، إلى حد رقبيلة الحمرا ، الذين استعمروا هذا الإقليم ،

واستعدوا على الحياة فيه بتخوف شجر القدي ومشيها ملك اسحر من أيام المطر
لأيام الخفاف . وأصبح السامير مستعمرة سميرة في غرب كردوق . انضم اليهم
فيها معظم قريتهم الذين كانوا في دارفور ، وعدد آخر من الوطن الأصلي على النيل
وم يبق منهم في دارفور سوى عدد قليل جداً ، ويقول جاكس^(١) أن كلا من
الرباطات والساقية يعدون السامير « دحلاء » ويرجع ذلك إلى السامير
أحدث عهداً في أوطانهم من الرباطات والساقية ، ومن الأتوبي الأصليين أهمية
كثيرة على هذا التنازع والفتنة ، الذي قد يكون سبب رغبة السامير في توسع
شمالاً وجنوباً على حساب جيرانهم ، خصوصاً بعد أن عدد كثير منهم من كردوقان
إلى الوطن الأصلي .

وصدقة القول أن جميع الشواهد تدل على أن السامير هجروا من السهل إلى
كردوقان ، وأن المكس عبر صحيح ، إلا على اعتبار عودة بعضهم إلى الوطن الأصلي .
وهناك أمثلة عديدة بهجرة من النيل إلى دارفور ، وعلى الأخص من هذا الإقليم
بأندات . كما هي الحال في المديرية والسوبة أنفسهم . وقد دام النزاع بين السامير
وحيرتهم إلى وقت محمد علي ، فتدخل الحكام بينهم ، وأقروا السامير في أوطانهم .
التي يحتلوها اليوم . وهي تبدأ إلى الغرب من جزيرة بحرات إلى نهاية لشلال الرابع .
وينقسم السامير حسب ما ذكره جاكسون إلى ستة أقسام ، وهم : كوتابات
و Kagubab (لعله يقصد بعمومات) وسليبية ، و خيرا ، و حامير Hamir
والديساب Degisab . ويحول إلى سكان الإقليم الهري على حد أقاربهم في
كردوقان ، كما سوسهم وبروروسهم أحياناً ويحكمون عليهم الهدايا ، ولو أن أقاربهم في
كردوقان حريصون على أن لا يؤكدوا هذه الروايات ، خوفاً من أن ينهموا هم أيضاً
بأنهم دحلاء في أوطانهم .

والجاء في إقليم السامير لا يكاد تضاف إليها في إقليم رباطات ، وإن كان
شبه مسوّه ، لأن مورد الإقليم أقل ، وأقلية فيه وحملة ، إذ ليس للملاد سامير

(١) في نسخة ٢ ، ١ SNR Trck in Abe Hamed District

ذلك الموقع الجغرافي ، الذي يحمل من إقليم أبي حمد موقفاً تجارياً هاماً ،
لوقوعه على طريق القوافل .

والصفة التي للنهر — وهي تسمى دائماً الضفة الشرقية ، في بلاد المناصير
والشاقة . برغم وقوعها في الغرب — تكاد تكون خالية من الزراعة ، إذ تمتد
الرمال الصفراء ، تتخللها المسحور ، إلى حافة النهر ؛ وهذا من أثر هبوب الرياح
الشمالية . أما الضفة اليسرى فتمتاز بشريط ضيق من ارواس السيلية ، قد يصل
اتساعه إلى مائة متر أو أكثر ، ولكنه في المتوسط دون ذلك بكثير . وقد يضيق
أحياناً حتى تكاد يختفي تماماً وفيها بلبها من الحبوب ترتفع الأرض ويكسوها مزارع
من الحبوب والرمال ؛ حتى يصل إلى صحراء بيوصه ، التي تمتد ، على الأقل في الجزء
الأوسط منها — براكين مبعثرة ، ترجع إلى عصر جيولوجي حديث ، وهي الآن
خامدة ووجودها مما يساعد على سقوط بعض المطر .

ونظر على كل حال قليل جداً ، وهبات أن يبلغ حتى في إقليم البراكين
حسين مليمراً ، ومع ذلك فإنه يكفي ، لتركزه حول شهر أغسطس ، تشكيل سيل
وحمر أودية ، وإنبات شجر شوكة قصيرة ، من نوع السلم والسبال وضروب من
الأعشاب الصالحة لرعي الإبل والغنم والماعز .

في هذه البيئة الفقيرة يعيش الناصير حياتهم المحدودة ، يمارس بعضهم الرعي ،
ويعيشون عشية البدو ، ويحترف بعضهم الزراعة ويلتزم حياة الاستقرار . وقد
يكون بعض أفراد الأسرة واحداً بدءاً والآخرين رعاة . وأهم الملاك عندهم التمر
الذي هو الحل عند الرعاة — ولكن النوع ليس ممتازاً . ويقول جاكسن
إليه : « شك ألا تكون في السودان كله فليم يعني فيه الزارع من المشقة ما يعانيه في
مركزه أبي حمد . وإلى جانب السحيل يحاول الأهالي زراعة محصول ضئيل من اذرة
الربوينة ، ومن آبل لأن بعض القمح . والصنوبريات التي يعانيها الرعاة في حفر
السواقي ، هي يعيها عند المناصير ولذلك تسود الإقليم مظاهر الفقر والحاجة ، وفي
هذا يقول جاكسن :

« ينع من فقر الأهلي ، أن أي نوع من أنواع الحلي مهما كان رخيصاً ،

يوشك أن يكون معدوماً . وأكل اللحم أمر نادر جداً . وثمن عدهم لهم النحر .
والقليل جداً من الحبوب ، يصيرون منها — حسب تسميرهم — قدر ما يصفه
الفراخ الصغيرة ، ويبدلون جهداً شديداً حتى يشتروا قليل من السكر ، وذلك
بأن يسيروا على أقدامهم مسافات طويلة ، لأن الحمار القليلة التي لديهم مسخرة في
أعمال الزراعة ، حتى يصلوا إلى بعض الأسواق ، ومعهم بعض تمر أو الحصر
المصنوع من ألياف الدوم . فيبيعون هذه السلع ويشترون بها حاجاتهم المحدودة .
وليس بمستغرب والحال هذه أن كثيراً من السكان قد احتدثهم الأعمال
الجديدة في السكك الحديدية وغيرها ، حيث يستطيعون الحصول على أحرار أكبر
لعمل أيسر وأهون . ومعظم أرحال يرحلون في طلب الرزق . ولكن بعضهم يعود
بعد ذلك إلى وطنه ، لأن المناصب يحنون إلى بلادهم ، على فقرها ، ولا يبركونها
إلا على كره منهم .

ووجود الآثار الكثيرة في إقليم المناصير والباط ، وفي لأول توجه خاص ،
يدل على حنة من الرعاة في مصي أكثر مما رده اليوم . ومع أن أحسن نوع يسير
في الأحوال لما حبة ليس بالأمر المستحيل ، غير أنه ليس من الضروري أن يفتأ
لهذه الأسباب العبيدة لتفسير ما يمر على الإقليم من الممرات . بل يكفي لتفسير
التغيرات التي طرأت أن يرجع إلى ظروف سياسية واجتماعية ، في العصور
القديمة ، وما كان عليه من الاستقرار ، وإحدى لإقليم كله تحت سلطة واحدة
عليها . والارتباط بينه وبين أقاليم أخرى عليه في أحرار عليها وسعى من السهر .
وإلى الكراهية المعروفة عند الشعوب التي نصف حياة النادية ، سكل عمل زراعي
مرهق . كل هذه الظروف البشرية كافية لتفسير نقص العمران في هذا الإقليم
وعلى الأخص بعد إلغاء تجارة الرقيق ، وامتداد الأيدي العاملة التي كان يمكن
تسخيرها لهذا العمل الكره .

٥ — الشايقية

ينتسبون إلى شايق ، وهو أخو عام جد الجميلين ؛ وعلى الرغم من الجد المشترك
نرى الشايقية معترين بأنفسهم ومكانتهم ، وفي البعد بين الوطنيين ما يقوى هذه

الربعة الاستقلالية . وتمد أوطان الشايقية على ضفتي النيل من نهاية الشلال الرابع إلى مصب وادي النيل ، في مسافة تزيد على مائتين من الكيلومترات ، وفي نهاية أوصافهم في الجنوب يلتوى النهر مرة أخرى ، لكي يستأنف اتجاهه نحو الشمال ، ومن نقطة الانواء هذه تمتد نحو الجنوب ندر فيافي تتخللها أخوار وأودية وبساتين ، مص اطرافها ، وهذه المساحة يتوغل فيها الشايقية أيضاً ، فيرى فيها معظم بلاد . . . وفي هذا الإقليم نصب في النيل أودية عديدة أهمها وادي أبو الدوم وبصب عند مروى وروادي مقدم عند كرتي وروادي الملك عند الده ، ولكن ليس الشايقية في هذه الأودية مواطن ، أهم إلا في أطرافها السفلى القريبة من النيل

ويعتبر هذا الإقليم باعتدال بحري النهر ، وتناح واديه ، وقد ساعد بقاء حرم النهر على لزجته فتكوب سهول فيضيه مساحة للزراعة بواسطة الحياض والسون ، ورفع مياهها ليس وأسهل كثير مما هو في بلاد الرباط والمصير . وهذا يمكن حياة قومها الزراعة التي تتوطد وزيمهم لاستمرار العمران ، وأن تشق في سائر ميسور القديسة والحديثة والآثار القديمة منتشرة بشار واسعة ، وكذلك السكائن ، فبالأدلة من بحسب العهد المسيحي . وهذا العمران القديم له نظيره في حياة الامم الحديثة في سودانهم يوم حيث لا نجد تلك الشدة ومسقة التي نراها في قديم الرباط والمصير .

ويزعم من حكماء الأسس الحسنى ، وإن كان هذا عند كل من الجليليين والشيعية ، وإن هو عرفت أن في عصر غريب قد أضيف في حالة الشايقية ، في العصر لأصل الشريعة ، فكان هذا العصر لاص في مبرأ الشايقية في مطهرهم ، عن لنا مجموعهم . ومنه يقصد بهذا أن الشايقية تسبق دماً وأبعد من الاختلاط من خمس . وذلك يكون لتفسير الحقيقي لاختلاف مظاهر القبيلتين وأشكالهم راجعاً إلى أن موطن الشايقية أكثر غزرة وأبعد عن الاختلاط بالعناصر الجنوبية . وبذلك لا يكون الشايقية هم الدين أصيب إليهم عصر غريب .

ويصف ما كان لكل الشايقي في مطهره بأنه شاحب الوجه ، نحيف الجسم ، حفيف

الحركة ، مك على الشراب ، وإقمار ومقطور على الكذب (a born liar)^(١) ،
والصفات الثلاثة الأولى سهل التسليم بها . أما الثلاث الأخيرة فهي الظلم أن تطلق
على شعب بأسره من غير تمييز . وبصفة أيضاً بأنه ينتار على جميع القبائل السودانية ،
بأنه أكثر ميلاً للمغامرة ، والمثحرة ، وبوجه خاص أنه مستعد دائماً لكي يحترف
كقتال مأحور (مرتزق) عند أي قائد ستجده . وفي مطهره بصفت تميزه من
« المولدين » ، الذين لهم أب « تركي » وأم سودانية أو العكس ؛ ونقل ما كما بكل
وصف الرحالة الألماني قرن للشافعية ، وما يتضمنه هذا الوصف من نظريات يمل
بها شكاهم ، الذي يختلف عن النوبيين والجمليين في آن واحد . وفيما يلي خلاصة
ما شهد به هذا السائح الألماني ، الذي زار هذه البلاد في أواسط عهد محمد علي .

من السهل أن تعرف المرء لأول وهلة على الشايقي ؛ ولكن ليس من السهل
أن يفسر لماذا يختلف كل هذا الاختلاف عن سائر العرب . الوجه طيب (good
ولعله قصد بذلك أنه معتدل التقاطع) نحيل واضح القنات والطفة العليا تمتار
بعلامح وسيمة (fine features) . الخبة عالية والعيون حادة واسعة ، والأنف
محدب ومدرفه مدب (وهذا يميز على النوبيين ذوي اللامح الصغيرة) . والشفاه
معتدلة ، وشعر اللحية خفيف ، ولون البشرة أسمر ، أو أحمر داكن . والقوام
نحيل ، ولكنّه متناسب ، مما يساعد على جميع ضروب النشاط الجسدي ، وهم جميعاً
مولعون جداً بالشراب ، وملاحظهم تدل على أنهم أقرب إلى العرب منهم إلى النوبيين ؛
ولكنهم ينكرون نسبتهم إلى العرب أو إلى النوبيين^(٢) ، ويؤمنون أنهم مستقدين
استقلالاً تاماً ، وأنهم أصحاب هذه الأرض منذ أقدم العصور . ويمثلون الطنقة
المحاربة . ذلك ما فهمته من قاداتهم ورجالهم ؛ أما رجال الدين فيؤكدون عبر ذلك
ويعترفون بأن القبيلة من أصل عربي ، ولكن هذا يرجع إلى أن رجال الدين وحدهم
ينتمون إلى أمر عربية . ومن الخائر أن اسم الشايقية مشتق من رعيم ديني عربي .

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب في السودان من ٢١٣ ولا شك أن مكابكل هي حكمة
هذا على أنثلة قبيلة من أصلهم في أسويس أو أحيث ولهم الأمثلة ظاهراً بين أسود في
جميع أنحاء العالم .

(٢) من العريب أن يكون هذا ما فهمه قرن ، لأن الشايقية جميعاً يؤكدون أنهم عرب .

ولكن أليس من الجائز أن الشايقية يمثلون طبقة المحاربين من المصريين القدماء ، أو أنهم سبيل أولئك المحاربين المتأثرين ، الذين هاجروا إلى الجنوب ، لاستقبالهم ملوك أثيوبيا بالترحيب^(١) ، وبما يؤيد هذه نظرية موقع بلادهم ، وقربها من مروي القديمة (٢) ، التي سموها من غارات برابرة الجنوب ، وروحهم الحربية ، وكونهم عبر حاصص لزعم واحد ، بل كانوا دائماً يعيشون أحراراً في ظل ملوك صغار ، ولعل الأسر الحاكمة فيهم يمثلون طبقة السادة المصرية القديمة ، التي لم تعرف سلطان أحد سوى ملوك أثيوبيا ، فلما زال ملكهم أصبحوا أمراء مستقلين كما حدث لقواد الإسكندر المقدوني ، بعد وفاته . ومن الملاحظ في الشايقية أنهم يقصرون شعر رأسهم كما هي عادة المصريين ، وضيقاً لدواعي النظافة ، بخلاف العادة السائدة عند العرب والنوبيين ، ولكنهم مع ذلك يشاركون العرب والنوبيين في أنهم يسلخون وجوههم . والشلوخ عند الشايقية خطوط أفقية .

هذه السمات المقتبسة من رحلات قرن ، نسوقها هنا على علاتها ، ولا شك أن وصفه لمظهر الشايقية هو الحر الذي يستطيع الاعتماد على صحته ، أما طرياقه ففيها محال متين والقال وليست بنا حاجة لأن نؤمن بصحتها وإن كان وجود عنصر مصري قديم في جميع سكان السودان الشمالي ليس بالأمر الغريب . والسلالات في كلا الحالين واحدة ومتقاربة .

ويرى ما كايكل تأييداً لرى قرن ، مشاهدات برحالة كايو ، الذي رأى الشايقية في جزيرة يقيمون نصباً على صورة إنسان ، يمين حدود الجهات التي غزوها . ويقول ما كايكل إنه مما لا شك فيه أن هذه العادة مقتبسة من الفراعنة الذين كانوا يقيمون تماثلاً على حدود قوتهم ، ولكن اقتباس عادة من العادات لا يبرر الزعم بوجود صلة دم وقرابة نسب .

ومع أن ما كايكل لا يميل إلى قبول نظرية قرن عن اتناء الشايقية إلى أصل مصري ، فإنه يسوق نظرية أخرى بعصلها . وهي أن الشايقية مولدون من الجنود

(١) إشارة إلى ما جاء في الكتاب الثاني من تاريخ هيرودوت عن جماعة من المحاربين ثارت وأتت العودة إلى مصر . وقد كانت هذه القصة مثارة لتأويلات عديدة .

(٢) مروي القديمة أقرب إلى شندي وبلاد الجليلين ، والقريب من أوطان الشايقية هو العاصمة القديمة نيت .

المرتقة من الترك والألمان ولشاق ، الذين كانوا يؤلفون الحاميات والحرس في بلاد النوبة منذ الفتح التركي لمصر ، كما رل اليونان المرتقة أرض مصر في عهد إسمانيك لأول . ولا يكتفى ما كيكمل يبدأ بل يرغم أن هذا التراوح استمر حتى في عهد الأسرة العلوية إلى سنة ١٨٨٢^(١) .

ومما يؤسف له أنه ليست لدينا دراسة للشايقية بواسطة رجل من علماء الأجاس ، حتى يستطيع بالدراسة المعمية للمقاييس ، وعلى الأحص مقاييس النسبة الرأسية أن نحكم على وجه أشبه بين الشايقية وأولئك الخود ؛ الذين إذا كانوا حقيقة لهم نسب الباني أو تركي أو شاق فإن هذا كميل برفع النسبة الرأسية . ومثل هذا الاختلاط يتناقى مع ما نعرفه من صفات الشايقية احسدية . كتحول الجسم والوجه وشكل العيون . أما رور الألف معروف لدى كثير من العرب حتى في السودان نفسه . وقد لاحظته لدى الحسانية في فليم بيوضة (كما يرى في الصورة) وكذلك لدى بعض الدنافة والكمايش . ولا يسع مرء إلا أن يقرر أنه إذا لم يكن بد من الاختيار بين رأيين ، فإنه لن يحار رأي ما كيكمل . الذي لا ينهض به دليل ، وإن يكن ارئى لأول لا يرقى عليه كثيرا ، لأنه سيق إلى أن المصريين القدماء كانت فيهم طبقة محاربين . وكانت فيهم سلالة للقيادة أو جنس متزعم « Leader—Race » ؛ وهي فكرة حرمائية تدكر بالمعبارات التي كانت سائدة في العهد الناري . وإذا كان رجل مثل قرن السابق لعهد هتر بمائة سنة يستخدم هذه المصطلحات ، فلا شك أن هذا النوع من التفكير متأصل في الشعب الألفي بصورة تمت على الدهشة .

وإذا كان الأمر الذي دعا إلى كل هذا الشطط هو أن لون الشايقية أقرب إلى لون المولدين ، فمن الممكن تفسير هذا بقلة تسرب السلالات الجوية ، وبالاختلاط الذي حدث في العصور القديمة ، لأن هذا الإقليم كان دائم الاتصال بالشمل . وإذا

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب في السودان من ٦١٥ . فقد أرسل إلى بلاد النوبة عدد من الصباط في العهد التركي ، وبمهمتهم الكشف ، ولا يزال منهم في بلاد الو ، إلى اليوم يعرف بهذا الاسم . وهم منتشرون في جهات محدودة حد ، وأعداد قليلة جداً ، ولا يعرف أن لهم أثراً في بلاد الشايقية .

كانت المشكلة هي الروح العسكرية ، فإن المحررات العربية كقضية تفسيرها وتعليلها
تعليلاً مقسولاً من غير حاجة إلى أن نحلل الآثار والأرناؤوط وسكان الموصنة
والهرسك من بلادهم إلى هذه الأقاليم الحديثة .

وفي القرون الماضية كان لشامية أربعة رعماء كل منهم يدعى ملك ، ومرا كرم
في مروي ، وحسك وكين وعمرى . وإلى نهاية القرن السابع عشر كانوا خاصمين
— مثل كثير من قبائل — لثأب الفصح المسمى منحل والذي كان مقره في بلدة
مري . أي أن نفوذ الفصح قد امتد إلى بلاد النوبة ، ولا يزال في بلدة الدبة إلى اليوم
جماعة تسمى نفسها « فصح » ولكن الشافقية لم يخضعوا طويلاً لهذا الحكم .
وفي إلى خلاصة لتاريخهم كما استخلصه ما كما بكل :

في حوالي عام ١٦٩٠ رأى الشافقية في البراء الداحي بن الفصح والببدالاب ،
فرصة يشبهونهم بآلة بالاستملاء وثاروا رعمة قائدهم عناد وحاد ، وقد جاء في
طبقات واد صيب أنه ، أنه كان طرعا في الرماية لا يخطئ الهدف ، وأنه كان لديه
أسلحة نارية ، ومعهها انتصر على الفصح في معركة وقعت أمام جزيرة دلقه .

ومما تم لهم انتصر أصبح الشافقية لا يدهمون بالخصوع لأحد سوى « الملك »
لكنهم . وسكن هذه جزيرة لم يدع إلا حيا في الاضطراب ، وأفسحت لهم
البحر الإغارة والمدوار .

ويروي الرحالة بونيه Poncet أنه في عام ١٦٩٩ ، تابع النهر حتى وصل إلى
كربي . ولم يستطع المضي إلى أبعد من ذلك مع ملازمة النهر ، فاضطر لأن يحترق
صحراء بيوضة .

وفي غضون القرن الثامن عشر نشر الشامية عرائهم وعدوانهم على بلاد النوبة ،
في دنقة واحس وسكوب ، حتى اضطرو كثيراً من السكان الأصليين إلى الهجرة
إلى كردوهان ، واضطهر أنهم في عرائهم هذه لم يلقوا أية مقاومة تستحق الذكر ،
فكانوا يسطون من غير تمبير على السكان المساكين ويسلبونهم أمتعتهم وخيرات بلادهم .
والطاهر أنهم وصلوا إلى كردوهان أيضا ، حيث يروي لنا التوسى أنهم
اشتركوا في الإغارة على دارفور . ويصفهم بركهارت في أوائل القرن التاسع عشر ،

نائبهم يتمتعون بالاستقلال التام ، ولهم ثروة عظيمة من الماشية والحبوب . ولهم شهرة بالكرم ، وحماية الضيف من كل عدوان كأنه واحد منهم . لا يتكلمون غير العربية ، وكثير منهم يحسنونها قراءة وكتابة . ويمجدون رجال العلم . ولهم مدارس يتعلمون فيها جميع العلوم التي تتصل بالدين ، ما عدا الرياضة ولعبة . ويعرضون على الزراع آناوة عن كل ساقية نحو ٤ أراذل فدة ، ورأس أو ثلاثة من الصان ، ومقدار من السبيج : ومثل هذا يحى لكل مك من الأرض الحاصلة به .

ولم يسم من عدوانهم نساء عنهم الجميون ، فكانت حرب في حرب منصله معهم . وقت رحلة بر كهارب — وكاء ايسظون خبيثه ورحلهه بشروور ادمار والحراب في الساطي العربي لليل

كذلك اعتدوا على أمراء المبدلات في حلفاية بنوك ، حتى هبط سكان النبد من نحو ٩٠٠٠ إلى نحو ٤٠٠٠ نسمة في ذلك الوقت .

وكأنما أرادت الأقدار أن تكسر سوكة هذا الشعب ، فكان أول معارضة قوية فيها الشافعية من المايث الذين هاجروا في أول عهد محمد علي في بلاد العبة وانشر مودهم هناك حتى سدة احمد ، ولم يكن يدمن ان يضطمو بالشافعية وأن تدور بينهم معارضة كانت العبة فيها أول دأمر لهيبك ، ثم تكررت معارضة بين عربيين ، وكل منهما يتدرب النصر ، حتى جاءت حملة سمعدن ، فتمجد جميع الشافعية بحب قيادة ثمين من أمرائهم (الملك صبير وملك ساوير) ، ونحو في القتال بلاء حسناً ، وأظهروا شجاعة فائقة ، ولكنهم نهزموا في النهاية من كرتي .

ولكن الشافعية — وبهذا هزيمة — لم يشاءوا أن يحتضمو نهضتها ، فميشوا عيشة الهدوء والسلم ، بررعون ويحصدون ، فقد كانوا من قبل يسحرون النبوة الذين يعيشون في بلادهم والرفيق وطلقة احمد لزراعة الأرض ، فكيف يرتصون أن يارسوا حرفة كانوا يزدرونها بالأمس ، لهذا لم يلبثوا أن حولوا هزيمتهم إلى وسيلة يتدفعون بها نهارسه حرقهم المفضلة وهي حرفة الحرب والقتال فألقوا جيشاً بزعماء رئيسهم ، وانضموا ليحاربوا في صفوف جيش اسماعيل ،

واشتركوا في غزو الفصح وفتح الحبرية ، وأمكنهم بذلك أن يفتصوا ثمناً لمعاونتهم
مساحات من الأراضي بالقرب من مصب النيل الأزرق وحول حلق سلاوكة ،
فأصبح لهم وطن جديد في حلفاية بلوك ، والجهات التي تليها في الشمال .

وطول حول مدة محمد عني وإسماعيل محاصرين كل الإخلاص للسلطة التي صرروها
وكاؤا من أهم العناصر التي يمكن الاعتماد عليها في المحافظة على الأمن ، وجمع الضرائب
وعمل هذا العمل الأخير أكسبهم سمعة غير مستحقة .

وظنوا عني ولائهم هذا لم يخرجوا عنه حتى في عصر الهدية ، وبعد سقوط
اخرطوم في أيدي المهدي وصدور الأمر بالمغو عن جميع القبائل ، لم يشمل هذا
الأمر الشاذلية .

وفي أوق الحاصر يحدد الشاذلية عدا لزعماهم العسكرية في الانضمام إلى فرق
المحاربة ، أو السوارى أو الوايس الزاك ، ولا يزالون محتفظين بسمعتهم الحربية
ومعهم سبي مصالحيهم ، وأتت برههم حيرانهم ، وكثير منهم يشتغل فوق ذلك
بالتجارة في مختلف المدن .

وهم أصبحوا يوم مورعين في قبيلة بربر والبطاه واخرطوم وبعض المدن
على حسب انتشارهم في مدينة دهم ، لذلك لم يكن من الممكن للقبيلة أن تحافظ على
وحدتها ، ومع ذلك فإنهم حينئذ وحدوا وبدون مبرر على كثير من السكان في مختلف
جها السودان مصر ما رزقوا من قوة اشخصه .

ولا يزال أكثر الشاذلية في الإقليم الذي وصفه من قبل ، غير أن لهم مع ذلك
دياراً في إقليم بربر والماصمة شنة ، على حسب تشرهم بصفة فردية في مختلف المدن .

ويقسمهم ما كما بكل إلى نحو اثني عشر فرعاً ، وكل فرع يقسم إلى عدة أقسام
بحيث يبلغ مجموع الأقسام نحو ٥٥ قسماً ، منها نحو عشر فقط خارج الإقليم الأصلي
وعدهم كبير قد يعادل الجعليين أو يقرب منهم ، ولكن ليس من السهل الوصول
إلى تعداد دقيق يمكن الركون إليه .

الشيوخ :

سقت الإشارة إلى أن الشايقية يشلخون وجوههم ؛ وكذلك الجمليون وأن الشايقية لهم ثلاث شيوخ أفقية ، بينما الجمليون لهم شيوخ ثلاثة رأسية . هذه الشيوخ تعمل في أول عهد الرضاعة ، حين يكون الطفل في الشهر الثاني أو الثالث ، ولا يعرف أحد أصل هذه العادة ؛ وقد وحدها الرحالة برتون في مكة ، وقيل له هناك إنها عادة مستحدثة هناك .

وهذه الشيوخ ليست مقصورة على الشايقية والجمليين ، فهي منتشرة أيضاً بين النوبيين ، وإن لم تكن عامة وطريقة النوبيين تشبه الشايقية ، سوى أن الخطوط أقصر وأقل اتساعاً ، وهي معروفة كذلك عند الرباطات والبدللات وغيرهم ؛ وقد أخذت هذه العادة تزول بالتدريج .

نسب الشايقية :

في بيان عن نسب الشايقية كما رواه المؤلف أحد زعمائهم المشهورين بألمم بالأنساب وهو يختلف قليلاً عما رواه ما كما بكل :

١ — ينقسم الشايقية إلى الحد « شاق » بن حميدان ، بن صمغ (الشهير بأبي مرخة) بن مسمار بن مرار .

٢ — وقد أحب مرار الحد الأكبر زينة ولادوهم . سمرة ، لدى أحب بدراً الحد المدبرية . وسمرام لم يحب ، رباط الحد الرباط ، ومدير . لدى أحب صمغ ، لدى أحب حمدان ، لدى أحب « عام » الحد الجمليين و « شاق » الحد الشايقية .

٣ — وأحب شاق عشرة من الأسماء .

١ — سوار جد السواراب .

٢ — حوش جد الحوشاب .

٣ — عون جد المونية .

٤ — شاقف جد الشاقفاب .

٥ — باعوض جد الباعوضاب .

- ٦ — ويش جد العمراب .
- ٧ — وقع حد . ماعاب .
- ٨ — مريس حد المرباب .
- ٩ — سالم حد صحن سمي أم - م .
- ١٠ — كدنج حد ر كند مجاب .

ولاست ر أم هذه الأقسام هم الكدنجا ، والسواراب ؛ والكدنجا أعظم ، وقد نزع من الكدنجا عدة بطون ، من بينها الحنكاب ، والعدلاب والعمراب وقد كان منهم بيوت الملك : وهي متفرعة من جد واحد من الكدنجا اسمه صالح أمه سب أمير الفنج واسمه عيسى ، وكان مقر حكمه في بلدة كجسي ولم ينجب عيسى المذكور سلا ، فورث الإمارة من بعده صهره صالح ، وبعد وفاته قسمت البلاد ثلاثة أقسام بين ثلاثة من الحنكاب والعدلاب والعمراب ، وكان آخر ملوكهم صير من الحنكاب ، وشويش من العدلاب وحمد ملك العمراب .

٦ — الجوارب

بدأ تجورا لإقليم ادي سيطر عليه الشايقية ، ملتزمين نهر النيل ، نرى النهر بعد اتجاه مرة أخرى ، عند بلدة الدبة ، منحدرأ نحو الشمال ، وهنا تبدأ الأوطان اموية إلى نهايتها في شمال أسوان ، غير أن هذه المسافة الطويلة من بحري النيل ليست خالية من بيوت ، بل تجعلها جهات تسكنها قبائل عربية . مثل امديرية ، وجوارب ، وردية والحمايرة .

وتنزل القمل من مصدها ، بعد أن يحد بلاد الشايقية منحنيين شمالا منحدره إلى امديرية ، وسكن طائفة لأن مصدهم ينشئ على النهر ، والنصف الآخر في الدون . فسيحكم عظيمهم في بعد ، طبقا للتوزيع الذي اتخذناه أساسا لمحاذاة هذا الموضع . كما سبق بيانه في أول هذا الفصل ، حيث التزمنا أن نتحدث أولا عن القمل التي تحدث من سواحي نهر أوصنها الأساسية ، وليس هنا عيدا عنه سوى توصيل شوية

وطبقاً لهذا الترتيب تكون القبيلة التالية للشايقية هي الخواره ، وهي آخر
مجموعة عربية كبيرة في شمال السودان ، على شواطئ النهر . وقد جعل ما كان يكمل
كلًا من المديرية والخوارة في مجموعته واحدة ، وحيث أن يطلق كثير من الناس
على انتمائهم إلى أصل عربي . وقال : إن لاسم الوحيد الذي يمكن أن يصح عنهم
شيء ، يقرب من دقة ، هو اسم دقله ، أي مكان مديرية دقله ، وقد سمعنا
أن اعبر صا على إصلافي سم المديرية على جميع سكانها دون تمييز بين الذين يدعون ،
ويدعونهم الناس ، دناقله ، وبين الذين لهم اسم آخر ، ولا يريدون أن يدعوا دقله .
أما التمسك بسميتهم دقله ، بسبب اشتغالهم على بعض لدم اموى ، وهم مسلمون به
فلا يقدمنا في بحثنا كثيراً . إذ من اللازم أن يصح الناس حيث وضعوا أنفسهم .
وإذا تربع على هذا التمييز أن بعض الناس يهجر على البعض . فإن هذه بكرة قديمة
مصيها إلى الزوال ، وهي ساقى التعاليم الإسلامية كل مفاها . وإذا كان الميدان
ميدان تعاخر ، فإن للنوبيين في تاريخهم الطويل مصاحر حديثة ، وما ترو
معروفة مشهورة .

ذلك لا بد لنا أن نسلح مسحة انساب الخوارة إلى العرب ، ما دامت النسبة
العربية قد غلبت عليهم ، والثقافة العربية قد طغت على ماسوها من لثقافات ،
وإذا كانوا ينتمون إلى أصل عباى ، فذلك ما يدعون لأن يصعبهم مع الخمدس .
والمركز الرئيسى للخوارة في حريرة بادى ، الواقعة وسط ميل ، إلى الجنوب
من الخط الذى يفصل بين بلاد الخمس شمالا ، ومركز دقله جنوبا . وتمتد بطولها
في الشمال إلى أبعد من حريرة بادى قايلا ، حيث تعترض النهر حداد حدث ومن
الجنوب تمتد نحو ثمانى كيلو مترا محتطة سلالا ، وفي هذه الأقسام مع
جزيرة أرحو وحريرة مقاصر ، ولادة أو فاصمه وكرمه على الضفة الشرقية ، ورسه
دقله وينبى على الضفة الغربية . ومع ذلك فإن هذه الاملا لا يسكنها الخوارة .
بل يحتلون أحرارا ميا . وهكذا تكون أو سبهم منحصرة بين البحر في الشمال
وبين الدناقلة في الجنوب ، وتنتهى في الشمال عند سبىه شمالا تمتد .
والظاهر أن الأوطان التي تحتها خوارة اليوم قبل مساحة مما كان في حوزتهم

فيما مضى . فإن ركهارت يروى أنهم كانت لهم أوطان فيما بين الشلال الأول والثاني
أى في إقليم وادى حلما ، وما يليه نحو الشلال . وقد نارعهم على هذه الأوطان
الشمالية ، جماعة من عرب المغرب . وقد فرح هؤلاء الفريسيون في أول العهد العثماني
إلى السلطان لكي ينصرهم على الحوارة . فأمدهم بعض الجود ، فاضطر الحوارة
إلى النروح نحو الجنوب ، حيث عاشوا في الأوطان التي يحتلونها اليوم ؛ ولا يزال
معظم الأترياء من سكان دقلة ينتمون إلى الحوارة^(١) ؛ ويروى ركهارت فوق
ذلك أن بعض الحوارة طردوا مقيمين في البر وودى حلما .

ولعل هذه المحنة الاضطرابية إلى الجنوب التي أشار إليها ركهارت ، لم تكن
إلى جهات غير معروفة لهم ، أو غريبة عليهم ، بل كانت تحتلها الشعية الجنوبية منهم .
وكلة حوارة مفردتها حري ، والنسبة إلى حد قديم يدعى جابر ومتصل في
شجرة النسب بسائر الجميلين .

وقد انتشر الحوارة مثل كثير من القبائل الجميلية ، في مختلف مدن السودان ،
حيث يشتغلون بالتجارة ، وقد نزلت جماعة منهم أواسط كردوفان في مركز بارا ،
شمال الأبيض ، حيث يشتغلون بالزراعة منذ عدة أجيال ، وقد أمكنهم باستخدام
الساقية والشادوف أن يستغلوا خور البشرى ، في منطقة الخيران المروقة^(٢) .

٧ — الركاية

ينسب من الركاية على قبيلة سبيرة العدد ، ولكن لها مكان محترم بين قبائل
السودان ، مواطنها الرئيسية في مركز دقلة ، ولكنهم لا يحتلون إقليماً خاصاً بهم
لغة عددهم ، بل يعيشون وسط الساقية ، وهم ينتسبون إلى جد من نسل الحسين
ابن علي بن أبي طالب ، أى أنهم عدنانيون قرشيون ، وإن لم ينتسبوا مثل الجميلين
إلى العباس وسكن قرابة نسابهم من الجميلين هي التي تدعو إلى ذكرهم معهم ،
وإن كانوا محتلمين في النسب عنهم بعض الاختلاف ، والظاهر أن هجرتهم أحدث

(١) رحلات ركهارت اصعة لا مجلة ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) راجع الجزء الأول من تاريخ العرب في السودان لما كان بابل ، ص ٢١٣ .

عهداً من هجرة الجعليين ، ولها طريق يختلف عن طريق الجعليين ، وإن سجت الروايات المتواترة لسيهم ، تكون هجرتهم من الناحية الشرقية ، من طريق البحر الأحمر . وهم يفخرون بسمهم ؛ وقد اشتهر كثير من مشايخهم بالعلم والعصل . وكان كثير منهم يرحل إلى مصر في طلب العلم ؛ وفي طبقات واد ضيف الله ذكر لأشهرهم .

وحينما نزل الركابية كانت لهم شهرة في الفقه والدين ، وكثير منهم تولى منصب القضاء . وقد هاجر منهم كثير إلى كردوفان ، بل وإلى الأطراف الشمالية من جبال النوبا ، فاحتلطوا بالسكان ، وكانوا من أشهر العاملين على نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في جنوب كردوفان .

وهكذا ينتهي انتشار الجماعات المربية في شمال السودان ، وتوغلهم في بلاد النوبة ، ومن أهم مظاهر هذا التوغل أنه يتناقض كلما اتعدنا عن بلاد الشايمية ، ويقل انتشار القبائل المربية ، حتى تكون قلة طاهرة ، وسط الكثرة من النوبيين ، حتى إذا بلغنا أول الشلال الثالث ، رأينا هذا التوغل ينتهي ، على طول هذا الشلال ، وكذلك على طول الشلال الثاني ، حيث بلاد احسن ثم السكوب ، مما يؤيد ما ذهب إليه من أن الانتشار هنا كان معظمه من الجنوب نحو الشمال .

٨ - المجموعة

بعد أن تتبعنا القبائل الجعلية ، مستدين بالجعليين ، ثم بالقبائل التي تليهم مع انحدار نهر النيل شمالاً حتى وصلنا بلاد النوبة ، نعود الآن فنسج هذه القبائل ، صاعدين في النهر نحو الجنوب ؛ فيما يلي الجعليين . وقد احترنا أن نحمل الجعليين المجموعة المركبة التي بدأ منها في متابعة التوغل العربي نحو الشمال ونحو الجنوب لأن الجعليين هم القبيلة التي تدعى باسم المجموعة كلها من جهة ، ولركرم متوسط من جهة أخرى . ولأهميتهم في السودان من ناحية ثالثة .

وفيما يلي الجليليين إلى جنوب حائق سباروقه ، وعلى الضفة الغربية للنيل الأعظم
قبيلة صغيرة بسيا منتشرة شمال وحيوب أم درمان ، وقد كان لها فيما مضى شأن
أعظم مما لها اليوم ، وهي قبيلة الجوعية . وبما بلغت الطر أن في السودان خمسة
قبائل على الأقل اشتقت أسماءها من كلمة جمع : وهي الحوامسة والجمعة أو الجمع
(وسيأتي ذكرهما فيما يلي) والجوعية ومعها قبيلتان اندمجتا فيها في الوقت
الحاضر ، وهي الجملب والحماط .

وقد حاول ما كما بكل أن يستخرج من مجرد اشتقاق هذه لأسماء من كلمة جمع
أن كلا من هذه القبائل يمثل خليطاً ، أو ضمناً لعناصر مختلفة متمايزة الأصول
والصفات . وفي هذا الافتراض ما فيه من الإسراف والشطط ، مع أن كل
ما نتحدثنا به السب المتواترة هو وجود أجداد يسمى بمصهم حامعا أو جمعة أو حماتا
أو ما شاكل ذلك . ومع أن العروص في كل قبيلة أنها لا تخلو من اندماج عناصر
فيها سبق لها احتلال الإقليم الذي رلتته تلك القبيلة ، فإن استنتاج هذه الحقيقة من
مجرد اسم القبيلة فيه ما فيه من تحميل الأسماء أكثر مما يدرره الواقع ، وقد تكون
هناك قبائل نتجت عن تجمع لعناصر مختلفة ، ولكن ليس في اسمها
ما يدل على ذلك .

ومما يكس من شيء فإن شجرة السب كما نقلها الرواة تدل على أن الجوعية
قبيلة حلبية انفصلت منذ بضعة قرون عن الجذع الأصلي للمجموعة الجملية . وتمتد
أوطانهم كما ذكرنا من حائق سباروقه إلى نحو ٤٠ كيلو متراً جنوب أم درمان أي
إلى حدود الكواهلة ؛ وكذلك العظمى للقبيلة يعيش على الضفة الغربية للنيل
الأيض والنيل الأعظم ؛ وقليل منهم يعيش على الضفة الشرقية جنوب بلدة قري
في منطقة حائق سباروقه . ومن شأنه أن كان لهم امتداد واسع في الضفة الشرقية ،
ولكن اتصال هذا الانتشار أمام توسع بعض القبائل القوية مثل العبد لاب ،
أصحاب حلقية المالك ، وهم من غير الجليليين

وفي عصر الفصح كان الجوعية بجميع أفراسهم خاصمين رعيه واحد أو ميث ؛
وهذا رعيه بدوره كان معاً لأمراء عند لاب ، أصحاب حلقية المالك . وصفاً

لما ذكره ما كما بكل تشتمل القبيلة على نحو خمسة عشر قسم ، أهمها وأشهرها قسم
فتيجاب ، وهو نفسه ينقسم إلى عدة أقسام ، وهو أيضاً أكثرها عدداً ، حتى كاد
يصبح قبيلة قائمة بذاتها ، ورئيسها يدعو نفسه باسم مك ، ولكن مك الجموعية
في الوقت الحاضر هو من أسرة نايلا . (جى ناين) .

ويتحدث ما كما بكل عن الصفات الطسمية للجموعية . فيذكر أن سواد
المشرة والتقاطيع الرحية أكثر صهوراً فيهم منها في أية قبيلة عربية أخرى ^(١)
وانهم يرجعون ذلك إلى العدد الحائل من الرقيق الذي كانوا يملكونه قبل عهد
المهدية ، وما ترتب على ذلك من الاختلاط ؛ غير أن ما كما بكل لا يقلل هذا
التفسير على أنه هو السبب الوحيد لانتشار السمرة بينهم ، بل يريد أن يرجع هذه
الظاهرة أو معظمها إلى الاختلاط بناصر رحية فدنة كانت تسكن هذا الإقليم
قبل هجرة العرب إليه . وأن هذا هو السبب الأكبر في صهور الصف
الرحية بينهم .

والنظرية التي الزمنها في بحثنا هذا ، كما يتضح من الفصول السابقة ، هي
أن الجنس الرحى لم يكن في يوم من الأيام مستوطناً لسودان شمالى بدرجة
محسوسة ، ولذلك تفضل التفسير الذي يدل به الجموعية أنفسهم ، وهو كثرة قتالهم
للرقيق فيما مضى . فإن موقعهم الجغرافى جعلهم على مقربة من أسواق رقيق ،
وحياتهم الرعوية وما تشتمل عليه من الاضطراب قد تكون دعته أنفسهم لأن
يكونوا من أصحاب هذه التجارة .

وما كما بكل نفسه يعلم بأنهم كانوا يملكون عدداً كبيراً من الرقيق . ولكنه
يذكر ذلك لكي يفسر به ما رجع من أن للجموعية نزعة إلى السرفة ، وأن ذلك
يرجع إلى عنصر العبيد الداخل في تكوينهم .

ولو أن ما زعمه ما كما بكل متصح من أن هذا الإقليم كان فيما مضى وطناً مصر
زنجى يشبه البوبوين سكان الجبال في جنوب كردوهان ، لكان لأولى أن نرى تر

(١) راجع الجزء الأول من كتاب ربيع عرب في السودان ص ٢٢٣

هذا الانتشار في الأفطار التي تليه من الحموب ، حيث نجد الحسانية والحسينات ، وقد اشتهروا بأنهم من أحسن أهل السودان في اللامح والتقاطيع .
والجموعية — مثل القبائل الجميلية في الشمال — يمارسون الزراعة على شواطئ
النهر ولهم قطعان يرعونها في القبائل المتاخمة ، ولهم أيضاً بعض الاشتغال بالتجارة ،
وقد كانت لهم فيما مضى شهرة في الحرب . وقد نزلوا المبدلاب ، وكانت الحرب
سجالاً بينهم . ونزلوا الشايقية ودفعوا عارثهم . وأرجح الروايات تشير إلى أنهم
هم القبيلة الجميلية التي تولت رعاية بني عامر وفست على دوة البو^(١) . كما أسست
مملكة تقي .

٩ — الجمع أو الجمعة

إلى الحموب من أوطان الجموعية ، تعترضنا ديار الكواهلة ، بينهم ديار الحسانية
والحسينات التي تمتد جنوباً إلى نقطة تقع قرناً من شمال حرية آبا - والحسانية
والحسيد - هم أيضاً من الكواهلة كما ذكرنا من قبل ، وكلهم يعدون مهاجرين
حديثين بالنسبة إلى قبائل الجميلة ، وبني هؤلاء الكواهلة من الحموب بمجموعة
أخرى من الجمال ككرم وأشهرهم قبيلة الجمع ، ومعهم قتل أقل حظراً مثل
الأحمدة ودار محارب ، وكلهم من الجميلين ، وهكذا نرى أن سلسلة الأفطار
السيبية التي يحتلها احمليون بانتظام من بلاد النوبة إلى جبل الأولياء قد انقطعت
بسبب تدخل هذه العناصر العديدة من بني كاهل .

ومن احذر أن بعض الكواهلة قد وصل إلى نهر النيل في هذا الإقليم قبل
رول بعض الجمع ، وإن التوزيع الحالي لقبائل الجميلية والكاهلية ، جاء نتيجة نزاع
طويل بين فريقين ، ولأننا نرى الروايات تدل على أن الجمع قد أحرروا انتصارات
حديثاً في زراعهم مع الكواهلة ، لكن هذا لا يدل على أن الجمع أحدث عهداً
في هذا الإقليم . والاعتقادات الجغرافية ، خصوصاً إذا قارنا هذه الحالة بنظائرها

(١) اجمع نسخة ٢٦ سنة ١٩٢٧ من مجلة جمعية إفريقيا J. of the African

(١١) في صفحة ١٤٠ وما بعدها

في أقطار أخرى ، ترحل أن هجرة الكواهلة أحدث ، وأنهم هم الذين زاحوا القمائل
الجميلية على أوطانهم .

والراجح أن الطريق الذي سلكه الجمع إلى أوطانهم الحالية هو الجانب العربي
للنهر ، لأن الطريق شرق النيل محفوف بالمكاره . ولا بد أن يسلكه من احتراق
النيل الأزرق ، ثم عبور النيل الأبيض إلى الضفة الغربية حيث يعيش الجمع الآن .
وأنحاءهم نحو الجنوب على هذه الصورة هو استمرار للهجرات المتدافعة للقمائل
الجميلية التي تعد قبيلة الجمع أبعد امتداد لها نحو الجنوب ، ويستطيع أن يؤكد أن
الجماعات الجميلية المستقرة ، في القرى والبلدان النهرية ، التي تمارس الزراعة وتعيش
مستقرة في ديارها ، لم تكن هي التي قامت تلك التوسع نحو الجنوب بل كان هذا
التوسع من عمل أشعة البدوية ، التي تمثل وسائل التوسع والانتشار ، واتحاد
أوطان جديدة ، وأوطان الجمع في الوف الحاضر تبدأ إلى الشمال من جزيرة آباء ،
(وليست الجزيرة داخلية فيها) وتمتد على الضفة الغربية إلى خط عرض ٣٥ ، ١٢
أي إلى مسافة تقرب من مائة كيلومتر ، يليهم على شواطئ النهر في الجنوب
قبيلة سليم (وسوا من حمليين) وفي الدجل قبيلة الأحامدة وهي على الأرجح
مخرج من الكواهلة والحمليين ؛ وتمتد هذه الأوطان غرب الدين مسافة ثلث من
المائة كيلومتر ، إلى حدود كردوفان وتجرى المسكة الحديدية إلى الأبيض في
المصيف الثاني من دهرهم

أما الجهة الشرقية للنهر ، من أراضي الجمع فيها ضيق مدي ، ولا يريد ساعها
على العشرين كيلومتراً في المتوسط ، وتحمل في فيه دار بحار ، وهم إحدى قمتل
اسدحة في الجمع

ونظراً للموقع الحصى لهذه الأقطار يزداد في سقوط المطر عن سائر الأوطان
الجميلية . فالطر في أوسن سبع دهاء ٤٠٠ مليمتر (وكه صبي باطمع) ، ويزداد
كلما توعدنا نحو الجنوب ، كما يزداد كلما اتعد . عن النهر شرقاً أو غرباً ، وهذه
الحال تساعد على وفرة المرعى فترة طويلة من السنة ، ولذلك تمكن السكان من اقتناء
الماشية وعلى الأخص البقر . ومن أجل ذلك وصفهم بعض الكتاب بأنهم بقارة ،

الشرقي ، وقد ظلت العلاقات الطيبة سائدة بين سليم وخيرانهم الأقرباء فترة من الزمن وحدثت بينهم مصاهرات ، وهكذا استقرت الحدود القبلية قبل عهد محمد علي على الصورة التي تراها اليوم . وفي عهد محمد علي وامتدادها كانت العلاقات بين الجمع وبين الحكومة الجديدة على العموم طيبة . والكتاب الإنجليزي يرمون غير ذلك . ولكن ما كان ما يرمونه صحيحاً ، لما رأبناهم يمتنعون عن ماصرة المهدي . كما امتنعوا على الخديعة من بعده . فاضطر إلى أن يرسل لهم جيشاً للإعارة عليهم ونحريب ديارهم . وبقي أكثرهم من البلاد إلى دير بعيدة . غير أنهم عادوا بعد روال عهد المهدي إلى أوطانهم الأولى ، حيث يعيشون اليوم . ويؤكد ما كان يكل أنهم اليوم لا يقلون عدداً عما كانوا عليه قبل المهدي أي حوالي ٣٠,٠٠٠ نسمة للصمغ وخدمهم ، هذا خيرانهم من سليم ودار محارب والأخامدة ومن إليهم .

عندما رل اجمع في أوطانهم الحالية كانوا رعاة إبل ، ثم لم يلبثوا أن تحولوا إلى رعاة بقر كما قدمنا ، فأصبحت إبلهم قليلة أو معدومة . أما الزراعة فلم تكونوا يعبأون بها كثيراً ، وكانوا يكونون القيام بها إلى خدمهم وعبيدهم واستصعيب من رحلتهم . وكان عداؤهم الأساسي هو الحليب ، والقليل من اللحم من آن لآن . أما الحبوب فإن الأمرة الصغيرة يكميها أردب واحد من الدرة في العام كله . لذلك لم يعمروا زراعة ما تتطلبه من العناية . كذلك شعبتهم الرعي عن استثمار أشجار الصمغ وتركوا هذا المورد الهام خيرانهم من سكان كردوقان .

هكذا كانت حالهم إلى أن جاء عهد المهدي ، وشتت شملهم وحرموهم من قطعانهم . ورأوا أنفسهم بعد العودة إلى الأوطان ، مصطربين إلى ممارسة الزراعة لكي يعيشوا ويدخروا من المال ما يمكنهم من اقتناء المشية . ومع ذلك فإن كثيراً منهم لم يعودوا إلى حياة البادية والرعي ، بعد أن مارسوا الزراعة والاستقرار عدداً من السنين . بل أخذوا يسون فرى مستقرة ، ويمارسون الزراعة بمجد أكثر مما كانوا عليه من قبل . وانتشرت بالتدريج عادة الملكية وورعت الأرض بين المشايخ في كل قسم ، ووزعها كل شيخ بين الأسر المختلفة . بذلك استقرت حرفة الزراعة بين الجمع وغيرهم من « بقارة » البلي الأبيض . غير أن عدداً عظيماً

منهم لم يلبثوا أن اقتنوا الماشية ، وآثروا حياة الرعاة ، وساعدتهم على ذلك وفرة المراعى الغنية . وقلة الحاجة إلى رحلات بعيدة في طلب الكلأ ، وهم يمنون بتربية البقر ويختارون لها الفحول التي اشتهر قصيعها بوفرة الألبان . ويفضلون اللون الأبيض أو الأعشى ، ويستخدمون الماشية كدواب للحمل ، ولكنهم لا يرهقونها بأكثر مما تحتمل . وأمتعتهم التي ينقلونها وقت ظعنهم قليلة . وبيوتهم من الحصير خفيفة الحمل .

وتربية الماشية الثقيلة هي الأمر العسل ، عبر أنهم اضطروا الآن بنوا بتربية الصان أيضاً ولهم منها قطمان كبيرة . فقد هدنتهم التجارب إلى أن الصان أقل تعرضاً للأضرار من البقر . فلم يهملوا أمرها ، وكثيراً ما يفقدون جزءاً كبيراً من قطمان البقر ، فيجدون في تربية الصان ما يرضيهم عن بعض الخسارة الناجمة عن هذه الكارثة .

ويربون الصان لألبانها ولحومها ، ويصنعون من ألبانها جبناً وربداً . أما أصوافها فليست بهم حاجة كبيرة إليها . وبيوتهم من الحصير المصنوع من لحاء بعض الشجر ، لا يستخدم الصوف في صانعتها . وقلما يقومون بجمع الصوف بأنفسهم بل يحضر إلى ديارهم أفراد من القبائل الثمينة فيقومون بذلك العمل ، ويأخذون الصوف لأنفسهم

وهكذا يرى أن الجمع ومن حولهم من القبائل الصغرى ، مثل دار حامد وسليم ، ممن اتصوا بهم وأصبحت بينهم قرابة دم ، يمثلون آخر انتشار للقبائل الحملية نحو الجنوب . مستدين من بلاد النوبة في شمال ، إلى أول بلاد الدكا في الجنوب . وسفر الآن إلى ذكر القبائل الحملية التي أتت أوطاناً بعدة عن النهر في كردفان ، وسهل المطانة ، سواء أطل بعضها مقبلاً على النهر ، أو أصبحت أوطانها كلها أو جلها بعيدة عنه .

١٠ — البديرية

كثير من الحملين انتقلوا من ديارهم الأصلية إلى جهات مختلفة من السودان ، إما في هجرات فردية ، أو مجموعات قليلة ، ولكن البديرية يمتازون بأنهم قد هاجرت

منهم كتلة عظيمة إلى كردوفان بحيث أصبح للقبيلة وطنان منفصلان ، وشعثان متساويان تقريبا ، شعبة نعيش على النيل ، والأخرى في كردوفان .

والجد الأكبر الذي ينتسب إليه البديرية يدعى بدير ، وفي رواية أخرى يدعى بدر ، ومع أن ما كان بكل بفضل الاسم الأخير ، فليس هنالك سبب لاستبعاد الاسم الأول ^(١) والوطن الأصلي للبديرية هو على النيل ، ما بين الشابية واخوارة ، أي أنهم يحاوون الدناقلة ويقاسمونهم ملادهم ، ونظراً لأن في الدناقلة نسبة عالية من الدماء العربية ، يرى بعض الكتاب أن من الناحية الجنسية الصرفة ليس هنالك فرق جوهري بين البديرية والدناقلة ، وليس من السهل في جمع يضم أفراداً من الطرفين أن يميز المرء بين البديري والدنقلوي ، ولذلك احتلط الأمر على بعض الكتاب حتى زعم بعضهم أن البديرية عنصر نوبي فيه مزيج من الدماء العربية ، وأن أفرادهم يتكلمون الرطاة النوبية فيما بينهم ^(٢) .

ويبدو أن البديرية كانوا فيما مضى منتشرين في مساحات يحتلها الشابية اليوم ، وأنهم كانوا أصحاب كرتي وأمسكل ، ولكن ضغط الشابية أحلامهم نحو الشمال ، وفي القرن الثامن عشر وقبله بزمن لا يعرف مداه ، كان رعيهم أو الملك قير في دقله القديمة على الضفة اليمنى للنهر ، وكان داهود واسع ، والبديرية في وسطهم النهري يمارسون الزراعة ، ويعيشون مستقرين في قرىهم ، وأصحاب القطعان فيها قليل

أما أوطان البديرية في كردوفان فواقعة إلى الغرب والشمال من وادي وادي الحبوب الغربي من الأبيض ، وهنا أيضاً نجد كثيراً منهم مستقرين يمارسون الزراعة والتجارة ، ولكن عدداً غير قليل منهم رعاة ويصاحون لحواشيهم وعظم من حبيبتهم في رحلاتهم في طلب المرعى ، ولهم ماسة كثيرة وقطعان من البقر .

(١) من العرب أن . كما في كتابه عن قبائل كردوفان (١٩١٣) . من على و . (١٨٨٧) بأن اسم بدير غير مقبول لأن اسمه معطى للأشعث ، وعلى أن لهجته حياته طفلاً ، وعلى اسمه وهو طفل ، وأن اسم بدير مشتق من السكار حتى في الوقت الحاضر ، وكانت العرب تسمى الطفل ، ويكبر الرجل وله هذا الاسم ، كما أن الفضل : قد يسمى عند ولادته باسم كهل من باب التيمن بأنه سيكبر ويصير كهلاً (راجع الهامش على ص ٧١) (٢) مقال السرفشارلس ولن (١٨٨٧) ، رواية ماكاينكل (١٩١٣) ص ٧٢

وكانت أول هرات البديرية من وطنهم الأصلي على النيل إلى دارفور وكردوفان في أثناء القرن الرابع عشر بعد أن تم فتح بلاد النوبة بواسطة العرب ، وكانت هذه الحركة حسب رأى ماكميكل حراً من حركة عامة شملت كثيراً من الحملين ، ولا شك أن هذه المحركات الأولى قد نتجها هرات عديدة ، بعضها مما نشأ عن عدوان الشابية ومزاحمتهم البديرية في أوطانهم البلية . وقد تنقل البديرية في ديار كردوفان وشرق دارفور من إقليم إلى إقليم حتى استقروا بمدلاى في ديارهم الحالية ، وقد حدث لهم زواج واحتلاط بكثير من القبائل بعضها من أقاربهم مثل الجوامعة والمص من الهيمية مثل الحوازمة ، والمعض غريب عنهم تماماً مثل النوبا سكان جنوب كردوفان ، وبذلك كانوا من القبائل العربية التي أثرت في جنوب كردوفان أي الجزء الشمالي من حبال النوبا ، وأكسبتهم الثقافة العربية والديانة الإسلامية ، وبرى ماكماكل أن البديرية بدورهم اقتبسوا بعض عادات تصفيف الشعر في صورة حدائق مستقيمة ، من النوبا ، وهذا أمر يصعب التسليم به لأن النوبا قصار الشعر مثل سائر الرنح ، ولعلها هنا كمادته مخلط بين النوبا سكان جنوب كردوفان وبين النوبيين سكان بلاد النوبة .

وهناك قبائل أخرى صعبة ، شديدة الاتصال بالبديرية ، مثل الطريفية في بلاد النوبة ، والشويحات في كردوفان . وهم في الواقع بمدان فرعين من المجموعة البديرية ، ولذلك لم نفردها بحثاً خاصاً .

١١ — الجوامعة

سن نحدثنا عن اخوعية والجمعة (أو الجمع) ، ومواطنهم على النيل . والجوامعة أبناء عمومهم ، ولعلهم أهم وأكبر شعبة في هذه المجموعة المتشابهة الاسم ، وهم يختلفون عن الآخرين بأن أوطانهم اليوم كلها في كردوفان ، وتمتد شمالاً وجنوباً في قطاع مستطيل شرق الأبيض ، غير أن بركهات يروى في رحلاته أن الملك زعيم المحس كان من أسرة جامع ، وهذا قد يثبت على الظن بأن

شعبة منهم قد اندمجت في المحس ، وتولت منصب الزعامة فيهم ، أما الرأي الذي ذهب إليه ما كما يكمل من أن اسم هذا الزعيم يبعث على الظن بأن الخوامة كلهم متصلهم بالمحس صلة القرابة related to the Mahass ^(١) فأقل ما يقال فيه إنه بعيد الاحتمال جداً .

على كل حال ليس للخوامة مواضع على ليل لافي بلاد لوبة ولا في غيرها من الجهات البيلية ، والأرجح أن محسهم إلى كردوه و درفور لم يكن من الإقليم اللوبي مطلقاً ، بل من إقليم درمان حيث يعيش أقاربهم الخوعية . وقد حدثت هذه الهجرات في القرن السابع عشر على أرجح الروايات ، أو على الأقل يرجع معظمها إلى ذلك العصر وهو وقت توسع دوة صبح و انتشارها في كردوه ، وكان الخوامة من أنصارها وجنودها الذين أتوا على ذلك التوسع وينسب الخوامة إلى جد اسمه جامع ، ومفرد اسمه محس ؛ ويتمسكون بالنسب العباسي وبقرابتهم من سائر الجعليين .

ولكن ما كما يكمل يرى أن الخوامة لا يشتملون إلا على نواه فقط من الدم العربي الأصيل ، وقد تجمع حول هذه النواة عناصر عربية ، يرجح أنهم من زنوج دارفور ، ويصفهم بأنهم جلس منحط ^(٢) a much debased race وأن في وصفهم بأنهم عرب تجاوزوا كثيراً ، أكثر من إطلاق هذا الاسم على أي قسلة عربية أخرى في السودان . وقد مر على الهامش في كتاب آخر ^(٣) أنه يريد بالاحتطاط ، قلة احتفاظهم بالقطائع عربية الصميمية ، وعلى ذلك فإن الصورة التي أوردها في كتابه لا تؤيد هذا الزعم

ولا يراد هناك عدد لا يستهان به من الخوامة يعيش في دارفور ، كما أن منهم عدداً في واداي ، غير أن الكثرة الهائلة منهم تعيش في شرق كردوهان . وقد مر ما كما يكمل مؤيداً لأقوال بعض السائحين ، أن ليسهم عادة ذكرها ، وهي أن لست لا يسمع لها بالتزوج حتى تهدي طفلاً إلى خالها ، وإنها هي التي تختار الرجل الذي

(١) راجع الجزء الأول من تاريخ السودان ص ٢٢٣

(٢) قبائل كردوهان (١٩١٣) ص ٧٦

(٣) تاريخ العرب في السودان ص ٢٢٣

تجيب منه هذا الطفل بملء حريتها . ومع أن الدين يروى عنهم ما يكابكل على فرض صحة روايتهم — إنما يذكرون أن هذه عادة بعض سكان دارفور ، وفيه لم يتردد في نسبتها إلى الخوامة ، ويؤمن أن لديهم اصطلاحاً شائعاً بينهم ، يصفون به هذه الحالة ، وهو قولهم أن النبت « أعانت خالها . » وبديهي أن هذا الزعم فيه خلط كثير ، بإسناده عادة كهذه إلى قبيلة مسلمة صحيحة الإسلام^(١) .

هذا وقد عانى الجوامعة شقاء كثيراً في عهد الهدية ، ويرغم سلاطين أنهم لم يبق منهم أكثر من حميم . ولعل في هذا مبالغة ، مهما يكن من شيء ، فإنهم قد استردوا أوطانهم وسكانهم عددهم ، وأصبحت لهم ثروة بفصل استغلالهم لغابات الصمغ ، فهم أعظم القبائل التي أقبلت على هذا الصرب من النشاط الاقتصادي ومراكز تجارتهم في أم روابه من أهم الأسواق لهذه السلسلة .

١٢ — الغدييات

يتفق جميع الساس في السودان على وصف الغدييات بأنهم من أصل حملي ، ولا حاجة سألنا شئت في ذلك الزعم ، ووطانهم اليوم إلى جنوب الأبيص ، وتمتد إلى شمال جبال النوبا . وهم أم عصر عمرى استطاع أن يشر الثقافة العربية في نصف الشى من دار النوبا . والشاهر أن هجرتهم الأولى حدثت في عصر توسع المسح ، كما واصل أهم العناصر التي نزل كيدور ، وكانت معهم الجوامعة ، ونامت بعدد مكانه الأول في بقو . العربية والجماعة المكان الشى . عبر أن بعدد احتاروا البرود ولادة في هذه الأوجس الجنوبية التي كان موباً مستشرين فيها ، ولا شك أنهم لم يحسموا النوبا التي ليين لسلطتهم فقط ، بل دمجهم بهم دمجاً تاماً . فأصبحت العناصر القديمة والحديثة كلها تدعى

(١) سألت كثيراً عن صحة هذا الزعم فأنكره الجميع وأكدوا أن الجوامعة من أحسن القبائل إسلاماً . ومن الأسف أن ما يكابكل كان يعتمد كثيراً على ما يذكره الرحالة ، وهذا أكبر سبب لحك في الحكم . وكان يوسع أن يعتمد على دراسة عشون القبائل في عصره بدلاً من الرجوع إلى كتب الرحالة القدماء .

باسم الفدييات ، ولذلك يوصفون بأن الدماء النوباوية فيهم لا تقل عن الدماء العربية ، وقد وصل تأثيرهم إلى صميم بلاد النوبا في الوقت الحاضر ، وبمصل هذا التأثير نرى النوبا الشماليين في دلج وما جاورها يقلدون العرب في ريشهم وأكثرهم يتكلم العربية وكثير منهم يدين بالإسلام ، وقد أفلح غير المسلمين منهم عن بعض الحرف التي ينفر منها العرب مثل تربية الخنازير .

١٣ — البطاحين

قبيلة البطاحين — وإن جاء ذكرها في آخر الكلام عن الحمليين — تمثل عنصراً من أقدم عناصرهم . وقد ظل الشكرية ولهم السيادة والرعاة في سهل البطانة رمزاً ملوبلاً ، إلى أن قويت شكوة البطاحين وارتفع شأنهم في هذا الإقليم في العقود الحديثة وإن كانت الشكرية لا تزال لها المكان الأول فيه .

وهم عبارة عن قبيلة بدوية مركزها الرئيسي بلدة أبي دليق ، الواقعة شرق الخرطوم بسبع ومائة كيلو متر ، أي في وسط سهل البطانة الشمالي ، ومع ذلك فإن هذه البلدة أسستها أسرة من بني كاهل ، وكانت في وقت من الأوقات حاضنة للشكرية ، ولكنها اليوم المقر الرئيسي لمصاحين . وتمتد أوطانهم من غير حدود واسعة حتى تصل إلى مركز رقاعة في الجنوب وشرقاً إلى منتصف البطانة ، وغرباً إلى مسافة تمتد عن النهر نحو عشرة أميال ، اللهم إلا القليل منهم الذي نزل في خرطوم بحري . ولا شك أن هذه الجهات متدحلة في مواضع عديدة في أوطان الشكرية ، وقد حدثت منازعات عديدة حول الماء والرعي .

واسم البطاحين مشتق من البطحاء ، والإشارة فيما يبدو إلى بطحاء مكة ، والقياس في هذه الحال يستدعي أن نسميهم البطاحيين ، غير أن الصيغة الأولى هي الغالبة اليوم . والفرد بطحاني .

وهم رعاة إبل وغنم وماعز . ولهم قطعان كبيرة ، تعلب عليهم البداوة ، ويررعون مع ذلك بعض الأخوار والأودية الضحلة المنتشرة حولهم ، ويصفهم ما كما يكبر ، أن مطيعهم تعلب عليه العصب العربية (القوقازية) ولحمهم نحيل ، حنفي

الحركة ، والتقاطيع معتدلة ، والشررة ذات حمرة وشحوب . ويصف أخلاقهم سرعة الغضب وحب المشاكسة مثل الشامية ، ومع ذلك يميلون إلى الفكاهة ويمتنعون من الخراة والشجاعة ، كذلك يصفهم بأنهم اصوص لا يرجي إصلاحهم ولا يستحقون من السرفة غير أن مرفقهم ليست من اضرار لإجرامى كاستطو على ما ، بل قمة من عهد الخاهلية ، حين كان احتطاف حمل يمسد من الأعمال المزعومة الممودة .

وقد كانوا قبيلة قليلة الخطر ، عاجزين عن محاربة الشكرية ، حيرتهم الأقوياء . وفي عهد محمد على واستعاعيل وردت هذه الحاة وضوحاً ، فعزل ما كان للشكرية من النفوذ الواسع . وانقلب الحال في عهد نهدي حين تعرض الشكرية لصروب من العنف والاضطهاد ، فضعت شوكتهم وارتفع شأن المطاحين . . ولكن في العهد الحديث استرد الشكرية بالتدريج مكانتهم القديمة ، بل رادوا عليها ، واتسع نفوذهم في جميع أنحاء المطانة شمالاً وجنوباً . ومع ذلك فإن البطاحين لا يزالون من أعظم القبائل التي تعتمد على رمي الإبل كحرفة أساسية لها .



ولحق بالبطاحين قبيلة أخرى من أقربائهم الجميلين ، وطالما كان بين الإثنين حلف ونأي مشترك في الدفاع والمهجوم ، ألا وهي قبيلة الخوالدة ، وكانت لهم فيما مضى عراب وحروب على الكوهلة والشكرية باصرهم دائماً أقاربهم البطاحون ، ومنسب الخوالدة إلى حد يدعى خالد . ونشير الأساء المواترة إلى أنه أحب ثمانية من لأساء ، سنسب إليهم المطون ثمانية التي تكون منها قبيلة اليوم ، وتجمع رؤساء إلى أنهم وصلوا إلى السودان بعد أن رحلوا إلى مصر وقاموا فترة من الزمن في الدماء ، حيث لا تزال قبة منهم بالقرب من مصر . ثم الكثرة المعصى فقد دخلت السودان في حروب أربع عشرة سنة أو ثلث القرن الخامس عشر ، وراوا أولاً إقبية شمدي ، ثم إقبية بدميون بدرخياً نحو الحبوب ، في سهل المطانة . ولشدة ضغط الشكرية عليهم اضطروا إلى عبور النيل الأزرق بالقرب من واد مدني ، ونزلوا في الحرة شمال من الحيرة . في بين واد مدني وسدة ماقول ، حيث يعيشون

فما يقرب من خمسين قرية تمتد ما بين البلدين . ولا تزال هذه هي أوطانهم الرئيسية إلى وقتنا هذا^(١) .

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل أن نؤكد ما ذكرناه من قبل ، من أن الوحدات المختلفة للمجموعة العباسية ، التي تكلمنا عنها ، ليست هي كل قبائل الحميرية . بل هنالك وحدات صغيرة ، لا يكاد يعرف عنها شيء أكثر من اسمائها . وهي في الغدة ، تمصع لناظر قبيلة من القبائل ذات النفوذ ، التي تجاورها . ولم تكن معالجتنا لسكل قبيلة بحسب أهميتها ، بل بمقدار ما أمكن الوصول إليه من أخبارها ومختلف أحوالها . ذلك يجب ألا تفاس أهمية القبيلة بمقدار ما حصص لها من الفقرات أو الصفحات . والواقع أن القبائل الحملية لم يكتب عنها شيء يطوُّ العلة ، إذا استثنينا كتيباً صغيراً لمستر نيكولس Nicholls عن الشايقية^(٢) .

وواضح مما تقدم أن المجموعة الحملية هي أهم مجموعة في السودان ، وأن مراكم أحشادها كانت في الإقليم الأوسط من أوطانها الحالية . ثم اشترت منه نحو الشمال منحدره مع النهر من جهة ، ونحو الجنوب مصعدة في النهر من جهة أخرى . لذلك رأينا أن انتشارها يتضاءل بالتدريج في الأطراف السفلى وغلب من أوطانها .

(١) راجع مقالة H. Jackson . عن المولدات في مجلة لأول (سنة ١٩١٨) من SN.R من ١٦٧ و١٦٨ .

(٢) م شح بمؤلف الإهداء هذا الكتاب (المصوح) في دبلن ١٩١٣ . ومنه ذلك قدس في هذا صير ، إذ لا يفتق مع تناسب في أصول الكتاب ، أن جعل شرح وروصف لقصة واحدة مع اختصار الكلام على سائر قبائل . ومن الملاحظ أن ما كان كل في اسمه على الشايقية لم يشر كثيراً إلى ملحقه في كتابه نكلز المذكور .

الفصل العاشر

قبائل جهينة - ١

المجموعة الثانية الكبيرة من القبائل العربية في السودان هي التي يصفها الكتاب بأنها تنتمي إلى « جهينة » أي إلى فرع من فروع العرب الماربة أو القحطانيين ، كما أن المجموعة المحلية تنسب إلى فرع من فروع العرب العدنانيين . أي أن إحدى المجموعتين تنسب إلى العرب الجنوبيين أو اليمنية . والأخرى إلى العرب الشماليين ، طبقاً للتقسيم القديم في حربة العرب بعضها . ولو أن عبارة شمال وحنوف لم تلت حتى في عصور الجاهلية أن أصبح مدلولها اسمياً فقط ، لأن عرب اليمن ، كما هو معروف ، قد نرح كثير منهم إلى الشمال ، حتى زال بعضهم الشام ، مثل عسان ، والبعض على حدود العراق ، مثل المادرة . ولكن طلت عبارة حنوبي وشمالى بمنعطفة عماها نحسب لأصل الإقليم للقبائل قبل أن نرح القبائل اليمنية وتنتشر في مختلف أنحاء الحيرة العربية

وقد انقسمت قحطان إلى شعبتين كبيرتين : كهلان ، وحمير ؛ وتمرع عن كهلان عدة قبائل مشهورة مثل حزام والحلم وكعدة وطي و مدحج و همدان ولأوس و الحارح .

ومن حمير نمرعت قبائل مشهورة أيضاً منها قصاعة و نري ، ومنها جهينة التي نحن بصدددها . وقبل ظهور الإسلام ، كان للقبائل الحنوبية شأن عظيم ؛ وكانوا أكثر عدداً وأعظم حظراً من القبائل العدنانية . وكان منهم كثير من البيوت المالكة ، بل إن معظم النبوة كانوا منهم .

ولكن ظهور الإسلام في فريش قد جعل كفة العدنانيين ترجح ، وموقفهم في ميدان التفاخر يسمو ويعلو ، وبذل النبي محمداً عظيماً لكي يجمع هذا التفاخر بالأساس و الثقب ، مؤكداً ألا فصل لمرى على أعصى إلا بالتقوى ، فلم يكتب

بأن ساوى بين العدناني والقحطاني ، بل رعى إلى المساواة بين الشعوب والأجناس ، فأطاعه في ذلك الصحابة والتابعون وعقلاء المسلمين ، غير أن المصيبات القديمة لا تموت بسهولة . والسبب القرشي أو حتى العدناني قد ارتقى بفضل النبي ، إلى منزلة ليس من السهل أن يتجاهلها من يعتون إليها بصلة القرابة ولو من بعيد . ولذلك بقي الحرص على الانتساب إلى الدوحة الهاشمية متأصلاً في النفوس . وظهرت آثاره في السودان كما ظهرت في سائر الأقطار الإسلامية .

ومع ذلك فإن القحطانية ، بطراً لومرة عددها ، كان لها في الفتوح الإسلامية الأولى مكان ملحوظ ، وكان بعض الجيوش التي أرسلت إلى إفريقية ، يشتمل أكثره على عرب من الدوحة اليمنية ، ولذلك كان لهم من الفصل في شر العروبة والإسلام في إفريقية ما لا يقل عما لغيرهم من القبائل العربية . . وقبل الإسلام بقرون عديدة كان لليمنيين انتشار في القارة الإفريقية ، وكان لهم بها علم ، أكثر مما كان لغيرهم من العرب . وهذا كان له أثره عند ما غزت الجيوش العربية القارة الإفريقية .

ويحدثنا المقرري أن جيش عمرو بن العاص كان يشتمل على نسبة عالية من اليمنية ، وعلى الأخص من جهينة ، ثم يخبّرنا أن القبائل التي تألف منها هذا الجيش ، قد حوّل أمرها بعد ذلك ، وعابت أباؤها ، فهل نحكم من هذا بأنها اندمجت في سائر السكان واتحدت فيهم ؟ أو أن بعضهم قد اتخذ طريقة نحو الجنوب ، إلى صعيد مصر وإلى ما وراء الصعيد من ديار وأقطار ؟ ليس من السهل أن نحيب على هذا السؤال ، ولكن الجيش الذي غزا جنوب الصحراء الشرقية في القرن التاسع الميلادي كان يشتمل على عدد كبير من بني جهينة ، وكذلك الأمر في الجيوش العربية التي جاءت بعد ذلك .

كذلك يجب أن نذكر أن قبيلة جهينة كانت أوطانها في غرب الحجاز ، حول يصب ، مشرفة على البحر الأحمر ، مما يمكنها من الانتقال عبر البحر إلى الحدود الشرقية لحوض النيل .

هذه الشواهد تشير بأن بعض المؤثرات العربية الجهنية قد دخلت السودان

من الشمال والشرق ، ولكننا إذا درسنا توزيع القبائل التي تنسب إلى جهينة في السودان اليوم ، نجد أكثرها انتشاراً في دارفور وكردوفان ، وليس من السهل أن نفترض أن هذا جاء عن محض الصدفة ، بل إن هذا سمع على الترحيح أن كثيراً من الجهينة قد دحوا السودان من الشمال الغربي ، من طريق الأربعين أو من نى شرق آخر من الصحراء الليبية .

ولقبائل الخهسة في السودان ترجع نسبها إلى عبد الله الجهني الصحابي ، وهو وإن لم يكن من جهينة مباشرة ، فإنه على كل حال من قضاة التي تنسب إليها جهينة . والظاهر كما نقول ما ذكرناه ، أن العرب في السودان ، الذين يتمون إلى جهينة ، قد أخذوا هذه النسبة وتمسكوا بها ، وأيدتها شواهد عديدة . ولعل بعضهم توهم بعد ذلك أن عبد الله الجهني الصحابي لا بد أن يكون من جهينة . وجعله محور النسبة في التمايز كما هو الحال في الأحيال القديمة لم نقل شيئاً عن عبد الله ، وإنما كتفت بالانتساب إلى جهينة . أما الأحيال التالية ، فقد تسربت إليها هذا الوهم . فحملته أساساً للنسبة الجهينة .

وهناك فرق جوهري بين المداسين والمخططين في حرية العرب ، وبينهم في السودان . ففي البلاد العربية الأصلية كان الناس يفخرون بأسابيهم اليمنية ، دون أن يحاولوا خلطها بأنساب أخرى . أما في السودان . فإن الجهينة كثيراً ما اتصلوا بالمصاهرة بالعمليين فشأت بهم وبين المماسيين صلات وروابط .

وبلاحظ أيضاً أن المجموعة الجميلة على اختلاف أنسابها وأوطانها ، تصف نفسها بأنهم حعلية أو عباسية . فالديري كما يقول ما كما يكل — إذا سأله إلى أي القبائل ينتمي قال : إلى الحعلية . ولكن إذا سأله شكراً قال : إنه ينتمي إلى الشكرية . ولا يقول إلى جهينة . ولا بد من سؤاله صراحة عن نسبه الأصلي وعن الأرومة الأصلية التي تنتمي إليها قبلته ، في هذه الحالة قد يجيب بأنه من جهينة وأحياناً يقول إنه من جهينة من جهة الأم فقط ، أما من جهة الأب فينتمي إلى علي بن أبي طالب أو إلى أي فرع آخر من الدوحة الهاشمية .

على الرغم من هذا ، فإن الحقيقة المؤكدة هي أن جميع هذه القبائل إلى أصل

واحد ، وهو القبيلة العربية جهينة ، ذات الأصل اليمني ، التي كانت مواطنها الدائمة بعد اليمن ، في إقليم يقع على البحر الأحمر .

ونلاحظ فرقاً جوهرياً آخر بين الحميلية وجهينة ، وهو : أن مجموعة القبائل اليمنية تنتمي إلى قبيلة عربية مشهورة . أما الحميلية فيسمون باسم شخص : وهو إبراهيم جعل : أو على أحسن الفروض ينتسبون إلى العباس ، أي إلى شخص أيضاً . ويفسر ما كايكل ذلك ، بأن الجهنين ظلوا على بلادهم ، وهم في السودان فلم يمتحوا كثيراً بالسكان الأصليين ، فاحتفظوا بوحدةهم وسميتهم القبلية ، أما الحمليون فقد اختلطوا اختلاطاً شديداً بالسكان السابقين لهم الدين كانوا مستقرين ويمتثلون جماعات مختلفة من الناس . ومعنى هذا في طرما كايكل أن الحمليين كانت لهم قبيلة عربية واحدة ينتمون إليها ، وقد ضاعت معالمها بعد كل هذا الاختلاط .

وهذا رأى له وجهته . ولكن لعل الأوهى أن الحمليين لم يكونوا نور لأمر قبيلة واحدة ، بل جماعات عديدة من قبائل ذات نسب متقاربة هاجرت على دفعات وعلى مدى قرون ، محتلين الأقطار التي يعيشون فيها اليوم والتي بسطوا نفوذهم عليها قطراً بعد قطر إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية تولت الزعامة ووحدة القبيلة ، وهذه الأسرة الحاكمة هي التي كان لها فضل في إدماج المجموعة كلها بعضها في بعض ، وفي إدماج السكان الأصليين في المجموعة العربية .

وهناك سؤال قد يحيط لنا في هذه المناسبة ، وإن لم يكن من السهل الإجابة عليه ، وهو أي المجموعتين أقدم عهداً في السودان ، وأقدم تكوينا وانتشاراً . وإذا أردنا أن نستعين بالتوزيع الجغرافي في الإجابة على هذا السؤال ، رأينا أن الحمليين يحتلون أواسط السودان ، وكان انتشارهم دائماً على طول هذا المحور الممتد من الشمال إلى الجنوب . وإذا اتعدوا عنه شرقاً أو غرباً كان ذلك في صورة شعاعات وفرعات خاضعة للمصدر الذي ندرت عنه . أما القبائل الجهينة فتحتل من السودان إقليم مورعة بين الشرق والغرب ؛ من حوض العطرة شرقاً إلى أقاصي دارفور غرباً .

ولأول وهلة قد يذهب سا الظن إلى أنه ما دام الجهنيون منتشرين من الشرق إلى الغرب يتوسطهم الحمليون ، فلا بد أن قبائل جهينة كانت منتشرة انتشاراً

متصلاً ، حتى جاء الجمليون فاحتلوا الإقليم الأوسط ، وتكون هجرة الجمليين في هذه الحالة أحدث من هجرة القبائل الجهنية .

غير أن هذا الرأي لا يلبث أن يبدو خطؤه ، عند ما نبحث عن طرق الهجرة التي سلكتها كل مجموعة ، وهالك يبدو لنا في غير لئس ولا غموض ، أن القبائل الجهنية الشرقية تمثل هجرات مستقلة تماماً عن هجرات الجماعات التي تعيش في كردوفان ودارفور . فهذه في الواقع ثلاث طرق مختلفة ، الأولى من الشرق أو الشمال الشرقي ، وقد سلكتها جهينة الشرق ، والطرق الشمالية التي سلكها الجمليون ، والطرق الشمالية الغربية أو الليبية ، التي سلكتها جهينة العرب ، وسورد فيما بعد الأدلة التي تثبت أن هجرة كل من الشعبين الجهنيين كانت مستقلة عن الأخرى .

والأرجح أن الهجرات الثلاثة ، ترجع إلى عصور متقاربة ، ولعلها كانت متقاربة في زمن : ومع ذلك فإن تنوع الهجرات في مختلف العصور يشير إلى أن الباب الشرقي كان أقدم نوعاً ، يليه الباب الأوسط ، ثم الطريق الليبي في النهاية . ومع ذلك فإن هجرة القبائل الجهنية إلى كردوفان قديمة بدليل ما يرويه ما كايكل من أنه في أوائل عصر الفصح كان لجهة ٥٢ وحدة قبلية في البيل الأرق وأكثر منها في الأقاليم الغربية^(١) .

ومما يلفت النظر أن ما كما بكل يذهب إلى أن معظم القبائل الجهنية في الشرق والغرب نشأت من هجرات شرقية ، استقر بمصها في الشرق ، واندفع البعض مغرباً حتى وصل إلى بلاد برنو . وأن هذا كله حدث في القرن الرابع عشر . مع أن المخطوط الذي يستند به يميز صراحة بين المجموعتين الشرقية والغربية ، ويشير إلى الصلات التي تربط بين القبائل العربية في السودان وليبيا^(٢) . مما يدل على أن المجموعة الغربية ذات تاريخ مستقل . وليس من السهل أن تصور هجرات تبدأ من سواحل البحر

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب في السودان (ص ١٣٩ و ٢٧٦) تتلأ عن بعض المخطوطات والإشارة إلى الجهات العربية يستوي يبدو مقصورة على السودان ، بل تمتد إلى غرب دارفور ، وفي ليبيا وتونس .

(٢) راجع الوثيقة رقم BA ١٢٣ في الجزء الثاني من نفس الكتاب في صفحة ٢٨

الأحمر وتنتشر بواسطتها القبائل إلى إقليم بحيرة تشاد ويتم هذا كله في غضون قرن واحد .

بدلى ما كما يكل برأيه هذا وهو يتحدث عن الجهنيين بوجه عام ، ولكنه عند ما يتحدث عن البقارة بعد ذلك ، وهم أعظم مجموعة جهمية في كردوفان ودارفور ، يعود فيرحح ، أنهم جاءوا من طريق ليبي قريب من نهر النيل ، وقد استرشد في رأيه هذا بعبارة رواها ابن خلدون ، عن تدفق قبائل من جهينة إلى بلاد النوبة ثم زروهم عنها بعد ذلك ^(١) . وقد ذكر ابن خلدون صراحة أنهم كانوا مورعين على الضفة الشرقية والغربية .

والرأي اسى يسهل به تفسير توزيع القبائل الجهمية في مختلف الأنحاء ، هو التسليم بأنها كانت قبيلة عظيمة وأنها لم تقتصر في انتشارها على طريق واحد . وحسنا دليلا على قوة هذه القبيلة ما أورده ابن خلدون في وصفها وهو يتكلم عن القبائل العربية عامة فيقول : إن مواطن جهينة « بين اليمن واليمن ويثرب إلى الآن ، في مسع من ربة الحجاز إلى عقبة أبله ، وهم على السدوة الشرقية من بحر القرم . واجتاز منهم أمم إلى السدوة الغربية ، وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكثروا هناك سائر الأمم ، وعلووا على بلاد النوبة وفرقوا كلتهم ، وأرأوا ملكهم . وحاربوا الحبشة فأرهم قوم إلى هذا المهد » ^(٢) .

وفي عبارة ابن خلدون هذه ، مع ما هو معروف عنه من دقة التعبير ، ما يدل دلالة صريحة على أن جهينة كانت قبيلة عظيمة ، تسلك في هجراتها مختلف السبل ، إلى صعيد مصر ، وإلى بلاد النوبة ، وإلى شرقي السودان إلى حدود الحبشة ، ومع ذلك يظل منها جماعات عددها كاف لاحتلال أوطانها الأصلية في الحجاز ، ما بين يثرب وبنع جنوباً والعقبة شمالاً . وأوطانها في الحجاز اليوم لا تزال بالقرب من

(١) من الغريب أن هذا التناقض يحدث ما بين صفحات متقاربة ، راجع الجزء الأول من الكتاب نفسه (ص ٢٧٤ ، ٧٦) ، أما عبارة ابن خلدون فواردة في الجزء الخامس من تاريخه (ص ٤٢٩) طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

(٢) راجع الجزء الثاني من تاريخ ابن خلدون (ص ٧٤٧) ، ولا أدري كيف فلت ما كما يكل هذا النص أيضاً .

ينبع والجهات التي تليها شمالا . وليست فاطمة بنفس الاتساع الذي كان لها فيما مضى ، لأن فترة الهجرات المتتالية على مدى القرون الطويلة ، مما يضيف الوطن الأصلي .

هذا وتنقسم القبائل الجهمية في السودان إلى ثلاث مجموعات رئيسية على النحو التالي .

١ — رفاعه (ومعها أقرباؤها من القواسمة والمبداللات والمركيين وغيرهم) .

٢ — اللحيون والحلوون^(١) .

٣ — المواسرة والحوالدة^(٢) .

٤ — الشكرية .

ومواطنهم جميعا في إقليم النيل الأزرق و سطانة ، أي في النصف الشرق من السودان ثم :

٥ — دار حمد .

٦ — بني جرار .

٧ — الزيرية .

٨ — ابرعة .

٩ — الشائلة .

١٠ — المعاليا .

ويطلق السابون على هذه المجموعة اسم فرارة وهم يعيشون في الجهات الشرقية والوسطى من كردوفان . ثم

(١) قبائل صعيون من بني حبيبه ، أولون يعيش في البضاه تحت رعاية لشكرية ، أما الحلوون فيقيمون في لاسعات ، ويعيشون في حرة حون ملاه حصاصا .

(٢) ساءت هذه المجموعة من مؤمره و ممره والتاديه واحوالده . وكلها قبائل رعوية صعيه في الحريره وبتارسون بعض برسة . والحوالدة في الجنوب ، وهم خلاف خوالده شمال الحريره أمرب الحفصين .

١١ - الدويحية .

١٢ - السليته .

١٣ - البقارة .

١٤ - الهاميد ، والهاهرية . الخ

١٥ - الكبايش .

١٦ - المقاربة : (الدين جاءوا من المغرب) .

١٧ - الحمر : (خلاف الحمر ؛ وهم من القارة) .

وهؤلاء منتشرون في كردوفان ودارفور ، وإن كان بعضهم مثل المسلمية والدويحية لهم أوطان في الجزيرة والنيل الأزرق .

وليست هذه القبائل متساوية في الأهمية سواء من حيث العدد أو الثروة أو النفوذ ، لأن البقارة مثلاً يصمون عدداً كبيراً من القبائل بعضها مثل الزريقات على جانب عظيم من الخطر . ولكن هذا التقسيم له بعض الوحاشة ، لأنه مبني على أساس إقليمي من جهة ، وعلى أساس القرابة من جهة أخرى ، وسكنى في هذا الفصل بالكلام على أهم الوحدات في الشرق والغرب ^(١) .

قبيلة رفاعة

رفاعة ، بصم الراء ، على الأقل في الوقت الحاضر ، قبيلة كثيرة العدد واسعة الانتشار ؛ وفيما مضى كانوا محاورين للمحج ولهم أوطان على حدود الحبشة ، وفي عصر الفصح كانوا بدوياً كلهم ، ومواطنهم تمتد على حاشي النيل الأزرق في السودان من السهول الحبشية إلى القرن . أما بلدة رفاعة في الطرف الشمالي من النيل الأزرق ، فلم تنشأ إلا في وقت متأخر ، بعد أن أخذ فريق من أهل الشمال منهم نزحوا إلى حياة الاستقرار ، ومع ذلك لم تعد هذه البلدة خالصة لهم كما رأينا من قبل عند الكلام على الشكرية .

(١) سبق الكلام عن الشكرية وهم أهم القبائل الجهنية الشرقية — وذلك في

وفي الوقت الحاضر لا يزالون منتشرين على جابي النيل الأزرق ، على الأخص في النصف الجنوبي إلى الرصيرص . لأن منط القبائل الشمالية أدى إلى تسرب عناصر أخرى إلى النصف الشمالي .

والظاهر أن قبيلة رفاعه كانت قبيلة مستقلة بنفسها عن أخواتها من جهينة حتى في الأوطان الأصلية في جزيرة العرب ، وكان بين الفريقين خصومات ومنازعات شأن هذه القبائل البدوية .

ويقول بركهارت في رحلاته ، إنه عندما كان في شندى قابل أعرابياً آتياً من سواكن ، يقول أنه رفاعي (بكسر الراء) أي ينتمي إلى القبيلة العظيمة جهينة التي تعيش بالقرب من بضع . وأن هذا الأعرابي قد سمع بأن فرعاً عظيماً من قبيلته يعيش في الجنوب من سار وأنه ينوي زيارتهم ، لأنهم قد اشتهروا بمطعمهم على أقاربهم في الحجاز ، الذين يقصدونهم في أوطانهم بالسودان .

وبركهارت كاتب دقيق ، ولذلك يتكسب الاعتماد على شهادته . والظاهر أن هذا الأعرابي ، وهو مثال الآخرين سواء ، انتقل أولاً إلى سواكن ومنها إلى بربر . ثم انحدر جنوباً إلى النيل الأزرق ، وهذا طريق أسلم من احتراق بلاد البجة ؛ وإن كان الطريق الثاني أقرب .

وبلغت ما كما بكل طرنا إلى عبارة وردت في كتاب كارمير ، رواية عن مخطوط عربي ، أن معركة دارت في صحراء عيذاب بين رفاعه وجهينة سنة ٦٨١ هجرية (١٢٨١ م) وأن القبيلتين كانتا متجاورين في ذلك الإقليم لمدة أجيال كثيرة ، وهكذا نستطيع أن نستخلص من هذه العبارة دليلاً على الطريق الذي سلكته رفاعه ، بل وبعض القبائل الجهمية الأخرى إلى جهات السودان الشرقية .

ووجود قبيلة رفاعه في إقليم بضع يؤيد أن طريق الهجرة كان إلى الصحراء الشرقية ، صحراء عيذاب ، ثم الانحدار تدريجياً نحو الجنوب ، مع المحافظة على البداوة التي ظلوا يحتفظون بها إلى زمن العنج .

وينقسم الرفاعه تقسماً إقليمياً ، إلى الشماليين والجنوبيين .

وقد أصبحت المجموعة الشمالية الآن مستقرة في قرى ، ومعظم نشاطها زراعي

أو تجارى ، أو غير ذلك مما يلزم حياة الاستقرار . وكثير من القرى يشاطروهم فيها عدد غير قليل من الشكرية أو الدناقة أو الجميلية أو المحس . ولو أن هالك قرى كثيرة سكانها كلهم من رفاة ، وبوجه عام يعتبر الرفاة والمحس أصحاب الديار الأصليين على ضفتى النيل الأزرق كما يقول ما كايكل . فإن صح هذا ، ونحن نعلم قدم المحس فى هذا الإقليم ، فمضى ذلك أن الرفاة استقروا هنا منذ زمن طويل .

أما رفاة الجنوب فالبدواة سائدة بينهم ، والاستقرار أقل . وكثيراً ما يطلق عليهم اسم جهينة^(١) ، وهم ينقسمون إلى قسمين : رفاة الشرق (باس أبوحن) شرق النيل الأزرق ، ورفاة الهوى (أوناس أبوروف) . والنسبة إلى أبوجن وأبوروف ، ترجع إلى اسم الأسرتين الحاكمتين لدى أحبال طويلة . وهذا التقسيم إلى شرقيين وغربيين تقسيم إقليمي صرف ، وليست له أية صفة للتمييز بين الشعبين من ناحية النسب .

والانقسام إلى شرق وغرب أدى إلى أن تتغير حركات الجماعة وهجراتها الموسمية . فاشرقيون يقضون الصيف فى البطانة الجنوبية . وأوطاسهم على حواف نهر دنر . والغربيون أوطاسهم إلى الغرب من الرصد ص ، حيث تمتد شمالاً وجنوباً . ورحلتهم الصيفية تصل بهم إلى جبل موي .

أما الأقسام القبلية فيذكر منها ما كايكل ٢٤ قسم بين الجنوب والشمال ، والشرق والغرب مثل الفواسمة والمركيين ، والطوال والحلالية وبنى حسن وبنى حسين . وهنا لك قسم واحد يدعى باسم « جهينة » ، وهو عبارة عن قبيلة بدوية صغيرة تعيش فى الجنوب الغربى من البطانة بالقرب من المحرى الأسفل لنهر رهد . وهى قبيلة غير ذات خطر .

ومع أن الكثرة العظمى من رفاة تعيش فى إقليم النيل الأزرق ، فإن قليلاً منهم يعيش على النيل الأبيض ، وبعضهم مع الكشايش فى كردوفان ، وقليل منهم ربما ذهب إلى دارفور .

(١) يروى ما كايكل أن من سودانيين يطنفون على القبيلة اسم جهينة المول أى الذين لا يعتدون ولا يقاتلون ، ويروى مثلاً سائراً . جهينة المول العشرة فوق الزول : أى أنهم ضعفاء فى الحرب يكنى واحد لقتال عشرة منهم .

العبداللاب :

ومن مجموعة القواسم شعبة تستحق أن يفرد لها ذكر خاص ، وهي الشعبة المسماة بالعبداللاب أصحاب حلغاية الملوك ؛ وهم في الحقيقة عبارة عن أسرة عظيمة كبيرة العدد والخطر . تتركز اليوم حول حلغاية : الخرطوم (نجرى) ؛ ومنها جماعات موزعة على ضفاف النيل الأزرق ما بين رفاة والخرطوم ، حيث يمارسون الزراعة . ولهم قطعان قليلة .

ولكنهم على قلة عددهم السبي ، ومواردهم المحدودة ، لهم شأن كبير وخطر عظيم . لأن مؤسس الأسرة عبد الله جماع ، وهو من شعبة القواسم من قبيلة رفاة هو الذي ساعد عمارة دقس على القضاء على مملكة سوبه ، وتأسيس مملكة سنار ؛ وكان هو المصد الأكر لهذه المملكة في الإقليم الشمالي . وكان أصله من قيرى شرقى حاق سدوفا ، وطلب فرى عاصمة لهم فترة من الزمن ، ثم انتقل مقرهم بعد ذلك إلى حلغاية الملوك ، وكانت هذه لأسره توارث الحكم في أثناء مملكة سنار ، وكانت هي ذات الحول والطول في الإقليم الشمالي من تلك المملكة .

وكان لقب الرسمى لأمراء العبداللاب هو « منجل » وهو اصطلاح عبر عربى فيما نعلم . وقد لقب به عدد من الولاة في عصر الفصح ، ولكنه كان يطلق بوجه خاص على العبداللاب .

ولا بد من الإشارة إلى أن أمراء العبداللاب لم يكونوا مجرد رعاء لشعبة الشايبة من رفاة أو حتى القواسم ، بل حكام إقليميون ، لهم السلطة التامة على جميع القبائل التى تعيش في الشطر الشمالى من مملكة سنار .

فالمسل العبداللابى هو نائب الملك في الجزء الشمالى من مملكة سنار ، وهو منصب وراثى ، وصاحبه له حق حماية الصرائب والتصرف فيها . وكان ملكه يمتد من م. ب. دندر إلى بلاد دقوله . وبعض مناحل العبداللاب كانوا دوى شهرة لا تقل عن ملوك سنار أنفسهم . وكانت لهم وسائل لحماية الصرائب من البدو الرحل لعلها أبرع مما وفقت له الحكومات الأخرى التى جاءت بعدهم .

وبعد أن ضعفت الحكومة المركزية في سنار وتعلب سلطان المميج واردة نفوذهم ، صار العبد اللاب مستقلين استقلالاً تاماً . وانقضت صلة التبعية بينهم وبين سنار . وقد تعرض العبد اللاب لكثير من إهزات الحملين ، فكان ملكهم يتناقص أحياناً في الشمال ثم يستردون بعض ما فقدوه بعد ذلك .

وقد أورد ما كما بكل بعض البيانات الطريفة عن منصب المنجل . فقل إن أصل الاسم مشتق من المميج . وهذه عبارة لا تفيدنا كثيراً عن أصل هذه الكلمة ، فالمميج هم عبارة عن القبائل أو الجماعات التي بسط عليها الفتح سلطانهم . وهم خليط من القبائل ، ولغاتهم متعددة . فكل ما نستطيع تقريره هو أن الكلمة من أصل سوداني .

ومصوب المنجل يحول لصاحبه حق لمس الطافية ، وهي عبارة عن طاقية لها ذؤانقان أو رائدان عن اليمين والشمال محشونان بالطن كاهما قرن . وكان هاتان بضعة أمراء في عصر الفتح يتمتعون بهذا الحق ، منهم أمير فاروغي ، وأمير الحملين ، ورعيم الفديات ، وبعض رعما ، الردعة .

ويصف بعض الكتاب « تنويج » المنجل في المبارز الآلية ، ولوصف ينطبق على تنويج العبد اللاب . يحضر لأمر إلى سنار ، وفي يوم الاحتمال يمنحه السلطان الطافية ثم يجلسه على الكرسي (الكوكور) ويحاطب فيه مست ويدعي له بالعمر المديد والحكم السديد ، ثم يقبله السلطان ويثني به أطيب الأثني . ويأمر بأن يدق له الطبل الملكي ويعلن بأن الملك قد توج . ثم يعود بعد ذلك إلى وطنه متوجاً معرشاً (بالتاح والعرش) .

وإلى جانب التاج أو الطافية . كان يجمع عمامة وسيفاً وعباءة وسلسلة من الذهب وهذه إشارة إلى بعض ملوك النوبة في القرن الثاني عشر ، في الإقليم الواقع بين أسوان وكركسو وأن أحد ملوكهم كان يلبس ائمامة ذات القرنين ، والسوار (السلسلة الذهبية) ومن الجائر أن هذه المادة قديمة في البلاد التي امتد إليها النفوذ النوبي ، وورثها الفتح فيما ورثوه من تقاليد الحكم والدولة . وهناك أقوال أخرى عن الصلة بين هذه التقاليد ، وأشباهاها في العصر الفرعوني . غير أن الموضوع لا يزال يفتقر إلى الدراسة .

بنى فزارة

يحدثنا ما كما بكل أن بنى فزارة - بهذا الاسم - لم يعد لهم وجود في السودان ؛ ولكن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هذا الاسم يطلق على أكبر مجموعة من رعاة الإبل في كردوفان ودارفور ، وقد تمزقت هذه المجموعة الكبيرة إلى وحدات منفصلة كل وحدة تسمى باسمها الخاص . وقبيلة فزارة المربية قبيلة عدنانية ، وتنتمى إلى قبلى عيلان . وقد هاجرت شعبة كبيرة منها إلى مصر . فكيف أصبحت اليوم في السودان تعد من قبائل جهينة ؟

في الغالب أن ما ذهب إليه ما كما بكل صحيح ، وهو أن أوطان فزارة كانت مقاحة لأوطان جهينة في الجزيرة المربية ، ولعل هجرة القبيلتين إلى مصر حدثت في وقت واحد ، فكانت جماعات من العريقين تنقل معاً ، وكانت بينهم مصاهرات على الأرجح أدبجت القبيلتين إحداهما في الأخرى .

وأهم القبائل الداخلة في مجموعة فزارة هي بلا شك تلك التي يطلق عليها اسم « دار حامد » : وهي قملة منقسمة إلى عدة شعب ، ولا يجمعها رعيم واحد ، بل كل شعبة لها شيخها الخاص بها .

وهالك قسبان صميران من دار حامد ، التحقق أحدهما بالسكبايش ، والآخر بصاحب الكواهلة ، وكلا هاتين الشعبتين يعيش عيش البداوة ولا يعرف الاستقرار . وكانت القبيلة كلها بدوية ترعى الإبل فيما مضى ، غير أن القسم الأعظم من القبيلة نزل في منطقة الحيران شمال الأبيض ، حيث يقوم ببعض الزراعة ، وعلى الأحص زراعة الدرة الرقيقة ، ومع ذلك له قطعان من الإبل يرعاها ، في الوقت الذي لا تشغله الزراعة .

ومن الجائر أن دار حامد هم من أول القبائل استعماراً لمطقة الحيران ، ولكن شاركهم فيها بعد ذلك كثير من القبائل الأخرى : مثل البديرية وكثير من الدناقلة ، الذين يحسنون استخدام السواقي والشواذيف للرى .

وتنسب القبيلة إلى جد يدعى حامد ، وهذا الحد بدوره يرجع إلى عبد الله

الجهن . وقد هاجر حامد وأخوه حماد على رأس القبية منذ زمن لا يقل عن قرنين ، وقد يبلغ أكثر من ذلك ، وطريق هجرتهم على الأرجح كان عن طريق الحجاب الغربي للسيل ، إما بواسطة درب الأرمين ، أو بالترام الحجاب الغربي للسيل في بلاد النوبة ، ثم الاتجاه جنوباً إلى كردوفان . وهم يرجعون أن حدهم هذا كان معاصراً لأبي زيد اللهالي ، وأن أبا زيد نصحه بأن يتجنب دارفور ، ويذهب إلى كردوفان ، وأن يختار لقومه الجزء الأوسط من كردوفان . ولم تنح المؤلف زيارة دار حامد ، ولكن أبلغه غير واحد أنهم تظهر فيهم أحياناً صفات حسدية تدكر سكان بلاد المغرب ، ومع أن قصة معاصرة حدهم لأبي زيد اللهالي قد تقبل المشك ، غير أن المفصلة بين دارفور وكردوفان قد تميد أن المحجرة كانت عن طريق وسط بين الإقليمين ، وأن حراً من دار حامد قد هاجر فعلاً عن طريق مغربي أو توسي ؛ وإن كانت الروايات تدل على أن معظمهم جاء عن طريق غرب بلاد النوبة^(١) .

الزيادية

يشتمون أبصاً إلى مجموعة بني فزارة ، التي أكثر التونسي من ذكرها ، وكانت أوطانهم فيما مضى موزعة بين دارفور وكردوفان ، ولكن شعبة دارفور كانت أعظم بكثير . ثم تعرضت القبيلة للاضطهاد الشديد من المهدية ، حتى كادت تفي عن آخرها ، ثم لقيت من اضطهاد علي دينار في دارفور ، ما سبب نقصاً كبيراً في عددهم هناك ، واضطر معظمهم إلى المهاجرة إلى كردوفان . وبذلك انعكست الحالة فأصبح اليوم أكثرهم رعاة إبل بالقرب من مواطن دار حامد . ولم يبق منهم في دارفور إلا القليل ،

بني جرار

كان لهم فيما مضى شأن كبير في كردوفان ودارفور ، وكانوا هم والحمر أعظم القبائل التي تنافس الكبابيش في النصف الشمالي من كردوفان إلى حدود بلاد النوبة ؛

(١) ما كما بكل تاريخ العرب في السودان الجزء الأول ص ٢٥٧ .

ولكنهم في ذلك الوقت كان اسم فزارة الصق بهم منه أية قبيلة أخرى . وكانت لهم أوطان في دارفور أساً ، ويرى ما يكمل أنه كانت تربطهم أواصر القرابة بقبيلة فزارة التي كانت تعيش في صعيد مصر في القرن الخامس عشر .

وفي تمزق الماضي انتهت المأساة بهم وبين حيرتهم إلى تغلب خصومهم ، وعلى الأخص الكباش . فأصبح سوحرار اليوم وليست لهم أوطان في دارفور ، ويمشون في ميمم معدودين من كردوفان ، الأول بالقرب من النيل الأبيض ، حيث يمشون في قرى عديدة ، يمارسون الزراعة وحياة الاستقرار ، والآخر في أواسط كردوفان حيث يرعون الإبل وصغار الماشية .

البراعة

قبيلة قبيلة العدد ، يصون نسبه إلى حرار جبراهم ، ولهم قرى معشرة في إقليم الصمغ شرقي كردوفان ، وفي الجهات القليلة الآبار جنوب بلدة أم دم ، حيث تصطادهم فلة المياه للاعتماد على الطيخ كورد الماء في بعض فصول السنة^(١) وهناك شعبة منهم لها قليل من الإبل يرعونها في غرب كردوفان .

الشنابلة

يشبهون البراعة في أن لهم شعبتين ، الأولى رعاة إبل في إقليم دار حامد والكواهلة ، والأخرى أكثر استقراراً على النيل الأبيض . والظاهر أنهم أقرب نساً إلى دار حامد منهم إلى أية قبيلة أخرى من قبائل فزارة . وبعضهم قد اندمج في قبيلة اخمر ، واكتسبوا ثروة كبيرة من الإبل . كما انقسم فريق منهم فترة من الزمن إلى الكباش ، وفي صعيد مصر على الصفة الشرقية قبيلة تدعى الشنابلة ، والراحح أنهم من أقارب القبيلة السودانية^(٢) .

(١) ما يكمل من المرجع من ٢٦٥

(٢) من المرجع والمكان .

المعاليا

تعد المعاليا قبيلة كبيرة إذا قيست إلى أكثر قبائل فزارة ، ولكنها لا تعد من القبائل الكبيرة بوجه عام . وقد كانت أوطانها موزعة بين دارفور وكردفان والأكثر في دارفور . وبعد المهدي ، أخذوا يهاجرون بكثرة إلى الكارثان . وبعضهم أمعن في هجرته إلى الجنوب حتى حاور الرقيقا ، وبعد هزيمة بني دنار في سنة ١٩١٦ ، أخذ عدد منهم يعمد إلى شمال دارفور ، لعله يسترد بعض الجهات التي كانت تابعة للقبيلة من قبل .

ومعظم أوطانهم في الغرب من دار حامد ، كما أن بعضهم يعيش في مراكز اليهود والأبيض والدنج وأم روابه ، وفي مركز الدنج كان لهم اتصال بالسوباوين ولعل بعض الفصل يرجع إليهم فيما يشاهد في هذا الإقليم من المؤثرات العربية . هذا ولا يزال أكثرهم رعاة إبل وإن كان بعضهم مستقرا في القرى ، والبعض يربي البقر في الجنوب الشرقي من دارفور ، والجنوبي الغربي من كردفان .

الفصل الحادي عشر

قبائل جهينة - ٢

نحدثنا في الفصل السابق عن شعبتين من قبائل جهينة : الأولى الشعبة الرفعية ، والثانية الشمية العرارية ، وستناول في هذا الفصل طائفة من أعظم قبائل جهينة ، المنتشرة في كردوفان ودارفور . ولكننا سنبدا بذكر قبيلتين أقل حظراً من الأحرار لأن لها أوطاناً في كردوفان والخزيرة ؛ وهاتان هما الدويحية والمسلمية .

الدويحية

يمش بعض الدويحية في إقليم النيل الأزرق ، وهؤلاء يمحسون إلى حياة الزراعة والاستقرار غير أن معظم القبيلة - وهي على كل حال قليلة العدد - رعاة إبل في أواسط كردوفان ، يصاحبون الكواهلة ويتقلون معهم .

المسلمية

كثير من المسلمية يسمون أنفسهم السكرية ، مبتعدين بسبهم عن كل من الحمليين والجهنيين ، وإذا صح هذا الزعم بكونون وحدهم فيما نعلم المنفردين بهذه النسبة في السودان ، وليس من السهل أن تبين كيف وصلوا إلى أوطانهم الحالية كما أن من الصعب أن نجد مجموعة نكرية (أي من نسل أبي نكر الصديق) تعيش في صورة قبيلة في أي فطر من الأقطار العربية . لأن معظم السكريين يعيشون في صورة أسر منتشرة في مختلف الجهات والأقطار .

والسايون في السودان يصلونهم بالمجموعة الجهمية . وهذا بالطبع لا يمنع أن يكونوا قد أصهروا إلى أسرة نكرية . وفي هذا ما يفسر دعواهم من جهة ورأى النسابين من جهة أخرى .

وهم يعيشون في الجزيرة حيث سمي أحد المراكب باسمهم وعلى صغرى النيل الأبيض
وأكثرهم مستقرون يمارسون الزراعة . ولهم في البطانة شعبة صغيرة تعيش عيشة
البداوة وقد تحدث عنهم حون يترك وقد رار بلادهم وأقام بينهم فترة من الزمن في
عهد محمد علي ، ويدل وصفه لهم على أنهم كانوا أكثر عدداً في ذلك الوقت مما هم
عليه اليوم .

والذين يعيشون في البطانة يلازمون الحيات الشملى الغربي ، بالقرب من النيل
الأزرق ، ومن أحص عاداتهم أنهم يحتفرون « حفيرا » علاونه بالماء وف المطر ،
ليستقوا منه فترة من زمن الجفاف . وحفيرهم بالقرب من أم دن مشهور ، وفي
القرية قبتان عظيمتان ومن تحتها ضريح يضم رفات بعض رعايتهم .

البقارة

كلمة بقارة كما هو واضح ، معناها رعاة البقر ، والمراد بهذه التسمية تمييزهم عن
حيرامهم في الشمال من رعاة النيل ؛ غير أن للكلمة معنى اصطلاحياً في السودان
خلاف المعنى البعض ، وهذا المعنى الاصطلاحي لا يخرج الكلمة عن معناها الأصلي
ولكنه يصيق حدود هذا المعنى . في السودان كثير من رعاة البقر ولديهم
لا يدعور بقارة . أى أن رعاة البقر كلمة عامة ، والبقارة كلمة خاصة ، فالدنكا رعاة بقر ،
ولكن أحداً لا يدعوهم باسم البقارة ، إنما هم دنكا ، ويجب أن يدعوا بهذا الاسم ،
لا بالاسم العربي بقارة ، الذى لا يطلق إلا على العرب رعاة البقر

وفوق ذلك فإن اسم بقارة لا يطلق على العرب الذين يرعون البقر على نهر النيل
الأعظم ، أو شرق النيل الأبيض والأزرق . بل هو مقصور على العرب في غرب
النيل الأبيض ؛ في كردفان ودارفور ؛ وعلى القبائل الجنوبية بوجه خاص .

فالأصل في استخدام لفظ بقارة أنه للتمييز بين صنفين من الرعاة في هذا الإقليم
الواسع الفسيح : رعاة النيل في الشمال (شمال ١٣) ورعاة البقر في الجنوب . في
هذا الإقليم الواسع الفسيح تتدرج الحياة البادية من الكثرة والوفرة في الجنوب
إلى الشح والقلّة في الشمال ؛ من السقانا الغنية إلى الأعشاب الصحراوية البعثة في

الأودية والخيوان . هذا الإقليم كله تسوده حرفة الرعى ، ولكن الأحوال الطبيعية تجعل من الضروري أن يختص الإقليم الشمالي برعى الإبل والجنوبي برعى البقر . والإقليمان متجاوران ، وهذا التجاور يبعث على التمييز بين سكان الشمال والجنوب ، على الرغم مما بين الاثنين من صلات اقتران . فيصف بعضهم بعضاً بأنهم بقارة أو أيلة . ومن الجائز أن تكون القبيلة الواحدة لها فرع يرعى البقر ، وفرع يرعى الإبل . فكان التسمية جاءت للتمييز بين القبائل اليمنية التي احتضنت بحرفتها الأصلية وهي رعى الإبل ، وبين أساء عمومهم في الجنوب ، الذين تحولوا إلى حرفة أخرى يرعى حيوان آخر لم يكن لهم برعيه عهد .

ولا بد لنا أن نقتصر في هذا القبائل كانت كلها رعاة إبل ، ثم توغلت بطون منها في الجنوب ، مصطحبين معهم بدوهم ؛ غير أن الجنوب فيه حشرات مثل دباب تسمى أو دباب السرب أو غيرها من الحشرات ، التي لم تكتسبها الإبل المنة اللازمة لقوامتها ، فلم تلت هذه الإبل بعد بضعة أجيال أن هدك بات ريح . ورأى الرعاة أن الإقليم يناسبه رعى البقر . وقد وحدوا لدى السكان الأصليين قطعاً كبيرة منها . فلم يدعوا أن استبدلوا البقر بالإبل ، فأصبحوا بقارة .

هذا الاسم إذن يطلق على وجه التخصيص على القبائل اليمنية ، لا على غيرهم ومع ذلك فهناك رعاة بقر من الحامية مثل جمع والمدات في جنوب كردوفان ، ومثل بعض الحسانية والحسينات . وهؤلاء قد يسمون بقارة على سبيل التجاور بحكم المحاوره ، وفي هذه الحالة يكون معنى الاسم رعاة بقر ، وليس له أي معنى من الناحية الحسية . لكن اصطلاح البقارة على التخصيص مقصور على الشعبة اليمنية التي تعيش في جنوب كردوفان ودارفور ، وتحترف هذه الحرفة .

وطراً لأن هؤلاء البقارة قد تحولوا إلى رعى البقر عن رعى الإبل ؛ أي أنهم حديثو العهد برعى البقر ، برأهم يستخدمون البقر كما كان أسلافهم يستخدمون الإبل ، لا يوقرونها ولا يحرمونها ولا يعظمونها كما يفعل الدنكا بل يركبونها ، ويحمون عليها أنعامهم إذا انتقلوا من مكان إلى مكان ، ويصمون على ظهورها أداة تشبه الرجل أو المودج لتجلس عليه امرأة .

ويصف ما كايكل البقارة في مظهره الخارجى ، منهم صمير لشرة ، يتقارون بحمة الجسم والمحول . ولهم تقاطيع واسعة حميلة ، وعيون رقة ، والشعر فلير على الوجه ، ولذلك يكون لهم لحى خفيفة مدسة ممتدة إلى الأمام ، وشارب ينشطونه باعتناء زائد . والشبان يرحون شعرهم إلى الخلف ، في صورة ضفائر أو جدائل ، أما الكهول فلا يتمسكون بهذه العادة .

ويحمل الرجال دعماً طويلاً ، له ستان عريض ويتحلى النساء بعمود من الكارم النليظ الحبات ، ويضمن عى حبة حلقة من الفضة . والنساء تمشط شعرها بعكس الرجل ، من الخلف إلى الأمام ، ويحجمه في مقدمه رأس . ويلبسن حلقة في الأذن وفي الأنف أحداً . ومصاهر الحشمة تحتف ، لأن طبيعة الناح تجعل التعجب الكثير أمراً صماً . وعنى الزعم من أن المرأة لا تتجاوز حدود الحشمة في سلوكها ، فإن مظاهرها فيها شئ كثير من الحرية ، إلى لا رها على شواطئ النيل ، وبين القبائل الجميلة عامة . وكثيراً ما ترى العنات وهي لا يلبسن سوى الزمط ، من القماش أو الجلد ، معلقة من أحصر ، والصدور والأرجل عارية .

ويعتمد إقليم البقارة من ناحية الغرب إلى حوار بحيرة نشاد ، نى إلى إقليم واداي وبرنو ، وفي هذه الجهات الغربية تظهر في السكان صفات تذكر ، بأعلا ، الذين تسربت بعض دماهم إلى الدماء العربية ، كما أن حدود الحوشة المتقدمة تتأخم الأقاليم الزنجية ، حيث يعيش الفريث والدركا وقد أخذ العرب منهم رقة . وإلى الشمال في دارفور حيث سلطنة دارفور ، اصل البقارة سلالا من طرار آخر ، وهم الفور والجماعات المتصلة بهم .

ويعد البقارة أرر قبائل السودان في الصفات الحربية ، وكثيرها يروى إلى الحرب ، بعد الشابية . وهم كدك صيادون مهرة ، وهذه الصفات الحربية ساعدتهم على تأسيس أوطانهم في بلاد جديدة عليهم ، ومكنتهم من الدفاع عنها ، حتى وصلوا بالأقطار العربية إلى حوض بحر العرال ، وإلى أمد متداد بمثل اقوفرية في السودان ، نحو الجنوب .

ولكن هذا الاضطراب و لدرعة العسكرية التي يسرت لهم التوسع نحو الجنوب ، قد ترتب عليها تصادم شديد مع سلطنة دارفور ، حيث الحكم المستقر والقوات العسكرية المنظمة ، مما أصعب شوكة القارة في دارفور ، عدا قبيلة الرقيقات وحياء البقارة تحمل هذا التصادم أمرا لا مفر منه ؛ لأنهم في فصل الجفاف ، أواخر الشتاء ، يرحلون بتماشيتهم نحو الجنوب ، حيث يصيدون الفيلة ويسترقون الأفراد من الرنح ويحطفون مائيتهم . وفي فصل المطر ، يذهبون نحو الشمال هرباً من قطعانهم من الدباب . إلى مراعى المرتفعات الشمالية ، وهرباً من المنقعات المنتشرة في الجنوب إلى الأرض الجافة في الشمال ، أي إلى الأراضي التي يرى أصحاب السلطان في سلطنة الفور أنها ملك لهم ، ولا بد للبقارة من أن يؤدوا ضريبة عن إقامتهم في هذه الجفاف من الأمطار .

ومن عده أموت في السودان أن يأخذوا الحربة من الرية الذين لا يستقرون في مكان واحد من طولاً ، بل ينهبوا أروسة اتجاثهم إلى إقليم قريب منهم ، فيحصلون الحربة في ذلك الوقت . ويذهبون مرة لم يكونوا راعين في دفع هذه الجزية ، ولم يكونوا يؤدونها . إذ تحب صعط لا قبل لهم عند موته . فكان التصادم الذي لا مفر منه من القارة والسلطنة هرباً ، كان القارة يحاولون جهدهم الهرب من دفع الجزية مكافئة . وأحياناً يستحورون في ذلك ، وأحياناً يفصلون الاعتماد نحو لشرق أو غرب ، هرباً من سخط دارفور .

ولإقليم ، في بعض فيه أسره واسع جداً من لشرق إلى الغرب ، ولكنه محدود في امتداده من الشمال إلى الجنوب ، (شكل ١٥) وهذا الانساع المصمم من لشرق إلى الغرب من النيل الأبيض إلى بحيرة تشاد ، قد أوسع المجال للحركة والانتشار شرقاً وغرباً . دون الزام وضع واحد فترة طويلة من الزمن ، ولم تكن هذه الحركة تشمل قبيلة بأسرها ، بل أحياناً تكون مقصورة على شعبة أو بعض من لمطون ، أو شعب وبطون لقبائل مختلفة ، فيتحد بعضها ثم يفصل ثم تتحد أجزاء كائ من قبل مفصلة . مما أدى إلى تداخل القبائل بعضها في بعض ، بحيث أصبحت القبائل الحديثة المعروفة اليوم لا تمثل وحدات ملتحمة ، لكل منها تاريخ

واحد ، أو كانت دائماً متماسكة كما نعرفها اليوم ، ولكن طرأاً لأنها متشابهة بوجه عام في تاريخها وصفاتها ، فإن هذا الاختلاط لا يغير من صفاتها ومميزاتها . وقد تغيرت الحال بالنسبة إلى كردوفان في عهد محمد علي وإسماعيل ، حيث تكونت القبائل بصفة مستقرة اللهم إلا ما عرأها من الاضطراب في عهد المهدي ثم عادت أمورها إلى الاستقرار بعد ذلك . أما الأحوال في دارفور فطلب كما كانت عليه إلى سقوط سلطنة علي دينار في سنة ١٩١٦ .

ويقول ما كما بكل إن استبداد سلطان دارفور دفع كثيراً من قبائل القارة إلى الاحتماء بقبيلة قوية مثل الرديقات ، ودفع غيرهم مثل بني همدان إلى المهاجرة إلى واداي ، ثم عادوا إلى السودان بعد زوال السلطنة المذكورة .

لهذه الأسباب يرى ما كما بكل أن البقارة على أحسن ما يكونون في كردوفان . أما في دارفور إذ استقبيها الرديقات فقد ساءت حالهم وأصبحوا يميلون إلى حياة تفتار بالاستقرار والركود^(١) ، والتوزيع الحالي للبقارة هو كما يلي :

(أ) في كردوفان : بنو سليم على النيل الأبيض ؛ حيث يجاورون النجم في الشمال والشرق في الجنوب . ثم إلى غربهم أولاد حميد ، و فرع من الحسانية (ومعظمهم في دارفور) ، وكلاهما مشى إلى الجنوب من نهره و حول بني ، ثم الحورمة بين الأبيض والبلح ونودي ، ثم المسيحية حمو = ريد (عربي دمج) وأخيراً الحضر في الركن الجنوبي الغربي من كردوفان شمال غرب غرب ، وإلى جنوب الغربي من المسيحية ،

(ب) في دارفور .

١ - الرديقات .

٢ - الحسانية^(٢) .

٣ - النعيشة

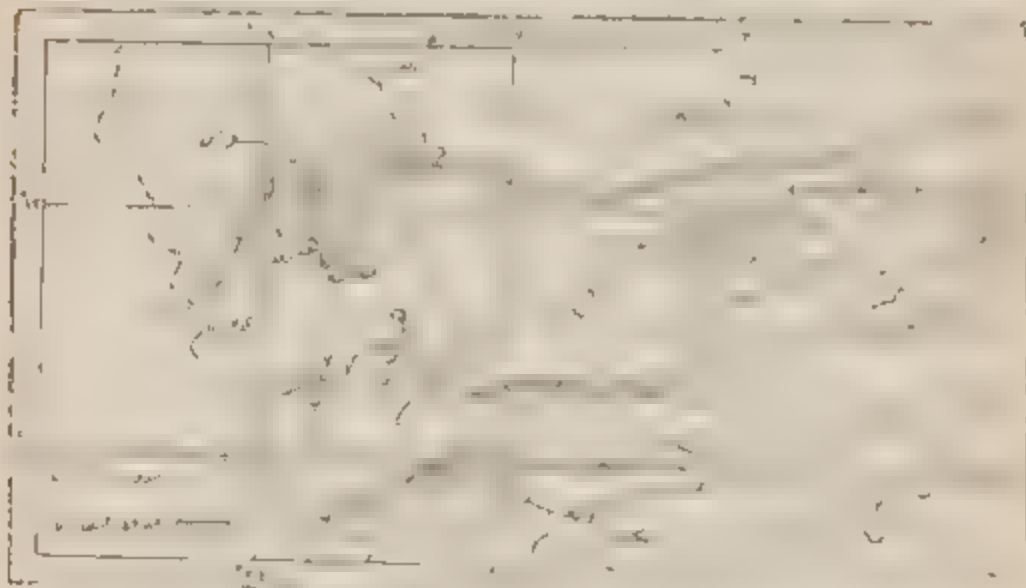
٤ - بني همدان وبني خزام^(٣) .

وهم على هذا الترتيب تقريباً من الشرق إلى الغرب . وهناك بعض المسيحية

(١) راجع كتابه العرب في السودان الجزء الأول ص ٢٧٣ .

(٢) يكتب التونسي الحسانية وبني حلة الحلاء ، غير أن الاسم الشائع في السودان هو الحلاء

إلى الشمال قليلا من الرريقات ، وبعض الثمالية ، وغيرهم على حدود دارفور وواداي
ههنا تقصص المطر عن ابو حودين في واداي (بعض بني هلبه وممظم بني خزام)
وعبرهم في بربر وبادي هذه مجموعات في كردوفان ودارفور هي التي يطلق عليها
اسم « النقرة » حسب الاصطلاح المقرر ، ومما يلاحظ على اسمهم لا يحتفون في الأصل عن
أقاربهم في الشمال أو بعض شمال في يوم يعيش حرة ، في شمال دارفور



(ش ١٥)

حيث يرعى الإبل والحمر ، وآخر في الجنوب حيث يرعى المير ، فمعص يطون
من الرريقات لا يرعى في دارفور يرعى الإبل مقصداً ، عن الرريقات
في الجنوب

وسمى في مثل هذه الحرة ، القمائل إلى صلت في شمال احتفقت بأصولها
ودمائها العربية ، وما كان معها أقل ممرة من اسمها الجنوبية التي أتت من
اعلاتنا ومن البحر ، وحج وجماء واكسفت بعض الصفات الزيجية .



هنا يبدو لنا أن نقاسم كيف وصل هذه القبائل العربية القحطانية إلى
أوطانها الحالية ؟ إن ما ذكره بكل بحث هذا الموضوع وعرض لوحات المطر المختلفة
وسعرض هنا خلاصة لبحثه هذا وإن خالفنا في بعض التفاصيل لأسباب أغفلها

ولم يذكرها^(١)، وقد سقت لنا معالجة هذا الموضوع من ناحية قبائل جهينة عامة، ونظر إليه الآن من ناحية البقارة بوجه خاص.

يتساءل الكاتب هل جاء البقارة بطريق النيل إلى أوطاسهم الحالية، أى أنهم جاءوا من الشرق والشمال الشرقى، أم جاءوا من الشمال والشمال الغربى، أى من بلاد المغرب، ثم تزوا برنو واداي؛ ثم تحركوا شرقاً إلى أوطاسهم.

يقول ما كايكل: إن اتساب البقارة إلى عبد الله الحيمى، وقولهم أنهم وقبائل فزارة أبناء عم، كل هذا مما يدعو إلى الظن بأنهم جاءوا من إقليم النهرى، أى عن طريق نهر النيل. ولكن من ناحية أخرى يحور أن السمة إلى عبد الله الحيمى جاءت مع بعض المهاجرين من إقليم النهرى. وهناك بعض البقارة يؤكدون أن أجدادهم جاءوا من تونس مشعره (مثل الحر والخورمة)^(٢) أو مران إلى الأقطار الواقعة إلى الغرب من دارفور، وبعد أن قاموا هناك بصفة أحيال، أخذوا يهاجرون إلى دارفور وكردفان.

وبعد أن يذكر ما كايكل هذين الرأيين يرحح صاحب رأى لأول (طريق النيل) فيقول إنه وإن كان مما لا شك فيه أن عدداً كبيراً من العرب قد هاجروا أخيراً من تونس والجزائر ومرا كش إلى أواسط إفريقية، فى افرون لى أعقت العرب الأهلية لشمال إفريقية. ومع أن المرء لا بد له أن يسلم بأن انتشار قصة الاتصال بأبي زيد الهلالي عند البقارة، لا تخلو من معنى. فبما من جهة أخرى لدينا شهادة ابن خلدون التى لا شك فيها، بأنه فى النصف الأول من قرن الرابع عشر، احتشدت بطون من جهينة فى بلاد النوبة، ثم اندفعت إلى الأقطار التى فيها نحو الجنوب متبشرين الأمطار.

وآراء الحراء المحدثين تميل بقوة إلى أن البقارة جاءوا من الشرق؛ ثم يستشهد بأقوال بارت الرحلة الفرنسى عن قبائل الشاوية، أى البقارة الذين يعيشون فى رنو وباقرى وحول بحيرة تشاد. ويرى أنه ليس هناك أدنى شك فى أن هذه

(١) قس المرجع ٢٧٥

(٢) واجع ما كايكل قبائل كردفان الحالية والوسطى من ١٤٦، ١٥١

القبائل هاجرت من الشرق ؛ وأسلم انتقلوا بالتدريج عبر البلاد الزنحية . ولهجتهم بعيدة كل البعد عن لهجة المغاربة ؛ وتحتفظ من وحوه عديدة بفصاحة وسلامة لغة الحجاز . وهؤلاء الشاوية يتمون إلى عدة عشائر ويطون ، ويبلغ عددهم في إقليم تشاد ٢٠٠ — ٢٥٠ ألفاً . ويشهد بارت على أن عرب رنو أتوا من السودان ببعض العادات الشائعة عندهم في السودان ، مثل الدية والختان الفرعوني .

ثم يتمثل ما كايكل نقول سانح فرسي آخر (كاربو Carbou) : وهذا المؤلف يقسم العرب في إقليم رنو إلى قسمين ، أولها الذين جاءوا من الشمال ، والثاني العرب الذين جاءوا من الشرق (ويسميهم جهنية) ، ويقول إن العرب يطلقون على السكان الأصليين اسم نوبا مما يدل على أنهم أقاموا فترة من الزمن في السودان . كذلك لاحظ هو أن بعض العرب يطلقون على قبائل كاسم اسم « هيج » وهي أيضاً تسمية تعودوها في الشرق .

يرى ما كايكل أن هذه الأقوال وأمثالها دليل قاطع على أن الكثرة العظمى من بني جهينة قد جاءوا من « الشرق » متتبعين النهر ، دون أن يذكر لنا على وجه التحديد ما هذا الطريق الشرق . وهل تبدأ متتبعاً نهر النيل من الشمال ثم انفصل عنه متجهاً إلى الغرب ، وفي أي مكان أو إقليم بالتقريب حدث هذا الانفصال ؛ ولكن الظاهر أنه يرى أنهم هاجروا في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وأنهم احتلوا بلاد النوبة ثم اندفعوا جنوباً من بلاد النوبة إلى شمال كردوفان . ثم اندفعوا من هناك مباشرة إلى برنو . كل هذا وهم لا يزالون رعاة إبل ، ولا يعرف تماماً متى زحمت طائفة منهم نحو الجنوب وأصبحوا بقارة .

ويرى ما كايكل فوق ذلك أن الجميلين (مثل الجوامعة) قد سبقوا البقارة إلى كردوفان الشرقية في إقليم الرهد وبروكي ، وأن البقارة إنما بدأوا حياتهم كرملة نقر في غرب كردوفان ، وبعد ذلك انتشروا نحو الشرق من جهة ، ونحو دارفور من جهة أخرى .

وحلاصة الرئي الذي ذهب إليه ما كايكل هو :

أولاً : أن الكثرة العظمى من البقارة قد وصلوا إلى أوطانهم الحالية في

السودان وواداي وبرنو ، من إقليم نهر النيل (وهو يقصد النيل النوبي بدليل اعتماده على رواية ابن خلدون) .

ثانياً : أن قليلاً من العرب النصارى أو العرب المستعربين هاجروا فعلاً من فزان وتونس واختلطوا بالقبائل الجهنية .

ثالثاً : أن الروايات التي تصلهم بالهلالية لا تدل إلا على أن فريقاً منهم جاء فعلاً من تونس على أثر الفرو الهلالي .

رابعاً : أن شهادة السائحين الفرنسيين سلامة لغة البقارة في بروما يدل على أنهم جاءوا من الشرق .

وقد سبق لنا أن لاحظنا أن هذا المؤلف ، عند كلامه عن قبائل جهينة عامة ، يذهب إلى أنهم جميعاً جاءوا عن طريق السودان الشرقي ، ولكنه عند ما أحد يبالغ موضوع البقارة ، أتته وجهة أخرى ثبت أن لهم هجراتهم المستقلة عن هجرات أبناء عمهم في شرق السودان .

ولا شك أن هذه الوجهة هي الصحيحة ، في مجلتها ، ولا كمن سبوا لها أنهم تفتقر إلى بعض التعديل في التفاصيل ، وذلك أن ما ذكره كل واحد على ما كتبه ابن خلدون — يرجع جميع لهجات الخمسة إلى التسائل في ثلاث سلالات موزعة وأقام بها فترة من الزمن ثم ارتحل عنها سبباً وراء ، مشرب وناظر ، وهذا الرأي مع التسليم بصحته يشمل في الغالب جماعات محدودة من جهينة أحصاها الكمايش ، أما سائر القبائل ، فيها لم نقر على شوطي لنيل النوبي ، بل عادت على قبول الصحراء اللبية إلى دارفور وكردوفان مباشرة .

والسبب الذي يدعونا إلى ترجيح هذا الرأي مسألة لم يشر إليها مؤلف المذكور ، وقد نكون لها دلالتها ، وهي أن قبائل البقارة وطوبوها المختلطة تنحدر عن معظم قبائل السودان ، بأن أسماء القبائل والبطون لا تنتهي بالقطع المعروف أب إلا نادراً ومثل هذا الأمر ينطبق أيضاً بوجه عام على قبائل بني هارارة ، بينما هو لا ينطبق على الكمايش إلا بمقدار ، ولا ينطبق على الرقاعة أو الشكرية أو غيرها من القبائل الجهنية الشرقية .

من الذلوف الشائع أن جميع القبائل البليية والشرقية لها بطون كثيرة تنتهي
أسماءها بالمقطع آب ؛ أم القارة وسو فرارة ، بل وجميع الجهميين الغربيين يسمون
بطونهم أولاد كذا ؛ مثل أولاد حمد بدلا من حمداب وأولاد مليك بدلا من مليكاب
وأولاد نايل بدلا من «يلاب» ، وفيلة الحمر (رعاة الإبل) وهم أيضاً من جهينة
يسمون بطونهم أحياناً ناس كذا وأحياناً أولاد كذا . .

ويبدو من أن احتلال كهدا لا يحى ، عن محض الصدفة ، خصوصاً أن هذه
الطاهرة لا تنطبق على السكواهلة في كردوفان الذين كانت لهم أوطان في شرق
السودان ، بل تبدو فقط في القبائل الجهمية في كردوفان ودارفور .

والخاق مقصع آب في آخر الاسم يرجع إلى مؤثرات لغوية (لعلها حامية)
قديمة وأثرها واضح في «ليم سيل الأبيض» والآرق والليل الأعظم ، والجهات
محدودة بهر . وتعد هذا التأثير شرقاً إلى البحر الأحمر ، ويبدو بوضوح في قبائل
البحر . وهو مؤثر ثقي . وليس مؤثراً حقيقياً ، وبدون أن الثقافة الحامية كانت
قوية في كردوفان في شرق السودان ، وأنحد في نصف كذا تعدد
عن السهر نحو العرب .

وإذا شدت قبائل القارة وأقربهم من رعاة الإبل ، وقبائل فرارة ونصف
السكيش عن الظاهر لسانة في الجهات الأخرى من السودان . فلا بد أن
يكون سبب ذلك في معرضهم لمؤثرات التي غلبت على تلك الأقطار ، ولم يقيموا
في الجهات البليية فترة من الزمن ، بل لأرجح أنهم سلكوا طرقاً للمحرة ابتعدت
هم عن الجهات البليية . وهذه هي الطرق التي قصد أن سميها الطرق البليية ،
وهي من طريق الأربمين ، أو ما يشابهه من الطرق التي تغض من مصر إلى
دارفور وكردوفان مباشرة .

وقد لاحظنا أن السكيش هم القليلة الجهمية الوحيدة ، التي نجد فيها تلك
المؤثرات التي تبدو في أسماء بعض بطونها . وموقعها الحمراني في شمال كردوفان وقربها
من بلاد النوبة وصحراء بيوضه أي الجهات التي تأثرت بالثقافة الحامية ، يجعلها

بغاية الشذوذ الذي يثبت القاعدة العامة . ولعلها تتألف من تلك البطون الجبلية ،
التي أشار إليها ابن خلدون والتي عاشت فترة من الزمن في بلاد النوبة
وهكذا يبدو أن الاحتمالين الدين وادن بينهما ما كباكل ؛ وهما لطريق النيل المسمى
وطريق قران وتوس ليسا للاحتمالين الوحيديين ، بل هناك طريق وسط بينهما ،
وهو الطريق الشمالي الغربي للسودان أي الجبال الشمالية بكردوه ودارفور .
وهو عدا ذلك الطريق الذي ذكره معظم القائلين في رواياتها وأحاديثها .
وهذا الطريق الليبي في الأرجح يتقدم من عربي مستقيم في مصر مستقيماً نحو
الجنوب . ولذلك ترى الأستاذ سلجمن بمحاضرة بين مصر قذائل في عربي مصر
ومن أشهر من القبائل الجبلية في السودان .
وسورده . إلى فصولاً موحدة عن قبائل الجبلية "نسبه في كرا من كردوه
ودارفور

المسار في كردوه

١ - مسجون في النيل جنوب لأحد ، ولحم ، وقد سبق
الإشارة إليهم عند الكلام في الجمع وأنه : منهم مصغرات وسوسليم
تتمد أوصالهم إلى كاكاي إلى حدود است ، ولأحد منهم ربعاً من هؤلاء
حرراً من أوصالهم الشبه وراحوهم عنها وهم ربعون البصر ، ولكنهم أكثر
في ارم من الأخير من تربية الصغار لأهل حرصا للامراض ، وهم القادة وحبون
على النيل الأبيض وحررتهم إليه حديثاً ، ولحم فصل بشر الثقافة العربية عرب
النيل الأبيض إلى مدى أبعد مما يلمسه شرق ذلك البحر .

٢ - أولاد حميد : ميسون شمال غرب Taqua وحبوب أم رايه في أول
أقاليم كردوهان من الشرق .

وينتسبون مثل كثير من البقارة إلى جد يدعى جنيد : وأسسهم بل على
أن بينهم وبين الهابية والتعايشة قرابة . وإن كانت مواضع التعايشة بعيدة نحو

العرب من دارفور . وفضل مقامهم في هذا الإقليم المتاحم لنوبا كان لهم بعض التأثير في نشر الثقافة العربية في النوبا الشيبين ، كما أنهم بلا شك قد تسرب إليهم بعض صفاتهم .

كذلك يلاحظ أن مواطنهم لقربها من الإقليم النهري الذي تسوده القبائل الجميلية ، قد ساعد على المصاهرات بينهم وبين الجميلين .

٣ - الهبابية : يمشون إلى الجنوب من بلدة الرهد ، وهم هنا يتناولون قروا من الدوحة التي تعيش في دارفور ، وسواء في كردوفان أو دارفور فهم أكثر ميلا إلى الاستقرار من غيرهم من القارة والشمة التي تعيش في كردوفان هاجرت إلى أوطانها الحديثة منذ نحو قرن مضى . ولدت نبات بينهم وبين حيرانهم مثل الخوامسة في الشمال ، واحم وأولاد حميد في الشرق والجنوب عداوات . ويقال إن عدد القبيلة كلها كان قرب من ٨٠٠٠ ؛ وكانت الضرائب المقررة على شمة كردوفان ٢١٥ م ، وفي دارفور ٢٦٤٠ م ، وسكن هذه النسبة بعيرت بعد ذلك وازداد عدد القسم الكردوفاني منهم حيث أصبح لاهل كثيرا عن شمة دارفور . وأوسهم في دارفور واقعة بين أوطان الرقب في الشرق والتميشة في الغرب ، والمسلي في الشمال والساكا في الجنوب . ونظرا لقربها من بلاد الساكا في الجنوب ، حيث تربة السودان الحديثة ، يسمي أوسهم كثيرا بها المسندمة . في موسم المطر يتعرضون لإغارة النبال وهم معروفون بالصيد ، وصيد الفيلة بوجه خاص .

وينقسم الهبابية إلى قسمين كبيرين النيرة والسوط ، وكلا هذين القسمين عبارة عن صر من موسم إلى موسم به الأمل ، ولا ترس هناك رعاة إبل في كردوفان الشبية . يستخدمون انصاره ووضع على صفحة لسو والسوط في صورة حط مستقيم على محدد من آخر العمود القفري إلى أسفل لا شك أن هذه التسمية ترجع إلى الوقت الذي كان فيه الهبابية جميعا رعاة إبل في شمال كردوفان ، والظاهر أن انقسامهم إلى شمتين الطارة والسوط ، يرجع إلى زمن متقدم .

وكل من الشعبين ينقسم إلى عدة أقسام ، وهذه الأقسام تتكرر بين الهابية سواء أكانت أوطانهم كردوفان أو دارفور .

٤ — الحوازمة : كلهم في كردوفان (والمفرد حزى) : قبيلة كبيرة العدد يملع أفرادها زهاء العشرين ألفاً . أوطانهم تمتد إلى الشرق من دنش في اتجاه شمال شرق إلى جنوبي غربي إلى الغرب من كادحلي ، أي أنهم أبداً يتوغلون في بلاد النوبا . ولا شك أنهم امتصوا كثيراً من النوبا حتى أن شعبة منهم سمي أولاد نوبا . ويرى ما كمايكل أن الحوازمة قد استقلوا كقبيلة منفصلة منذ نحو ٢٥٠ - ٣٠٠ سنة .

٥ — المسيرية والحمر : كانوا إلى وقت قريب نسبياً قبيلة واحدة ، وكان لها قسمان المسيرية الزرق ، والمسيرية الحمر ، وهذه كانت حلقهم إلى أوائل القرن التاسع عشر ، حتى كثرت الحمر فاعصبوا وأصبحوا قبيلة واحدة ؛ ولا تزال أوطانهم متجاورة ، فالحمر في الجنوب الغربي من كردوفان حيث يقسمون بلاد لاسكا ، ومسيرية إلى الشمال الشرقي منهم . ومواطن الحمر ذات تربة صخرية سوداء في الجنوب ، وتربة حمضية في الأراضي المرتفعة إلى الشمال ، وتنقسم في نصفين الشمال ، والجنوب في الشتاء ، يساعدون في لانتفاع بجميع المراعي ، ويحب عوئل الدواب في موسم مطر ولا تهاؤ منهم في الشمال تتجاوز بلدة محمد في الأرض الحدي عشر

٦ — المسيرية — (أو الزرق) : هم المنسحب إلى الشمال الشرقي من أوطان الحمر ، وتمتد إلى أرض النواك عشر . وهم قبيلة عظيمة معظمها في كردوفان ، ولكن ستة صغيرة منهم تعيش في دارفور . ويحيط بلادهم خور عظيم يدعى وادي الفلة ، يحدها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، ولعله يصب في بحر العرب أو أحد روافده ، وقد كان لهم فيها مصى شأن كبير في دارفور وهاداي . ولكن المنازعات التي ثارت بينهم وبين السلطان قد نقصت من شأنهم في تلك الجهات ، ومع ذلك لا يزال عدد منهم لا بأس به في واداي ، وهم رعاة إبل أما في دارفور فإن الباقين منهم هناك يعيشون إلى الشرق من جبل مرة ، ويرعون البقر ، ولهم بعض الزراعة ، مما يجعلهم أقرب إلى الاستقرار .

ومن القبائل التي تعد فرعاً مستقلاً ، ولكن شديد القرابة بالمسيرية قبيلة تدعى
الشمالية . ومعظمهم في دارفور يعيشون إلى جوار المسيرية هناك .

البقارة في دارفور

١ المربعات :

إذا احصرنا حدود دارفور الجنوبية (دارالبحر) إلى دارفور ، دخلنا بلاد
المرتبات ، وكلهم في دارفور وهم أكثر قبائل دارفور ثروة وقوهم بعوداً
وأوطاسهم واقعة في أقصى الجنوب الشرقي من دارفور ، من البحر شرقاً ، والغصاة
غرباً ، وسكانهم ، وإلى شمال مساحة قليلة السكان ، بكثير فيها المستعمرات
بعد الأمطار ، ويشترط حمايتها في وقت امتناع المطر . وهذه لأسباب طبيعياً من
جهة ، ومن جهة الحربية ، ووفرة حشدهم من جهة أخرى . أمكن لذلك أن
يعيشوا بأمن من استبداد سلاطنة دارفور . ولكنهم اضطروا تعادياً للاستطدام
مع بني دار وأماهون بلزموا أوطاسهم في الجنوب في القرن الماضي ، بدلاً من
التوغل في وسط دارفور كما كانوا يفعلون في أوائل القرن التاسع عشر .

وعلاوة على ترسة المشقة ، وهي كثيرة ، لهم زراعة منتظمة بفضل الظروف
المناخية الملائمة . وفي الجفاف يترحون إلى شواطئ بحر العرب ، وهم أكثر قبائل
البقارة ثراء بالبدن . لإدارة عليهم فيما مضى ، مما أدى إلى اختلاف كثير من
الإمام . ونجد رواج منهم ، وذلك أثر في سجنهم وأوطاسهم بعض التأثير .

ولشده ذنهم وسعة امتلاكهم وحاجتهم في تمجيد سلطان دارفور ، كان كثير
من القبائل يحتمون بهم ، مثل الحماية ، ومن هلبة وحرام

وتقسم المرتبات إلى ثلاثة أقسام : وهم الماهرية ، والمحمد ، والبواينة .
وهذه ثلاثة قبائل بهذه الأسماء في شمال دارفور ، وكلها رعاة إبل ، وبعضها يعيش
على حدود وادي . وهذا مما يحمل على الظن بأن شعبة من كل من هذه القبائل
الثلاثة قد هاجرت إلى الجنوب وعاشت في أوطان متجاورة ، ثم اتحدت فكونت
قبيلة المرتبات : التي أصبحت أعظم وأشهر قبائل البقارة .

٢ — الهابية :

معظمهم كما ذكرنا في دارفور، ولكن سبق الكلام عليهم جميعاً عند الكلام على شعبة كردوفان .

٣ — التعايشة :

إلى الغرب من الهابية ، نجد التعايشة ، وهم أقرب القارة نسباً إلى الهابية . كما تتحاور منازلهم . وأوطانهم في الركن الجنوبي الغربي من دارفور ، تحدهم من أبعاد القبائل العربية نحو الغرب ، وليس بينهم وبين الحدود العربية بالسودان سكان أو جماعة عربية أخرى بصغة دائمة ، فأوطانهم واقعة بين ديار الهابية شرقاً ، وحدود السودان الفرنسي غرباً ، ودارفور غرباً ، وبين هذه شمالاً ، ولا شئ أنهم فيما مضى قد توغلو من قبل في بحر العرا ، وشربوا اشقافة عربية فيه .

والإقليم الذي يعيشون فيه اليوم قبيل السكار ، ومكانهم لما في حديثهم عن الأحداث الهامة في السودان ، لولا أن الخليفة عبد الله التعايشي كان معهم ، فارتفع شأنهم بتوليته منصب الزعامة . وقد حلب منهم آلافاً (يقدم سلاحاً بنحو ٢٤,٠٠٠ محارب بنسائهم وأصنامهم ، وامله بقصد أن هذا عدد هم جميعاً ، وليس عدد المحاربين وحدهم) إلى أن در من ليكونوا له سداً وعصداً ، وقد كانت لهم السيطرة على بعض الجهات الهامة ، مثل دقلة ، في عهد الخليفة عبد الله وبعد انتهاء عهده ، زاد كثير منهم إلى ديارهم ؛ ولكن بقيت أعداد صغيرة منهم في مديرية كسلا وسدر وعلى النيل الأبيض . وفي كثير من المدن الرئيسية .

والظاهر أن اسم التعايشة (الفرد تعايشي) نسبة إلى جد يدعى أحمد تعايش ، أحد أحفاد حميد ، الذي ينتسب إليه في النهاية كل من أولاد حميد والهابية والتعايشة . والظاهر أن حميداً هذا كان يعيش في أوائل القرن الثامن عشر .

والتعايشة ، مثل الهابية ، ينقسمون إلى قسمين : وهما القلادة ، والعري ، وكلاهما اسم لوسم توضع على الإبل ، كما أن الهابية ينقسمون إلى السوط والطارة . وبديهي في كلا الحالين أن هذه التسمية تثبت أن تسميته في مواسمها في الشهر كانت ترمي الإبل ، واحتفظت بتمييزاتها حتى بعد أن تحلت عن حرفتها القديمة .

٤ — بني هلبة :

وبحارون التعايشة من حمة الشمال ، وكانت أوطانهم فيما مضى متاخمة لجبال
حمرّة ، ولبلاد العور ، وذلك عرصهم لكثير من المشقات ، إذ كان يطلب منهم
دفع إهوات ضخمة لسلاطين المور . . . وكذلك لم تتحسن حالهم كثيراً في عهد
المهدية . وهم الآن قبيلة ضعيفة ، ولها فروع فيما وراء الحدود الفرنسية السودانية .

وهناك قبائل صغيرة ، من القارة ، أو أحراة من قبائل ، معظمها في وادي
وراء حدود السودان ، وقد ضربنا صفحاً عن ذكرها لقلة خطرهما عن حمة ، ولأن
معظمها يعيش خارج حدود السودان ، وإن كانت بينهم وبين القارة صلات نسب .

وصفوة القول أن القبائل التي أطلق عليها اسم القارة تعيش فيما بين خط عرض
١١ و ١٣ ، ومعها قد يتدحجوب هذا الخط كثيراً ، مثل الجر والريفات ، وقد
رأينا أن اسم قارة ، معناه الحصى الاثوخرى ، لأن هذه القبائل عربية جهمية ،
انفصلت عن أخوانها من رعاة الإبل في الشمال ، وأخذت تحترف رعي الماشية
الثقيلة في الجنوب . وقد شهدنا ، أثناء عرصد السريم أن هناك أكثر من دليل
يد ، مما لا يدع مجالاً لشك ، على أن هذه القبائل كانت في مواطنها السابقة ، وقبل
روحها إلى الجنوب نرى الإبل .

ومثل ذلك إلى الحديث عن القبائل اجهمية الشهيرة التي تحترف رعي الإبل .

الكبايش

قبيلة من أعظم قبائل السودان وأشهرها ، وقد كان لها في السودان
الحديث شأن كبير . ولا شك أن الكبايش أعظم القبائل الأباله ، وأكثرها
عدداً . ويبلغ أكثر عدداً من الإبل لدى أية قبيلة أخرى . ولكن ليس
معنى هذا أنها أكثر قوة بالنسبة إلى كل فرد من أفرادها ، بل معناه فقط
أنها أكثر القبائل إبلا ، وهذا العدد الكبير من الإبل يقابله أيضاً عدد كبير من
الناس ، فالكراهلة مثلاً في المتوسط أعنى من الكبايش بكثير ، وعلى الأحص

في الإبل . وقد غلا سلجبان في تقدير ثروة الكباش . فزعم أن الرجل الغني منهم قد يدفع عن ابنه مهراً للروحة قدره مائة ناقة ، وأن فقير الناس لن يعطي أبداً من خمس أو ست . ويقول ديهز الذي عاش أعواماً مع الكباش ، إن قليلاً جداً منهم من يملك مائة ناقة (وقد لا يريدون على عشرة أفراد) وإن كثيراً من بطون القبيلة ليس لها إبل مطلقاً . والرجل الذي يدفع مهراً للروحة ابنه حملاً أو ستاً من البوق لا يعد فقيراً ^(١) .

وليست الإبل هي الثروة الوحيدة للكبائش ، فإنهم يملكون من الصان ستة أمثال عدد الإبل . ولعل الصان أصل ثروتهم ، أو عدها الأول في وقت من الأوقات ، لذلك سموا الكباش . وطراً لأن مواطنهم تمتد جنوباً إلى بحوم البحارة فإن العشار التي في الجنوب لها بعض اثر أيضاً .

ومواطن الكباش محورها وادي النيل ، وكلها واقعة شمال خط عرض ١٤° . والحدود الجنوبية للملاحة مقارنة لحد الخط ، وليس هذا في الشمال حدود واضحة ، سوى الصحراء البينية . ومن البادية العربية تقترب الكباش في بحولهم من حدود دارفور ، وفي الشرق قد يستقون إبلهم من وادي النيل في وقت الخريف (الشتاء) . وقد يصل عدد منهم إلى النيل في إقليم دقنه ، ويمتص هؤلاء ، ويستقرون ويحترفون الزراعة . وأوطانهم في الجنوب تمثل نجاداً متوسطة الارتفاع تتخللها دلال صخرية بارزة مثل جبل أم بدر وجبل كانول . وهذه الجهات الجنوبية أكثر مطراً ، ويتخللها بعض الخيران ؛ وهب أيضاً تيار من المصير الزراعية ، ولكن القائمين بها هم بعض الأساق والخدم . أو الأشخاص الذين لا يملكون إلا القليل من الصان والساعر ، لأن الكباش حرفة الرعي قبل كل شيء .

وملاذ الكباش ملائمة كل للامة لرعي الإبل والصان . ويرى ما كايكل أنها تشبه من وجوه عديدة ملاذ نجد في جزيرة العرب . بحسب ما يطالع الإنسان

(١) فقد الكباش كثيراً من ثروتهم في عهد الهدية . وبعد هزيمة علي دينار في سنة ١٩١٦ ساعدتهم إدارة السودان بأن أعطتهم مقداراً صغيراً من إبل ذلك البطان شمس اسمي ، نظير خدماتهم وإخلاصهم .

في وصفها . واتساع رقعتها ، وتمدد آبارها وأوديتها جعل من الممكن للقبيلة أن تنمو ويرداد عددها ، وأن تمتص عناصر عديدة اندمجت فيها على مضي الزمن . وفي الوقت الحاضر يمتاز الكنايش بالوحدة الاجتماعية ، أي أنهم يؤلفون مجموعة واحدة منظمة سطي اجتماعياً . ولهم رئيس أعني (يسمى الآن بطراً) . ويخصص له الأفراد ورؤساء الأقسام والبطون والعشائر . ووحدة الاجتماعية (أو السياسية) هي التي تقرر أن يطلق عليها اسم قبيلة ، ولكن جميع الشواهد تدل على أن هذه القبيلة المظيمة تتألف في الواقع من عدة قبائل اندمجت على مضي القرون وانحدت . ومن الجائر أن هذا الاندماج قد حدث نتيجة لتفوق بعض القبائل في الثروة والعدد ، فاستطاعت واسطة المرو أو مصاهرة أن توحد الآخرين وتحملها كلاً متحداً مندمجاً . ولكن لا بد من التسليم أيضاً بأن طبيعة الإقليم والحياة الاجتماعية والاقتصادية ، تدعو إلى مثل هذا الاندماج . وتدعو إلى تكوين وحدة فعلية كبيرة بدلاً من عدة وحدات صغيرة ، يحد كل منها مشقة في تدبير المرائي واسقاية قطعانه . ناهيك أن تنارع البقاء في مثل هذه الأراضي سيؤدي حتماً إلى اندماج الوحدات الصغيرة في الكبيرة

ومن أكر الأدلة على أن الكنايش يتألفون من عدة قبائل اندمج بعضها في بعض أنه ليس لها رسم واحد لإبلها . بل لكل من أقسامها الستة والعشرين رسم خاص به . ونحن نعلم أن البدو لهم تقاليد يحافظون عليها أشد المحافظة في رسم إبلهم . ولذلك كان اختلاف التوسوم دليلاً على اختلاف شاة كل قبيلة وعلى أن الأقسام المختلفة تمثل قبائل أو وحدات مستقلة اتصلت واندمجت .

ولا شك أن هذه الأقسام لا تمثل كلها عرقيات حاصصة ، بل شتمل على وحدات قديمة ، قد يكون منها الوجه أو النوبة . ولكن الكثرة المظمية من الكنايش ينتمون إلى بطون عربية من جهة . واسم الكنايش (مفرد كباشي) يرمعون أنه يرجع إلى حد — هو في الغالب خرافي — يدعي كدش ، وإدالم يكن هذا الحد حر فباع كدش كان لقبه الذي لقب به لعنايته برعى الضأن أو لاشتهاره بامتلاك عدد كبير منها ، وفي كلاً الحالين لا بد أن يكون الاسم مشتقاً من رعى

الكباش أو الصان ، كما تسمى بعض القبائل العربية بالمعارة أو المعارة ، أو الشويحات (نسبة إلى شاه) .

وقد تدفقت القبائل العربية الجهمية إلى هذا الإقليم في أزمان يصعب تحديدها ، ولكن كثيراً منها تدفق في القرن الرابع عشر بعد أن حصلت بلاد النوبة للإسلام والنفوذ الإسلامي .

ولاشك أن البلاد لم تكن خالية من السكان بل كان فيها عناصر قديمة هي التي يطلق عليها الأهالي هنا كما في جهات أخرى من السودان اسم العنج .

والعنج من الأسماء القليلة في تاريخ السودان التي لا سكاك معروف لها مسمى . وإنما وصل إلينا هذا الاسم نتيجة لسؤال السكان — وهم عادة من العرب — من كان قبلهم في البلاد . ومن وزنوا الحكم فيها ، فيكون رددهم بأنهم قد سنبؤوا في البلاد من العنج ، وليس هذا الأمر مقصوراً على ديار السكابيس ، بل تتجورها إلى الأنطار النيلية بل وفي أرض الجزيرة وسهل البطانة أحياناً .

والظاهر أن لفظ العنج ليس كلمة معناها « السكان الأصليون » ، بل كلمة تدل فملاً على جماعة أو شعب من الشعوب . وقد ورد ذكرها في أواخر القرن الثالث عشر للدلالة على إقليم أو جماعة تسكن الإقليم ، وذلك بالنسبة لوجود رارت مصر في ذلك الحين ، وشكت إلى حكامها ما يعانونه من ملك دقله .

كذلك يشير السكان إلى كثير من الآثار على أنها من محلات العنج . وهذا التواتر من جهات متعددة يحمل على الظن ، بل على اليقين ، أن أمر العنج ليس حديث خرافة أو أسطورة ، وحتى ليس لفظاً مقتبساً من لغة من ألسنت تعنى السكان الأصليين . بل لا بد أنه كان يطلق على شعب قديم ، حصص بالتدريج ، يعود المفروض بواسطة المهاجرين المتأخرين نسبياً ، واندماج العنج في معنى الزمن تماماً في العرب .

ولا يستطيع أن نذهب إلى أحد من ذلك ، فنحن نرى العنج كانوا عصراً من النوبة ، سكان الجبال في جنوب كردوفان كما يرغم البعض ، أو أنهم أشبه بالتو سكان تبستي . أو حتى أنهم من النوبة يشبهون النوبيين الهريسي . على الرغم من أن النوبيين

كانت لهم هرات إلى كردوفان ، بل أقرب إلى العقل أهم جماعات قديمة ، وعلى الأرجح قوقازية .

وحسبنا هنا أن نشير إلى أن الكبايش قد امتصوا عناصر من هؤلاء المص ، ولعل هذا لم يكن المص الوحيد لدى متصوه ، ولأرجح أنه قد دخل في تكوينهم أيضاً عناصر من المحه ومن اسوه . ولكن هذا لا يفي أن الكثرة العظمى من الكبايش من عناصر عربية جهمية في جذنها . ولعل نسبة الجماعات عبر العربية لا تتجاوز ٣٠ ٪ ، وفي أسماء القبائل والبطون نحو الثلث ذات صفة حمية ، مما يدل على السماح عناصر لا تتجاوز الثلث في العناصر العربية ، ولذلك يصدق ما قلناه من أن كل ما في الكبايش من الدماء العربية الخالصة لا يقل عما لساثر قبائل السودان .

وهكذا نرى أن الكبايش ، وإن حصوا اليوم قبيلة واحدة ، فهم قبيلة تكوين من دمج عدد كبير من القبائل قد يتجاوز العشرين عدداً . ومن الحائر أن السطون العربية عسها لم تكن في الأصل تنتمي إلى قبيلة واحدة .

وكما نشير في ذكره من قبل ، فإن فوق كل شيء وعلى الرغم من أنهم ومن وفرة عناصر عددهم ، فإن ذيل ما تقدم الأسس ، وهي المياد التي تقاس به لثروهم والفني والجاه ، والطاهر أيضاً أن الكبايش عريقون في حرفة رعي الإبل ، لأن لهم تزايد متصل مباشرة في بحرى في الجزيرة العربية ، وأشهر هذه التقاليد استحداثهم لمعظمه والشحه ، أو الهودج ، وهو عبارة عن أعواد من خشب مثبتة على ظهر الدب ، ومنظاة بالأنفحة ، والجلود ، بحيث تستر الجزء الأكبر من الحمل ، وتصل الهودج المرخاة إلى قرب الأرض ، والكل على بالودج وشرايط من خلد وغير ذلك ، طبقاً لتقاليد مقررة متداولة . وفي هذا الهودج المفرد تجلس المرأة ، وفي الهودج المزدوج ، المؤلف من طبقتين ، تجلس الفتاة في المقعد الأعلى ، وتابستها في المقعد الأسفل .

والطاهر أن الكبايش هم القبيلة العربية الوحيدة في السودان ، التي تقضى

هذه المطقة ، والإبل لدى الكباش مشهورة قوتها وشدة حتمها ، ولكنها لا تمتاز بالسرعة كما هي الحال في إبل البجة .

وفي النهاية لا بد لما أن تساءل كيف وصل الكباش إلى أوطانهم الحالية ، وهنا يحذر لنا أن نذكر ما رواه بعض الرحالة المتقدمين من أن الكباش منشرون شمالاً إلى حدود مصر ، وكذلك تذكر أنهم عريقون في البداوة ورعى الإبل ، وفي كلا الأمرين ما يدل على أنهم أو معظمهم لم يعرفوا الاستقرار طويلاً ، وأن أكثرهم نزل أوطانهم الحالية من طريق يحدى وادي النيل من جهة الغرب . ثم اتجهوا جنوباً حتى احتلوا أوطانهم الحالية . ولا يزال الكباش إلى اليوم يسلكون هذا الطريق ، حين يقصدون إلى مصر لبيع إبلهم في أسواقها .

وقد قدر سبحانه عدد الكباش في سنة ١٩١٨ بمئتين ألفاً ، ولكنهم في الوقت الحاضر قد يزيدون على ضعف هذا العدد .

الخمر

الخمر دابة حديثة لتكوين ، لا يرجع تكوينها إلى أمد من منتصف قرن الثامن عشر^(١) . وليس من السهل تحقيق اسم حي وحيه الصيغة ويركان من وضح أنها تتألف من عناصر مختلفة أكثرها ينتمي إلى جبهة ، و سيبه تتألف في وقت الحاضر — كما كانت تتألف من قبل — من ثلاث شعب ، وهي ترتيب أهميتها . المساكرة (مفردا عسكري) والدفايم (مفردا قومي) والمرسية (مفردا عريسي) . وكانت الشعب الثلاثة إلى وقت قريب ، مستقلة بعضها عن بعض استقلالاً يكاد يكون تاماً ، ولكل منها طابعي الرعي من جملة ما قد نعيش في قرية واحدة ، وكثيراً ما تلتقي في موسم الشوق (أي الأرنحال الصيفي في حسب الرعي) ولكن رعي الوصن المشترك والتجاوز مستمر وسرعان ما تسدج لأحواث الثلاثة بعضها في بعض اندماجا تاماً . وقد أعيد تنظيم القبيلة حديثاً (سنة ١٩٢٨)

(١) راجع كتاب الأستاذ هدرس . A Note on the History of the Hamar .

Tribe (المخطوط سنة ١٩٣٥) ص ٥ .

بحيث أصبح إلى جانب المطار الثلاثة للشعب الثلاثة ، سلطة قبلية عليا تتمثل في الشيخ لأكر للقبيلة الذي يطلق عليه اسم ناظر عموم الحجر ، وهو وإن كان من المساكرة غير أنه الرئاسة على المطار الثلاثة . وهذا الإجراء قد أدى إلى تحسن واضح في تماسك القبيلة وازدياد التعاون بين شعبها وبطونها .

واسم الحجر يرجعه أساء القبيلة إلى حد اسمه أو لقبه الأحمر غير أن معلوماً عن هذا الحد لا تكاد تتجاوز اسمه .

وسعد الغريسية رواية يروونها يزعمون فيها أن أصلهم حيريون من اليمن هاجروا في زمن الخنساء بن يمسب ، فعبروا البحر الأحمر ، وعاشوا فترة من الزمن حول (كسلا) ثم هاجروا من هناك إلى دارفور ثم انتقلوا إلى وقت متأخر إلى أوطانهم الحالية في الإقليم الذي من كردوفان ، ويرى ما كيبكل أن هذه الدعوى قد تقوى على أساس صحيح ، حسب ما نقل من أن هناك صلة قرابة بين الحجر وبين الحمران الذين يعيشون في فيفانكا . ومن الجائز بالطبع أن هذا الرأي ينطبق على عدد محدود من الأفراد أو الأسر . وليس القشاة في الاسم وحده دليلاً يمكن الاعتماد به لأن مدققيهم لهم بطن يسمي الحمران ، مع أنهم لا يدعون أنهم جاءوا من الشرق .

وذكر الضن أن العناصر الشرقية قليلة جداً لأن أسماء الطون والمشار لا تدل على التأثير بالأسماء الشرقية كما سبق إيضاحه . بين الحمران سكان تاكا تظهر فيهم هذه التأثيرات بوضوح

ويعيش الحجر بأقسامه الثلاثة في الأطراف الغربية من كردوفان ، على حدود دارفور . كما أن كثير منهم هاجروا إلى الأوطان الحالية بعد إقامتهم فترة من الزمن في شرق دارفور . وتنتشر أوطانهم الحالية في الشمال إلى خط العرض الرابع عشر ، وتنتشر جنوباً إلى ما بعد الخط العرض الثاني عشر في أقصى الغرب ، ولكنها بوجه عام واقعة شمال هذا الخط ، وبذلك يكون طول بلادهم من الشمال للجنوب يقرب من ٢٠٠ كيلومتر ، ويتجاوز ذلك قليلاً في العرض . وبلدة النهود واقعة وسط إقليمهم ، ولكنها تحكم حكماً إدارياً ، ويسب كل هذه الأوطان التي تتجاوز مساحتها

٣٠,٠٠٠ كيلومتر مربع ، خالصة للحجر ، بل قد رل بينهم كثير من أثناء القبائل الأخرى ، ويطلق عليهم اسم الأغراب . وكان بعض رعاء الحجر يشجعون الأغراب على النزول بينهم والاندماج فيهم .

وكان عماد الاقتصاد الرئيسي للحجر رعى الإبل أول الأمر ، ووصفهم بعض الكتاب بأنهم في القرن الماضي كانوا أكثر إبلا من الكباش ؛ وكان بين القبيلتين منافس وعداوة ، اشتدت وراحت وصوحاً ، عند ما ظهرت المهدية فاصرها الحجر بخلاف الكباش ، فرأى الحجر في ذلك فرصة للدوان ، حتى سلوا الكباش الشطر الأعظم من قطعانهم .

وفي عدا ذلك لم يحج الحجر فائده كبيرة من مصادره للمهدية . وفي أوائل هذا القرن حدثت بينهم وبين الرقيق حروب لا مبرر لها ، امهرم فيها الحجر . ومن جهة الشمال لم يكن د من أن يمر الكباش ، ويسلموهم قطعانهم بحيث لم يبق لهم من الماشية سوى مقدار ضئيل .

ومع أن بعضهم لا يزال رعاة إبل ، فإن معظم الحجر يعيشون اليوم من الزراعة ، ومن جمع الصمغ ، وليس أوطانهم كلها صالحة لزراعة ، بل لكل رسما أو ثلثها فقط هو الصالح لزراعة ، وبعد الأمطار لا يبقى في لأرض ماء كثير ، ولذلك نرى عادة تحويب شجر التندى وادحار الماء في حدودها ، أكثر انتشاراً لدى الحجر منها عند أية قبيلة أخرى . وكثيراً ما يتمتعون بأسطبح الوحشي في تغذية الإبل . وهو ينمو أحياناً في أراض قلما تصلح للزراعة .

* * *

يقين مما تقدم أن رعاة البقر في الجنوب من كردوفان ، قائلهم رعاة الإبل في الشمال ، هذا باطلع إلى جانب أعمال الزراعة واستخراج الصمغ من شجر الهشاب ، لدى امتداده إقليم كردوفان . ومعظم رعاة البقر كما رأينا من جهة ، كما أن أعظم رعاة الإبل الكباش والحرمها أيضاً ، ثم الكواهلة الذين هم بسبهم الخاص . كذلك رأينا أن حبوب دارفور يحتله القارة أيضاً ، ونكفنا لن نجد في دارفور ذلك التقابل الدقيق بين رعاة البقر في الجنوب ورعاة الإبل في الشمال ، كما هي الحال

في كردوقان ، بسبب الاختلاف في طبيعة إقليم دارفور ، واعتراض كتلة جبال مرة في وسطه ؛ ثم تكوين سلطنة دارفور وعبر ذلك من الظروف التي سنذكرها في الفصل التالي .

ومع ذلك فإن في شمال دارفور مجالا لرعاة الإبل . شرق الحلال وغربها وشمالها . وهذا المجال يمتد إلى وادى وإلى السودان الفرنسى . وفي هذا الإقليم قبائل من جهينة أيضا ، أو بعبارة أصح أجزاء من قبائل ؛ منهم الماهرية والحاميد والموايه ، وهم يؤلفون تلك الشعب الثلاثة من رعاة الإبل التي نعالج أسمائها أسماء الشعب لقبيلة الرريقات ، رعاة البقر في جنوب دارفور . ومراية الرحم بين الفريقين أمر مسلم به . ويحاورهم في أوطانهم الشمالية وحدات أخرى من جهينة مثل المريقات والمطيفات .

ومهما يكن من شيء ، فإن المجال لتكوين قبيلة ضخمة من رعاة الإبل في دارفور لم يكن ممرا ميسورا كما هي الحال في كردوقان التي تمتد فيها دون عائق من حلال وعرة أو سلطنة مركرة مستقرة .

الهواوير

لعل هذا هو أسب مكان للنحدث عن الهواوير لأنهم وإن لم يكونوا صراحة من قبائل جهينة فإن لمص السدين ربا خاصا قد يفرهم منها ، ومن جهة أخرى فإن محاورهم لكبايش ، ومواطنهم في شمال كردوقان مما يبرر ذكرهم في هذا الفصل

والهواوير قبيلة مستقلة متوسطة في العدد وثروتها في الإبل لا بأس بها ، ومواطنها الرئيسية تمتد من عرى وادى الملك إلى صحراء بيوضة . فهم حيران الكبايش من ناحية الشمال الشرقى ، والملاق بين القيتين طيبة ، وكثيرا ما ينتقلون معا في طلب الرعى ، وعلى الأخص زمن الأمطار .

وقد دخل الهواوير السودان مهاجرين من القطر انصرى ، ملتزمين الجاب
الغربي من النيل على دعامات في أرملة مختلفة ، وليس القبيبة لم تتكون في مواطنها
الحالية إلا في زمن متأخر . وينتمي الهواوير من جهة نسب إلى تلك القبيلة
العظيمة : الهوارة .

ولاشك أن الهوارة قد نشأوا في بلاد العرب ثم هاجروا إلى مصر ، وقد
ذكرهم القلقشندي في صبح الأعشى ضمن القبائل عبر القطوع معروفاتها . (١) وقال
« إن نسايتهم يقولون إسمهم من عرب اليمن » وينتمون إلى إحدى طوون فصاعة ،
وهذا النسب إن صح يقربهم كثيراً من الحميين .

ويقول المؤلف المذكور إن أوطانهم الأولى كانت تمتد في مديرية البحيرة من
الإسكندرية إلى مسافة بعيدة نحو العرب والحبوب ، وطلت هذه حاكمها إلى آخر المائة الثامنة
(القرن الرابع عشر) ثم اضطروا تحت ضغط قتل رؤسائهم وحلفائهم من بقية عرب
البحيرة ، إلى الخروج عن أوطانهم هذه إلى صعيد مصر ، فتركوا بالأعمال لإجماعية
في حرجها وما حولها ، ثم قوى أمرهم ، وانتد ناسهم ، وكثر جمعهم حتى انتشروا في
معظم الوجه القبلي بين أعمال قوص ، وإلى غربي الأعمال الهندسية ، وقطعوا بها
الإصطاعات ، وصارت الأمر لهم في تلك الجهات ، ودام لأمرهم حتى عهد
القلقشندي وقد امتد بعد ذلك إلى مديرية قنا ، ولازل أهم من كرمها
إلى اليوم غير أن تسلطهم على القسم الجنوبي من الصعيد لم يكن دائماً باعثاً على رضى
سكان تلك الجهات . فاضطرت الحكومة في عهد المالك وفي أول عصر محمد علي
إلى محاربتهم وإخضاعهم .

ولاشك أن هذه الأحوال قد اضطرت كثيراً منهم إلى الخروج جنوباً إلى
السودان ، فانتقل بعضهم مشتتاً بالتحارة إلى شمال دارفور ، وهؤلاء يدعون إلى
اليوم باسم الهوارة الجلالة ، أما الهواوير ، فلعل محرنهم كانت مورعة تتناول لقرون

(١) صبح الأعشى ، الجزء الأول . ص ٣٦٣ .

الخمسة الأخيرة ، أى منذ طوردوا فى أوطانهم فى مديرية البحيرة ، فلما تكاثرت
عددهم كونوا قبيلة مستقلة باسم الموارير ، والمرد هوارى ، كما هى الحال فى القطر
المصرى الآن .

ومعلوماتنا عن الموارير قليلة ، وهى تشير إلى أنهم يمتارون بالصفات القوقازية
والذين الحطى ، ولم يختلطوا بمناصر من الحبوب ، بخلاف أقاربهم الخلاية فى
دارفور الذين يعيشون عيشة أكثر استقراراً ، ونسبت إليهم بعض
الدماء القريبة .

الفصل الثاني عشر

مملكة الفنج وسلطنة دارفور

ليس الغرض من هذا الفصل أن يمرض بحثاً تاريخياً لمملكة الفنج وسلطنة دارفور ، لأن هذه البحوث التاريخية تخرج عن نطاق هذا الكتاب ، اخصص لدراسة العمائل والوحدات الشرية في ثوابب خمسة في السودان اشمالي . ولكن تردد الإشارة في الفصول سابقة إلى الفنج ، بوصفهم وحده من الجماعات الشرية الخطيرة في السودان . وأما لم يكن يد من التعريف بهم ، وعرض آثاره المختلفة عن شأنهم وطورهم .

كذلك لا يريد في هذا الفصل أن يشكك في سلطنة دارفور من ناحية تاريخية ، بل من ناحية كوابها الشرية ، ولقد ثل أو الجماعات اعتدلة التي تصممها ، نى ما سماع موصوع سلطنة دارفور بوصفها إقليمياً خاصاً من أقاليم السودان ، وهذا كله في السودان اشمالي ، وله من الناحية الشرية مبررات اعمرد بها ، عبره عن الأقاليم الأخرى .

النتج

سبق لنا الكلام على إقليم الجزيرة من النيل الأبيض ولأررق ؛ وعلى اقمائل المختلفة من جهينة وجعلية التي اتخذته وطناً لها ، وهذه السلالات العربية منشرة في القسم اشمالي من الجزيرة ، الذي ينتهى جنوباً عند خط العرض ثمانى عشر ، على وجه التقريب . وإلى جنوب هذا الخط يبدأ انتشار جماعات غير عربية ، ولا تزال هذه الظاهرة تردد ، حتى ينتهى التوغل العربى ، وتصبح هذه الجهات مياديناً خاصاً لجماعات تغلب عليها الصفات الرنحية مثل الدمكا والأحسب والحره والشر ، والشك ؛ وهكذا يتم التدرج من السودان اشمالي إلى السودان الجنوبي .

والقسم الشمالى من الحريرة يمتار بالسهولة التامة ، غير أن القسم الجنوبى يتخلل سهوله مرتفات جبلية منعرة بمصها عن بعض ، وإن كانت متقاربة فى كثير من المواضع . وليس لتورمها نظام مطرد . وهذه المرتفعات — على الرغم من أمها بطلق عليها اسم حال — لا تمدو فى بعض الأحيان أن تكون كتلا صخرية ضخمة باردة ، مرتفعة عن السهول المحاورة بما لا يريد على تصع مشات من الأمطار . وصحورها مكونة فى الأغلب من الخربوب أو من صحور للتورية أخرى غير أن بعضها ذو حجم كبير ، يشابه حدل البوابى جنوب كردوفان . وفى هذه الحالة تكون الجبال آهلة بالسكان .

وهكذا تقاسمت العناصر القوقازية والزنجية أرض الحريرة منذ زمن بعيد ؛ وتكونت فى النصف الشمالى فى العصور الوسطى مملكة عبوة المسيحية ، وعاصمتها سوتة . وأحد القود العرى يتوغل فيها منذ زمن بعيد ، يرجع على الأقل إلى القرن العاشر الميلادى . وفى أوائل القرن الرابع أخذ النفوذ العرى يشتد وينتشر . وفى عام ١٤٧٤ أنشئت « اسطة العرب مدينة أرغى على النيل لأرى ؛ وفى سنة ١٥٠٤ هوجت مملكة علوه من الشمال و الجنوب ، وقامت على أنقاضها دولة الفنج . وكان هذا الفتح نتيجة لتحالف قبيلة القوسمة ، على لأحص شعبة عبد الملل برئاسة مير عبد الله حماع ، مع جماعة « مسج » ، ولأولون أورو من الشمال ، ولأحرون حشدوا جيوشهم من الجنوب برئاسة زعيمهم عماره دققر مؤسس لدولة الخديده . شئت دولة المسج بدن فى توح تقرر الخمس عشر وأخذت لها عاصمة جديدة ، مدينة سار القديمة ، و قعها إلى شمال من سار الخديده نحو ثلاثة أميال . ووقوع العاصمة فى الحراء الجنوبى من مملكة عبوة أمر بلا شك له معر ، وعل الأرجح أن هذا الموقع أقرب إلى لإقليم ، أى يكون فيه قوة الفنج واشتدت فيه شوكتهم . أما عبد الله حماع فقد كوفى على معاوضته بأن قبل منصب نائب الملك فى لإقليم الشمالى ، ومنح لقب منجل ، وأخذ له عاصمة جديدة فى قيرتى ، فى الطرف الجنوبى من حوى سنوقه ، على الضفة الشرقية لنهر النيل الأعظم . ولم يلبث دولة الفنج أن اتسعت رقعتها اتساعا عظيما ، وأصبحت تمتد من حدود

الحبشة إلى سواكن في الشرق ، وإلى دنقلة في الشمال ، وإلى حدود دارفور في الغرب ؛ وإن لم يكن نفودها قوياً دائماً على جميع هذه الجهات في جميع الأوقات . ولم يكثف ملوك الفصح في وسعهم بالاعتماد على العرب ، بل كان من دأبهم أن يشثوا الزوايا والمساحد ، وأن يلحقوا بها المدارس لتعليم الدين . فكان لهم فصل كبير في نشر الثقافة الإسلامية العربية .

ومع أن إنشاء دولة الفصح حدث من أخطر الحوادث في تاريخ السودان ؛ فإن نشأة « الفصح » أنفسهم كات -- ولا تزال -- موضع جدال بين الكتاب ، والسبب الأكبر في هذا الاختلاف أن الكتاب -- وأكثريه من الإنجليز -- لا يربطون التسمية بسحنة أموال الفصح أنفسهم عن أصلهم ونشأتهم .

وأول شيء يجب ذكره هو أن الفصح أصولاً قبيلة من القبائل ، بل هي أسرة كبيرة ، أو طبقة حاكمة ، مثلهم كمثل آل عثمان بالنسبة للدولة العثمانية . وقد كان ظهورهم فجأة في نهاية القرن الخامس عشر ، إذ ظهر زعيمهم عماره دنقس ومعه أتباعه وحششته ، يقود جيشاً مؤلفاً من خليط من الناس ، فيه عناصر حسنة وعربية ومولدة .

ومن الحائر أن ظهور مير الفصح في سنه وفقت ، حادث شاذ في تأسسة بيده ، إذ أنه لم يكن قد حدث قبل ذلك من التطورات في أرض الجزيرة أو في جنوب المطانة . ويفلب على الظن أن أمرهم كان معروفاً لمعاصريه قبل تأسيس دولته ، ولا سيما كان من السهل أن تتصل بأعماق العربية في الشمال ويتجانبوا إليها على الغزو المشترك .

ورواية الفصح أنفسهم عن نشأتهم الأولى تتلخص في أن أجدادهم من بني أمية التجأوا إلى البلاد الحبشية عند رول دولتهم على أيدي بني العباس . فعاثرو الحبشة وصاهروهم . وقد احتج الخلفاء العباسيون لدى ملوك الحبشة لإيوائهم هذه الشعبة من بني أمية ، فأدى ذلك إلى خروج هؤلاء الأمويين من دولة إثيوبيا والتجانبهم إلى الجهات المتاحة ، ولعلها في الطرف الجنوبي من الجزيرة وسهل البطانة ؛ هذا لك تكونت تلك النواة ولم تزل تنمو وتتكاثر ، حتى أصبحت من القوة بحيث تمكنت من

عزو مملكة علوه والقضاء عليها . ومن المهم أن نذكر — ونحن نصدد هذه الرواية — أن دولة الفنج منذ بدء تأسيسها كانت دولة إسلامية ، لعتها العربية ، وليس لها أية لغة أخرى .

ومع أن هذه الرواية تتفق مع التطورات التي يحق لنا أن نتوقعها . فإن بعض الكتاب لم يقلها ، لأنها تتعارض مع ما جاء في رحلات السائح الاسكتلندي روس ، الذي مر من هذه الجهات في أواخر القرن الثامن عشر ، والذي استقى أحباره من بعض الموطعين ، أمه من الشلك فيما يظهر ، وأحبره هذا الموظف أن الفنج — أي الأسرة أو الطبقة الحاكمة — من أصل شلكاوى .

إن الشلك في أمقت الحاضر ، لا يحتلون أرضاً في الجزيرة ، اللهم إلا مساحة ضئيلة في إقليم مكال تمتد إلى مصب السوبات ، ويسمى وبين بلاد الفنج مسافات بعيدة تقرب من ٣٠٠ كيلومتر ، يحتل بعضها الدسكا ، وقبائل أخرى مثل المابان والـرُن والإنحسا وغيرهم . وعاصمة الشلك في الوقت الحاضر ومعظم أوطانهم واقعة على الضفة الغربية للنيل الأبيض في أقصى الجنوب . وحياتهم مركزة على الضفة الغربية في صورة واضحة . ومع أن هذا كله مما يحمل على التردد في تصديق رواية روس ، فإن أحد الكتب ، قد أيد وجهة نظر السائح الاسكتلندي تأييداً شديداً ، وهو المستر A. J. Arkell . وأحد بلتمس الأدلة على هذا الرأي ، معتمداً أحياناً على رواية روس ، وتارة على بعض التخمينات اللغوية .

مثل ذلك فونه قلا عن وسترمان إن كلمة فنج أو فون هي في الأرجح الكلمة الشلكاوية نون ، والناء والقاء من الأحرف التي تتواتر في لغة الشلك كما هي الحال في لغة النوبة . ومعناها العريب أو الغرباء . ويطرأ لأن الشلك قد احتلوا سفار وأسسوا المملكة الجديدة . فلا بد لهم أن يدعوا أنفسهم باسم جديد يميزهم وهم مسمون عن أعرسهم اوثنيين في النيل الأبيض ؛ وكان من الطبيعي أن يختاروا لذلك الاسم الذي يلقونه على العرب والمسلمين وهو الفون أو الغرباء (١) !

(١) راجع مقالة أركل في S.N.R لعام ١٩٣٢ ، الجزء الثاني من ٢١٤ .

ونعله ليس من المفيد أن نثير حجج مستر آر كل وأفكاره القديمة ، لأنه خرج بمد ذلك رأي جديد نتيجة لدراسات قام بها في السودان الفرنسي ، فتبين له أن حضارة الفصح وتقاليدهم مشتقة في معظمها من بقية بحيرة تشاد^(١) . ولا يسم النصف إلا أن يقرر أن هذه الآراء المختلفة — رغم مظهر التوحاشة التي تبدو في بعض حججها — لا بدع أمامها مندوحة من قبول رواية المسح أنفسهم التي لا تزال لها قوتها ووجاهتها .



وقد تبين مما تقدم أن الفصح عبارة عن الطبقة الحاكمة ، الذين أسسوا الدولة المسماة باسمهم ، وكانت الدولة بالطبع تشتمل على وحدات قبلية ، وسلالات حاكمة وعمرية ومولدة كما هو المنتظر في مثل هذه الأحوال . وهذه الجماعات لم تكن بالطبع من المسح ، وكان لابد من التمييز بين الطبقة التي تدعى بهذا الاسم وبين سائر جماعات . ولست أرى هذه الجماعات تدعى — كلها أو بعضها — باسم المسح ، وليس من السهل أن نقبل بدقة أي الجماعات بالتحديد كان يطلق عليها هذا الاسم . وقد حصل للأسفاد سلجها أن هذه تسمية تطوى على شيء من الزاوية ، ورغم أن المسح معناه طيندت خها أو عبيد ولكن القرائن لا تدل على صحة هذا الرأي ، وهذا واضح أن هذا اسم كان له بعض الوجود في الأول فإنه لم يلبث أن أصبح معناه جماعات التي ليست من المسح ، وقد أمكن لهذه الجماعات أن تقوى بعض اسمها الخصرة وقد كان محمد بن السكيتك ، والراجح أنه من الجمع ، بعد من المسح . ومع ذلك كان ذا منصب رفيع في الدولة . وهو الذي تولى قيادة الجيش الذي غزا كردوقان ودارفور ، وبعد عودته اضطر الملك لأن يجعله وزيره الأول وأن يجعل المنصب وراثياً في نسله من بعده ، ولم يلبث وزراء المسح أن أصبحوا ولهم المكان الأول في الدولة وتصريف شئونها .

ونظراً لأن جماعات الفصح قد تزايد عددها على مدى الزمن . لا يزال في

(١) راجع في علة (٢٧) من S,N,R (سنة ١٩٤٧) مقالة عنوان More about

السودان إلى اليوم أمر تدعى باسم الفنج موزعة في عدة جهات . ولا يزال في السودان مك من الفنج مقره مدينة سنحها ، كما أن هنالك جماعات قلائل تدعى باسم الحميج .

والكتاب الذين توهموا أن أصل الحميج جماعة من الشلك ، قد رأوا تأييداً لرايهم فيما قيل من أن عادة قتل الملك ، السائدة عند الشلك أو التي كانت سائدة عندهم إلى وقت قريب ، كانت أيضاً منتشرة في دولة الفنج . وقد أشار سلجبان إلى ذلك ، وقال إن أبحاث الأستاذ برتشارد تؤيد هذا الرأي بالنسبة إلى معظم الجماعات التي اشتملت عليها دولة الفنج .

وقد استشهد سلجبان أيضاً بشهادة بروس إذ يقول :

« من أعرب الأمور السائدة بين هذا الشعب التوحش (!) أن الملك يتولى الحكم ، وهو يعلم أنه قد يقتل يوماً ما قتلاً شرعياً بواسطة رعيته أو عبيده بناء على رأى كبار الضباط إداراً أو أنه ليس من مصلحة الدولة أن يبقى في الحكم ، وهنالك فرد واحد من أفراد أسرته هو الذى يستطيع أن ينقذ هذا الحكم ، ويسمك دم قريبه ومليكه ، وصاحب هذا المنصب يلقب سيد القوم ، وهو مدير الحاشية وخدم ، وليس له على ذلك صوت في المجلس الذى يصدر الحكم ، والذى يتولى هذا المنصب الآن : أحمد سيد القوم ، هو بالصدفة المجيبة من أرق الناس حاشية في سار اليوم وهو يعيش في قصر الملك إسماعيل ، وقد ولد في «روعلى» وقد حيل إلى أنه لا يزال وثياً . »

وفي هذا الكلام تناقض واضح ، فبديهى أن الكلام يشير إلى مملكة سار وعلى ذلك فإن سيد القوم الذى يجب حسب ما أورده بروس أن يكون من الفنج ، هو من فاروغى ، أى من البرتا ، ودينه رقيق حتى حيل لبروس أنه لا يزال وثياً . وأساس هذا التناقض في رواية بروس أنه لا يمر بين ما يجرى في فاروغى وما يجرى في سار . ومن السهل على مثله أن يخلط بين ما يجرى في بلد وما يجرى في غيرها .

والذى لا شك فيه أن هذه المادة لم تكن في يوم من الأيام لها وجود عند الفنج ، على فرض وجودها لدى بعض القبائل التى علبت عليها الوثنية . ونحن نعلم من أساء كل ملك من ملوك الفنج شيئا ليس بالقليل ، ونعرف بوجه خاص ظروف موت كل منهم . وليس هنالك حالة واحدة تؤيد ما ذهب إليه بروس . وهكذا تتضاءل الأدلة المختلفة التى أريد بها إرجاع الفنج إلى أصل شلكاوى وترجع كعبة الرواية التى ترجع بهم إلى أصل عربى ، وإذا كانت الشجرة قد اكتست سمرة حتى كانت دولة الفنج تسمى المملكة الزرقاء ، فإن هذا أيضا مما يؤيد روايتهم . لأن المماربين من بنى أمية كانوا كلهم أو حلهم من الرجال وتزوجوا من الحبش واتخذوا إماء من بنات شغل فأثر ذلك فى ألوانهم وتقاطيعهم^(١) .

مملكة تقلى

في طريقنا من مملكة سار إلى سلطنة دارفور ، نحترق مديرية كريدوفان ؛ وإذا عرجنا على الركن الجنوبي منها أمينا أنفسنا في منطقة الجبال ، حيث تعيش قبائل النوبا ؛ وفي الركن الشمالي اشرقي منها شأت مملكة تقلى ، في أواسط القرن السادس عشر . ولم تكن مملكة ضخمة تضارع دولة الصج أو سلطنة دارفور . ولكن لها في تاريخ العروة في السودان شأنا خصبيا لأنها مكنت للعناصر العربية من التوغل في هذه الربع الشمالي الشرق من حمال النوبا ، إلى الشمال من بلدة رشاد بل وإلى الجنوب منها ، مع أن هذه الجبال كانت دائما قلعة تحتوى بها جماعات النوبا البعيدة عن الثقافة العربية والديانة الإسلامية .

وبرجع تأسيس مملكة تقلى إلى هجرة رجل من الزهاد الجعليين ، ويقال إنه من قبيلة الجوعية ، حوالى سنة ١٥٣٠ ، وقد نزل هذا الرجل وسط نلال تقلى ، فلم يلبث أن اجتذب فنوب السكان ، وحلهم من النوبا ، بورعه وطيب أخلاقه . واتصل بزعم الإقليم عن طريق المصاهرة . فلم يكن بد أن يؤدي هذا إلى تولي ابنه المشهور

(١) راجع كتاب H. C. Jackson, Tooth of Fire ص ٨ وما بعدها .

وبين حديث هجرة الأمويين إلى السودان مما جاء على لسان الفنج وحدهم ، فقد أورد المفريزى قلا عن ابن سليم (القرن التاسع) أن قد انتقل من نجا من الأمويين إلى الساحل الأثيوبى للأحمر (المصنف الجزء الأول ص ٣٠٩ طبع القاهرة ١٣٢٤ هـ)

كبير من الاحترام ، وينصب لآ ناس به من النفوذ ، وإن استعالت الملكة إلى قسم من الأقسام الإدارية في السودان .

وليس اندي بهمننا أن نتبع تاريخ تلك الملكة ، وإعما الذي يعنيها أن نذكر أثرها في نشر العروبة في جنوب السودان . والظاهر أن أمراء هذه الملكة كانت لهم سياسة مرسومة في نشر الإسلام والعروبة في هذه الجهات الوعرة . وكانت هذه السياسة ترى إلى تحقيق هدفها عن طريقين : الأول وهو ما يحظر بالبال لأول وهلة ، نشر الإسلام والثقافة العربية والتراوج بين القبائل السودانية . ولكن الأمراء في الغالب لم يلبثوا أن رأوا أن هذه الطريقة لا تنجح بالفرض بالسرعة اللازمة . ولذلك التجأوا إلى الطريقة الثانية ، وهي تشجيع القبائل العربية على المهاجرة والاستيطان في هذا الركن من السودان . فأحدثت جماعات من الجعليين تهاجر من الأقاليم النهرية . وكذلك جماعات من المديرية والجوامعة . وبوجه خاص بطون نأحمها من قبيلة الكواهلة وكماة^(١) . وعصل هذه السياسة انتشرت العروبة في جبال النوبا الشرقية .

قبائل دارفور غير العربية

عرضنا في المصطلح السابقة لسكان السودان الشمالي ، مبتدئين بقبائل البجة ، ثم تحدثنا عن المعاصر العربية ، فأقسامها وقبائلها ووطنها . ورأينا كيف شملت العروبة معظم السودان الشمالي ، بل وأحدثت تتوغل في السودان الجنوبي ، الذي يبدأ في اصطلاح إدارته السودان من خط العرض الثاني عشر . ورأينا في تقدمنا لأوصان القبائل العربية ، كيف انتشرت في جنوب كردوفان ،

(١) راجع مقال Elles : The Kingdom of Tegali في S.N.R لسنة ١٩٣٥ ص ٢ . وكما أن لها قبيلة عدنانية ، غير أنها لا تتصل بالجليين إلا عن طريق المصاهرة . وراجع أنها فرع من قبيلة عربية التي تسمى بهذا الاسم في جزيرة العرب . وهي تعيش اليوم في إقبين . الأول على سهل الأزرق جنوب مستنجا مع قبائل رفاعة . والأخرى في جنوب كردوفان ، وبوجه خاص في حرة لشار إليه هنا (راجع ما كمايكل تاريخ العرب في السودان الجزء الأول ص ٣٣ وهو يشير إلى أنهم هم قبيلة دغيم هاجروا إلى السودان عن طريق مصر .

حتى توغلت في جبال النوبا ؛ وفي دارفور حتى احتلت الربع الخولى منها ، وحتى توغلت في حوض بحر النزال إلى خط العرض التاسع .

وبعد هذا الانتشار الواسع نحو الجنوب ، وبعد احتلال القارة للربع الجنوبى من دارفور ، بقيت في هذه المديرية الغربية جماعات وقبائل ، بعضها قديم وبعضها حديث الهجرة . لا يستطيع أن يصفا بأنها عربية حاصة . لأنها لم تتكون شيجة لهجرة قبائل أو وحدات عربية .

وإذا وصفنا هذه القبائل ، الى ستحدث عنها بعد قليل ، بأنها قبائل دارفور غير العربية ، كما يبدو فى العنوان ، فليس معنى هذا أنها لم تتأثر بالموود العربى ، سواء من ناحية النسب أو من ناحية الثقافة . إذ لا شك أن الدماء العربية قد دخلت واختلطت بدماء السكان الأصليين ، ومن ناحية الثقافة ، قد تأرت اللغات واللهجات على تنوعها وغمريتها ، باللغة العربية . ففسرت الألفاظ والتراكيب والمصطلحات العربية إليها . وكذلك أصبحت هذه الجماعات كلها تدعى بالإسلام . ولكننا مع ذلك آثرنا أن نصف هذه القبائل بأنها غير عربية ، لأنها طالت محفظة بلغتها القديمة . وهى لغات يستخدمها الناس فى الكلام وتحدث ، ولكنها لم تكتب فى أى وقت من الأوقات ، وقد نعلب الدماء العربية فى بعض الأسر والطنقات ، مثل الكحارة وغيرهم ، غير أن هذه الأسر صلت محفظة بلغة السكان الأصليين ،

وكثير من هذه الجماعات المختلفة لغات واللهجات ، أقدم هجرة إلى السودان ، أو إلى القارة الإفريقية من العرب أنفسهم . فثلمة فى دارفور كمثل البجة فى الشرق والنوبة فى الشمال . وعلى الرغم من كثرة الدماء العربية بين النوبة والسحرة ، حصل أن ننظر إليهم على أنهم وحدات غير عربية . لأنهم استطاعوا أن يستقوا صفاتهم الخاصة ، التى كانت تميزهم قبل الهجرات العربية .

وقد كان سلاطين الفور يحكمون أقطاراً متعددة اللغات واللهجات ، ولكن اللسان الرسمى لبلاد كان واحداً ، وهو العربية ، الى يدرسها الأطفال منذ نعومة أظفارهم ، ويتحدثونها وسيلة للدراسات الدينية والأدبية . وجميع ما كان يصدر عن

ديوان السلطان من الأوامر والبيانات والمكاتبات ، كان يكتب دائماً باللغة العربية وحدها .

وهكذا نرى أن في مديرية دارفور إقليماً ممتازاً يختلف في كثير من الوجوه عن الأقاليم التي سميت لها دراستها ، سواء من الناحية الجسدية أو الثقافية .

واسم هذه المديرية ، الواقعة في أقصى الغرب من السودان ، مشتق من اسم شعب لغور ، حتى كثرة ما اشتعلت عليه من السلالات والقبائل ، وعلى الرغم من أن لغور لا يحتلون بها سوى حيز محدود . ودارفور تشبه كردوفان ، بأنها تغلب عليها السهولة وتوحي السطح ؛ ولكنها شبه كردوفان أيضاً بأنها تشتمل على مساحة حدية وعرة ، لا سيما بتضاريسها الطبيعية فقط ، بل لها أيضاً ميزات بشرية تجعلها مختلفة عن السهول المحيطة بها .

عبر أن هناك وجوه اختلاف بين إقليمين كردوفان ودارفور . فالجبال في كردوفان تحتل ارمح الحوض الشرقي من مديرية ، وتتصل اتصالاً مباشراً ، بحكم موقعه الحرجي ، بالأقاليم التي يسودها السودا والنوير وغيرها من السلالات الزنجية أما دارفور فتشغل الجزء الأوسط من المديرية كلها . وإلى الجنوب من الجبال مساحة واسعة سهلة تفصل سهول كردوفان من جهة ، وسهول السودان العربي من الداجية العربية . وهي تشبه طريق معد سهل ، ما بين جبل دارفور في الشمال وهضبة فريت في الجنوب . وهذا الممر السهل الواسع قد احتله القارة ، كما اتحدته القناتل طريقاً يتقل فيه بين الشرق والغرب ، وسط سهول السفانا .

وهناك فرق آخر بين كردوفان ودارفور ، كان له أثره في التكوين الجسدي والثقافي لكل من القطرين ؛ وهو أن كردوفان ملاصقة في الشرق بنهر النيل . وبذلك تعرضت لتأثيرات ثقافية متنوعة مصدرها نهر النيل والأقطار التي تحف به . أما دارفور فتلاصق الأقاليم الميمنية ، التي يطلق عليها اليوم اسم إفريقية الاستوائية الفرنسية . وهذه الأقاليم تأثرت بصروب من الثقافات تختلف اختلافاً كبيراً أو قليلاً عن التأثيرات التي مصدرها نهر النيل ، وهي تشمل مساحات واسعة تمتد من أقصى الشمال إلى حدود السفانا في الجنوب . وتختلف أقطارها بعضها عن

بعض . فهناك سلالات حامية في ليبيا الشمالية ، وثقافات متنوعة في إقليم قيسية ووادي ، يقابلها ثقافات أخرى في حوض بحيرة تشاد والأقطار التي حولها ، مثل بلاد البرنو والكام . وقد آثرت كل هذه الجهات الشمالية والجنوبية في دارفور ، ولم يكن لها أثر كبير في كردوفان .

وليس معنى هذا أن دارفور كانت تنجوة من جميع المؤثرات التي مصدرها نهر النيل . لأنها تتصل به اتصالاً غير مباشر ، لوقوعها على الحافة الغربية لحوض نهر النيل ، جنوبيه وشماليه ، فهناك أودية مثل بحر العرب ، ينحدر من مرتفعات دارفور ، إلى أن تنتهي إلى حوض بحر الغزال . وهناك أودية شمالية مثل وادي النيل ينحدر من أطراف دارفور ، متجهاً إلى النيل الأعظم ، حيث يتصل به عند بلدة الدبة . وبمحاذاة هذه الأودية انتقلت المؤثرات السيلية على اختلافها ، وهي مؤثرات جنوبية في الحبوب ، تحمل بعض العناصر الثرية التي تعيش في حوض بحر الغزال وثقافتها ؛ ويقابلها مؤثرات نوبية وعربية من الأطراف الشمالية للحوض . وهناك فوق ذلك طريق اتصالات القديم المسمى درب الأربعين ، الذي يرجع استخدامه إلى عصور تاريخية قديمة ، وكان وسيلة للاتصال بين النيل الأسفل وبين دارفور .

ومن الممكن تقسيم دارفور إلى ثلاثة أقسام حمرامية . أولها يمتد من أقصى شمال انديرية إلى خط العرض $14^{\circ}30'$ وهو عبارة عن أراض متوسطة الارتفاع ، تتخلها التلال ؛ وتنحدر من هذه التلال أودية يجرى فيها ماء قليل في موسم المطر ، ثم لا يلبث أن يغشاها الحفاف . ويكسوها العشب فترة من الزمن ، وينمو بها شجر أكثر من السط . وكلاهما مما يعتمد عليه في رعي الإبل . والمطر لا يزيد على ٣٠٠ ملم في جنوبها ، ثم يتناقص تدريجياً كلما اتجهنا شمالاً . ولا يكاد يكفي للزراعة إلا في مساحات محدودة ، وجهات ملائمة .

والمنطقة الوسطى تمتد من خط عرض 12° جنوباً إلى $14^{\circ}30'$ شمالاً ، وهي التي تتوسطها الكتلة الجبلية المعتازة بالارتفاع والقمم العالية ؛ ولكنها ليست كلها جبلية بل تحيط بها السهول شرقاً وغرباً . حيث التربة ذات طبيعة رملية .

والطر عزير على الجبل يصل إلى ٧٠٠ مليمتر ، ويتناقص في المنخفضات السهلة إلى ٣٠٠ مليمتر ؛ وتوزيع الزراعة يتبع توزيع المطر . فهي تقل في السهول وتكثر في المنحدرات الجبلية .

والقسم الثالث هو المنطقة الجنوبية ، وهي متوسطة الارتفاع ، وتطلب عليها السهولة ، وإر تحللها بمص اللال ، ومطرها أكثر من سائر سهول دارفور ، يتراوح بين ٧٠٠ و ٩٠٠ مليمتر ، والزراعة ممكنة في معظمها ، ولو أن رعاة البقر يحتلونها ؛ ولذلك تطلب فيها الحياة الرعوية على الزراعة .

ولاشك أن كتلة جبال مرة ، هي الظاهرة الجغرافية الهامة التي تميز دارفور . وهي عبارة عن هضبة عالية يربد ارتفاعها في المتوسط على ٢٠٠٠ متر ، وبعض القمم فيها تصل إلى ٣٠٠٠ متر ، ومن المهم أن نذكر أن موقعها يمتد من خط عرض ١٢ في الجنوب إلى عرض ١٤ في الشمال ؛ هي ترتفع فجأة من السهول الجنوبية حيث تصل سرعة إلى أعلا قممها . ثم تتدرج في الانحدار بعد ذلك نحو الشمال حتى تنتهي إلى شمال جبل مي ، الذي يبلغ ارتفاعه ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر ، ثم تنقطع وتنخفض بسرعة حتى تنتهي إلى التلال الشمالية عند خط عرض ١٤,٥ . وهكذا يكون طول هذه الكتلة من الجنوب إلى الشمال نحو ١٥٠ كيلو متراً ولكنها لا تكاد تتجاوز ٥٠ أو ٦٠ كيلو متراً من الشرق إلى الغرب ، وبذلك يتراوح سطحها بين ٤٥٠٠ و ٥٠٠٠ كيلو متر مربع ؛ ولا شك أن جبال مرة من أهم معالم التصاريسية النارية في السودان . وتبدو أعلامها بارزة واضحة سواء أنظروا إليها من الجنوب من بيالا أو من الشرق من الفاشر ، أو من الغرب من كبكابة أو زالنحي . ومن المهم أن نشير إلى أن جبال مرة ليست واقعة على حدود دارفور الغربية ، بل هي تتوسط دارفور ، وإن كانت الحدود الغربية أقرب إليها نوعاً من الحدود الشرقية .

وإظهار أن الحدود بين دارفور وكردوفان هي في معظمها حدود طبيعية على الأخص في شرق دارفور ومن السهل أن نلاحظ قلة توزيع القرى والسكان في هذا الجزء من الحدود ، ومرد ذلك إلى وجود سلسلة من الكشبان الرملية تمتد من

الشمال إلى الجنوب لعلها من مخلفات فترة في عصر حيولوجي حديث امتار بالجفاف وعلبت عليه الطبيعة الصحراوية ، فتكوت فيه هذه الكشبان . غير أن توريع هذه الكشبان محدود ولا يتناول الحدود الشرقية كلها ، فراها تنهى حافة في الشمال . حيث تبدأ جبال بركانية مثل جبل ميدوب الواقع إلى الشمال من خط عرض ١٥ . أما الأراضي الغربية لدارفور فتتعد من الجبال إلى بلاد افريقية الاستوائية وتتصل بها اتصالاً مباشراً ولا يفصلها عنها أى اختلاف جوهري في طبيعة لأرض أو التربة ، ولذلك كانت الحدود الغربية لدارفور ، وبالتالى للسودان ، كلها حدوداً سياسية بالمعنى الصحيح ، أى أنها نتيجة اتفاق بين الطرفين المتجاورين ، سواء أكان ذلك في المصور الوسطى أو المصور الحديثة . وهذا الانتقال السهل بين دارفور والجهات التى تحاورها من الغرب هو احدى حمل الباب مفتوحاً لتتصل منه تلك المؤثرات اللبية التى سبقت الإشارة إليها .

وهكذا نرى أن إقليم دارفور لا يشتمل على منطقة انتقال من الجنوب إلى الشمال فحسب ، بل ويشتمل أيضاً على منطقة تقال بين الشرق والغرب ، أو بين السودان النيلى ، والسودان اللبى ، وبذلك أصبحت إقليماً مختاراً ليس له نظير في السودان كله .

والانصال السهل بين حوض المزال وبين أواسط دارفور ، بسبب وفرة المطر والمرعى من جهة ، ووجود أدوية توحه خطى المهاجرين من جهة أخرى ، قد كان سبباً في انتقال عناصر بشرية من حوض المزال ودار فرنيت ، إلى أواسط دارفور في زمن قديم معرق في القديم ، وهذه المنجرات القديمة ، قد كانت سبباً في نقل جماعات عديدة ، على مضى القرون من الجنوب إلى الشمال . وطبيعى أن هذا الرداء اليوم أن يغش عن بقايا هذه المنجرات القديمة ، وبالنسبة لنحدها في الجهات السهلة ، بل في الجهات الوعرة . وسنجدده بوجه خاص في كتلة جبل مرة ، التى استطاعت أن تحتفظ بكثير من الدماء الجنوبية ، والثقافات واللغات التى لا نجد لها نظيراً في السهول التى تحيط بتلك الجبال ، ولا في الأراضي السهلة التى تحيط بها من الجنوب حيث تعيش قبائل البقارة اليوم .

وهكذا نرى أن لدينا إقليما ، يحتفظ بدماء فيها كثير من العنصر الزنجي الجنوبي ، وسط إقليم تسوده الدماء القوقازية ، ومع ذلك فهو واقع كله شمال خط عرض ١٢ الذي يعتبره الكثير بمثابة الخط العاصل بين السلالات القوقازية في الشمال ، والسلالات الزنجية في الجنوب . ومهما كان لخط العرض الثاني عشر هذا من معنى ثقافي حسى في أى جزء آخر من السودان ؛ وأيا كان مبلغ المطابقة على توزيع السلالات الزنجية والقوقازية ، فإنه لا معنى له في دارفور ، لأن الإقليم الوحيد الذى فيه بقية من الدم الزنجي في دارفور واقع كله شمال خط عرض ١٢ ، سوا الأراضي الواقعة جنوبه لعابة خط العرض التاسع هى كلها خالصة للسلالات القوقازية ، والثقافة العربية .

* * *

لا بد من أن يكون لموقع دارفور الفريد ، ولتعرض الإقليم لمختلف المؤثرات الثقافية والسلالية ، أثر واضح في التكوين البشرى للإقليم ؛ وليس بمستغرب أن يكون له تاريخه الخاص .

فلا بد من إذا وجدنا بين سكانه سلالات مختلفة من حيث نشأتها ومناطق تكوينها الأصلية ، وأساليبها ، ومبلغ قدمها في الإقليم أو حدوث روجها إليه ؛ ومن الصعب الموازنة الدقيقة بين هذه المؤثرات المختلفة ، من ليبية ونوبية وحنوبية ومغربية ، وخصوصاً بعد أن شملتها كلها الثقافة العربية والديانة الإسلامية .

ولكن نستطيع أن نشير إلى مبلغ تنوع هذه المؤثرات ، في الشمال نرى عناصر ليبية ، تظهر بما في وجود جماعات مثل القرعان والبدايات والزغاوة ، مصدرها القريب إقليم ناستى وواداي ، ولكن بعضها مثل الزغاوة ، تمت إلى مصدر بعيد في صميم بلاد المغرب . وهناك عناصر قديمة مثل الداجو والعور والبرقي متركزة في المنطقة المحلية وما حولها . وبعض هذه العناصر من أصل جنوى ، ولذلك تعلب عليه الصفات الزنجية . وله قرابة بسكان الجزء الغربى من حوض بحر القززال .

وحتى هذه العناصر القديمة لم نسلم من المؤثرات الليبية (كما هى الحال في الداحو) والعربية كما هى الحال في الفور .

وهناك عناصر نوبية ، تبدو ممثلة في جبل ميدوب وفي شعب التنجور ، وكذلك في البرقد وهناك المؤثرات اللبينية الوسطى التي تظهر في المساليط ولهمهم ليس لها نظير في دارفور .

كذلك كان لإقليم كانم وبرنو (إقليم بحيرة تشاد) تأثير واضح ، حتى أن كلمة العاشر كانم لمدينة مشتق من لغات هذا الإقليم ، وهو اسم يطلق على العاصمة أينا كانت .

ويضاف إلى ذلك مؤثرات المنطقة التي امتدت أولاً في الأراضي الشرقية ، ثم دحمت إلى الغرب ، والأخرى الأمازيغية من ليبيا ، ورحمت نحو الشرق ، ولا يزال قتائل عربية عائدة تحمل السمات الشرقية من دارفور ، ولها سمات وثيق بالقبائل التي ترمي اليها في الجنوب ، من حيث تشابه لغتها .

وفي كتاب ما كنا نكل عن تاريخ العرب في السودان فصل حسن بالعناش غير العربية في دارفور ، يلاحظ أن أصلها من أصل غير عربي ، ولي لمحة أو لمة غير عربية ، وقد حمل عددها ثمانى عشرة قبيلة أو حدة ، مضافاً إليها مجموعة كبيرة سماها ، مجموعة المعيد ، التي جمى منها من الجنوب ، بواسطة بعض السلاطين دارفور ، في الأزمنة الحديثة ، ومصدرها معظمه من حوض بحر الزغال ، وعلى الأخص الحاشية التي منه . ولأقسام التي ذكرها بطريق حلقها في ما جاء في كتاب الشيخ لموسى (١) .

وعلى الرغم من كثرة هذه السلالات أو الوحدات الجسدية غير العربية التي ذكرها ما ذكرنا بكل واتموسى . فإن من الممكن تقسيمها إلى خمس مجموعات رئيسية : الأولى : مجموعة مصدرها إقليم سسى وما يحورده من الأفطار ، ويوجه خاص البلاد التي تليه من الغرب إلى أواسط الصحراء الكبرى :

(١) راجع الفصل الرابع من كتابه صفحة ٥٢ وما بعدها . وكتاب الشيخ محمد عمر التوسى اسماً تشعب الأدهان بيرة بلاد العرب والسودان (طبع على الحجر بباريس سنة ١٨٥٠ ولم ترقم صفحاته) .

وهذه المجموعة تشتمل كما ذكرنا على القرعان والبدايات والزغاوة ، ومواطنهم تمتد من الشمال للجنوب لغاية المنحدرات الشمالية لحمال مره ، على الترتيب المذكور . فالزغاوة إلى الجنوب يليهم البدايات في الوسط والقرعان في الشمال .



(شكل ١٨) توزيع السكان في دارفور

ولغة الزغاوة مشابهة تماماً للغة النوبة ، مما يدل على تأثير الإقليمين بهجرات متشابهة .

الثانية : مجموعة مصدرها إقليم النوبة ، وهي تشتمل بوجه خاص على قبائل

اليدوب والتنجور ، وهم جميعاً ينتمون إلى أصل نوى ، وهناك أسباب قوية لتأييد هذا النسب .

الثالثة : مجموعة تأثرت بالهجرات النوية ، وفي لغاتها ما يدل على ذلك . ولكنها بلا شك تشتمل على عناصر قديمة ؛ وهذه المجموعة تتألف من :

١ — البرتي Berti أصلهم من جبال تاجو Tabago ، ثم هاجر كثير منهم إلى الجنوب الشرقى اتقاء لخطر الفور .

٢ — الداخو : وهم أيضاً عنصر قديم ولهم قسبان في شرق وغرب دارفور .

٣ — البرقيد : شمال وشرق الداخو .

٤ — البتيقو أو البايقو : ولهم قرعة من لغة الداخو ؛ وفيها كثير من

المفردات النوية .

والقبائل التي يشملها هذا القسم قد تأثرت بالثقافة النوية ، دون أن تتأثر كثيراً بالدماء النوية .

الرابعة : هي المجموعة العربية ، مصدرها ، لأولين الخنوية من ليبيا ، أو السودان افرسي ، الممتدة من غرب دارفور على طول السفانا إلى حوض نهر البيجر . وتشتمل على عناصر من البعلاتنا والنيمة والمرابت والبرنو والتسكارنة وما إليهم .

الخامسة : هي المجموعة التي تستطيع أن نسميها باسم المجموعة الأصلية ، أو القديمة ، والتي ترجع عرقها (من الجنوب على الأرجح) إلى عصر قديم جداً ، وإن تأثرت بعد ذلك تأثراً يسيراً أو كثيراً بهجرات أحدث .

وهذه المجموعة تشتمل على خمس قبائل :

١ — القمر ، وقد فقد معظمهم لغته الأصلية ، شعب وديع مسالم ، مواطنه

الرئيسية إلى الشمال من واداي .

٢ — تاما : سكان دار تاما إلى جنوب القمر وعلى الحدود الشمالية من واداي .

٣ — الإرينجا والمون : ويعدم بعض الكتاب جماعة واحدة . ويتكلم كل

من تاما وإرينجا ومون لغة واحدة لا يتكلم بها غيرهم .

٤ — الساليط : يعيشون في الدار المسماة باسمهم ، ما بين القور من الشرق ووادى من الغرب ودار تاما في الشمال ودار سولا في الجنوب .

٥ — القور : وطنهم الرئيسى إقليم الجبال ، والأرجح أنهم يشتغلون على أقدم العناصر . وإن تأثروا بهجرات أحدث فيما بعد .

وإلى جانب هذه المجموعات الخمسة يذكر ما كيك كل طائفة « الحدادين » أو الحداحيد ، أطلق عليهم هذا الاسم لاحترافهم الحدادة ، وللمهم من سل قبيلة قديمة دومتهم حريمهم إلى المرأة وتحذيتهم القتال لأخرى ، كما حدث في جميع الأحوال المشابهة ، حيث ترى الحدادين ، حتى بين القبائل الرحبية ، يعيشون كأمة جماعة من السودين ، رغم استفاء حيرانيهم ، ينتج حرقهم .

* * *

ولا شك أن القور هم المصدر الأكثر بروزاً في التكوين الجنسى لهذا الإقليم كله . وفي هذا وحده ما يبرر تسمية المديرية باسم دارقور . ولكن السبب الأكبر في ظهور اسم القور على سائر الأسماء ، سواء سلطنة عظيمة توتها إقليم الجبال وما يليها من الأقطار . ومع أن الفصل في أسماء هذه السلطنة يرجع إلى عنصر يختلف بعض الاختلاف عن القور "الأصليين" فإن الاسم الذى أطلق على هذه السلطنة مشتق من اسم سلالة القور .

والقور اسم الشعب كله ، وهو الصيغة العربية للاسم ، والمرد فورادى . وهم يسمون أنفسهم فوراً والفرد فردُنجو ، ولغة القور المسماة بلى فور مختلفة عن سائر اللغات ، ولا تمت إلى العربية بصلة ، سوى اقتباسها ألفاظاً وعبارات عربية . وقد وصف بأنها تشتمل على خصائص حامية وسودانية ، وإن كان هذا الوصف الأخير لا يدل على معنى واضح ، وهي تشتمل على حروف وأصوات تشبه ما في لغة سكان بحوب وعلى الأخص إقليم بحر الفزال . وهي غنية بألفاظها ومفرداتها . ولها نحو وصرف معقد^(١) .

وقد وصف ما كيك كل القور بأنهم أحط مرتبة من حيرانهم سواء من

(١) راجع مقال مستر بيت A.C. Beaton The Fur, S.N.R 1948, Part I.

الناحية الجسدية (أى أنهم أقرب إلى الشكل الزنجي والتقاطيع الزنجية) أو الاجتماعية أو من ناحية الذكاء والفهم ^(١) . لذلك قد يبدو لأول وهلة غريباً أن يكونوا هم العنصر الطاهر في هذه المديرية حتى يغلب اسمهم على سائر الأسماء غير أن بعض الكتاب ممن عاشر الفور يشهد بأنهم لا يقولون عن جيرانهم ذكاء وبشطاء ^(٢) .

و سكن الفور يتنارون بعدة مميزات : أهمها كثرة عددهم واحتلالهم لجميع انسلقة الحدية الجزيرة الأمطار ، ورحفهم منها إلى الجهات التي تحاذرها شرقاً و غرباً ، وانصرافهم إلى حياة الزراعة والاستقرار مما جعلهم أشد التماساً للأرض ، وجبالهم التي تتيح لهم أراضي دراعية مع ويرة الماء ، هي عمدة قلعة حصينة ، يتصمون بها إذا ظهر عدو مغير ويحتفظون فيها بوحدهم وكيانهم حتى ينجلي الخطر .

وفوق هذا كله امتاز شعب الفور بأنه يشتمل على شعبة خاصة من أسائه تدعى الكنجارة ^(٣) وهؤلاء ، كان لهم الفضل الأكبر في رفع شأن الفور وإظهارهم على سائر السلالات المحاورة . وهؤلاء الكنجارة يتنارون بأن تقاطيعهم تلب عليها الصفات القوقازية ، كما يتنارون بالحد والشاط والذكاء . وهم أحسن سلاماً من سائر الفور . وهذه الميزات كلها يرجعها ما كما بكل إلى أنهم يشتملون على كثير من الدماء العرصة . ولأرجح أنه قد دخل في تكوينهم عنصر عربي اكتسب بحرية ساقية في بلاد ذات حكم مستقر منتظم ، أى أن الكنجارة لا يرجعون إلى عنصر من البدو الذين لا يرغبون في حياة الاستقرار ، وإلا لما انحسروا في إثاء دولة تمتاز بالنظام والاستقرار . ولعل من الصواب أن شبه الكنجارة بالصليح ، وأنهم يمثلون عنصراً قوقازياً فتيحاً ، على رأس جيش مؤلف من عناصر مختلفة ، ولكن الجميع يوصفون باسم الكنجارة ، وقد بسطوا نفوذهم على الفور واحتلطوا بهم ، ولكنهم طابوا شعبة منقصية لها السيادة والقيادة ، وإن كانوا يعدون أنفسهم من الفور . ويوشك أن يكون من المؤكد أن هذا العنصر الفاتح ، قد تكوّن في إقليم ما

(١) ما كما بكل : تاريخ العرب في السودان الجزء الأول ص ٩١

(٢) راجع مقال بين Beatan عن الفور في مجلة SNR سنة ١٩٤٨ ص ٣

(٣) كتبها التونسي بالماء ، وهناك من يكتبها بالألف أو الألف المقصورة .

في جنوب الصحراء الليبية ، والأرجح أن أوطانه الأصلية كانت في إقليم بحيرة تشاد ؛ وأهم الأدلة على هذا كما ذكرها أركل^(١) :

١ - استخدام كلمة ميرام Meiram بمعنى بنت السلطان الحاكم ، في دارفور وهي من لغة البرنو .

٢ - استخدام كلمة الفاشر بمعنى العاصمة ، وكان البرنو يستخدمون هذه الكلمة بمعنى الساحة الواسعة أمام قصر السلطان .

٣ - تقسم سلاطين العور مملكتهم إلى أربعة أقسام في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، كالمادة السائدة في إقليم بحيرة تشاد .

٤ - كانت العملة السائدة حول بحيرة تشاد قطعة من القماش ، وكذلك الحال في دارفور . وقد أورد أدلة أخرى تبدو أقل شأنًا من هذه ، فسكتني بما تقدم ، ولسا بحاجة لأن يعلق أهمية كبيرة على رواية شفهية كانت متداولة في بلاد البرنو في أوائل القرن التاسع عشر ؛ تشير إلى أن كلا من دارفور ووداي كان تابعًا لمملكة برنو ، اللهم إلا على أنها دليل آخر على الصلات بين العور وتلك الأقاليم . ومن الأدلة على أن سلطنة دارفور قد أسستها أسرة عربية ، أن أول السلاطين كان يدعى سليمان ساويح : وكلمة ساوينا بلغة العور معناها عربي . وهذه الأسرة الحاكمة التي كان على رأسها سليمان هذا ، وسمي أسرة كثيرًا ؛ تنسب أيضًا إلى بى هلال ، وليس من المستبعد أن يكون يعود بى هلال قد وصل إلى جنوب الصحراء . وانتقل منها إلى دارفور .

ووجود طبقة من السكان لها اسم خاص ، كاف وحده ، إذا ذرناه بالظواهرات المشابهة في جهات أخرى . لإثبات أن هذه الطبقة تمثل عنصرًا ممتازًا نزل البلاد عربيًا أو مهاجرًا ولم يلبث في كلا الحالتين أن قبض على زمام الأمور . ولكن الطاهرة التي امتارت بها دارفور هي أن الكنجارة يصفون أنفسهم بأنهم فرع أو شعبة من العور ، الذين يصفهم التوسى . بهم يتسمون إلى ثلاثة أقسام : الكنجاره ، والكرا كريت ، والتمركا ، ولا تزال هذه الأقسام قائمة إلى اليوم .

ولذلك جاز لنا أن نتساءل هل كان هذا التقسيم سابقاً لتلك الهجرة المشتعلة على عناصر عربية ، أم لاحقاً لها . . . وليس لدينا في الأخبار والروايات ، ما يرشدنا إلى الإجابة الصحيحة على هذا السؤال .

إن السلطنة التي أسست لم توصف بأنها سلطنة الكابرا أو الكنجارة بل وصفت بأنها دولة الفور ، وهذا خلاف لما رأيناه في دولة السود أو دولة الفنج نفسها . أو حتى الدولة العباسية أو الفاتمية . . أضف إلى ذلك أنه ليس للكنجارة لغة خاصة بهم ، بل لسابهم هو لسان الفور ، وكان المعقول أن تكون لهم ثقافة تميزهم ، ماداموا يمثلون عنصراً تلب عليه سلالة أجنبية أياً كان مصدرها .

ولعل التفسير لهذه الظاهرة ، هو أن العناصر الجديدة قد دخلت البلاد بالتدريج ، وعلى هرات متتالية . وأن هذه الأقسام الثلاثة ترجع إلى زمن سابق لتلك الهجرات . وكان زول هؤلاء المهاجرين في القسم الذي يسكنه أحد تلك الأقسام فاحتلوا به على مضي الزمن ، حتى ازدادوا فيه نسبة الدماء العربية أو القوقازية ورجعت كفته على ممر السنين ؛ حتى جاء الوقت واطروفت التي مكنته من إنشاء هذه الدولة في القرن السابع عشر ؛ أي أن اسم الكنجارة سبق تسرب الدم العربي إليهم . والروايات التي من أيدينا لا تشير إلى أن أول هؤلاء السلاطين وهو سليمان سُلُونُج ، كان أول المهاجرين ، بل تشير إلى أجداده سبقوه إلى زول بلاد الفور والاستقرار فيها ، ويدكرون من بين هؤلاء الأجداد شخصاً يدعى محمد المعفور لم يحدد الروايات تاريخ هجرته . وإنما تشير إلى انتسابه لبني هلال . وأن سليمان المذكور من نسله .

والظاهر أن تأسيس سلطنة ديفور قد سبقته حروب أهلية . خرج منها سليمان المذكور ظاهراً منتصراً ، واتخذ عاصمته في بلدة طرة في شمال حاد مره . وأمكنه أن يوحد السلطنة ويبدع عودها شرقاً وغرباً . . وكان حكمه ممتداً من عام ١٦٤٠ إلى ١٦٧٠ . وجاء بعده سلاطين لهم من حسن التدبير وقوة التنظيم ما نمت أركان الملك ، وإن لم تغل الفترات الأخيرة من الاضطرابات . وعند ما استتب الحكم وتستقر المملكة ، أحدث الجماعات تنتشر في أنحاء

السلطنة ، ومع أن نواة الدولة كانت دائماً في المنطقة الجبلية ، فإنها لم تلبث أن شملت السهول المجاورة شرقاً وغرباً وانتشر الفور أنفسهم تبعاً لذلك .
وقد زح من بلاد الفور شعبة من الكنجارة تدعى المسامات ، زححت إلى الشرق حتى احتل بعضها إقليمها في شرق دارفور ، وبعضها زح إلى كردوفان ، وفي بعض الأوقات بلغوا من السطوة أنهم كانوا يتنافسون سلطنة الفور بل ويناصبونها العداء أحياناً .

أما الأقسام الثلاثة للفور ، وهم الكنجارة ، والكراكرت ، والتمركا ، فإنهم منتشرون في جميع أنحاء البلاد ، ومن الصعب أن نضع حدوداً تفصل بينها ، ومع ذلك فإن الكنجارة قد أصبحوا أكثر انتشاراً في الشرق ، والكراكرت في الشمال وعلى الأحص حول حل سي . أي الإقليم الذي تحتله جماعات بعد من أقدم السكان والتمركا منتشرون بوجه خاص في الجنوب الغربي ، وربما كان الكنجارة أوسع انتشاراً من كل من المجموعتين الآخرين ^(١) .

ومن الممكن أن تصور أن سلطنة دارفور قد بدأت في الكتلة الحالية ، حتى توطدت أقدامها ورسخت قواعدها ، ثم أحدثت تنتشر بقيادة الكنجارة إلى الشرق حتى عمت دارفور ، ورحفت إلى كردوفان ، وتغلقت على المسامات ، وأصبح لها النفوذ والسيطرة على كردوفان الشمالية والوسطى ، إلى وقت فتوح محمد علي في سنة ١٨٢١ . وكما اتسع نفوذ الفور إلى الشرق ، اتسع أيضاً نحو الغرب ، وكان سلاطين الساليط تاسين لسلطان دارفور ، غير أن الحدود الغربية ضلت مجالاً للنزاع بين سلطنة واداي وسلطنة دارفور ، وإن كانت الغلبة والرححان عادة في جانب الفور . وبطراً لتتابع عدة سلاطين أولى قوة وأولى بأس شديد ، أصبح اسم دولة الفور مهيباً ، تحشاه القبائل المجاورة ، ويتحاماه البقارة في الجنوب ، على كثرة عددهم وشدة تأييدهم ، وكثيراً ما رحلت جماعات منهم بعيداً هرباً من أن يمتد إليهم سلطان الفور .

ولقد كان للسلطان دائماً عناية خاصة بحيشه ، وكثيراً ما كان يحشد فيه

(١) أصبح الكنجارة مستعمرة في شرق السودان في القضايف وما حولها

جماعات من العبيد ، يجلبهم من مختلف الجهات ، وعلى الأخص من قبائل بحر
الغزال ، وبذلك تعقد التكوين الحسى للسكان باصافة هذه العناصر الجديدة الى
اندجحت في الفور واقتبست لغتهم وثقافتهم .

وهناك روايات ترغم أن جميع العور الأصليين ، أصلهم من إقليم بحر العرال
قريبو الصلة بالعربيت ، أى القبائل المختلطة التى تعيش فى الشمال الغربى من حوض
الغزال ، غير أن ما كما بكل يرى أن لغة العور لغة خاصة بهم ، وليس لها فيه يعم
طير عند أية قبيلة من سكان دار فرنيت .

ويصف ما كما بكل العور الأصليين (خلاف الكجاره) ، بأنهم ذوو قامة
قصيرة أو متوسطة ، وجسم نحيل وأرجل دويقة ، وعظام صغيرة ، ورؤوس بيضبة
الشكل^(١) والمقاييس التى أحريت على ١٨ من العور فى الخرطوم أظهرت بسلاجهان
أن متوسط القامة ١٦٥ م م والنسبة الرأسية ٧٤.٦ والأمية ١٠٢ .

ويتعامل ما كما بكل عليهم فيرميهم بالبلادة أو النباء والمكر الوضع
Stupidity and low cunning in combination ؛ وأهم يميون إلى الخرافات
والمخادعة . ويكدون بالمريرة حتى فى أبعه المسائل ، تحساً لقول السدق . يعلب
عليهم الجهل ، ويميلون إلى تصديق مالا يقينه العقل من الإشاعات ، سريعو الغضب ،
ويزرعون إلى الكسل والسكر . ولكمهم مع ذلك بصحكون بسهولة ، ويميلون
إلى الفكاهة . وأقصى أماليهم فى الحياة اقتناء المقر^(٢) .

وشباب العور يترين بأساور من النحاس الأصفر ، ويخلون الرأس والشعر
بالحرير والنودع . ومتى وصلوا إلى سن الرخوة طرحوا هذه الخلى وبيذوها .

ومن أسلحتهم الحراب للرماية ، وأكثرم يحتف داتماً جمعة فيها عدد كبير
منها ، كما يحمل معه مدية . ولكن سلاحهم الذى يمتارون به هو عصا الرماية ،
التي يتخذونها من جذور شجر القطر . وهى عصا ملتوية زوية مفرجة ، ولهم

(١) نفس المرجع ص ١١٢ .

(٢) سمت الإشارة إلى أن هذا رأى م يقوله متر بيت ، لدى عشر العور رماً غير
قصير ومن سبب الاختلاف يرجع إلى أن ما كما تكا شهد حرب على ديار ، وبى رأته على
مشاهداته عقب تلك الحرب . حين كان الأهلى غير مصفى من الحكم اخمد ورحاله .

براعة خاصة في استخدامهما لصيد الأراب ودجاج الوادى ، وعند الضرورة تصرب
سيقان الخيل .

وانفور شعب دراعى على الرعم من وفرة ماشيتهم وحبهم لاقتنائها ؛ وأهم
علائقهم الدرة الرفيعة ، ويزرعون القمح والبطاطم أيضاً ، وقد وصف ما كانوا ياكل
طريقهم في تحريم الدرة ، وكيف يسون هذا الفرض بخارن مربعة الشكل من
الخشب وخطب ، على قاعدة من عروق الخشب ، مربعة عن سطح الأرض بنحو
قدم وذلك تحسباً لخطر الحمل الأبيض ، وإن كان هذا العمل الأبيض نفسه مما يجمعه
الأهالى وما كانوا يمد طهيته .

ويحترق الحب في اندرل في داخل رمات مصنوعة من الطين المزوج بالروث ؛
وهي عادة تملح بنحو ١٢٠ سنتيمتراً في الارتفاع وقطرها نحو الستين سنتيمتراً ،
ويحفظون الب ، والريسة في قدور من الخرف المصنوع ببساطة . ولا يمتاز خزفهم
بالإفان ، وإنما كبر صناعة يحيدها الفور هي صناعة الأسفاط المتقنة ذات الألوان
والرسوم الجملة ، يتحدونها من أنواع مختلفة من الميدان والخص ، وربما وجد
الإنسان منها ما يباع حتى في أسواق أم درمان .



وديانة الفور الإسلام ، وكذلك ديانة جميع السلالات والأجناس في سائر
مديرية ولا شك أن كثيراً منها دخل البلاد مسلماً ، ولكن طوائف عديدة منهم
قد أسست وهي تسكن دارفور . وهكذا صارت مديرية دارفور كلها تدين بالإسلام
من أوجها لآخرها . وهذه نقطة أخرى تميز دارفور عن كردوفان ، وتميز الإقليم
الحلى في دارفور ، عن الإقليم الحلى في كل من كردوفان وبلاد الفلج ، ولئن
كان من قبل في بعض الجهات الحلبية أو المتغلة بقية من الوثنية القديمة ، فإن
صمط الجماعات الإسلامية من جميع الجهات ، وأسس سلطة دارفور نفسها
وتسليمها تنص ، دارياً موحداً ، كل هذا كان كفيلاً بشهر الإسلام والعروبة ، في
جميع أنحاء الإقليم .

وليس مما ينقص هذه الحقيقة أن تكون هناك خرافات شائعة بين بعض

القبائل والحجرات ، وبعض الطقوس التي لا يعرفها الإسلام ، فإن أمثال هذه الأشياء لا يكاد يحلو منه بلد دخله الإسلام أو المصرية ، لأنها مما أُلغى الناس منذ أزمان طويلة ، استقصاها أمر مرهون بمضى الوقت وازدياد الثقافة وانتشار التعليم .

وقد نكلم غير واحد من الكتاب عما شاهدوه أو نقل إليهم من عادات عربية على الإسلام ، وأكثر ما يردده هؤلاء انتشار عده نكرمة الأشجار أو شجرة حاصة تقام حولها شعائر وطقوس حتى وصفها بعضهم بأنها شجرة مقدسة ، وأن بعض القبائل تعبدونها ، أو تعبد الروح الكامن فيها ، وكسبت نكرمة بعض الحجارة .

ويقول سلايين في كتابه : إنه رأى عند البدو شجرة عظيمة من المجلع ممتدة لغروب ، في قمة ظهرت تعبيراً شديداً ، وبرزت حولها الرمال السعة ، يركع الدس حولها ينتهون إلى به محمول . ويقول إن لديهم عادات عربية في الميراث فالقار عادة تبني على مسافة من القرية ؛ وبعد الانتهاء من دفن الميت ، يقف بئرنة صفاء ، ثم تعطي لهم إشارة فيجرون بأسرع ما يمكن إلى مبره ، وأول رجل شب حربته في دار الميت يكون له حق الوراثة ، ويحمله على جميع ممتلكاته ، في ذلك النساء والزوجات ، ما عدا أمه ، وله الحق أن يتزوج منهن من يشاء ، وأن يبيع الحرية لمن يشاء .

وبرغم سلايين أنه تحدث إلى أحد رحلهم في إحدى غير الإسلامية مستمرة بينهم ، فأنكر أن هنالك عادات من هذا النوع وما سأل سلايين عن الشجرة المذكورة قال إنها شجرة عادية ، قد سأل سلايين به رأى بعض عرب دهرية يريدون أن يزعموا نعمتهم تحت تلك شجرة ، وسكنه ل رأى مالها من مطهر الحريمة والتقدس بهم عن ذلك ، فحدث لرحل يشكره من كل قلبه^(١) .

ويروي سلجيان أنه في جبل كاسا — إلى الشمال الغربي من جيب كاتول — على الزعم من أن الدس مسلمون وقويون إن المطر من عند الله ، تقام حفلات في موسم المطر نكرمة ذكرى شخص يدعى أبو علي ، يرى سلجيان أنها من غلفات

(١) الحرم والبار في السودان ، نسخة المحلقة ١٨٩٦ (١٨٩٦) ص ١١٤ .

المهد الوثني ، وليس « أبو علي » سوى اسم لأحد صانعي بئر القدماء : وأبو علي أيضاً اسم لشعبان يرى بعض الفاضل أن روح الزعيم تكمن فيه ، وتقام حفلة سنوية لذكراه بالقرب من كوخ محاسب أخدود في الأرض ، والمفروض أن هذا الكوخ كان مسكناً له ، وفي هذه الحفلة تديح معري ، وتلطف بعض الصخور بدمها ، ثم يغطي لهما على نار حديدة ، ويأكلها الأشخاص انغامون بطقوس الاحتفال ، والذين « تركبهم » روح أبو علي المذكور^(١).

وهكذا يدلي الكتاب آراء مختلفة تدور كلها حول تقديس شجر أو حجر أو تمس ، كما تشير إلى بعض العادات السائدة عند التتيجور تتصل بعلامة الصليب ، ولا شك أن هذه العلامة حملها المهاجرون من بلاد النوبة في العهد المسيحي وليس يستمر وجود هذه العادات عند النوبة ، من نقايا اليهود الدينية السابقة .

سلطنة دارفور

لعل أهم ما يمتاز به دارفور — كما امتازت دار الفنج — هو تأسيس دولة تشمل إقليماً عظيماً من السودان الغربي ، وأول السلاطين كما ذكرنا هو سليمان سلوخ ، ولكن هنالك أحبار عديدة نذل على وجود فترات سائقة من الحكم المستقر ، شمل هذا الإقليم من قبل ، وهنالك على الأقل أسماء أربعة سلاطين في القرن السادس عشر^(٢). ولكن لا يكاد نعلم عنهم أكثر من أسمائهم ؛ وكان سلطانهم مقصوراً على إقليم جبل مرة .

وهناك روايات أخرى تشير إلى أن أول من أسس مملكة في الإقليم هم شعب داجو ، ولكن دولتهم كانت على الأرجح محدودة المدى ، ومنحصرة في الإقليم

(١) Pagan Tribes ص ٤٤٨ ومن الملاحظ أن سلجيان يشير إلى جبل كاجا وهو في الطرف الغربي من كردوفان ، بالقرب من حدود دارفور ، ولكن هنالك في دارفور ضحايا خرافات تتصل بالثعابين وأنها تلبسها الأرواح بقطع النظر عما يقال عن تحول بعض الأفراد إلى حيوانات مفترسة . وهو ما يهيم به الساليط .

(٢) مقال بيتن المؤلف المذكور ص ٣ . والأسماء هي دالي أفنو ، وإدريس جبل ، وكورو وتسام والأول بلا شك من برنو

الجنوبي الشرق ، ولم يمتد نفوذهم إلى الشمال أو إلى الغرب ، وبالتالي لم يشمل جبال
صرة نفسها^(١).

كذلك تشير الروايات إلى أن شعب التنحور أسس دولة بعد زوال دولة داحو
أو كانت معاصرة لها ؛ ومع أن دوله التنحور حقيقية تاريخية ، فإنها كانت مقصورة
على الأطراف الشمالية من الإقليم الذي شملته دولة القور فيما بعد . ويرى التونسي
أنه شاهد أحد زعماء التنحور بلبس عمامة سوداء حداثاً على ذلك الملك الزائل الذي
كان آخر سلطان تولاه ، يدعى دُرْشيد . الذي انتزع القور منه رمام السلطنة .
واستولوا على دياره وضموها لسلطنتهم .

وهكذا يبدأ التاريخ الأقرب إلى التدوين بقولي سبين سلونج الملك في سنة
تقدر عام ١٦٤٠ والظاهر أن سبين تولى السلطة بعد عهد من العوصى والحروب
الداخلية وقد قدر تاريخ توليه الملك بمنتصف القرن السابع عشر ، فكان رأس
أمرة حكمة توالى أعصاؤها تناعاً على السبق الآتي (التواريخ الأولى تقريبية) .

١٦٤٠ — ١٦٧٠	سليمان سلونج
١٦٧٠ — ١٦٨٢	موسى بن سليمان سلونج
١٦٨٢ — ١٧٢٢	أحمد بكر بن موسى
١٧٢٢ — ١٧٣٢	محمد (دوره) بن أحمد بكر
١٧٣٢ — ١٧٣٩	عمر (ليل) بن محمد دوره
١٧٣٩ — ١٧٥٢	أحمد قاسم بن أحمد بكر
١٧٥٢ — ١٧٨٧	محمد طيراب بن أحمد بكر
١٧٨٧ — ١٨٠٢	عبد الرحمن الرشيد بن أحمد بكر
١٨٠٢ — ١٨٣٩ ^(٢)	محمد فضل بن عبد الرحمن
١٨٣٩ — ١٨٧٤	محمد حسين بن محمد فضل
١٨٧٤ — ١٨٧٥	إبراهيم بن محمد حسين

(١) راجع لمن Lampen في S.N.R. ، ١٩٥٠ ، ص ١٨٣

(٢) كان هو السلطان وقت رحلة الشيخ التونسي ، وقد منحه مدحاً كثيراً .

(١٨٨٣ — ١٨٧٥)	(عهد الحكم المصري)
(١٨٩٩ — ١٨٨٣)	(عهد المهدي)
١٩١٦ — ١٨٩٩	علي بن دينار



ومع أن مدة هذه السلطنة لم تدم أكثر من قرنين ونصف قرن ، في حكم مستمر مطرد . فإن هذه المدة ليست بالفترة القصيرة بالنسبة لمثل هذه الممالك الإفريقية البائية ، وبالتنظر إلى شدة التنافس والتنازع ، وإلى موقع الإقليم المصري ، الذي جعلها عرضة للإغارات من نواح عديدة .

ومهما يكن من شيء ، فقد قام في إقليم دارفور سلطنة مستقرة ذات نظام إداري واضح ، وقد اتسمت أحياناً حتى شملت جزءاً كبيراً من كردوفان ، بل امتدت فترة قصيرة حتى وصلت إلى نهر النيل عند بلدة النعمه .

وقد كان لهذه السلطنة نظم أساسية ، ضمت لها بعض الاستقرار ولا تزال آثار هذه النظم باقية إلى اليوم ، وأهم عنصر في هذا النظام هو شخصية السلطان نفسه ، فقد كان أكثر هؤلاء السلاطين رجالاً ممتازين ، وكان لكل منهم جيش دائم ، وحرس شخصي عني السلطان بتأليعه عناية خاصة ؛ وكثيراً ما كان يعتمد على عدد ضخم من العبيد ، الذين حددوا حصيصاً لهذا الغرض ، وكان له مجلس خاص من المقربين .

وقد كانت العاصمة الأولى للسلطان في طرد ، في طرف الشمال من جبال مره وقلت بعد ذلك إلى الفاشر ؛ وقد قسمت المنطقة إلى أربعة أقسام إدارية كبيرة ، في الشمال ، وفي الجنوب ، وفي الشرق ، والغرب ، مع بعض الانحراف في التقسيم عن الجهات الأربعة الأصلية ، وكل من هذه الأقسام الأربعة كان تتولى إدارتها شخص يدعى المقدم ، وكثيراً ما كان هذا المنصب وراثياً . وكان للمقدم سلطة واسعة ، وله الحق في الحكم بالإعدام . وكان بطوف بمديريته ومعه حرسه الخاص ، لكي يحافظ على الأمن ، ويقاوم من يخل به ، ويصلح بين القبائل . وبفصل في جميع الأحكام . وهو الذي يولى المناصب القبلية الرئيسية ، وعليه أن يحصر

إلى عاصمة السلطان مرة في كل ثلاث سنوات ، لكي يشهد الاحتمال بتجديد حدود الطبل السلطاني ويؤدي خراج السنوات الثلاث ؛ ويتسلم جزءاً من هذا الخراج لينفقه في إدارة مديريته .

وكانت كل مديرية (أو مقبومية) مقسمة إلى أقسام صغيرة على رأس كل منها موظف يسمى « شرطي » أو شرقي ، ولو أن نفوذه ومصلحته كان أعظم مما يدل عليه هذا اللفظ ؛ وكل قسم برئاسة شرطي مقسم بدوره إلى أقسام صغيرة برئاسة دمالج ، وهؤلاء الدمالج يكونون أحياناً مجلساً استشارياً خاصاً لمساعدة الشرطي في أعماله .

وهناك عدة وظائف أخرى مخصصة لمعاشية السلطانية ، ومعها قد يكون للشرطي نفسه ، منها منصب يدعى أرندونلو . وهو يعادل منصب الخاحب ، وكان منصباً خطيراً ، ولم يكن مقصوراً على عمل الخاحب ، بل حارس باب السلطان أو للشرطي ، بل هي أقرب إلى وطبيعة الخاحب عند حكام العرب ، فقد كان شخصاً ذا نفوذ كبير في البلاط .

وهكذا نرى أن سلطنة دارفور كسلطنة صح كات ذات إدارة واسعة منظمة تنظيماً دقيقاً ، وإن كانت كلها تعتمد في النهاية على شخصية السلطان نفسه ؛ وما رزق من الجملة ومداك ، والمصائل المختلفة التي لا بد منها لإدارته دولة عظيمة . ويبدو أن بلاد دارفور ، وعلى الأخص في حزام مره وما حولها كانت أكثر راحة بالسكان في ماضي ، مما هي عليه اليوم ، ولعلها قد مرت بها تطورات ترحمة عديدة أكثرها لا يزال مجهولاً . فقد لاحظنا كيف كل وجود مصادر عديده ، وأحياناً قرى كاملة مهجورة ، وكثير منها يشتمل على مائة مائة بالحدادة ، على طراز لا مثيل له في الوقت الحاضر (١) .

القيادات

جاء في سياق الكلام عن قبائل دارفور ذكر القلايا ، وأنهم من العناصر

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب في السودان من ١٠٨ وما بعدها .

التي هاجرت إلى دارفور من الجهات الواقعة في أقصى الجنوب من الصحراء الكبرى ، أي من أوليم المرامي (السفانا) الممتدة شمال منطقة العابات ، من السودان إلى المحيط الأطلسي تقريباً . وبعض هؤلاء يمثلون هجرات حديثة . ولكن بعضهم قد نزل دارفور منذ قرين أو أكثر واتخذ له وطناً إلى الجنوب من منطقة الحمال . وهؤلاء وصفهم التوسى منهم من جماعات الفولا (المفرد فولاني) ، المشيرين في أقاليم السفانا ، فيسمى السودان العرسي ، كما تشمل أيضاً القسم الشمالي من بلاد نيجيريا .

والأصل في الفولا أنهم قتل حمية امرحت بدماء عربية ، وكان لها نشاط كبير في نشر الإسلام في غرب أفريقية وفي نيجيريا . وبذلك سمرت إليهم دماء أهل الجنوب أيضاً .

غير أن اسم العلاتا ليس مقصوراً على تلك الشعبة التي تعيش في دارفور ، بل يطلق في السودان على جماعات كبيرة انتشرت في جميع البلدان ، وفي إقليم الحرية وشرق السودان بوجه خاص ، حيث تراهم يحتلون قرى وجماعات بأكلها . ويقسمهم مستر ترينجهم إلى ثلاثة أقسام :

١ - طوائف الحجاج الذين يقصدون إلى الحج عن طريق السودان ، وطريقهم الرئيسي من دارفور إلى الأبيض ، حيث يركب أكثرهم القطار إلى بور السودان ومنها إلى الحجاز . وبطراً لأنهم يكتسبون رزقهم أثناء رحلتهم ، فإن رحلة الحج هذه تستغرق نحو سبع سنوات . وفي العودة يفصل كثير منهم البقاء في السودان .

٢ - المجموعة الثانية تتألف من مستعمرات كبيرة في إقليم كسلا وسنار ، وكثير من سكانها يتألف من جنود من عرب أفريقية كانوا يحاربون في صفوف الخليفة ، ثم تولت إدارة السودان توطينهم ، وتهيئة أسباب الإقامة لهم . ومن هذا الطراز تلك المستعمرة العظيمة التي قامت في إقليم سار برئاسة سلطان ماينو ، وهو ابن سلطان سكونو في غرب إفريقية ، وهناك عدد كبير منهم يعيش بصفة دائمة ويستغل بمختلف الحرف في أم درمان وغيرها من المدن . وهم يحتشدون بوجه خاص حول

الإدارات والمشيخات الحكومية ، حيث يكونون جزءاً عظيمًا من الأيدي العاملة .
ويرغم مستر ترمينجهام أنه لو لامحالة لما أمكن تنفيد مشروع الجزيرة .
٣ — أما الطائفة الثالثة فهي تلك المستعمرة القديمة إلى الجنوب من دارفور ،
التي تقدم ذكرها .

وليس هناك إحصاء ولو تقريبي لعدد القبائل في السودان . غير أن أحد موطنى
حكومة بيجريا قام بإحصاء خاص بالمهاجرين من بيجريا ، وقدرهم بما يقرب من
ثمانين ألفاً . أما المهاجرون من جهات أخرى فليس لديهم أى إحصاء أو تقدير .
ومن المعلوم أن السودانيين ليسوا مرتاحين بوجه عام لهذه الهجرات التريدية
من لاهلانا ، خصوصاً أن السكان أنفسهم في ازدياد مطرد . غير أن إدارة السودان
لازل تشجع هذه الهجرات على دعم أنها لازمة لتوفير الأيدي العاملة^(١)

(١) راجع ترمينجهام ص ٣١ S. Trimingham ; Islam in the Sudan

الفصل الثالث عشر

النوبيون

جاء ذكر النوبيين مراراً في العصور السابقة في مناسبات عديدة ، وعلى الأخص عند الإشارة إلى مستعمراتهم في مختلف أنحاء السودان ، غير أن الأوطان الرئيسية للنوبيين هي بالطبع تلك الأراضي الملاصقة لنهر النيل من شمال أسوان إلى بلدة الدبة وكورتى ، يستقلون أحياناً بهذه الجهات النهرية لا يشاركون فيها أحد ، ويحاورهم أحياناً — كما رأينا من قبل — جماعات عربية .

فالنوبيون في أوصالهم الأصلية شعب نهري ، يلتزم وادى النيل التزاماً شديداً ، فمن أن نحد له مصراً في أى جزء من لودى . وذلك لاشتغالهم بالزراعة من جهة ، وذلك لطبيعة الصحراوية للأقليم المتاحة بنهر شرقاً وغرباً ، رغم السكان على مضي مرون لدولة أر تطل ملتزمة للنهر ، وللمساحات القليلة الصالحة للزراعة التى تحف به .

ولهذا الإقليم المستطيل الضيق مقدرة كبرى على متصاص العناصر الغربية التى دخلته من آراء ، وعلى تمثيلها تمثيلاً كاملاً حتى تندمج اندماجاً تاماً فى سائر السكان ، وقد بلغ النوبيون على مدى آلاف السنين ألواناً من السلالات والجماعات ، تراوحت من مهاجرة عربية ثم لمست فى متولت عليها البلاد وأدبجتها فيها . وهذه الخصبة وهى كالمعروفة فى مصر ، وبها أكثر ظهوراً فى الديار النوبية . وست هذه مساحة أطول من حيش فيها النوبيون ، موزعة فى مصارفها الطبيعية ؛ فعلى الرغم من أنها تنفق فى أنها جزء من وادى النيل يقرب طوله من الألف كيلومتر ، فإن طبيعة الوادى تختلف من مكان لآخر . فالإقليم الجنوبي من الدبة إلى أبو فاطمة وكوما ، يشتمل على وادى سهل متسع ، يعطيه الفيضان ، وكثير من أحرانه وفى ذلك ما يساعد على بعض المشروعات الزراعية ، والنهر هنا سهل

الملاحة معتدل الجريان . وإلى الشمال من أبو فاطمه يبدأ ما يسمى الشلال الثالث ، وهو يكاد أن يتصل بالشلال الثاني ، في مساحة تقرب من ٤٠٠ كيلومتر ، تكتنف النهر فيها سلاسل عديدة من الحفادل وتعمد فيه الملاحة ، وتقل المساحات القابلة للزراعة قلة تذكر ، بإقليم اسابير ، وإلى الجنوب من وادي حلفا إلى حوبى أسوان ، يمتد بحرى النهر مرة أخرى ، وتكون الملاحة فيه سهلة يسورة ، وهكذا ترى الأوطان النوبية النهرية تشتعل على ثلاثة أقاليم رئيسية ، إقليم سهل في الجنوب ، وآخر في الشمال ، تتوسطها إقليم وعمر كثير احساد والعقبات .

والصحراء كما ذكرنا تحد الإقليم شرقاً وغرباً ، وتحصره في نطاق ضيق جداً ، وهي صحراء وعرة ليس فيها ما يغرى سكان الوادى بأحرارته أو الانتقال إليها ، فإذا اردحم سكان الوادى سلب لهم الطبيعة فلا سدوحة لهم عن التماس أسباب لعيش في الجهات الجنوبية أو الشمالية من وادى ، متممين بحرى النهر صعوداً أو هبوطاً ، ولكمهم ، مهما شطت بهم الدمار ، يحنون دائماً إلى تلك الأوطان اصبقة المحدودة . ويودون أن يعودوا إليها متى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وإذا لم تفسد اخصارة في البلاد التي يرونها بعيداً عن أوطانهم ، فإنهم يطعنون محتفظين بسلامتهم وصغارهم ، التي تمتر بالسلطة والاقتصاد والهدوء ، والتمتع في بيوتهم ، والعبادة لأقاربهم في أوطانهم الأصلية ، وكثير من القرى النوبية الفقيرة تعيش اليوم بعزل ما يصلها من المساعدات المادية من رحلتها بين عمالون في مختلف الجهات في مصر والسودان . ويوشك ألا يكون لبعضها مورد آخر يستحق الذكر .

ولابد لنا أن نقرر في بدء هذا البحث ما نسميه بالنوبيين ، فالنوبة شعب قديم ، عريق في القدم . لازموا أوطانهم الحدية عصمة آلاف من السنين ، وقد نزل العرب ديارهم وخالطوا السكان وصاعروهم ، فاضيف السب العربى الجديد ، إلى نسب النوبى القديم . وقد سبق للنوبيين في تاريخهم الطويل أن دخلت بلادهم عناصر مختلفة واندمجت فيها . وظل النوبيون برغم ذلك متمسكين بثقافتهم وبلغتهم الخاصة ، مما يدل على أن المحجرات العربية لم تكن من لقوة بحيث أزلت الثقافة النوبية . وبذلك رأينا أن معالجة موضوع السودان الشمالى معالجة علمية ، تقضى علينا أن نجعل

من النوبة مجموعة مستقلة عن المجموعات الأخرى . لأن النسب العربي مشترك بين جميع أبناء الوادي ، ولكن لمصهم مميزات افرد بها وفي ذلك ما يبرر النظر إليهم كوحدة قائمة بذاتها .



والنوبة — بوصفهم شعباً يعيش في أوطانه الحالية — لم يلق من العلماء ما يستحقه من الدراسة ، سواء من الناحية الإثنولوجية أو الاجتماعية . وذلك على الرغم من كثرة ما كتب عن النوبة في الأرمئة القديمة وعن لغتهم وما لها من الاتصال بلغات تشبهها من قريب أو بعيد في جهات أخرى من حوض النيل ، وعن الآثار التي اشتمل عليها هذا الإقليم الأوسط من نهر النيل ، ومقارنتها بالآثار في واحة أخرى من الوادي ؛ وعن المقارنات التي اشتملت عليها من العظام والمخامير . والمقارنة بينها وبين السلالات المعروفة في الشمال والجنوب ، كتب في هذه الموضوعات وأمثالها المصنوع الطويل^(١) ، أما وصف النوبيين في اوقت الحاضر فكان دائماً يعالج في بضعة أسطر لا تسمن ولا تغني .

هذه السحوت القيمة والجهود العلمية الصخمة ، حاول أصحابها أن يكشفوا عن الأطوار المختلفة التي مرت ببلاد النوبة وعن أصل اللغة النوبية ، وهل هي تمثل لغة وطنية قديمة نشأت في البلاد أو لغة دخيلة جاء بها عنصر دجيل في عصر من العصور . وعن الصلة بين الثقافة النوبية في الشمال وفي إقليم مروي في الجنوب . ولا يستطيع منصف أن يرغم أن هذه المحاولات قد قرئنا من حل لواحدة من تلك

(١) ورد هنا بعض المراجع عن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر :

1) The Archeological Survey of Nubia

(نشرت في مصلحة الآثار المصرية في عدة مجلدات :

2) Seligmann : The Hamitic Problem. J R A I. 1913

3) Hillelson . Nubian Origins. S.N.R. Vol XIII pp. 137—148

4) Kirwan : A Survey of Nubian Origins S.N.R. Vol. XX p. 47

5) G.W. Murray : English—Nubian Dictionary (1923).

6) Junker and Shafer : Nubisch Texte

هنا بحال الكتب الخاصة بالسودان مثل كتاب ماكايكل وترمنجهام وكتب الرحالة أمثال بركهارت ، والمراجع العربية مثل القريري والسعودي وابن خلدون ، مما سبقت الإشارة إليه . وكذلك المؤلفات مدممة لعماد بيوت و لانس أمثال إراوسين وسترون وغيرهم

المشاكل ، بل ليس من الإسراف في شيء أن نقول إنها زادت صعوبة وتمقيدا ،
والذى بهمنا هنا هو البحث عن نشأة السلالة النوبية ومبلغ قدمها في أوطانها
الحالية ، والأوطان الأخرى التى انتشرت أو آثرت فيها وأهم العناصر التى اندمجت
فيها على مدى القرون ومن المديد مع هذا كله أن نعصر للبحوث الخاصة باللغة
النوبية ، بشأنها وانتشارها ، بقدر ما تساعد على إيضاح الأطوار المختلفة التى مرت
بالشعب النوبى .

إن تقدم الأبحاث الأثرية في بلاد النوبة السفلى والعليا لم يكن على ونيرة واحدة ،
فهناك ظروف خاصة دعت إلى البحث الأثرى في بلاد النوبة السفلى ، وإلى التوسع
في هذا البحث بسبب إنشاء حران أسوان ، والحواف من صباغ معالم الآثار القديمة
في هذا الإقليم . فترسب على ذلك قيام بالتنقيب عن الآثار وعمد اشتملت عليه المقابر
القديمة في المساحة الممتدة من أسوان إلى جنوب وادى حلفا ، ونشر نتائج تلك
البحوث بواسطة مصلحة الآثار المصرية ، أما بلاد النوبا العليا فإنها لم تبحث بحثاً
أثرياً يستحق أن يقارن بالأبحاث الخاصة بالإقليم السفلى . والجهات الغربية التى
بحثت مقصوده على مواضع محدوده جداً . وحتى هذه لم تبحث بحثاً وافياً . ولذلك
كانت المقارنة بين الشمال والجنوب في أبحاث العلماء غير متكافئة ، مما يحول الوصول
إلى نتيجة سليمة أمراً غير يسير .

أما البحوث اللغوية فلمعها كانت أكبر الأسباب في وقوع فيه العلماء من
الأخطاء ، لأن علماء اللغة ، وهم يثيرون أكبر مجموعة من الباحثين في الدراسات
النوبية ، قد بنوا آراءهم على اعتبارات لغوية دون أن يدخلوا في بحثهم أى اعتبار
آخر . ولعل أكبر خطأ ترتب على ذلك هو الخلط بين الشعب النوبى وبين الجماعات
التي يطلق عليها اسم النوبا سكان الجبال الواقعة في حوض كردوفان . وشعب النوبة
كما ذكرنا شعب قديم : والاسم نفسه قديم ، أما « النوبا » كاسم لسكان جبال
كردوفان الجنوبية فلا يعرفه السكان أنفسهم ، وهم يدعون أنفسهم أحيانا سكان
الجبال ، ولكن التسمية السائدة هي أن كل شعبة تسمى باسمها الخاص ، دون أن
يكون هنالك اسم جامع شامل لجميع سكان الجبال .

وقد وقع فردريك مولر وبمه بعض الكتاب ، في خطأ كبير ، عندما رأى أن هنالك نوعاً من التشابه بين اللغة السائدة في بعض جبال كردوفان الجنوبية وبين اللغة النوبية ، فحكم بأن جميع سكان الجبال اندكورة يتكلمون لغة تمت بصلة القرابة إلى اللغة النوبية ، ولم يكتب بهذا ، بل حكم أيضاً بأن النوبيين والبوبايين من سلاسل واحدة : وقد أصبح حكمه هذا مصرّب الأمثال عند علماء الأجاس للخطأ التي تنورط فيها علماء اللغات ، حين يسون قرابة المسب على تشابه لنوى^(١) غير أن الخطأ الذي وقع فيه فردريك مدر ومدرسته كان خطأ مزدوجاً ، فقد أصبح من الثابت أن الجبال في جنوب كردوفان لا تشتمل على لغة واحدة ، بل على ثلاثة مجموعات لنوية مختلفة ، وأن الجبال الشمالية الغربية فقط مثل جبل دابر وما يليه ، هي وحدها التي يتحدث أهلها نسان ، يرى علماء اللغات أنه يشبه من بعض الوجوه لغة النوبيين .

أم الخطأ الثاني فهو أن السلالة النوبية والسلالة البوبايية محصتان أشد الاختلاف سواء أكان ذلك من ناحية المظهر الجسمي أو العادات الاجتماعية السائدة في كل من الإقليمين . فالنوبيون شعب قوقاري ، يسكن الجبال غلب عليهم الصفات الرحيمة . وقد وصف سنجمان كلاهما فقال : إن النوبيين تمتلئ الجسم والمصلاات : شديد السمرة إلى درجة برور وصفه بأنه "سود البشرة" ، أما البوباي فيسجل متوسط انقامة ، وشعره سمراء سمرة تكون في كثير من الأحيان خفيفة . وسكان الجبال شعرهم مقلقل والسمة لأمية عالية ، والصفات الرحيمة المعروفة واضحة ، أما النوبيون فشعرهم مموج في انماط . وقد يكون قرب إلى الاستقامة يرغم وجود أحوال سادة . والمتقاطع لا تشبه المتقاطع الرحيمة في شيء .

كذلك من الناحية الثقافية يختلف الإنان كل الاختلاف ، فالنوبيون قد يستخدمون الشلوخ كما تفعل القبائل العربية ، ويمارسون الحتان الأولاد والحتان المزعوفى نباتات ، وهذه كلها عادات لا يعرفها البوبايون سكان الجبال . ولكنهم بالمعكس يمارسون عادات لا يعرفها النوبة مثل جمع المواطع ، وحرق الشعلة السفلى

(١) سنجمان المرجع المذكور من ٦١٠ وما بعدها

للنساء لكي توضع فيها حلية . . وكلا الشعبين يصنع الفخار ، ولكن شتان بين الطريقة المتبعة ونوع الفخار الناتج في الإقليمين . « فخار النوبي مشابه تمام المشابهة لما يصنعه المصريون ، وليس هناك وجه شبه بينهما وبين ما يصنع في جبال كردوفان الجنوبية^(١) .

ومما يؤسف له أن سكان الجبال هؤلاء قد أطلق عليهم اسم النوبا ، فساعد تشابه الأسماء على كثير من الخطأ ، وعلى الأحص عند العامة وهوام العلم . ولئن كان هذا الأمر مما لا يمكن الرجوع فيه ، فإن من الواجب ، وعلى الأحص على التعمين من سكان السودان ومصر أن يدركوا أن هذا التشابه في الاسم سطحي ، ولا يسند إلى أية صلة أو قرابة بسبب بين الشعبين .

أما التشابه اللغوي فقد كان من الممكن أن تصور محره نوبية انتشرت في كردوفان متجهة نحو شمالها أولاً ، ثم ممتدة إلى جنوبها بعد ذلك ، حتى تستقر في الأطراف الشمالية الغربية من الجبال^(٢) ، غير أن هذا الرأي السهل البسيط لا يبنى على علماء اللغة ، وعلى الأحص بطريقين مهمين ، ذلك أن اللغة النوبية أو لمحات تشبهها من بعض ألحانها موجودة أيضاً في شمال كردوفان ودارفور ، كما هي الحال في جبل مندوب ، طبقاً لما سقت الإشارة إليه في الفصل السابق ، وكذلك في الأضراس الجنوبية من المعصرة بين أعلى المطرعة والبيلا الأزرق ؛ وكان من الممكن تفسير هذا التشابه بما كان للسويين من التأثير في إقليم البيلا الأزرق وفي سهل البطانة بالحد ، كما كان لهم انتشار مؤكد في دارفور وكردوفان . ولكن هذا التفسير نابع كثير من عماء اللغة مثل ريلارتس . . وهو ذلك اكتشف اللغويون أن هناك خصائص في بعض المفردات وفي النحو والصرف ، مشتركة بين اللغة النوبية وبين لغات الناري في أعلى بحر الحبل ، وبداي في

(١) نفس المرجع ص ١٢٠

(٢) يرى ماكايكل (تاريخ العرب في السودان الجزء الأول ص ١٤) أن هذا قد

حدث بعد الفتح العربي لمملكة دهلة .

هضبة إفريقية الشرقية ولغة النوبيين أمثال الدسكا والشك^(١) . وكان من الجائز أيضاً تفسير حتى هذه الظاهرة بأن هذه الجماعات كلها دخلتها كثير من الدماء الحامية وأن اللغة النوبية كالشعب النوبي من أصل حامى صميم ، فمن المعقول أن تكون الثقافة الحامية قد سررت إلى جميع هذه الجماعات على بعد ما بينها من المسافات .

غير أن ريلارتس العالم المتساوى رأى لأسباب بلاشك وجهة في نظره أن لغة جمال كردوفان المشابهة للنوبية لا يمكن أن تكون مشتقة من لغة النوبيين سكان إقليم النوبة في جنوب مصر وشمال السودان ، بل إنهما فرعان من لغة واحدة كانت منتشرة في شمال كردوفان ، ثم انتقلت بواسطة اتصافها إلى كل من الإقليمين ؛ وورد هنا تنجيماً لرأى ذلك العالم كما رواه سلجيان^(٢) .

كان الوطن الأصلي للنوبة (والنوبا) في شمال كردوفان حيث تكثر عددهم واسم أوطانهم ، بحيث أمكن تقسيمهم في ذلك الزمن العبد إلى قسمين : أوب ، تبعاً لاختلاف اللهجات .

وفي القرون السابقة للميلاد (أى ما بين ٥٠٠ و ١٠٠ ق . م .) نُزحت أعداد كبيرة من نوبة غرباً إلى جبل ميدوب ، ونُزحت أخرى في اتجاه شمالي إلى النيل حيث عاشوا حسناً لحب مع الليبيين الذين كانوا سكان البلاد في ذلك الوقت .

وفي القرن الأول والثاني هاجر باقى قسم 'أ' من كردوفان في الاتجاهين المذكورين ؛ وبرغم المؤلف تأييداً لرأيه أن هنالك أسطورة لدى بعض النوباويين ، بأن أحداً منهم وأحداد النوبيين كانوا إخوة ، ثم حدث نزاع حول ملكية خنير كان قد قُرب قرباناً في بعض المناسبات . فهاجر أحداد النوبيين ونُزحوا عن البلاد . وهذه الأسطورة على طرائفها لا تؤيد وجهة نظر المؤلف في أن النوبيين هاجروا من شمال كردوفان بل من إقليم الجبال .

(١) مقدمة كتاب O W. Murray : English - Nubian Comparative Dictionary

(٢) في كتاب Pagan Tribes of the Nilotic Sudan p 411

ومهما يكن من شيء فإن هذه الشعبة الثانية من القسم أ ، التي هاجرت في القرن الأول والثاني بعد الميلاد قد سلكت طريقين . أولها طريق وادي الملك ، إلى بلاد النوبة مباشرة ، والآخر طريق درب الأربعين إلى الواحات الخارحة ، وهؤلاء كانوا قلة ، أما الكثيرة فقد هاجرت إلى بلاد النوبة حيث أقاموا مع أقربائهم الذين زلوا هذه الديار قبلهم ببضعة قرون .

أما قسم ب فيقول عنه المؤلف إنه هاجر مشرقاً إلى أرض الحرية في أوائل القرن الرابع (حولي سنة ٣٢٠) ثم إلى البطانة حيث عار على مملكة مروى وقضى عليها ، ولكنه لم تنسحب حينئذ منها ولم يرحل ، كان يربح من الحرب مسجعة إلى بلاد دقة ثم إلى مروى فأنشأ بها كنيسة ، في قسم ب ن . منذ أنت إلى جبل م . ب .

والمهم في هذا كله أن هذا المؤلف وغيره يزعمون هؤلاء المهاجرين هم السلالة التي تدعى بحق باسم النوبة . وهم الذين بشروا اللغة النوبية في البلاد وورد جميعها من أوطانهم الأصلية في شمال كردوهان .

وقد حاول زيلارتس بنطريقته هذه التي تستند إلى بعض خصائص اللغة ، أن يعطي صورة كاملة تفسر المظاهر المختلفة متصلة ، بنشاز الثقافة النوبية في مختلف الجهات ، ولم يفته أيضاً أن يحدد تفسيراً لبعض الإشارات التي ذكرت بأن النوبيين وصلوا إلى الواحات الخارحة ، وسدو في الصورة التي رسمها تلك النقرة الفاسدة عند كثير من المكنات ، وهي أن اللغة النوبية ليست أصلية في بلاد النوبة بل دخلت البلاد في وقت ما — سابق لعهد المسيح — كما أن الجماعات التي أدخلت هذه اللغة ونشرتها هي التي كانت تدعى باسم النوبة .

ومع ذلك فليس من السهل قبول هذه النظرية لسببين : أولهما ما أوضحناه من قبل من أن النوبا في كردوهان مختلفون كل الاختلاف عن النوبيين ، والسبب الثاني أن هذه الهجرات لطائفة النوبية قد دخلت بلاداً تسودها الحضارة منذ قرون عديدة ، كثيرة السكان ، وإن اتسعت لبعض المهاجرين فليس عمقول أن يضطر هؤلاء المهاجرون السكان الأصليين إلى تغيير لسانهم بل وإلى تغيير اسمهم ، ونحن

نعم أن سكان البلاد م تكونوا بالشعب السهل الذي يتيسر إخضاعه ،
وقد طلب اللغة النوبية رسمًا صويلا دون أن نكتب إلى أن تحول البلاد إلى
الديانة المسيحية في منتصف القرن السادس على أيدي قس مصريين ، فكتبت
المصوص ندسة بأحرف من القبطية . كما استحدثت تلك الحروف في كتابات
أخرى ، وبذلك أصبحت لغة نوبية لغة مكتوبة . أما المصوص السابقة لذلك
المعهد فيها مصوص باللغة المصرية القديمة ، ولعلها كانت اللغة الرسمية للبلاد حينها
كانت النوبية هي لغة الناس ، مع ما بين اللغتين من التشابه .

ويصف لنا مستر مري اللغة النوبية وصفًا نلخصه فيما يلي :
ليس هناك لغة تتفق مفرداتها مع اللغة النوبية اتفاقًا كثيرًا . بل أن كثيرًا
حدًا من أصول الكلمات موسة ليس له نظير في جميع اللغات التي قورنت بها .
أما معب إلى شابه اللغة النوبية في مفرداتها ، فأكثرها بلا شك لغات حامية ،
وبلا شك أن الصلة الحامية هي الغالبة على اللغة سواء من ناحية المفردات أو النحو
و حروف ، ولكن هنالك اختلافًا كبيرًا بينها وبين اللغات الحامية ، في ناحية
واحدة وهي الدعاء الصوتي Phonetic System ، ولكن له نظير في اللغات
السيلية في جنوب السودان مثل لغة الباري^(١) .

فأما النوبية بشمل حسب رأي هذا المؤلف وغيره على عناصر حامية وأخرى
، لغة من الحامية ولعل مصدر هذا المصدر العرب بعض الشعوب الجنوبية .
وقد رأى بعض علماء مثل رايمش Remsch أن الأصل في اللغة النوبية أنها
حامية رحيمة مؤثرات حديثة ولكنهم مثل مري نفسه يرى أنها في
الأصل لغة نوبية جنوبية مثل لغة الباري ثم تعرضت لمؤثرات حامية شديدة على
مدى مصور . مع أن الموصوع لا يزال معتق إلى البحث فإن الرأي الأول هو
الذي يتفق مع التطورات الحسية والتاريخية .

هذا وقد دحضت لغة النوبية مفردات من مصادر أخرى ، بعضها من شمال

(١) راجع مري المرجع السابق ص X

الحشة، عن طريق مملكة مروى على الأرجح، كما استعارت اللغة النوبية، كلمات عربية بما يقرب من ثلث مفرداتها، كما تأثرت بالطمع باللغة لمصرية القديمة والقبطية. ومع ذلك فليس الأمر المستغرب هو أن نقس لغة النوبية ألقاها عربية كثيرة، بل الأمر الذي سمع على العجب هو تمسك لبوين بدسائهم على مدى العصور الطويلة؛ وبالرغم من تحولهم إلى الإسلام تحولاً تاماً، ظلوا يحتفظين بلغتهم.

وكما اختلف الكتاب في أن اللغة النوبية حامية - ي من نفس الأسرة اللغوية التي تنتمي إليها لغات البجة وغيرهم - ثم تأثرت بمصادر أجنبية، أو أنها لغة جنوبية مثل لغة الباري ثم غلبت عليها المؤثرات الحامية؛ كذلك اختلف الكتاب في الشعب النوبي هل هو في الأصل نازح من الجنوب، نزل عليه أصناف الزنجية، ثم تعرض لمهجرات قوقازية من الشمال ومن الشرق وتغرب، أو أنه في الأصل شعب حامي قوقازي تأثر بمص شعيرات الزنجية، ودخله الدماء الزنجية كما هي الحال في سائر وادي النيل، عن طريق بحيرة ترويق.

إن الرأي الذي سبق التعبير عنه مرراً في الفصول السابقة، هو أن السودانيين لشعالي، حقه عام مكن في وقت من الأوقات وحاً أصلياً للحضارة النوبية، ولم يصبه الروح من تلقاء أنفسهم بالهجرة والاستقرار، وقد رتبهم إلى دراسة تاريخ هجرات الجنس النوبي من اقاربه لاسيونه في من قدمه، ولطريق سلوكهم، وسنوب العيشة التي مارسوها، والتي يمكن تصحيحها لطحات الشعبية، فلننظر الآن إذا كان هذا الرأي مما يقنع ويصور سكان في بلاد النوبة، كما كشفت عنها الحفائر، ولب عليها الأحاسيس.

وطراً لأن الاستقرار في بلاد النوبة يرجع إلى زمن قديم جداً، إلى آلاف الخامسة قبل الميلاد على الأقل - ولأن البلاد تعرضت لهجرات وعروات متنوعة في هذه العهود الطويلة، يرى العلماء يتحدثون عن النوبيين في لأعصر المختلفة، بأنهم يكونون مجموعات: أ، ب، ح، ومصهم يصيب أيضاً مجموعة رابعة د، ومجموعة

خامسة من^(١). والاتفاق العام بين هؤلاء الكتاب هو أن مجموعة أ ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، و عصر السابق للأسر ، واستمرت إلى الأسرات الأولى ، ومجموعة ب ترجع إلى عصر سادة الإعرام ، وهي تمثل مجموعة أ معدلة بمديلا ملحوظا في حصارها وثقافتها ، ومجموعة ح ترجع إلى عصر المملكة الوسطى أى الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها ، ما مجموعة س فيرحمونها إلى العصر الرومانى ابتداء من سنة ٣٠٠ ميلادية .

ولا يسع مقام تتبع حدوث التاريخ في جميع هذه المراحل ولكن من المهم أن نذكر أن محور هذه الأحداث واحد في بظهر ، وهو العلاقات بين مصر وبلاد النوبة . وكانت هذه العلاقات تتناوب بالانصراف بينى والتجارى ، وعلاقات حسن الحوار ، ثم تلتها فترات اضطراب ، تحدث فيها حمى عسكرية للحد من صمان عدد من الأعداء ، وجميع أشبه شبر إلى رها العدو دحيل ، عر على بلاد النوبة وقد تمتد عدوانه إلى الحدود المصرية .

ويسهل التسديد بأن بلاد النوبة ، وعلى القمة الخمسة وسط الصحراء والفيافي قليلة المساكن ، است . قد شمرص بعدوان من ثلاث نوح . من الشرق حيث قبائل المحجة ، أو عوئف منهم ، ومن ليبيا نركاب . وكثر سمعات طمعوا وتهبو وغيرهم ، من ردد عدوانهم إلى ودى ليد قرنة بعد قرون ، ثم من الجنوب ، من شمالى كبروفا ، حيث اطرقت منهمد بواسطة الأودية إلى تنتهى إلى نهر النيل .

ولاءت الأولى وإنشاية تقوم بها حتى لأرجح حماعت حامية شرقية وبسبية ، ردد في بسبة لدم تقوقارى في البلاد ، أما شجرات جنوبية فإن من اخائر أن تقوم بها حماعت فيها بعض الصمعات النجبية Negruds بقيدة فوقارية . وهذه الطاهرة مأروفة في الفارة الإفريقية .

هذه هى الاعتبارات الأساسية التى يجب أن يذكرها ونحن نتبع التطورات النوبية من مجموعات أ إلى ب و ج وهلم جرا . وسنجد في كتابات بعض علماء الآثار ما يؤيد هذا الرئى .

(١) هذه المجموعات تاريخية لاصلة بينها ومن الأقسام أ ، ما النوبة التى سقت الإشارة إليها

مجموعة ١ حصصت لها فترة طويلة في تاريخ بلاد النوبة إذ تمتد من نحو عام ٥٠٠٠ إلى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد . هذه الفترة الطويلة هي عصر تكوين السلالة النوبية ، وإن لم تكن البلاد أثناء ذلك بمنأى من الاضطراب . ويقول سلجبان في وصف النوبيين في ذلك العصر : إن الحداثر قد كشفت أن بلاد النوبة في أقدم الأرمسة كانت آهلة بشعب يدهن موته نفس لطريقة التبعة في مصر في العصر السابق للأسرات ؛ ويصنع حجاراً على نفس لأسلوب الشمع في مصر في ذلك الوقت ؛ ويشتمل مقارنهم من أدوات وآلات عديدة تتفق تماماً مع ما عثر عليه في ابقابر المصرية لذلك العهد ؛ وقد وجد الأستاذ إليوت سميت بعد دراسة العظم والاحماض ان النوبيين من مجموعة ١ لا يختلفون عن المصريين في ذلك الزمان ؛ ثم يتطرق الأستاذ سلجبان إلى الإثبات بأن هاتين السلالتين متشابهتين كأننا نعيشان في عصر واحد (١) .

كان هذا الشعب النوبي القديم ين من نفس السلالة التي ينتمى إليها المصريون القدماء ؛ ويمتد هذه السلالة بانقوام التحيل واقامة التوسعة أو فوق التوسط بقبيل ، ورأس مستطيل بارز من الخلف ، وانفصاع قوقارية ، وهي فرع من الجنس الذي ينتمي عليه اسم جنس البحر المتوسط لانتشاره في أوربا على سواحل هذا البحر . وهو يمتاز فوق ذلك بالأنف المعتدل والشفاه المعتدلة ، وبشعر موج أو أقرب إلى الاستقامة ولون البشرة أصفر أو في لون الحنطة .

هذه السلالة التي عمرت بلاد النوبة دهرأ طويلاً ، والتي كانت حرفة الزراعة وهي حرفة تساعد على التعمير وازدياد السكان ، هي عشبة الأسس التي بنى عليها الشعب النوبي من الناحية الجسدية ، والتي لم تحدث فيها الإغارات على مدى القرون سوى تغيرات يسيرة .

وكانت العلاقات مع مصر بوجه عام طيبة ، وتدخل فيها التجارة والمبادلة ، وكانت البعثات المصرية تمر من بلاد النوبة نحو بلاد حويية مثل يام ، كما حدث للوزير حرقوف في عصر يبي الثاني ، دون أن تلقى معارضة أو تصادف عدواناً ،

(١) مقالة سلجبان في J.R.A.L لسنة ١٩١٣ السابق ذكرها ص ٦١٢ .

ولذلك يبدو أن الإغارات التي قام بها صفرو ، لم تكن موجهة إلى النوبيين الأصليين بل إلى عصر غريب ، يختلف عن السكان الأصليين بأنه لم يكن يحترف الزراعة ، بل يحترف الرعي . ولذلك نرى صفرو يسجل أنه قد حصل من هذا العدو على غنائم قدر بمائتي ألف رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة .

وهذا الاضطراب الذي ظهر في عصر صفرو أحد يتكرر في صورة أشد وأوضح في عصر الأسرة لثانية عشرة . وأخذت تظهر في البلاد عناصر جديدة ، وتوغل فيها نوعاً عدائياً . وقد ترك أمينمحت الأول كتابة يقول فيها : « لقد استولى على شعب واوات ، وقصعت على شعب المازوي » . ولا يعرف بالوسط ما شعب واوات وهو على الأرجح قبائل ليبية ، أما شعب المازوي فقد سبق لنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب أن أوضحنا أن المازوي هم النجعة .

ويرى غير واحد من العلماء أنه في هذه الفترة وما بعدها أخذت تظهر ، في فترات (بإعادة هذه ، عناصر تشبه السلالات الزنجية ، وأخذت تؤثر في التكوين الحسي للسكان بعض التأثير ، وهذا هو العصر الذي أطلقوا على سكانه اسم المجموعة النوبية ح ؛ وهي التي قرر الأستاذ إليوت سميت بأنها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن النوبيين كما يعرفهم اليوم ؛ أما العنصر الزنجي الذي دخل البلاد في ذلك الوقت ، فالأرجح أنه لم يدخل مع المازوي ، ولعله دخل مع الواوات .

هذا وقد كان المصريون القدماء يشيرون إلى سكان الحبوب بكلمة «هس» وهي لانفيد أي معي آخر ، ولبست لها أبة دلالة من ناحية الحس والسلالة ، وأحياناً مستخدم نبت الكلمة بمعنى الأراضي الواقعة جنوب مصر على احتلالها : وقد ترك بين الأول كتابة يقول فيها إنه شن الحرب على ست مجموعات من الهس وهم هس إرمت وهس مارا وهس بام وهس واوات وهس كاو وهس طمح^(١) .

وستطبع أن غير من بين هؤلاء الستة ثلاث سلالات على الأقل لا صلة بينها وبين السلالات الزنجية ، وهي الإرمت والبرا (النجعة) والطمح .

وهذه الوثيقة تؤيد الرأي بأن كلمة هس لا تبدو أن يكون معناها سكان احمات

الجنوبية . ومع ذلك قد حرت عدة كثير من الكتاب على ترجمتها بكلمة زنجي ، ومن بين هؤلاء الكتاب العالم الأمريكي هنري برستد . ولكن عارضة في ذلك علماء كثيرون مثل الأستاذ ينكر .

وقد اضطرت حكومة مصر في الأسرة الثانية عشرة إلى أن تحرق قناة عند الشلال الأول لتيسير الملاحة للسفن التي ترسل لتأديب المعبرين ، كما اضطرت إلى توسيع إدارتها بحيث شملت بلاد النوبة الشمالية إلى أول الشلال الثالث . وفي الأسرات الثانية عشرة إلى العشرين تم « تمصير » بلاد النوبة الشمالية والجنوبية من النواحي الثقافية والاجتماعية والسياسية ، وأُشْنِب لها عاصمة في بته ، بالقرب من بلدة مروى الحديثة .

وهنا تظهر مشكلة لا تزال متفر إلى حد مقبول : وهي أن تصوير المصريين القدماء للموسمين في عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها ، يمثلهم على أنهم ريوخ ، مع المسألة في تصوير التفاضل الزخمية ، فكيف يتفق هذا الوصف مع ما ذكره إليوت سميث استناداً على دراسة الخاتم والمطام والمقارنة بين اسويين في ذلك العصر والموسمين في أمق الحاصر ، والرأي الذي يتبع إليه أنه ليس هناك فرق جوهري بين الاثنين ؟

ويرى سلحبر في تفسير ذلك الساقص أن البلاد كانت شتمل مملا على عدد عظيم من الجماعات الزخمية عارب عليها من الجنوب ، ثم طوردت تلك الجماعات واضطرت إلى أن تعود إلى بلادها . ثم ، الاتصال المستمر بين مصر وبلاد النوبة عاملاً جديداً على زيادة اندماء الشبهية الموفارية .

ويرى غيره من الكتاب أن مقدرة الجماع والمصمم دليل قوي من الصور والرسوم ، ولا بد أن الصور المصرية كان يقوم بتصويره وهو في أوطانه الشمالية ، ويبني رسومه على ما يشاهده من جماعات الأسرى ، التي كانت ترسل إلى الشمال ؟ وهؤلاء يشتملون على عدد من الجمود الزنوج وإن كان معهم أحياناً بعض قاداتهم من غير الجنس الزنجي . **البراءة في قائه** وهناك تحليل آخر . لعله لا يختلف كثيراً عن الرأي الثاني ، وهو أن الصور

المصري كان يرسم صورة للأعداء الذين غاروا على بلاد النوبة ثم على حدود مصر الحموية . فكان يصورهم روجاً قحاً على سبيل الزرابة والاحتقار .

غير أنه ليس مستبعد أن بعض الحشرات التي وجدت في بلاد النوبة في المصور القديمة كانت تقوم بها جماعات رنجية أو شبيهة بالرنجية Negroid بقيادة جماعة من الخميس . وهذا ما تحده فعلاً في آثار الجماعات التي أصلها اسم المجموعة النوبية من . وهي ترجع إلى سنة ٣٠٠ بعد ميلاد وامرة التي أعقبها ، وقد وجدت آثارها وعظامها في بعض المقابر في إقليم بلاد إلى الشمال من وادي حلفا وغيرها ، وقوربت محتوياتها عما اشتعلت عليه بعض المقابر في جزيرة مروى^(١) .

وابحث في هذه المقابر لا يصل بنا إلى نتيجة حاسمة لأن أكثرها ، وعلى الأخص مقابر مودة والزعماء ، قد نبشت وخربت مراراً^(٢) ، وقد قام ببعض الجحاجم والقدماء لذكور مصر اوى وقرر بعد فحصها أن هنالك سلالتين تتميز إحداهما عن الأخرى : الأولى منجم في جماعات النجاريين ورؤساء ، وتتأزون بالقامة الطويلة وصف . تعد عن الصفات الرنجية ، والأخرى تتأز بالقامة القصيرة والصفات رنجية وتتميز في النساء بوجه خاص ، كما أن هنالك أمثلة تشير إلى اختلاط بين السلالتين^(٣) .

ولا بد من بحث الأستاذ المصري محمداً لشك أن المويين رسم من ، وإن كانت حسب عليهم أوشية والمعدات المتخالفة لم كان يسود بلاد النوبة ، فبهم لم يكونوا يتشون سلالة رنجية خالصة ، بل جماعات جميعه اقتدت معها سيداً من الرنج

والظاهر أن مجموعة من قد حلت عن البلاد بعد ذلك ، وإن تركت آثاراً بها وأحدث الأحوال في شيء من الاستقرار في القرن الخامس والسادس ، وانتشرت (١) حبريد مروى في الإقليم الواقع بين المعصرة والنيل ، وفي شمال بلاد مروى القديمة وآثارها يوم أخلال . نهر من كوشية . ومن لهم التمييز بينها وبين مروى الحديثة المتأخرة لليلة يت .

(٢) مقال كروان عن أصل النوبة في العهد الحثري من S.N.R. من : ٥٦ .

(٣) Batrawi : Archeological Survey of Nubia (1929-34) p. 180

المسيحية بعد ذلك ، وأنشئت مملكة مسيحية ، عاصمتها بلدة مرس ، ثم تحولت العاصمة بعد ذلك إلى بلدة أشنب في العهد المسيحي وهي دقنة القديمة ، (أو دقنة المحوز) ، ثم انتشرت المسيحية بعد ذلك إلى جزيرة مروى ، كما أنشئت بعد ذلك مملكة علوة ، وعاصمتها سوية ، وفي عهد الفتح العربي لمصر كانت هناك دولتان مسيحيان ، الأولى دولة دقنة أو دولة المونة والأخرى دولة علوة ، وكان هناك دولة أخرى تدعى مقبرة اندجحت في دولة دقنة قبل الفتح العربي لمصر .

هذه قد دحضت مؤثر - والسلالات العربية من طريقين : الأول من شمال حيث تنشر قبائل عربية أكثرها من ربيعة ما بين الشلال الأول ووادي حلفا ، وهذا هو الإقليم الذي كان يطلق عليه اسم مرس ، وعلى كفة مقبرة معنى الحبوب أو الإقليم الجنوبي ، والطريق الثاني الذي سلكته مؤثرات عربية من الجنوب ، كما أوضحنا ذلك عند الكلام على انتشار جليلين .

يتبين مما تقدم أنه إذا كان هناك محل لاختلاف بينى في أمر بلدة المونة وهو هي لغة من لغات السودان جمعيات ريفية ، أنه أثرت بعد ذلك تأثيراً شديداً بالمؤثرات الحسية أو الماكس ، فليس هناك من شك في موطن أنفسهم كما يعرفهم اليوم ، بأن أصولهم في السلالات النوبية القديمة عربية في لغة ، وأن الصعاب الريفية التي قد رها أحد أسلافهم هي من مصر الحديثة دجيل وكذلك لا شك أن المؤثرات العربية ، كما يعرفهم اليوم ، كما هو أوضح بتساراً ، وبلاذهم مصعدة في النهر إلى مدى أبعد مما تصل إليه اليوم ، فالتسمية النوبية المصرية التي كانت حاصرتها بلدة بيت هي هي أنشأت عاصمة في الجنوب في بلدة مروى القديمة ، بالقرب من بلدة شندى الحديثة وقد ارتد هرب مروى بدورها ، واسع تقودها حتى وصل إلى ملتقى النيل الأزرق ولأبيض وإلى أرض الجزيرة ، وهذه كلها أقطار كانت يسكنها ملائكة سلالات ، ونصل إليها مؤثرات ثقافية خلال السلالات والمؤثرات العربية ، ولكن بقايا الثقافة النوبية ظاهرة فيها أيضاً . وقد يكون من الغلو أن نزع أن مملكة المرويين ، أو مملكة علوة ، كانت مملكة نوبية خالصة .

ولكن لا شك أن بلاد النوبة الشمالية هي العامل الأكبر في إنشاء هاتين المملكتين .

وقد اختلف العلماء في أصل اسم النوبة ، كما اختلفوا في تاريخهم و في نشأة لغتهم ، والأصل المصرى القديم للكلمة مشتق من لفظ نوب أو نوبو ، بمعنى الذهب ، أى أنها بلاد الذهب ، وهو أحد الأسماء التى كان يطلقها المصريون على هذه البلاد ، وإلى حوارها كما هو معلوم مساحه قديمة تلك المدن التى ، وقد وصفت البلاد بهذا الاسم في كتابة في الأسرة الثانية عشرة في عهد الملك أمنمحات الأول^(١) ، ومع أن هذا الاشتقاق الواضح مما يسهل التسليم به ، فإنه لم يجد قبولا من أولئك الكتّاب الذين يرون أن شعباً راحياً يدعى باسم لنوبة ، قد أعار على البلاد وشرعها هذه الرعي ولغة من اللغات النحبة ، في عصر يمد نسبياً عصرًا متأخرًا ، وأن هؤلاء المصريين الذين لا شك يعرف عنهم شيئاً هم الذين أكرموا البلاد اسمها الذى يعرف به الآن .

وهيما كى من شىء ، قبل ولى مصر الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح عندما عقد معاهدة في سنة ٦٥١ ميلادية مع ملك هذه البلاد سماء في المعاهدة عظيم الموهبة ، وخص على أن المعاهدة بمقوده تشمل البلاد التى تمتد من حدود مصر إلى حدود عتبات ما بين شىء عظيم موهبة من نور كان مسجراً على كل ملك لا يقيم . من خلال لأول إلى يقيم كان . في ذلك وقت يقيم الأبواب ، لعله عند السال السادس

وقبل رسا عند سنة من سعدى من شرح محو . به نوب كان خمرافى لاسكس . رتوبطى با عو سكال ملك بلاد باسم مونة^(٢) وهكذا ترجع لفصوص راحية باسم مونة إلى مرور الثالث قبل الميلاد . فى فى رسا سدى بعدة موه من ظهور ملك الطوائف لى سموه موه س ، ولى يقال إنها هى التى

(١) ما كان . الجزء الأول ص ١٤ (هامش) نقل عن برستد Ancient Records, I, 520

(٢) حصص نغريرى اخره . لوى ص ٢٢٢ .

(٣) . كما يذكر هذا المرجع ص ١٢ وكروان Kirwan = Nubian Origins p 4

في العهد العشرى من S.N.R

آرت في البلاد وأكسبتها البنة والأسماء وقسطاً غير قليل من الدماء الجنوبية .

هذا وقد شغل تاريخ النوبيين تقديم وبلدتهم وآثارهم عدد كبير من الباحثين ، ولم يكن بوصفهم في الأرمسة الحديثة من الكتاب إلا عدد من السائحين مثل بركهـرب وعـبره . ولا يزال هنالك مجال لدرستهم في بشائهم الحاية ودراسة أحوالهم الاجتماعية والاثنوغرافية .

وحسب أن - كر أن النوبيين في الوقت الحاضر يحتلون مساحة من نهر النيل قد تكون أقل من نصف المساحة التي كانوا يحتلونها من قبل ، وتمتد أوطانهم اليوم من أسوان في الشمال إلى البية في الجنوب ، وهم ينقسمون إلى خمسة مجموعات رئيسية : الدافقة في الجنوب ما بين ندية وبنى فاطمة ، ثم المحس والسكوك في إقليم الشلال والجنادل ، ثم العديجة ما بين وادي حلف وكرسكو والسكنور في الجزء الشمالي المقدم من كرسكو إلى أسوان . وسنأمر في على وجه التقريب عدد النوبيين في أوطانهم الأصلية ، ولكنهم على الأرجح لا يقلون عن ربع مليون من الأعس ، أما عددهم في جميع أنحاء وادي النيل ، فيوشك أن يكون من المستحيل تقديره .

والدافقة منشون في إقليم يعد من أحسن ما اشتملت عليه الأوطان النوبية ، فانه ممتد الحرين حال من الجنادل سهل الملاحة ، ويتسع السهل الفيضي في عدة مواضع ، مما يتيح للسكان فرصة للزراعة على نظام ري الفيض ، مع الاستفادة بالسواقي ونحوها ، ومن أجل ذلك تعد الدافقة من الممتلكات الهامة في بلاد النوبة ، ومع اشتغال الدافقة بالزراعة راعهم من أشط الحماة في السودان كله في التجارة وفي مختلف الحرف .

ويشبه الدافقة في مطهرهم الطبيعي حيراتهم العرب من البديرية ، ولا شك أن النسب العربي فيهم قوى ، وفي مجلس يضم جماعة من البديرية والدافقة ليس من السهل أن يميز المرء بينهم في بعض الأحيان .

أما أعس فإن أوطانهم تتخللها جنادل الشلال الثالث ، وفيها يضيق مجرى

النهر من آن لآن . بحيث لا يتسع للزراعة إلا بتعداد ضئيل ، ومع ذلك فهناك جهات يتسع فيها الوادى وتيسر فيها الزراعة ، عبر أن إقليم المحس والسكوت بوجه عام محدود الموارد ، وسرعان ما يضيّق بسكانه ، ولذلك كثرت الهجرة من هذا الإقليم أكثر من غيره ، وعلاوة على هجرة الأفراد في طلب الرزق ، رى المحس قد هاجروا في صورة جماعات كبيرة ، وخرجوا عن أوطانهم إلى أوطان جديدة فأصبحوا يحتلون جزيرة توتى وإقليم عيلقون ، وفي هذين الإقليمين قد استعرب المحس ، وأصبحوا لا يحتفلون عن حيراتهم من العرب ، وأصبحت أمتهم الوحيدة هي العربية ، كذلك كان المحس هم العصر الأكرم في المهاجرات التي كانت وجهتها جبل مديد ؛ وغيره من الجهات في شمال كردوفان ، دارفور .

أما السكوت فهم أسمر المجموعات النوبية عدداً ، ومعلومنا عنهم قليلة ، ونستقى أوطانهم إلى الجنوب من وادى حلفا ، وذلك تكون أوطان المجموعات الثلاثة : الدناقلة والمحس والسكوت واقعة كلها في السودان ؛ وإن كان المحس في العدة يتجهون إلى مصر في هجراتهم أكثر مما يتجهون إلى السودان .

وفي بعض أرمسة الشدة والجهد في العصر الحديث ، هاجرت مجموعات كبيرة من المحس والسكوت ، سعيًا وراء الرزق ، أو هرباً من الإرهاق في زمن مهدية ، فأتهموا بمجموعهم إلى الشمال من وادى حلفا ، وروا على صغرى النيل الشرقية والعربية بين تلك المدينة وبلدة كرسكو ، وهذه المجموعة هي التي يطلق عليها اسم العديجة أو العديجة^(١) . فهم إذن يتشون هجرة من هجرات إقليم الحادل ، إلى الجهات التي يليها نحو الشمال ، ومصل هذه الهجرة أصعب للمحس والسكوت أوطان داخل حدود القطر المصري ، وإن تسموا بهذا الاسم الجديد .

وفي أوطان العديجة الجديدة تقع بعض البلاد الشهيرة مثل قصر اريم وعيبة ، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن السلطان سليم بعد فتح مصر ، أرسل إلى هذا الإقليم جماعة من ضباطه يسمون الكشاف (جمع كاشف) ، لكي يقوموا على حراسة

(١) المروى أن كلمة عديجة معناها أن سبيلك ، أى أنهم هاربون من هلاك محق ، والاسم لا يرجع على الأرجح إلى أبعد من زمن المهدية .

التخوم الحويية لمصر ، وأكثر هؤلاء لكشاف من أصل الباني أو شاق
أو أناصولى . وقد اندمحو فى السكان على مصى الزمن . ولم يتركوا إقليم اريم ،
بل انتشروا فى غيره من الجهات المحاورة ، بحيث لا يحتلون اليوم إقليما أو جهة
من الجهات ، ومع ذلك لا يزال كثيرهم يعرف بذلك الاسم ، وإن لم تصبح لأحدهم
الوظيفة القديمة التى كانت له فى عصر سليم الأول .

أما السكور فأوصاهم كلها داخل القطر المصرى . وشكهم الطبيعى فى معظم
الأحيان لا يكاد يختلف فى شيء عن سكان اوجه القس فى مصر . وقد نجد بينهم
فى كثير من الأحيان أشخاصا يتنازلون باللامع العربية الوسيمة . ولا غرو فإن هذا
الإقليم قد استحال إلى مستعمرة عربية نى أثر الفتح العربى لمصر . وزلته قبائل من
ربيعة ومصر ، وبعض الجهنيين أيضا^(١) ، والكن السيادة فيه كانت لربيعة . وهو
أول إقليم رالت عنه سلطة مدب الموبة السيجى ، ونحوه فى وقت متقدم إلى الإسلام .
وقد كانت الإمارة فى هذا الإقليم فى عهد الفاطميين لأمر بتمنى بن قرش ،
اسمه أبو المكارم هبة الله ، ويعرف بالأهوج المطاع ، وهو الذى صغر نأى ركوة
أخارج على الحاكم بأمر الله ، ومضى عليه ، فأكرمه الحاكم إكراما عظيما ولقبه
كبر اسولة^(٢) ، فأنصرف الاسم إلى ناعه ورعيته ، ولزم الاسم سكان هذا
الإقليم إلى وقتنا هذا

والدعة الموية التى نتحدث بها جميع لوبيين تحتل احتلا قليلا من إقليم
بن إقليم ، فلهجات الخمس والسكوب وأندجحة تؤلف مجموعة متشابهة ، بينما لغة
السكور والندجحة تؤلف مجموعة ثانية متشابهة ، وقد قيل فى تفسير ذلك أن الجهات
وعمره فى إقليم الحداد الوسطى حال دون الاختلاط بأهل الشمال والجنوب ،
فتشابهت لغة سكان الحداد . غير أن هذا التفسير لا يساعد على إصاح تشابه
لهجات الندجقة والسكور مع بعد المسافة بينهما . ولا بد لنا أن نقرر أن الاتصال
بين إقليم السكور والندجقة كان كثيرا ومطردا بحكم العلاقات التجارية بين الجنوب

(١) السعدى فى مروج الذهب الجزء الأول من ١٩١ .

(٢) تقريرى فى البيان والإصرار عما بأرض مصر من الأهراب (القاهرة ١٩١٦)

والشمال . ولم يكن بد لسرعة الاتصال من تجنب الإقليم النهري الكثير الخنادق ،
والذى لا يلعب دوراً خطيراً فى التجارة . فإن السلع الرئيسية كانت من مصر
والسودان ، وكان كل من الدافلة والكنوز بحكم موقع أوطانهم هم الذين يقومون
بالنصيب الأكبر من تلك التجارة . ولذلك كثر اتصالهم وتشابهت لهجاتهم .
وقد حرت عادة النوبيين ، وعلى الأخص فى النصف الشمالى من بلادهم ، على
التمييز بين الضفتين الشرقية والغربية وسكانهما ، فيدعون الجهات الشرقية وسكانها
ماتوكى ، والجهات الغربية وسكانها تينوكى . وفى إشاراتهم الخاصة بهذا المعنى
ما قد يفهم منه أن سكان البر الشرقى جاءوا من الشرق ، وسكان البر الغربى جاءوا
من الغرب ؛ أو على الأقل هذا ما فهمه الأستاذان يُنكسر وشيمر^(١) . وليس يبدو
أن هنالك فرقاً جوهرياً فى أية ناحية من النواحي بين سكان الشرق والغرب ،
والأمر لا يبدو التمييز بين الضفتين الشرقية والغربية ، كما هو الحال فى سكان
الصعيد . ولا بد من دراسات اجتماعية وأثنولوجية دقيقة لمعرفة ما بين سكان
الضفتين من فروق ، إذا كان هنالك فروق .

(١) فى ص ١١٧ من الجزء الثانى من كتاب Nubische Texte (طبع فى سنة ١٩٣٢)
(٧٠)

استدراك

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
١٦٤	١٥	العدنايين	العدنايين
١٦٧		شكل ١٢	شكل ١٣
١٧١	١	الجلين	الجميين
١٧١	١٩	الجرافي	الجنرافي
١٧٧	١٨	لوزيمر	لوريمر
١٧٩	٥	الشيعة	الشايقية
٢٠٥	٨	شكوة	شوكة
٢٠٥	١١	زريقات	رزىقات
٢٣٥	١٨	أم رابة	أم روابة
٢٧٢	٩	نشاد	تشاد
٢٩٨	٧	بلابة	بلالة
٣٠٣	١٧	يلدة	بلدة

فهرس أبجدى

الأرتيفا (قبيلة) : ٢٦ ، ٥٨ ، ٩٩ ، ١٢٣	(١)
أرجو (حريرة) : ٧٠ ، ١٩١	آ (جزيرة) : ١٥٠
أركل A.J. Arkel : ٢٥٤	أراهباب (شاربي) : ٦٨ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ٧٨ ، ٧٦
أركويت (مدينة) : ٢٤ ، ٢٥ ، ١٠٨ ، ١١٥	أريم (مدينة) : ٣٠٣ ، ٣٠٤
الإريحا (قبيلة) : ٢٦٩	ار بطوطه : ١٤٥
أرياب (مدينة) : ٧٠ ، ٧٣ ، ١٠٠ ، ١٠٧	ابن خلدون : ٢١٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥
أسمرة (مدينة) : ١٣٦	أبو الدوم (وادى) : ١٨٢
أسوان (مدينة) : ٣٦ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ٢٨٤ ، ٢٩٩ ، ١٩٠ ، ٣٠٢ ، ٢٨٧	أبو جبل (خور) : ٢٥٩
الأشراف (قبيلة) : ٢٦ ، ١٢٣	أبو حد (مدينة) : ٦٣ ، ٨٤ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٧٧
أعوردات (مدينة) : ١٢٦	أبو دليق (مدينة) : ٢٤ ، ٢٥ ، ١٥٤ ، ٢٠٥
أكوم (مدينة) : ٢٣	أبو فاطمة (مدينة) : ١٩١ ، ٢٨٤ ، ٣٠٢ ، ٢٨٥
الأيص (مدينة) : ٢٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦	أجرس (محلة) : ٦٦
الإدريسة (طريقة) : ٢٠	أحمد أبو سن : ١٥٥
الإسماعيلية (طريقة) : ١٩	أدار باب (جبل) : ١٠٩ ، ١٢٦
التولدى : ٢٢٩ ، ٢٨٢	أدراما (مدينة) : ٧٨
القصور (مدينة) : ٧٥	أدوار (جبل) : ١٢٥
البيوت سميت الأستاذ : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧	أرياب (جبل) : ١٠٨
أم هومان (مدينة) : ٢١ ، ١٧٠ ، ١٩٤ ، ٢٣٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢	أريجى (مدينة) : ٢٥٧
الأمسار (قبيلة) : ٢٦ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٤٨ ، ٤٦ ، ٤٠ ، ٦٨ ، من ٨٩ إلى ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١	أرسات (خور) : ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٤
	أربه (جبل) : ٢٤ ، ٢٥ ، ٩٢
	أربه (جبل شمال سنكات) : ٩٢
	أربه الغربى (جبل) : ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦
	أرتريا : ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٥٦

القارة : ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
٢١٥ ، من ٢٢٥ الى ٢٤٠ ، ٢٦٢ ،
٢٦٥ ، ٢٧٤
السو Belu (دولة) : ١٣٠ ، ١٣١ ،
١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٣٧ ، ٢٧٣
بايا Blemmye : ٣٣ (أنظر البجة)
بنيت (بلاد) : ٦
بن جرار (قبيلة) : ٢١٤ ، ٢٢١
بن خزام (قبيلة) : ٢٢٩ ، ٢٣٠
بن سليم (قبيلة) : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ،
٢٢٩ ، ٢٣٥
بن شغل (قبيلة) : ١٠
بن عامر (قبيلة) : ٤٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٧ ،
٣٩ ، ٥٠ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١١٥ ،
١٢٣ ، من ١٢٥ إلى ١٤٢
بن علي (قبيلة) : ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠
بور سودان (مدينة) : ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٥ ،
٣٩ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ،
١٠١ ، ١١٨ ، ١٧٣
وركوارت (رحالة) : ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ،
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ،
٣٠٢
يونس (رحالة) : ١٨٦
بيوضة (صحراء) : ١٤٦ ، ١٧٨ ،
١٨٠ ، ١٨٦ ، ٢٣٤ ، ٢٤٨

(ت)

تاجوج (قصة) : ١٥٧ ، ١٥٨
تاكه أنظر كسلا
تالودي (مدينة) : ٢٢٩ ، ٢٥٩
تاما (دار) : ٢٦٩

(ث)

الثمالة (قبيلة) : ٢٢٩ ، ٢٣٧

(ح)

حاراب (شارين) : ٩٨
الحاش (خور) : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٧ ،
٣٩ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ، ١٤٦

نياحو (جبال) : ٢٦٩
تداوى (لغة) : ٢٧ ، ٣٦ ، ٦٩ ، ٧٨ ،
٩٧ ، ١٠١ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ،
١٣٦
تو (قبيلة) : ١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٨
التحريفية (اللغة) : ١٢٨ ، ١٣٥
ترمجهام (القس) : ٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣
تصاد (إقليم) : ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
٢٣١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٢
التايشه (قبيلة) : ١٥ ، ١١٧ ، ٢٢٩ ،
٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩
تغلي (مملكة) : ١٤٧ ، ١٩٦ ، ٢٢٩ ،
٢٣٥ ، من ٢٥٨ إلى ٢٦٠
تسكارنة (قبائل) : ٢٦٩ ،
تليوارب (لغة) : ٢٤ ، ١١٠ ،
أثران (علم) : ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٩ ،
١٠٩ ، ٩١
الشجر (قبيلة) : ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ ،
٣٠٣ (حصه) : ٢٤ ،
تهبو (قنات شامة) : ٢٩٤ ،
توحى (حصه) : ٩٤ ،
التعدية (طرقة) : ٢٠ ،
تيجره (لغة) : ١١ ، ٢٧ ، ١٢٨ ،
١٣٥ ، ١٣٦
تيموركا (شعبة من القور) : ٢٧٢ ،
٢٧٤

الحفاحيد أو الحدادين (جماعة) : ٧٧٠
 الحدارب أو الحدارية (قبيلة) : ٦٩ ،
 ٧٤ ، ٧٥
 الحاية (قبيلة) : ١٤٨ ، ١٤٩ ،
 ١٥٠ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٩٦ ،
 ٢٢٦
 الحديب (قبيلة) : ١٤٨ ، ١٤٩ ،
 ١٥٠ ، ١٩٦ ، ٢٢٦
 الحصارمة (قبائل) : ٤١
 حصرموت (بلاد) : ١٤ ، ٣٥
 الحلويون (قبيلة) : ٢١٤
 الحداب (بشارين) : ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
 ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٥
 الحدورات (بشارين) : ٦٧ ، ٧٧ ،
 ٨٠ ، ٨٢
 الححر (قبيلة) : ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٧٨ ،
 ٢١٥ ، ٢٢١ من ٢٤٥ إلى ٢٤٧
 الححر (بقارة) : ١٥٦ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٧
 الحمران (قبيلة) : من ١٥٦ إلى ١٥٨
 الحوازمة (بقارة) : ١٥ ، ٢٠١ ،
 ٢٠٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧
 حلايب (مرسى) : ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٨

(خ)

الخاسنة (لفة) : ٩٧ ، ١٢٨ ، ١٣٥
 الختمية أو الرعيبية (طريقة) : ١٩
 الخرطوم (مدينة) : ٢٥٠ ، ١١٠ ، ١٦٠ ،
 ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ،
 ٢٧٥
 ختم القرية (مدينة) : ١٠٧
 خط حرس ١٢ شمالاً : ٣ ، ٤ ، ١٤٨ ،
 ٢٦٦
 الخوتية (طريقة) : ٢٠
 الخوالدة (قبيلة) : ٢٠٦ ، ٢١٤
 الخيران (منطقة) : ١٥٣ ، ٢٢٠

حاكون (مستر) : ١٧٩ ، ١٨٠
 حيت الناحم (مدينة) : ١٠٤
 جراعابا (بئر) : ٦٦
 جرسى (مدينة) : ٦٦
 الجزيرة (إقليم) : ١٦٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ،
 ٢٢٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢ ،
 ٢٩١
 الجعافرة (قبيلة) : ١٦٤ ، ١٩٠
 الحمر (لفة) : ١٢٨ ، ١٣٥
 الحعليون (مجموعة) : من ١٥٩ إلى ٢٠٧ ،
 ٢٣٦ ، ٢٦٠
 الجعليون (قبيلة) : ١٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
 ٨٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ،
 ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٩١ ،
 ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢٢٧
 الحمر (قبيلة) : ١٦٨ ، من ١٩٦ إلى
 ٢٠٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦
 المجموعة (قبيلة) : ١٦٨ ، من ١٩٣ إلى
 ١٩٦ ، ٢٥٨
 جهينة (مجموعة) : ١٤ ، من ٢٠٨ إلى
 ٢٤٨

الجوابرة (قبيلة) : ١٤ ، ١٦٤ ،
 ١٦٨ ، من ١٩٠ إلى ١٩٢ ، ٢٠١
 الخوامسة (قبيلة) : ١٤ ، ١٦٤ ،
 ١٦٨ ، ١٩٨ ، من ٢٠٢ إلى ٢٠٤ ،
 ٢٣٦ ، ٢٦٠
 جون بترك (مستر) : ٢٢٥
 الجوينب (إقليم) : ٦٢ ، ٦٣ ، ٩١ ،
 ١٠٧
 جويلاي (أسفار) : ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ،
 ١٠٥

(ح)

الحالقا (قبيلة) : ٢٦ ، ٥٨ ، ١١٥ ،
 ١٢٣
 الحباب (قبيلة) : ١٣٤

دونجونايب (مدينة) : ٦٣ ، ٤٠ ، ٧٤ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨٤ ، ٧٥ ، ٩٣
 الدويحية (قبيلة) : ٢٢٤ ، ٧١٥
 دثيب (وادي) : ٨٠ ، ٦٤ ، ٦٢
 ٨٢

(ر)

رأس الحدارنة : ٧٤
 راينش : Remisch : ٢٩٢ ، ٢٣١
 الرباطاب (قبيلة) : ١٦٨ ، من ١٧٥
 إلى ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠
 ررققات (قارة) : ٢٢٨ ، ٢٢٣ ، ١٥٠
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨
 ٢٤٧
 الرشيدة (قبيلة) : ١٥٥ ، ٥٨ ، ٤٥
 ١٦٤ ، ١٥٦
 رشيدة (طرفة) : ٢١
 رفاعة (قبيلة) : ١٥ ، ٧١٤ ، من
 ٢٢٣ ، ٢١٧
 الركاية (قبيلة) : ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٩٠
 ١٩٣ ، ١٩٢
 الرهد (مدينة) : ٢٣٦
 ريدستر (Reid) : ١٥٠ ، ١٤٨

(ز)

الريدية (قبيلة) : ٥٨
 الراوة (قبيلة) : ١٣٠٨ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٨
 الريدية (قبيلة) : ٢٢١ ، ٢١٤
 زيلارنس (دكتور) : ٢٨٩ ، ٢٩٠
 ٢٩٢

(س)

ساندرز (مستر) : ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٢ ،
 ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٣ ،
 ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤

(د)

داحا (شعبة من بني عامر) : ١٤٠
 الداجو (قبيلة) : ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٨
 دار الأحامدة (قبيلة) : ١٦٤ ، ١٩٦ ،
 ١٩٧
 دار حامد (قبيلة) : ٧٠٠ ، ٢١٤ من
 ٢٢٠ إلى ٢٢١ ، ٢٢٢
 دار سولا أو دار صليح (إقليم) : ٢٧٠
 دارفور (إقليم) : ٣ ، ١٥٥ ، ١٦١ ،
 ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ،
 ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
 ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥٣ من ٢٦٠
 إلى ٢٨٣
 دار محارب (قبائل) : ١٩٦ ، ١٩٧ ،
 ١٩٨
 الدامر (مدينة) : ١٧٢ ، ١٧٣
 الدبة (مدينة) : ١٦٢ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ،
 ٢٨٤ ، ٣٠٢
 دراو (مدينة) : ٢٠٠ ، ٦٧ ، ٨٠
 حرب الأربعين : ٢٦٣ ، ٢٩١
 الدقائم (شعبة من أكر) : ٢٤٥ ،
 ٢٤٦
 الدقلاء (شعبة من بني عامر) : ١٣٦ ،
 ١٣٨ ، ١٤٢
 الدلج (مدينة) : ٢٠٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩
 الدقلة (مجموعة) : ١٦٨ ، ١٦٣ ،
 ١٧٠ ، ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣
 دقلة (المعوز) : ٢٩٩
 دقلة (مدينة) : ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ١٦٢ ،
 ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٩١ ،
 ٢٣٩ ، ٢٥٣
 دنكا (قبائل) : ٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ،
 ٢٩٠

الناحية (قبيلة) : ١٧١ ، ١٦٨ ، ١٤ :
١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، من ١٨١ ،
إلى ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٢٧

لشرعاب : (هندنو) : ١١٣

شكابتال (جبل) : ١١١

الشكرية (قبيلة) : ١٥ ، ٣٦ ، ٧٥ ،
٧٦ ، ١١٣ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٧٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
٢١٧ ، ٢٣٣

شدك (قبيلة) : ٤ ، ٢٩ ، ٢٣٥ ،
٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٩٠

اشابلة (قبيلة) : ٢١٤ ، ٢٢٢ ،
شدى (مدينة) : ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
١٧٠ ، ٢١٦ ، ٢٩٩

شويحات (قبيلة) : ٢٠٢

(ص)

سمويل بيكر (رحالة) : ١١٨ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٥٧

(ط)

طرفة (مدينة) : ٢٧٣ ، ٢٨٠ ،
طريمه (قسلة) : ٢٠٢ ،
طمحو (قسلة دند) : ٢٩٤ ،
الصوان (قسلة) : ٢١٧ ،
طوكر (اديم) : ٢٣٠ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٧ ،
٤٠ ، ٤٩ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١٠١ ،
١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ،
١٧٣

(ع)

عامور (وادي) : ٦٣ ، ٦٦ ، ٨٣ ،
٨٤ ، ٩٢

سلوكة (خانق) : ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٤ ،
١٨٨ ، ١٩٤

ستجوانب (حوض) : ٦٦

سكوت (قبيلة) : ١٨٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
٣٠٤

سليمان (الأستاذ) : ٩٧ ، ٣١ ، ٣٥ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ،
١٣٩ ، ١٥٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ،
٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ،
٢٩٧ ، ٢٩٥

سلطنة دارفور : من ٢٧٨ إلى ٢٨١

السلوم (محنة) : ٩٤

سليان سلويج (سلطان) : ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٧٨ ، ٢٧٩

السيابة (طريقه) : ٢٠

السرار (هندنو) : ١١٣

سمرندواب (هندنو) : ١١٣

سنار : ٢٦ ، ١٣٧ ، ١٤٦ ، ٢٥٢ ،
٢٥٧ ، ٢٨٢

سددر (أسرار) : ٩٦

سنگات (محلة) : ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٩ ،
٩٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩

سواكن (ميناء) : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
٣٥ ، ٣٦ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ،
١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٥ ،
١١٦ ، ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٤ ،
١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
٢٥٣

سلالا (سركر بوليس) : ٨٢

(ش)

شاطيراب شريين : ٦٧ ، ٧٧ ، ٨١ ،
٨٢

شاورة : ٢٣١

كاربو Carbon : ٢٣٢
 كام (قبائل) : ٢٦٧ ، ٢٦٣
 كايبرا (الأسرة الحاكمة في دارفور) :
 ٢٧٣
 كايو (رحلة) : ١٨٤
 كبايتش (قبيلة) : ١٦ ، ١٥ ، ٤
 ٥٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ،
 ١٥٧ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٨٥ ،
 ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، من ٢٤٠
 إلى ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
 كراكيرت (شعبة من القور) : ٢٧٢
 ٢٧٤
 كرتي (مدينة) : ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ٢٠١ ، ٢٨١
 كرسكو (مدينة) : ١٦٠ ، ٨٤ ، ٦٤ ،
 ٢١٩ ، ٣٠٢
 كرمه (مدينة) : ١٩١ ، ٢٨٤
 كلا (مدينة) : ١٩ ، ٢٥ ، ٣٧ ،
 ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ،
 ١١٠ ، ١٣٨ ، ١٥٤ ، ٢٤٦
 كشاف (جامعة) : ٣٠٣ ، ٣٠٤
 كلارك (مستر) : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ،
 ٤٧ ، ٥١ ، ٥٧
 كلاب (قبيلة) : ٧٣ ، ٨٥ ، ٩٨
 كيلاي (قبيلة) : ٢٦ ، ٩٨
 كنانة (قبيلة) : ٢٦٠
 كنجاره (شعبة من القور) : ٢٦١ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤
 كسور (قبيلة) : ١٦٣ ، ٢ ، ٣ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٥
 كواهل (مجموعة) : ٩٨ ، ٦٩ ، من
 ١٤٣ إلى ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ،
 ١٧٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٢٠ ،
 ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠

قزارة (مجموعة قبيلة) : ٢١٤ ، من ٢٢٠
 إلى ٢٢٣
 القصاب (أمرار) : ٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٠ ،
 ١٠١
 الصبح : ٣٧ ، ٩٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
 ١١٥ ، ١٣٦ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
 ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ١٨٦ ،
 ١٨٨ ، ١٩٤ ، ٢١٢ ، من ٢٥١
 إلى ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦
 القور (قبائل) : ١٠ ، ١٣٣ ، ١٦٩ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٦٦ ، من ٢٧٠
 إلى ٢٧٦
 الملايكا (قبائل) : ٨ ، ٢٦٩ ، من ٢٨١
 إلى ٢٨٣

(ق)

قبة (وادي) : ٦٣ ، ٦٥
 قرباب (أمرار) : ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٤
 قريش (هندو) : ١١٣
 قرمان (قبيلة) : ٨ ، ١٣ ، ٢٧٦ ،
 ٢٦٨
 قري (مدينة) : ١٨٦ ، ٢٥٢
 قشخاب (حياية) : ١٥٢
 قصارف (مدينة) : ٧٤ ، ٢٥ ، ١٠٣ ،
 ١٧٣
 القشدي (مؤلف) : ٢٤٩
 قشر (قبيلة) : ٢٦٩
 قواسم (قبيلة) : ٢١٧ ، ٢٥٢
 قور رحب (مدسة) : ٦٦ ، ٧٣ ،
 ١٠٧
 قلادة (شعبة من حياية) : ٢٣٩

(ك)

كارمير (مؤلف) : ٢١٦
 كاحا (جبل) : ٢٧٢
 كادجلي (مدينة) : ٢٣٧

كوسقي (مدينة) : ١٩٧

(ل)

الاجونون (قيلة) : ٢١٤

لجرح Longrag : ١٣٤ ، ١٣١

١٤٠ ، ١٣٨

بورغر (متر) : ١٧٧ ، ١٧٦

ليان دي سفون (رحالة) : ٧٦ ، ٧٥

٧٧

(م)

ماكايكل : ٨ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٤٦

١٠٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥

١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥

١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٢

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨

١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨

٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠

٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢

٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢

٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧

٢٧٥

لتمه (مدينة) : ٢٨٠ ، ١٧٠

المحدوسة (طريقه) : ٢٠

محررات (حررة) : ١٧٩ ، ١٧٥

محميد وماهيرة (شعب من الرزقات) :

٢١٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٧٧

المحسن (قيلة) : ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨

١٨٦ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢١٧

٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤

محمد قل (ميناء) : ٩٢

مداكر (بشارين) : ٩٨

مرعيات (قيلة) : ٧٣ ، ٨٦ ، ٩٨

المرغبة (طريقه) : أنظر الختية

مروى (مدينة) : ١٦٢ ، ١٨٢ ، ١٨٦

مروى القديمة : ١٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٩

مسلية (قيلة) : ٧٣ ، ١٤٩ ، ١٥٠

٢٢٤ ، ٢١٥

مسح (عطة) : ٢٦ ، ٣٢ ، ٧٠ ، ٩٠

٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٥

مشعلات (شاربين) : ٦٨

مشرع (سبب) : ٦٦

مصوع (مدينة) : ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٥٦

مؤلف (مؤلف) : ١٣٥ ، ٢٠٩

مؤلف (مؤلف) : ١١٥

مؤلف (مؤلف) : ١٣٢ ، ١٣٩

مصورات (مؤلف) : ٦٨

المهددة (قورة) : ٣٧ ، ٧٧ ، ١٠٠

١٠٦ ، ١١٧ ، ١٣٠ ، ١٥٥

١٥٦ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ، ١٩٩

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢٤٧

٢٥٩

موسى (أمرأ) : ٦٩

مؤلف (مؤلف) : ١٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧

٢٦٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٣

ميرقات (قيلة) : ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥

١٧١

(ن)

نابل (متر) : ١٤٠

نابيات (شاربين) : ٦٨

نابا (مؤلف) : ١٦٢ ، ٢٩٧

٢٩٩

نابا (بنى عامر) : ١٣٦ ، ١٣٧

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢

نيران (إقليم) : ١٣١ ، ١٣٢

Nicholls : ٢٠٧

نهدو (قبائل) : ٩ ، ٢٩٦

التهود (مدينة) : ٢٢٣ ، ٢٤٦

لنواية (شعب من الرزقات) : ٢٣٨

٢٤٨

هنا (يشارين محليين) : ٦٨ ، ٨٤ ،
١٥٦

الهندية (حريه) : ٧٠

امور (قبيلة) : ١٤٩

مراوير (قسلة) : من ٢٤٨ إلى ٢٥٠

الملايه (قسلة) : ٢١٧

(و)

وادمدي (مدينة) : ٢٠٦

واداي (اقليم) : ٢٠٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩

٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٦٣

٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤

وادي الفلة : ٢٣٧

وادي حلفا : ٢٤ ، ١٩٢ ، ٢٨٥

٢٨٧ ، ٢٩٨

واريبا (حال) : ١١٦

ووات (رقليم) : ٢٩٦

وسر (مؤلف) : ٢٥٤

ويلاي (سارون) : ٦٨

ويلاياب (هندو) : ١١٣

(لا)

لانجب (خور) : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩

(ي)

ينباي (حوض) : ٦٦ ، ٨٦

اليمين (بلاد) : ٧ ، ١٤ ، ٣٥ ، ١٢٧

ينكر (الاستاذ) : ٩ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥

النوا (حال وشعب) : ٣٠ ، ١٠ ، ١٩٨

٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧

٢٤٣ ، ٢٥٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨

٢٨٩

النوبة (قبائل وبلاد) : ٦ ، ٨ ، ١١

١٣ ، ٢٢ ، ٣٤ ، ١٤٧ ، ١٦

١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٩١

١٩٦ ، ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٣٢

٢٤٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ . من ٢٨٤

إلى ٣٠٥

نورات (أمراء) : ٩١ ، ٩٦ ، ١٠٩

١٤

نيل الأيس (إقليم) : ١٤٤ ، ١٤٦

١٤٧ ، ١٤٨

نيونوك (سير) : ٢٧ ، ٢٣ ، ٣٥

٣٧ ، ٥٠

(هـ)

هايت (خور) : ٩٣

هانية (بقارة) : ١٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥

٢٣٦ ، ٢٣٩

هندو (قبيلة) : ٢٦ ، ٣٦ ، ٣٧

٣٩ ، ٥٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨

١٠٣ ، ١٠٥ ، من ١٠٦ إلى

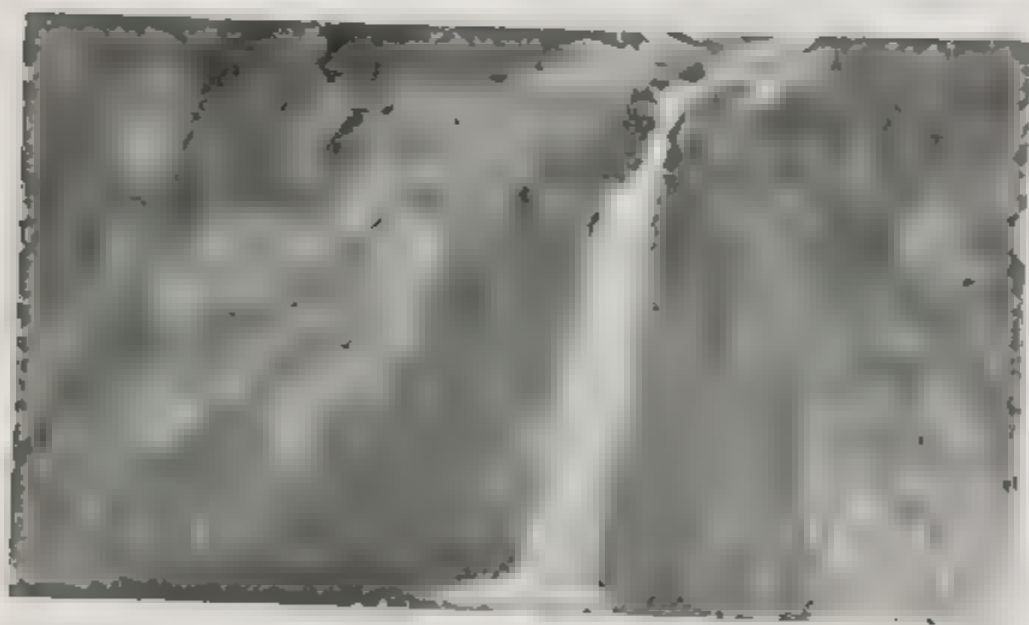
١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٥٤

هلسن (مستر) : ١٨ ، ١٩

الهمج (جماعة) : ١٥٤ ، ٢١٩ ، ٢٣٢

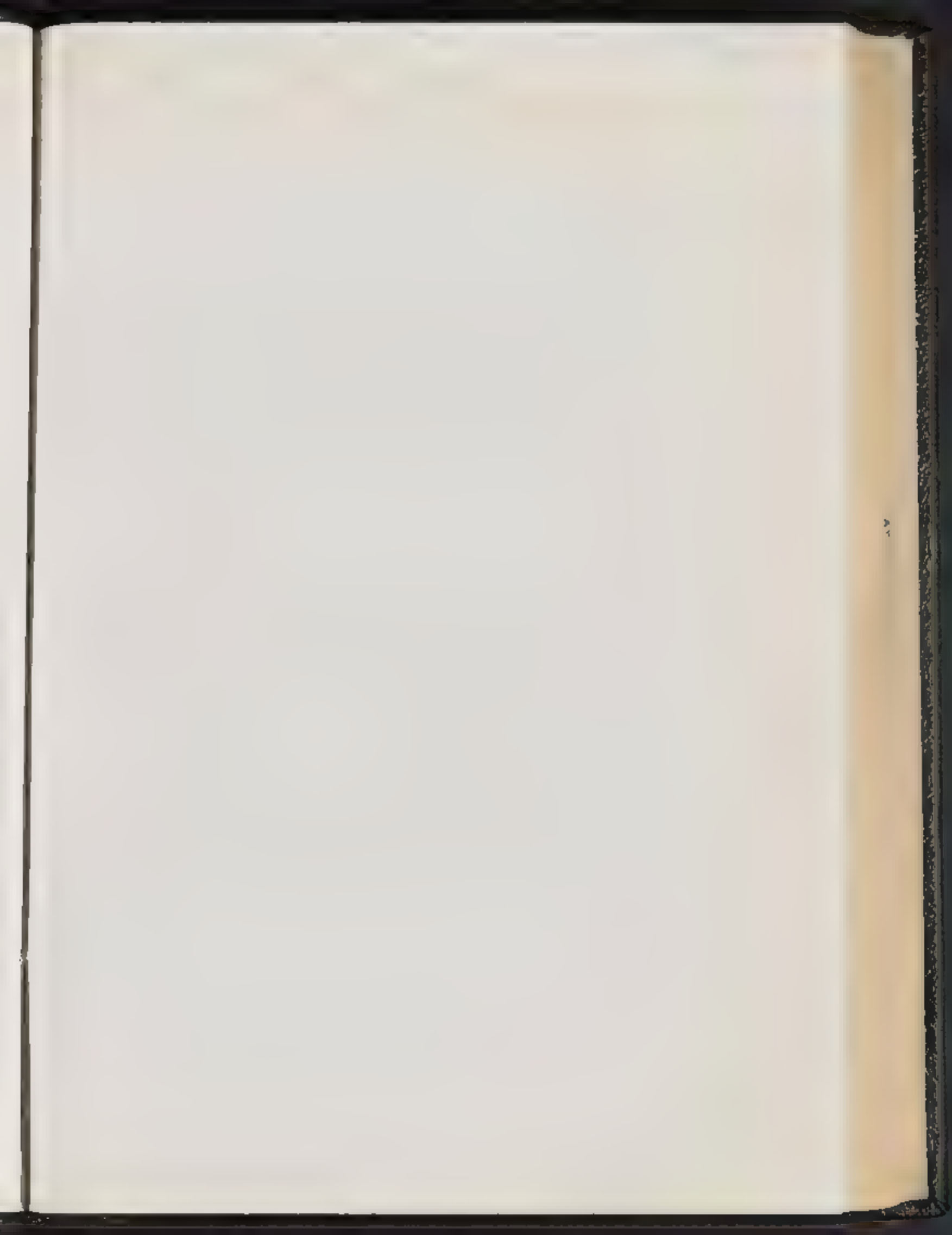
٢٥٦

اللوحة الأولى

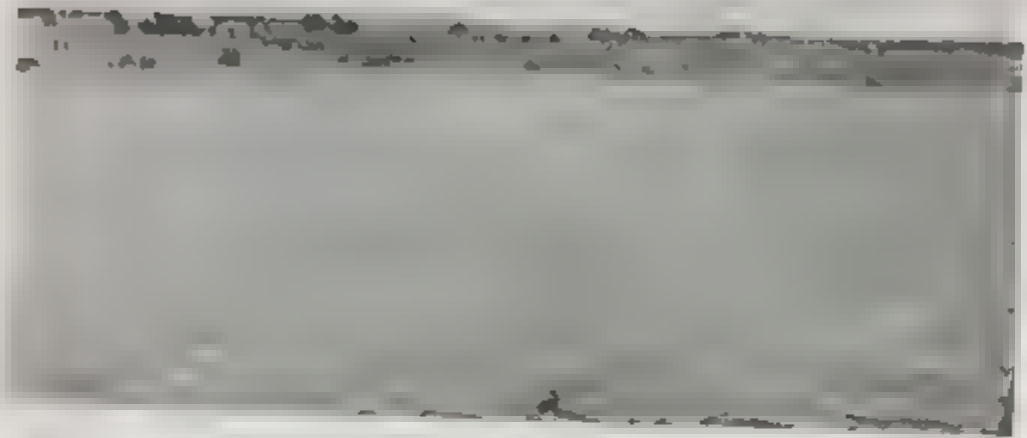


(فوق) منظر لحد علنة والمظاهر النائية في أحد الأودية وقد كشفت نعمة عن جدران
شجر المجلج .

(تحت) شلال ينصب من أحد جوانب جبل عليه . وعلى الرغم من قلة المطر فإنه
يتساقط أحيانا بخرارة شديدة فترة قصيرة ، فيتدفق بمسرة بسبب الانحدار
الشديد (انظر من ٢٤) .

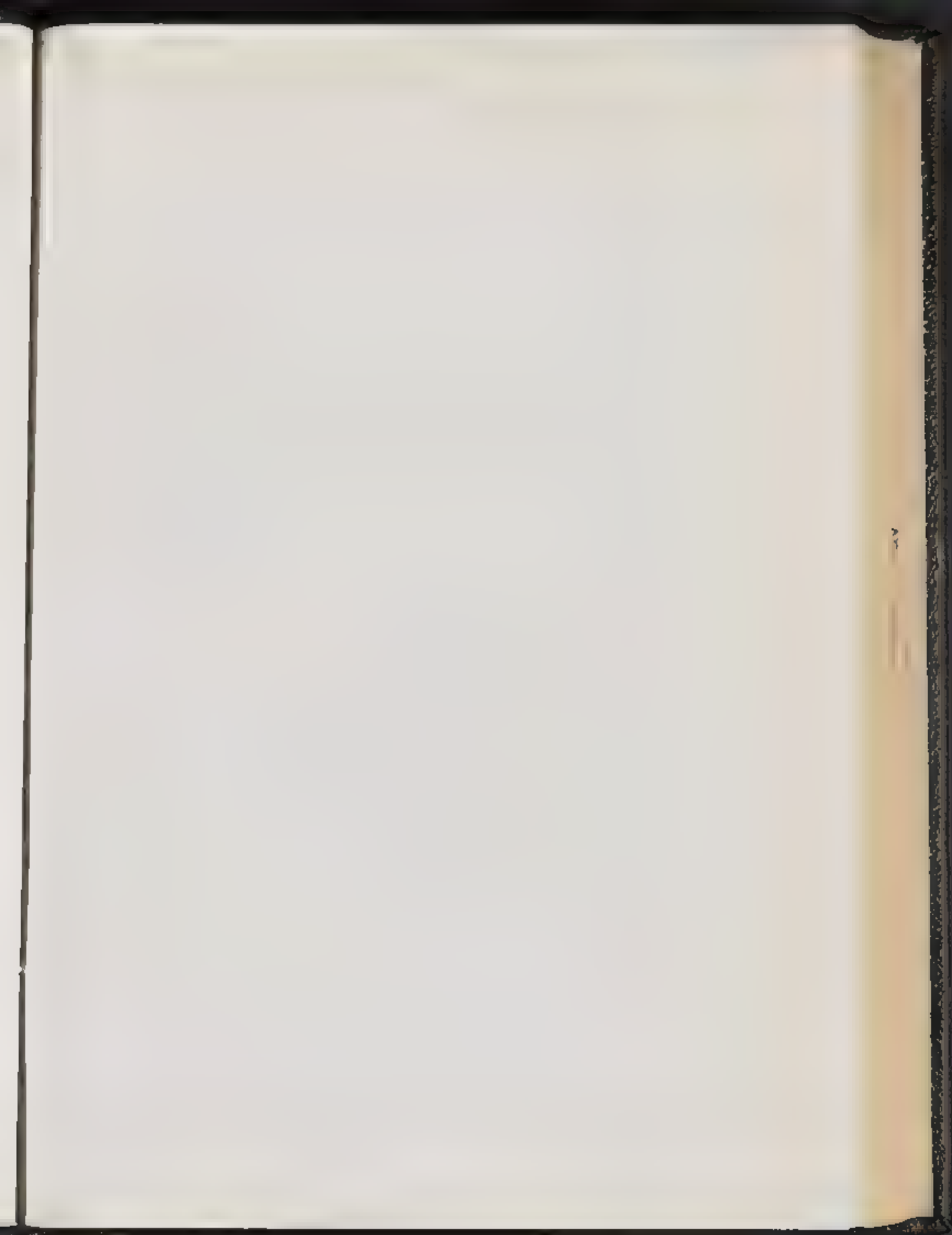


اللوحة الثانية



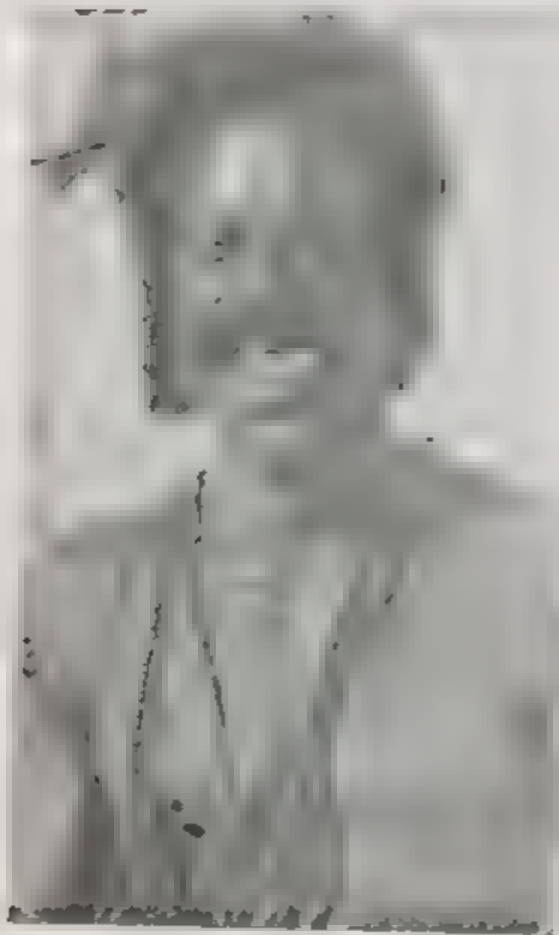
(فوق) مرسى حلات من بحر ، حيث يسقى انشاريون في بعض المواسم ، والبلدة
 بالقرب من عيذاب القديمة (انظر ص ٨) .

(تحت) حال بحر الأحمر في أوصان الأمرأ ، (انظر ص ٩٢) .

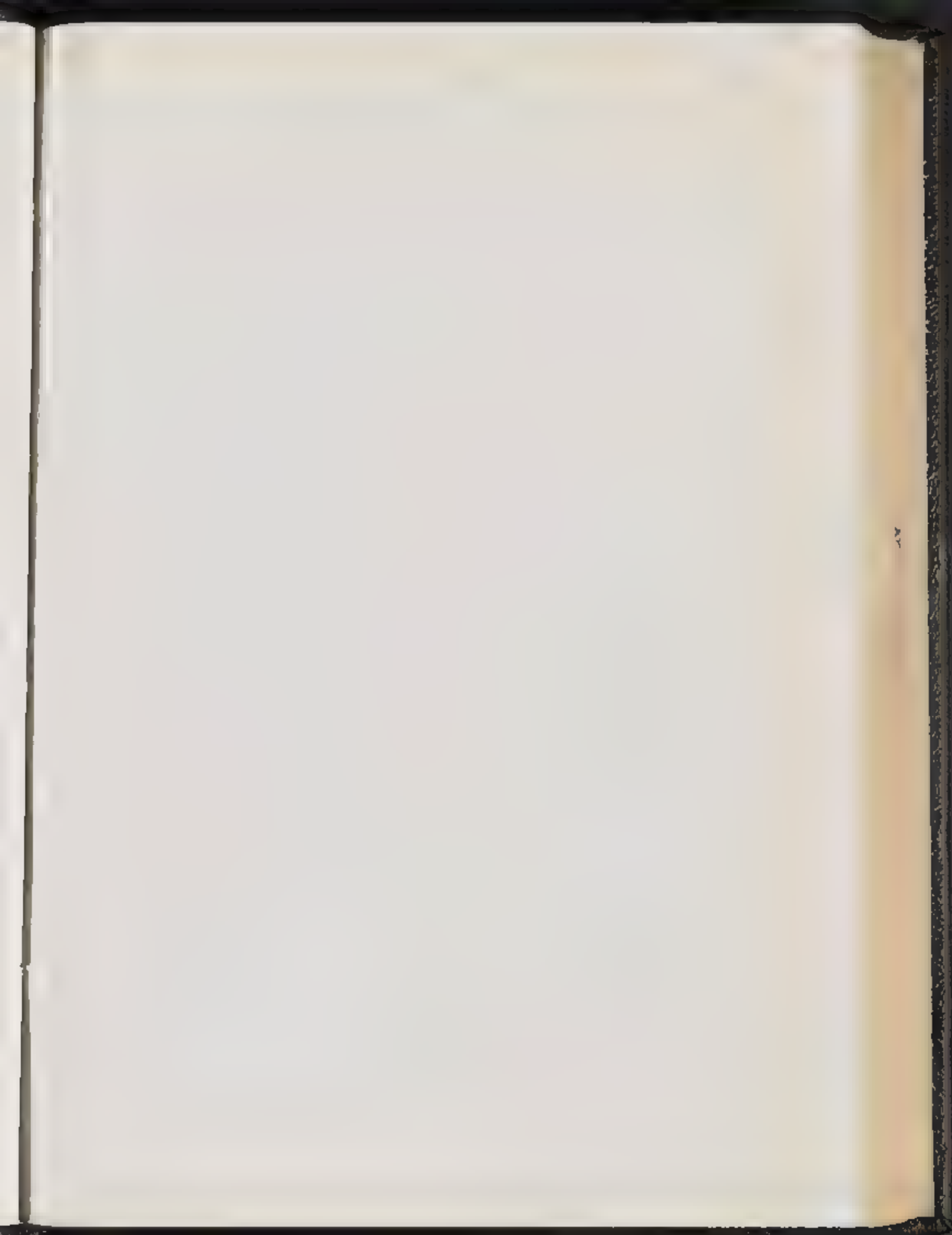


اللوحة الثالثة

(تحت) صورة أخرى لأحمد الأمراء
(اهرس ٩٧)



(فوق) أحمد الأمراء في زيته الحربي وفي يده
لسيف وفي يده الدرع .



اللوحة الرابعة



(فوق) بعض المندوه في رقعة حرية .



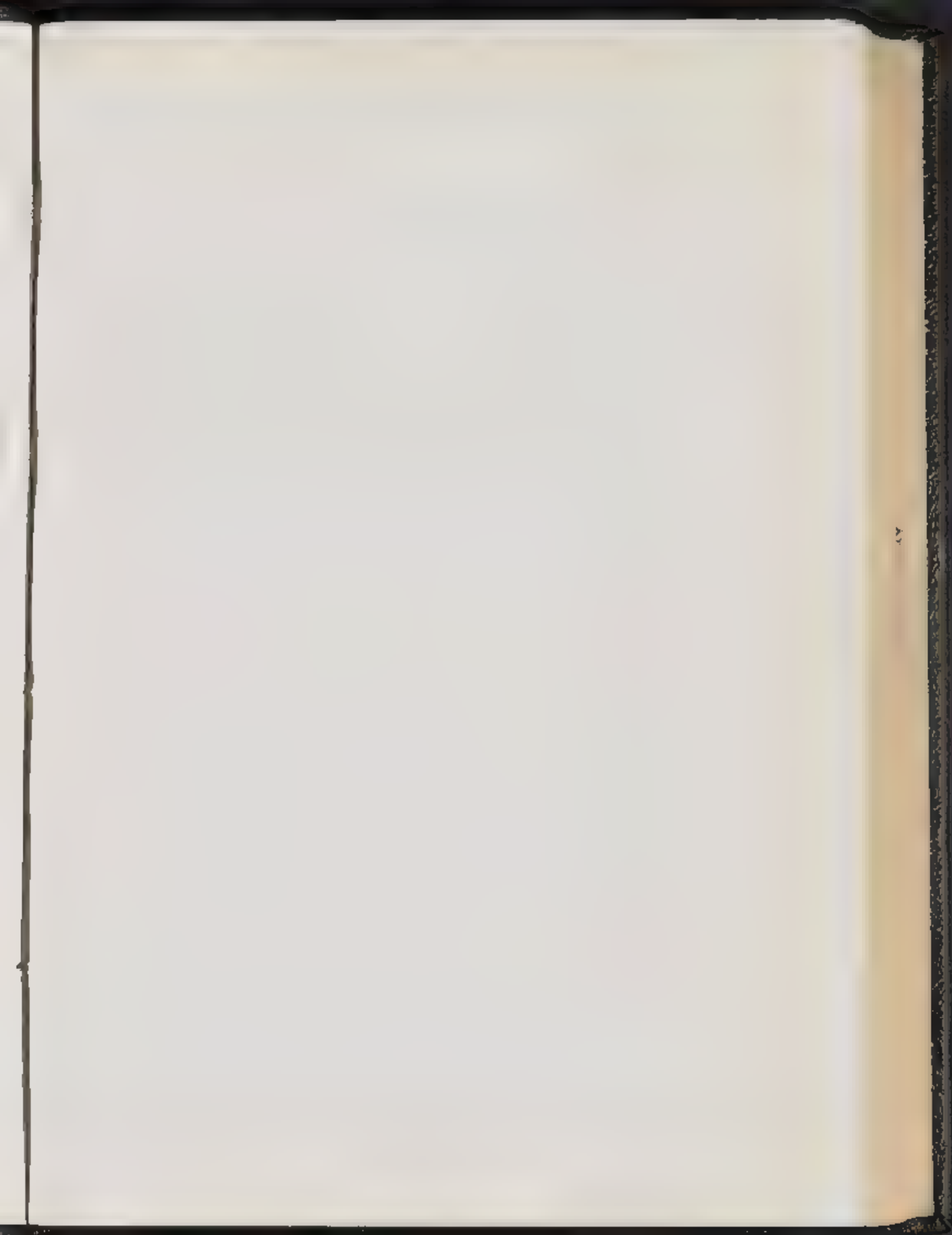
(تحت) أحد شباب المندوه
(انظر ص ١١١) .

Abc. 11. 11. 11. 11. 11.

اللوحة الخامسة



(فوق) جماعة من اشيقيه بدو في شتان الرصه ، وهم من - كاذبة بينهم اسيدة حرم
 الدكتور أحمد غفرى (اطر من ١٨٣) .
 (تحت) صورتان لرجل من الحسانية ، صورتان في وادي أبو الدوم ، ويلاحظ الأنف المحدث
 والتقاطيع القوطية الواضحة (اطر من ١٨٥) .



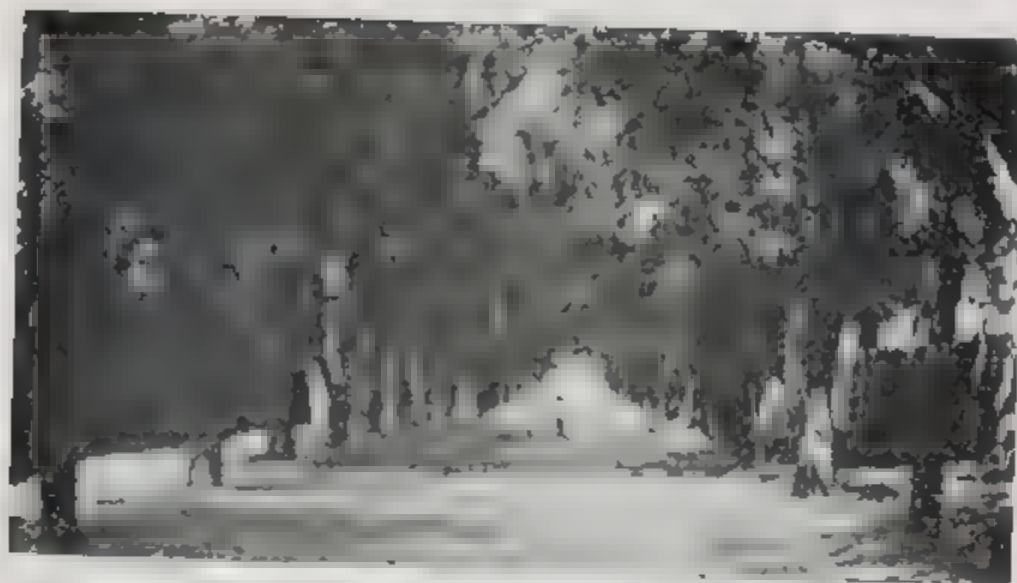
اللوحة السادسة

(بحث) ناصر الزريقات الشيخ ابراهيم موسى
ماتيسو (اطار من ٢٣٨) .



(فوق) ناصر الجملي الشيخ محمد ابراهيم بك
فرح (اطار من ١٧٠) .

اللوحة السابعة



- (فوق) شارع في بلدة بارا شمال الأبيض (انظر من ١٩٢) .
- (تحت) صورة تمثل الحيران شمال بارا (انظر من ٢٢٠) .

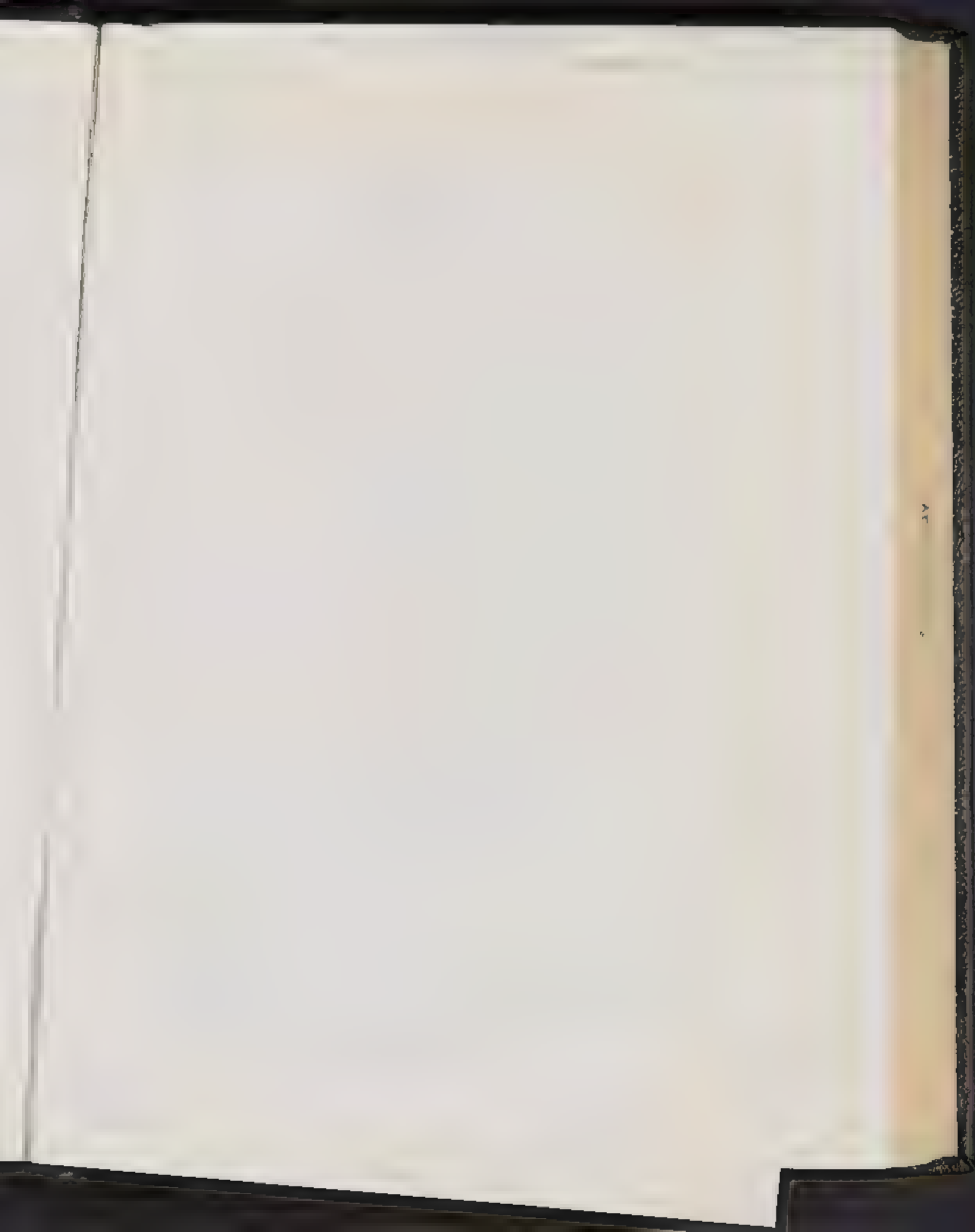
اللوحة الثامنة



(فوق) شجر النبلى
المتفرع بكثرة في غريب
كردوغان (اطار من
(٢٤٧)

(تحت) صورة لسيده
من كرائم البقارة ، جالسة
فيما يشبه المدوح على
سهر نور . (اطار من
(٢٤٦)

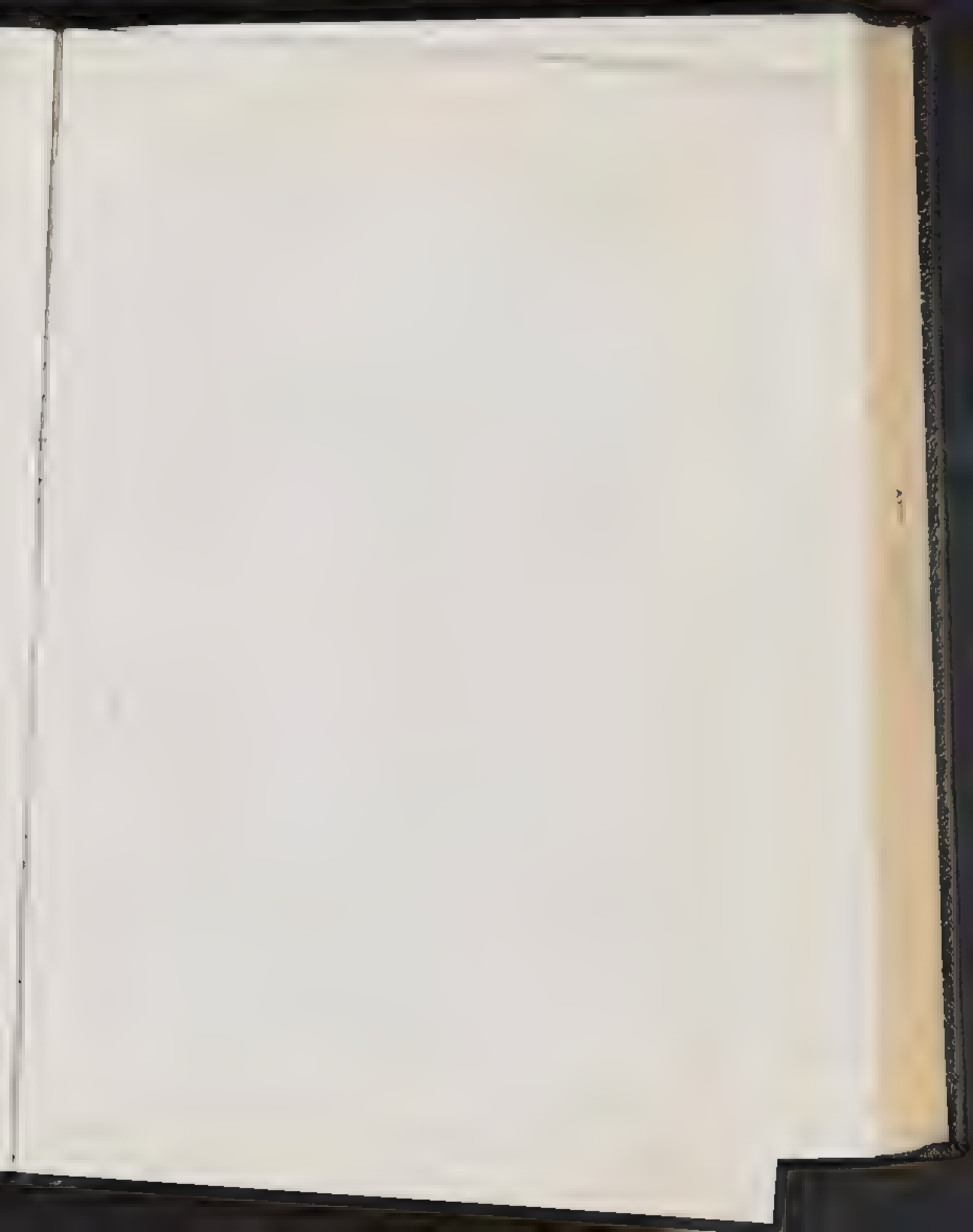




اللوحة الخامسة



(فوق) صورة لسلطان مايرنو (اللم) وحوله يمشي حاشيته أخذت أمام داره بالقرب من
سنار (انظر ص ٢٥٧).
(تحت) صورة لرجل من زعماء البدايات (انظر ص ٢٦٨)



اللوحة العاشرة



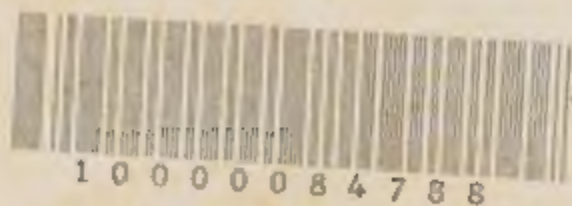
- (فوق) منظر النيل عند بلدة الحسبك وإلى جانبه جماعة من الخمس تلاحظ التقاطيع الفوقية
(انظر من ٢٩٣) .
- (تحت) منظر لحدائق كركي ، من جبال اشلا ، التي جنوب وادي حلفا نحو ٢٠ كيلو مترا
(انظر من ٣٠٣) .

DATE DUE



i 13234055

B1192312X



10000084788

9 APR 1987

DT
132
M8
1951
c.1

